بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

نموذج رقم : (٨)

إجازةُ أُطروحةٍ علميّةٍ في صيغتها النّهائيّةِ بعدَ إجراء التّعديلات :

الاسمُ الرُّباعيُّ : نوال بنت سلطان الحارثي الرّقم الجامعيّ : (   )

كلّيّة : اللغة العربيّة قسم : الدّراسات العليا العربيّة فرع : الأدب والبلاغة

الأُطروحةُ مقدّمةٌ لنيلِ درجة : الماجستير في تخصُّص :

عنوانُ الأُطروحةِ :

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ وبعد :

فبعد إجراء التّصويبات المطلوبة التي أوصتْ بها اللجنةُ التي ناقشتْ هذه الأطروحةَ بتاريخ : ١٢/٤/١٤٢٤ هـ ، توصي اللجنةُ بإجازتها في صيغتها النّهائيّة المرفقة

والله الموفّق ،،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف : محمد أبو موسى المناقش الأوّل : محمد إبراهيم شادي المناقش الثّاني : د/ صالح سعيد الزهراني

التوقيع : التوقيع : التوقيع :

يعتمد : رئيس قسم الدّراسات العليا العربيّة

أ.د : سليمان بن إبراهيم العايد

التوقيع :

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كليـــة اللغـة العربيـــة
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب



الخصوصيات البلاغيـة في رسائل أبي العلاء الإخوانية

مكملة لمتطلبات التخرج لدرجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها - تخصص بلاغة ونقد

إعداد

الطالبة / نداء ثابت العرابي الحارثي

الرقم الجامعي : ٤١٩٨٤٠٧٣

إشراف

أ.د/ محمد محمد أبو موسى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــــداء

إلـــــى . .

. . من لفني ببردته وانا ابنة الخامسة ليسكب في أذني قصص العرب وكلامهم . .

إلـــــى . .

. . من علمني كيف يُعشق الكتاب .. وكيـــــف تـُعاش المعرفة ..

إلـــــى من أدين له بكل ما في

إليـك . . أبـــي

إلـــــى . .

. . من أشرقت بي على الحياة . . وملأت لحظاتي بفيض حبها . .

إلـــــى . .

. . حضنها الحاني . . وقلبها الكبير ..

إليـك . . أمـــي

إليـكما . .

أهـــدي . .

رسالتي هـذه . .

نـزراء

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : الخصوصيات البلاغية في رسائل أبي العلاء الإخوانية .

الطالبـــــــــة : نداء ثابت العرابي الحارثي .

الدرجة العلمية : الماجستير .

الملخـــص

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وبعد، هذا بحث في الخصوصيات البلاغية في رسائل أبي العلاء الإخوانية ، وهدف هذه الدراسة هو استكشاف منهج أبي العلاء ومذهبه في صنعة الرسائل والبحث عن ذلك الشيء الذي يتميز به بيانه عن بيان غيره ويجعل له مذاقًا مختلفًا ، ولا شك أن هذا التميز راجع إلى تميز النفس المنشئة لهذا البيان ، وباختلاف طبائع النفوس يختلف بيان عن آخر ، ولكن لا سبيل لنا إلى معرفة هذا إلا بالتنقيب في خصوصيات الصياغة وأحوال التراكيب والصور لأنها انعكاس لذلك الجذر الذي محله في الطبيعة النفسية والفكرية للكاتب .

وقد درست خصوصياته التي يتميز بها بيانه وقد قامت عليها فصول الرسالة :

الفصل الأول : مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء ، الفصل الثاني : مواقع الجناس في رسائل أبي العلاء ، الفصل الثالث : المبالغة في بيان أبي العلاء ، الفصل الرابع: مواقع إنما في رسائل أبي العلاء، الفصل الخامس : نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها ، الفصل السادس : حذو البناء في المعاني والأساليب ، الفصل السابع : موازنة في المذاهب البيانية وقد وازنت بينه وبين الجاحظ وابن العميد ودللت على طريقة كل بوضوح .

وقد خلصت من هذا البحث إلى أن هذه الخصوصيات الستة تحدد الأطر العامة لخصوصيات أبي العلاء البلاغية ، فأبو العلاء يطل علينا من أسلوب خاص في سياقته للأمثال ، وبناء كلامه عليها وحدها حتى تستقل بمفردها في كلامه بمهمة الوصف ، والحكي ، والحوار ، كما أنه صانعٌ لكثير من أمثاله . وقد ظهر في لغته الجناس المقترن بالطباق ، والجناس الثنائي وأعني به أن تجانس كلمتان متتاليتان كلمتين أخريين على التوالي ، وقد صبغ صنعته فيه ولعه بالغريب ، كما أن للمبالغة نَفَسٌ شديد الحضور في أغلب كلامه بحيث تتعدد صورها وتتنوع وسبيله إليها في الأغلب خيال جامح غريب . ذلك بالإضافة إلى أن حركة أبي العلاء بين معانيه حركة ملفتة مربكة فهو لا يسير معها سيرًا نمطيًا بل يجعل معناه في حلقات لا تظهر لك أطرافها إلا بعد لأي ، وهو مُرْبٍ لمعانيه مَاطِلٌ لها مما يجعل كلامه ملتحم الجمل مترابطها ، وهو يبدي ميلاً شديداً لإحداث أنساق لغوية متشابهة تركيبًا وبناءً بل ووزنًا أحيانًا ، بالإضافة إلى تساوي جمله وأجزاء جمله في مقادير زمنها .

وأهم ما يميز بيانه بصفة عامة الغموض والإغراب وخلق كوائن عجيبة وإخراج غير المألوف من باطن الإلف والعادة وإجراء ذلك كله في لغة مُنَغّمة مُوَقّعة هي إلى الشعر أقرب منها إلى النثر ، فهو بيان ذو سمت متميز لا يلتبس ببيان غيره من الكتّاب والمترسلين .

والله أعلم ، والله من وراء القصد .

الطالبة	المشرف
نداء ثابت العرابي الحارثي	أ.د. محمد محمد أبو موسى

« والبحث في مأثور الآداب . وفي أخبار التاريخ . وفي مسطور الكتب . ورسائل الكتاب . وفي روائع الشعر لم يكن قط إلا بحثاً متواصلاً في سرائر أغلقت عليها صدور أصحابها . أو قائليها . أو كاتبيها . أو طُويت معهم طيّاً . وذهبت حيث ذهبوا . بلا أمل لأحد بعد ذهاب أشباحهم في لقاء . أو سماع . أو سؤال » .

محمود محمد شاكر

المقدمــــة

.. بسم الله الرحمن الرحيم ..

الحمد لله الذي لا منتهى لعطاياه ومنحه ، حمداً يقوم بما أوجبه علينا من شكره والثناء عليه بما هو أهله ، وصلى الله على أشرف نبي وأنصحه ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه ومن تبعهم بإحسان .

وبعـــد :

إن لكل كاتب وشاعر مذهباً وطريقاً في الكلام يتميز به عن مذهب غيره وطريق غيره ، وكل صاحب بيان يتكيء على قلبه وعقله ويستخرج بيانه من ذات نفسه هو لا محالة واضع ميسمه ووسمه وسيماه على بيانه فلا تخطيء العين المدربة تمييز طريقه من غيره .

وقد يتخطى هذا الأمر نطاق الشعر والأدب إلى كل ما يصدر عن الإنسان من فكر وعلم وكل ما يجري به لسان ، فالعلماء المتميزون لكل منهم مهيعه ونهجه ، فأنت مثلاً واجدٌ مذاقاً وطعماً لكلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني لا تجده إلا فيه ، وكذلك تجد لحازم القرطاجني مهيعاً ومنزعاً ينزع إليه تميز به كلامه ، حتى أنك لو قرأت نصاً من نصوصه مقتبساً في كتاب آخر أدركت بطبعك وخبرتك أنه كلام حازم .

وهذا الاختلاف بين مذاهب أهل البيان يعود إلى اختلاف الطباع ذاتها ، طبائع العقول والنفوس المنتجة لهذا البيان ، لذا ترانا نفتقد المنزع الخاص لدى الأديب المقلد ؛ ذلك لأنه لا يتكيء فيما يقول على ذات نفسه فيكون بذا كلامه صورة لطبعه ، إنما هو سائر على نهج غيره محاكٍ له (1): « ومن الشعراء من يمشي على منهج غيره في المنزع ، ويقتفي في ذلك أثر سواه ، حتى لا يكون بين شعره وشعر غيره ممن حذا حذوه كبير ميزة ، ومنهم من اختص بمنزع يتميز به شعره من شعر سواه » .

وكلما كان هذا الميسم أظهر وأبين دل على اقتدار صاحب البيان وقوة عقله

---

(1) القرطاجني ، أبو الحسن حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦م ، ص ٣٦٦ .

وتميز طبعه ، لأن هذا الاقتدار ، وهذا التميز هما اللذان مكناه من أن يشق له بين طرق سابقيه طريقًا بينًا يحمل سمته–أعني نَفْسه ونَفَسه– فيُنسب إذا ما نسب إليه، وإن أنت وجدت أشباهه لدى من يأخذون عنه قلت هم في ذاك مقلدون ومتبعون ، وهؤلاء أفرادٌ تراهم في كل زمن قد حفرت أسماؤهم على صفحات البيان .

وهذا المنزع وإن كان في وشي اللغة، ونظام تأليف الكلام، وصياغته، وصوره، وكل ما داخل اللغة من فنون بلاغية ، فإنه في الحقيقة راجع إلى طريقة انبعاث المعاني من النفوس وتولدها فيها(١) ، فللمعاني في تخلقها الأول –عند هذه الطبقة– ملامح تميزها عن غيرها ، وما يوجد في اللغة من خصائص ، وفي الصياغة من أحوال المباني هو انعكاس لهذا الجذر .

ولا سبيل لنا لمعرفة ذلك إلا بالتدقيق في المباني(٢) ، لذا ينبغي أن نقف عند اللغة ونطيل الوقوف ، ونطيل النظر ، ونطيل التدبر ، فبمقدار وقوفنا عندها تكون قدرتنا على الوصول إلى غايتنا ، وهذا هو الطريق لمعرفة تميز مذهب عن مذهب ، وطريق عن طريق .

ودراسة تراثنا الأدبي من هذه الزاوية لم تكن دراسة شاملة شافية ، ولم تقف عند كل أديب وشاعر تستكشف مذهبه وطريقه ، مع أن علماءنا وشعراءنا كتبوا في ذلك منذ الزمن الأول ، وكان الباقلاني أظهر من أشاروا إلى هذا الباب في نقد العربية(٣) .

وكان هذا المجال الخصب الحي بحاجة لأن تتوفر حوله جهود أهل العلم ، ولا أشك في أن هذا باب عصيٌّ صعب ، وطريق شاق ، ويحتاج إلى جهد وانقطاع ،

---

(١) يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « وهذا الحكم أعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبًا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل » ويقول حازم القرطاجني : «إن المنازع هي الهيئات الحاصلة عن كيفيات مآخذ الشعراء في أغراضهم ، وأنحاء اعتماداتهم فيها ، وما يميلون بالكلام نحوه أبدًا ، ويذهبون به إليه ، حتى يحصل بذلك للكلام صورة » .

(٢) أبو موسى ، محمد : دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ص ٨ . بتصرف

(٣) أبو موسى ، محمد : شرح أحاديث من صحيح البخاري – دراسة في سمت الكلام الأول ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م ، ص ١٩ – ٢٠ .

وطول ملابسة وملازمة ؛ لأن هذه الفروق التي تميز بين شاعر وشاعر ، وكاتب وكاتب ، فيها من الخفاء ، والدقة ، والغموض القدر الكبير ، وهي داخلة فيما وصفه الشيخ عبد القاهر ، وأشار إلى أنه جوهر الأدب والشعر ، وذلك في قوله في أول كتاب دلائل الإعجاز(١) : « إن ههنا دقائق وأسرارًا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل » ولا يمكن مطلقًا التمييز بين كاتب وكاتب إلا بالخوض في جوهر هذا الفن الذي يقضي بالتميز فيه .

وقد أردت أن أخوض هذا الأمر الصعب ، مع أني أقطع بأن قدراتي وأنا مبتدئة في هذا الطريق لا تمكني من ذلك ، وإنما هي الرغبة في أن أروض نفسي مع الجد والصبر على هذا الدرس الجليل .

وقد وقع اختياري على أبي العلاء لأطبق عليه هذا المنهج ؛ ذلك أن الرجل قمة في بيان العربية شامخة في عطائها ، وشامخة في تميزها ، وهو أنسب ما يفتتح به هذا الباب ، ويضاف إلى ذلك شغفي بأدبه ، وأني لا أملُّ قراءته ، وأجدني كلما قرأته زادت يقظتي وتشوّفي لأعرف شيئًا من سر نفس هذا الفذ الشامخ .

فبدأتُ رحلتي مع أبي العلاء وأنا أعلم بأنني أتصدى لقمة عالية من قمم الأدب العربي ، كنت أعلم بأنني أمام رجل اختلطت فيه الظنون ، وتضاربت حوله الآراء ، وقد خشيت على نفسي من أن أتأثر برأيٍ فيغلب على نفسي حتى أقرأ أبا العلاء لا لأبحث عما سوف أجده فيه ، وإنما لأبحث عما أريد أن أجده فيه ، وهذا منزلق حاولت أن أتفاداه ، فعقدت العزم على أن أنظر إلى أبي العلاء بعيني ، وأسمعه بأذني ، وأستجليه بعقلي ، لا اعتدادًا بما لدي ، ولكن حبًا في هذا المذهب الذي صوّره عربي قديم حين قال :

أكُدُّ ثمادي والمياه كثيرة ... أعالج منها كدّها واكتدادها

وأرضى به من بحر آخر إنه ... هو الرِّيُّ أن ترضى النفوسُ ثمادها

فقرأت حول الرجل وأنا حذرة أحرص كل الحرص على ألا يتملكني رأي ، أو

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، قراءة وتعليق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م ، ص ٧ .

تتملكني رغبة في تفنيد آخر ، وهذا أمر عسير ، ولا أدعي أني نجوت من معاطبه ، ولكني أدعي أنني بذلت كل الجهد لأنجو منها .

ومنذ أن التقيتُ ببيان أبي العلاء أغفلت كل ما قرأته عنه، وأخليت نفسي لرنين لغته ، ووجيب ألفاظه ، حتى طال عهدي بما قرأت ، فلم أعد أسمع إلا حِسَّه ورِكْزَه، وخواطر نفسه تتراءى بين تراكيبه وأبنيته ، وأنا أبحث عن نَفَسه المميز ، وفي أي شيء هذا النفس المميز ؟ !! فإذا سكنت نفسي إلى جانب من جوانب بيانه وقلت هذا هو ، أجدني لا أملك توصيفًا له ، فأعود من حيث بدأت . فكانت رحلة شاقة ومشوقة مع لغة عجيبة ، وفكر غريب ، وبيان متأبٍ ، ونفس ليس من اليسير الولوج إلى خباياها ، ورأيت ابتسامة ساخرة تقف خلف كل جملة متحدية متأبية ، وعقلاً جبارًا يعبث بعقلي ، فيرتفع به تارة ليهوي به أخرى ، ويجلبه يمينًا ليقذفه شمالاً ، فيقوى في نفسي هذا الاحتمال أو ذاك ، ثم يظهر لي احتمال آخر ، فأعرض عن غيره ، ثم أرجع وأكرر المراجعة فأجد كل هذه الاحتمالات ممكنة وكأنها حاضرة في كلِّ جملة . وكم وقعت في معمهان من الحيرة ، وكم ساورتني نفسي على القفول ، وكم راودتني على التراجع ، ويأبى هذا البيان العجيب إلا أن يجتذبني إليه ، وتأبى تلك المتعة التي أجدها في نفسي من مشقة معالجته إلا أن أعاود خوض غمراته :

وكل أمرٍ على مقدار هيبته   وكل صعب إذا هونته هانا

ولم تكن أداتي مكتملة ، ولم يكن طريقي ممهدًا ، وهنا كان يظهر نصح أستاذي المشرف الذي كان يساعدني في كشف غشاوات لغة أبي العلاء وينير لي الطريق ، ويفتح لي الباب ، فأتهيب ثم أقتحم ، وكان يدعوني دائمًا إلى أن أتلمس دربي بعد نصحه ، وأن أرى بعيني أنا بعد ما ينير لي هذه الغياهب اللغوية التي لا يملُّ أبوالعلاء صناعتها . ولم يمل أستاذي العطاء ، ولم يضن بما لديه ، وكان يُسَرُّ كلما وجدني في غمرة من غمرات أبي العلاء ويقول: بهذا وبهذا وحده تصنع العقول .

وقد سميت ما أبحث عنه في بيان أبي العلاء « الخصوصيات البلاغية » ، والخصوصية يستخدمها علماء البلاغة ويريدون بها صنعة المبين في معناه ، وكيف يُصَيِّرُ المعنى العام المشترك الملقى على قارعة الطريق، معنىً ذا خصوصية متميزة، فينسب إليه ، ويضاف له . يقول الشيخ عبد القاهر وهو يناقش القول برجوع المزية

إلى اللفظ ويرفضه[1] : « وقد علمنا أن أصل الفساد ، وسبب الآفة ، هو ذهابهم عن أن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور ، وتحدث فيها **خواص** ومزايا من بعد ألا تكون » ، ويقول أيضاً[2] : « لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ ، ولكن **صورة وخصوصية تحدث في المعنى** » .

وبحثي هذا لا ينظر إلى الخصوصية من حيث هي صنعة المبين في معناه فحسب ، بل ينظر إليها من حيث هي **صنعته الدالة عليه** ، والتي تحمل طبعه وميسمه ، فليست كل صنعة الكاتب أو الشاعر بدالة عليه ، وإنما تدل عليه إذا تميزت هذه الصنعة ، واستطاع الكاتب المتميز أن يُسكن فيها نَفَساً من نفسه ، وروحاً من روحه ، وشيئاً من ذات حسه وطبعه ، فهدفي إذاً هو البحث عن الخصوصيات البلاغية التي أجد فيها طبع أبي العلاء ومذهبه ، والسبيل إلى ذلك يكمن في استنطاق التركيب، وتأمل الصيغ ، وتفقد الوسائل ، وتذوق البيان ، وطول تدبره ، وكنت أهتدي بما قاله الشيخ محمود شاكر رحمه الله في وصفه الطريق الذي نعرف به الفرق بين كلام زيدٍ وكلام عمرو ، والمعاناة الواجبة التي لا مفر لنا من تحملها حتى نصل إلى تلك الغايات النبيلة . يقول رحمه الله مبيناً تأسيس هذا الباب على **التذوق** الذي يجب أن يكون أساس عملنا الأدبي في آثار أسلافنا[3]:

« ... أن ننفض غيب كلماتهم بالتذوق ، ونتوسم بالتفرس في معاطفها ، ثم نستجليها، ونسألها ، ونستخبرها عن هذه السرائر المغيبة المحجوبة في طواياها... (ثم يقول بأنه لا يمكن التمييز بين مذهب شاعر وآخر إلا) بهذا العمل الدائب في ممارسة الكلمات ، واستنباط الخفي من أسرارها ، وتذوق أساليبها ، وتسمع الركز الخفي في جرسها ونبرها ، ثم تولج الحس إلى كنه كل حرف في بنائها وتركيبها ، بلمح متيقظٍ متلقطٍ بصير ، حتى تنشأ في النفس صورة واضحة لكلٍ منهم يبين بها من سواه ، وحتى يتردد في السمع صدىً متميز يعرف به صوت أحدهم من صوت صاحبه ... وكل بحث أدبي أو تاريخي سوف يكون عندئذٍ استحياءً لأشباحٍ مضت ،

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٤٨١ .

(٢) السابق ، ص ٤٨٢ .

(٣) شاكر ، محمود محمد : قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م ، ص ٥٩ .

من رسوم كلمات بقيت ، وسر هذا كامن في **التذوق** ، وفي **تذوق الكلمات خاصة** » وهذا كلام جليل جداً كنت دائمة الرجوع إليه .

وقد ظهر أنه ليس المقصود من هذا البحث استقصاء الفنون البلاغية في رسائل أبي العلاء ، وإنما مقصوده التعرف على الفنون التي تحمل طابعًا مميزًا لأبي العلاء ، فما كان منها لا يحمل هذا الطابع لن يقف هذا البحث عندها ، فلم أقف مثلاً عند التقديم ، أو التأخير ، أو الاستعارة .. وغيرها كثير ؛ لأنني وجدت هذه الأشياء تجري في رسائله من غير أن يكون لأبي العلاء في سياقها منزع دال عليه، ولو كان هدفي هو استخراج الفنون البلاغية في رسائل أبي العلاء لهان وسهل علي ذلك ، ولما وقعت في المشقات التي وقعت فيها .

وقد رأيت أن طابع أبي العلاء يتمثل في الأمثال وسياقتها ، وبناء لغته عليها وحدها في كثير من الأحيان ، وفي الجناس وكيف كان يعدل عن الكلمة المألوفة إلى الغريبة ليجانس ويقرنه بالطباق، من غير أن يكون طابع التكلف مفسداً لفنه وأدبه!! وهذا غريب ولكنه حقيقة واقعة . ورأيته في نَفَس المبالغة الذي يسيطر على لغته ، وأخيلته ، ومعانيه ، ورأيته في استخدامه لـ (إنما) لأن مواقعها في أدبه ورسائله هي المواقع التي تقع بها في الأدب العالي والطبع الصحيح ، ورأيته في تكويناته لجمله ولحمتها ، وكيف كانت معانيه تدور في حلقات، أو تثب وثبات ، ولا تسير سيرًا منتظمًا ، ورأيته في الحذو الواحد الذي يظهر في بنائه المتشاكل لجمله ، وفي تلك اللغة المنغمة الموقعة التي يسترسل فيها فتنتظم معانيه حتى يغدو نثره صنواً للشعر .

وقد أفردت لكلٍ مما سبق فصلاً مستقلاً ، وأردفتها بفصل في الموازنة بين مذهب أبي العلاء بصفة عامة ومذهب الجاحظ ، ومذهب ابن العميد ، حتى يتضح لنا تميز طريقه ومهيعه .

لذا فقد قامت الرسالة على سبعة فصول :

الأول : مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء ، وكيف كان يستخدمها في بيانه، وكيف كانت تتكاثر ، وكيف برع هو نفسه في صناعة المثل ، فقد استظهرت أنه كان يصوغ بنفسه المثل أحيانًا .

والثاني : مواقع الجناس في رسائل أبي العلاء ، فله في نحت لغة الجناس مذاهب وغرائب بلغت الغاية ، ودلت على علمٍ واسع غريب بغرائب الألفاظ ، التي كان يحضرها إلى ساحة الاستعمال بعد ما غابت عنا .

الثالث : المبالغة في بيان أبي العلاء : ولهذا الفن مذاق خاص ليس في لغة أبي العلاء فحسب ، وإنما في خياله الذي كان يصنع عجائب من الكائنات .

الرابع : مواقع إنما في رسائل أبي العلاء : وقد تقصيت فيها كلام الإمام عبد القاهر ، ووجدت مواقعها في رسائل أبي العلاء وكأنها شواهد لكلام هذا الإمام الجليل .

الخامس : نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها : وقد كانت المعاني تتحرك في رسائل أبي العلاء على نظام عجيب ، ويفتح بعضها الباب لبعض ، وتأخذ صوراً شتى في هذا النحو وهذا الترابط .

السادس : حذو البناء في المعاني والأساليب : وقد رأيت أبا العلاء يبني كلامه في مواطن كثيرة على حذو تركيبي واحد أو متشابه ، حتى كأن جمله كما يقول عبد القاهر إخوة من أم وأب .

السابع : موازنات في المذهب البياني : وقد وازنت فيه بين أبي العلاء والجاحظ ، واجتهدت في بيان الفرق بين مذهب كل من هذين الكاتبين الراسخين ، وأن طريق أبي العلاء لا يلتبس أبداً بطريق الجاحظ ، ولم يسلك مسلكه ، ولم يحذو حذوه ، وكذلك وازنت بين أبي العلاء وابن العميد ، وكان الشأن في تميز مذهبه عن مذهب ابن العميد كما كان الشأن مع الجاحظ .

وقد قدمت فصل الأمثال على غيره لأنني رأيت طريقة أبي العلاء في سوق المثل ، وخصوصيات لغته فيه ، خير ما يفتتح به هذا البحث ، لأن أبا العلاء كان كأنك تراه في كل سطر من رسائله التي كثرت فيها هذه الأمثال ، وإنما أردت أن يألف القارىء طريق أبي العلاء ولغته ، فإذا ما انتقلنا إلى المسائل الأخرى نكون قد تهيأنا لها . ثم أتبعته فصل الجناس لأن له صلة حميمة بضرب الأمثال ، لأن لغة أبي العلاء في سوق المثل تعتمد على الجناس كثيراً ، فقدمته على فصل المبالغة ، ولأن هذا الأخير مذهب قائم برأسه في أدب أبي العلاء ، ويشمل أغلب خصوصياته البلاغية من ضرب للأمثال ، وجناس ، وسجع ، وخيال مغرب ، إلى غير ذلك . ولذا

فهو أحوج لأن يتقدمه الفصلان السابقان ، حتى يكون الانتقال إليه وهو أعم وأشمل ميسرًا سهلاً . وقد أخرت فصل الموازنات في المذهب البياني لأنه يقتضي الصورة المكتملة لمذهب أبي العلاء حتى يتم الغرض منه .

وهذا لا يعني اقتصار نَفَس أبي العلاء المميز على هذه الأمور الآنفة ، ولكنها بمثابة الخطوط العريضة التي تنتظم في سلكها باقي خصوصياته ، وكلما ظهر لي شيء من ذاك أشرت إليه في موضعه ؛ لأن كثيرًا منها لا يمكن أن يفرد لها فصل فتستقل بعبئه ، كما أنها لا يجوز إغفالها ، لذا أكتفي في مثلها بالإشارة إليها فحسب .

وكل ما نستخرجه في النص العلائي من لطائف ودقائق ، ومظاهر إتقان وتثقيف له ، هو داخل في صميم الدرس البلاغي ؛ لأن جوهر البلاغة هو استكشاف عمل صاحب البيان المتقن في بيانه ، سواءً كان داخلاً في أبواب المعاني والبيان والبديع المعروفة دخولاً ظاهرًا أو خفيًا ، وقد أشرت إلى ما أشار إليه الشيخ عبد القاهر وأن الضالة التي يبحث عنها علم البلاغة في النص هي[1] : « دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ... وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام » .

وأكرر التنبيه إلى أن التحليل اللغوي لبيان أبي العلاء سواءً كان في الأمثال ، أو الجناس ، أو المبالغة ، إنما هو في الحقيقة تحليل لجوهر فكر أبي العلاء ، وخصوصيات عقله ، وطبع نفسه، ولكن لا سبيل لنا إلى الولوج والتعرف على جوهر فكر أبي العلاء إلا من خلال هذه الأبنية اللغوية ودراستها ، لذا فقد عملت على تلمس ذلك قدر الإمكان ، ومن حق الرجل علينا أن نكابد في ذلك لنتلمس سر نفس هذا الكاتب الجليل ، الذي هو باب وحده في أدب العربية الشريفة .

ولا شك أن أبا العلاء مُرهق لقارئه ، ومُرهق أيضًا لمعانيه ومقاصده ، وكأنه لم يكتب ليبين عن سر نفسه من أقصر طريق وأبينه كما هو شأن الكاتبين ، وإنما كان يخفي أغراضه ومقاصده ويَدُسُّها في غيهب لغة غريبة ، وكأنه كان يضن بها إلا على من يُدمي قدميه في الطريق الواصل إليها ، والذي ملأه شيخ المعرة بغرائب

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٧ .

الألفاظ ، وغرائب الأخيلة .

واعلم أنني في كل ذلك مظنة الخطأ ، وفي مواطيء الزلل ، إلا أن ما يتميز به بيانه من مذهب ظاهر ، وطبع بارز ، ونَفَس مميز حاضر في كل ما يقول ، كان مما أغراني ، وكان استكشاف سر هذا التميز ، وتحديد مواطنه هو الأمر المرهق الغامض .

وقد اعتمدت في شرح غريب أبي العلاء على معجمي : « لسان العرب » لابن منظور ، و « أساس البلاغة » للزمخشري ، بالإضافة لاستعانتي بحاشية كل من نسخة الدكتور إحسان عباس ، ونسخة الدكتور عبد الكريم خليفة ، وقد أردت أن أنبه إلى هذا لأنه لا يمكنني لكثرة غريب أبي العلاء أن أشير في كل موضع إلى المصدر الذي اعتمدت عليه ، لأن ذلك من شأنه أن يرهق الرسالة ويؤودها .

و أخيــرًا :

فقد حاولت جاهدة أن أضع ذلك الهدف الذي وضَّحْتُه نصب عيني في كل سطر من رسالتي ، وربما ضلّ مني مرارًا ، وللقول غرور ، وللقلم سطوة .

على أن كلامي فيها لا يخلو من أن يحكم عليه بخطأ أو صواب أو شيء بين ذا وذاك ، وحسبي أني اجتهدت ، فعذري مبسوط ، وشكري لإلهي ممدود .

فما كان فيها من صواب فمنه سبحانه وفقني إليه ، وألهمني إياه ، وما كان فيها من خطأ فمن نفسي والشيطان .

والله أسأل القبول ، وهو من وراء القصد .

وفي ختام هذه المقدمة أريد أن أقدم أجزل شكري لجامعتي، جامعة أم القرى، وإلى كلية اللغة العربية التي شَرُفْتُ بأن كنت واحدة من المنتمين إليها ، والتي أتاحت لي هذا الجو العلمي الذي رعاني فيه منها أساتذتها الأجلاء ، وأشكر عمداءها السابقين الذين نعمت برعايتهم ، وعميدها الحالي : د. عبدالله القرني ، كما أشكر قسم الدراسات العليا الذي يقوم على رعاية الباحثين والباحثات ، والذي صار يزاحمنا على موارده العذبة أخوات لنا من جامعاتنا الكثيرة ، وأخص بالذكر أ.د. سليمان العايد ، كما أتوجه بخالص شكري وعظيم امتناني إلى أستاذي المشرف ، أبي وشيخي : أ.د. محمد محمد أبو موسى فله علي أيادٍ أعد منها ولا أعددها .

وأشكر الأستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة ، وانتظر بحرص شديد أن أنتفع من ملاحظاتهما ، ولهما من الله الأجر الجزيل ، ومني الشكر والوفاء .

وأشكر كل زميلاتي اللائي قدمن لي كثيراً من العون بتحمل أعباء العمل ليوفروا لي الوقت في روح من التعاون قلما تجد لها مثيلاً ، وعلى رأسهن أستاذتي: د. رباب جمال ، التي كانت لي بمثابة الأخت الكبرى ، فاحتضنت بداياتي ، ولم تبخل علي بمحبتها ، وخبرتها ، ونصحها .

كما أتوجه بالشكر إلى عميدة الدراسات الجامعية: د. وفاء المزروع ، ونائبتها: د. هيفاء فدا لما أوليتاني من ثقة ، ودعم ، وتشجيع، كان لهم بالغ الأثر في إنجازي.

ثم أتوجه بعظيم شكري إلى والدي الحبيب الذي كان لي أستاذًا وأبًا معًا ، والذي غرس في نفوس أبنائه حب هذه اللغة ، وحب العلم ، وحب مكارم الأخلاق ، كما أشكر والدتي الحبيبة التي لم تضن علي بحبها ، وحنانها ، ورعايتها ، وكان قلبها الكبير الذي يفيض بالخير عونًا لي على تحمل كثير من المشقات ، وأشكر إخوتي أحبتي : فقد دعموني ، وشجعوني ، وأحاطوني برعايتهم ، ومحبتهم ، وذللوا لي الصعاب .

ولا أنسى أن أشكر مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية ، الذي أعانني كثيراً في توفير مصادر بحثي .

كما أشكر كل أساتذتي ، ومعلماتي ، وكل من شارك في تهذيب عقلي ، وتنوير بصيرتي ، ومدني بالمعرفة والعلم .

ورحم الله أبا العلاء الذي ترك لنا هذه الكنوز الأدبية العالية ، وجعلها مائدة ممدودة وموردًا عذبًا لعشاق هذا البيان العالي ، وعشاق النفوس الحية ، والفكر الثري ، والخيال المهيمن .

وأخيرًا ، فما كتبت في هذه الرسالة حرفًا ، ولا رأيت رأيًا ، ولا تكشفت لي حقيقة ، ولا حلّت لي عقدة ، ولا خرجت بفائدة ، إلا بمنٍ من الله وتوفيقه .

اسم الباحثة : نداء ثابت العرابي الحارثي

المشرف : أ.د. محمد محمد أبو موسى

تمهيـــــد

لا أريد في هذا التمـهيد دراسة مفصلة عن حياة أبي العلاء ومؤلفاته وما كتب عنه وإنما أردت أن أضع علامات مختصرة حتى تكون كشفًا موجزًا عن مقاصد أطال في بيانها العلماء .

أما نسبه ونشأته فهو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد التنوخي المعري[1] ، وُلد بمعرة النعمان من أعمال حلب في مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة[2]، وتوفي ليلة الجمعة، ثالث وقيل ثان من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، وقد جُدِر من السنة الثالثة من عمره فعمي منه ، وكان يقول لا أعرف الألوان إلا الأحمر لأني ألبست في الجدري ثوبًا مصبوغًا بالعصفر ، لا أعقل غير ذلك .

وهو من بيت علم وفضل ورياسة ؛ له جماعة من أقاربه قضاة وعلماء وشعراء مثل سليمان بن أحمد بن سليمان ، جده ، قاضي المعرة وولي القضاء بمصر ، ووالده عبدالله بن سليمان كان شاعرًا ، وأخيه محمد بن عبدالله وكان أسن من أبي العلاء وله شعر ، وأبي الهيثم أخي أبي العلاء وله شعر أيضًا .

وقد رحل إلى بغداد ثم رجع إلى المعرة ، وكان رحيله سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة ، وأقام ببغداد سنة وسبعة أشهر ، ولما رجع منها لزم بيته وسمى نفسه « رهين المحبسين » يعني حبس نفسه في المنزل وحبس بصره بالعمى [3].

* * *

ترك أبو العلاء علمًا ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولا يزال علمه موضع الدرس وموضع الاستنباط وموئل النظر ، ولا تزال بعض تصانيفه عصية إلا على من أوتوا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ، جمع وتحقيق مجموعة من الفضلاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، ص ٤٨٦ .

(٢) عبدالرحمن ، عائشة : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ١٣ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ، ص ٢٦٥ – ٢٦٧ . بتصرف .

علمًا وصبرًا لا ينفد ، وقدرة على مصاحبة هذا العبقري الفذ ، ومن أهم مصنفاته وأبرزها : ثلاثة دواوين هي : « سقط الزند » والمشهور أنه يشتمل على شعره أيام الشباب ، و « الدرعيات » وهو ديوان صغير يشتمل على أشعار وصفت فيها الدرع خاصة ، وقد طُبع ملحقًا بسقط الزند ، و « اللزوميات » وهي أكبر الدواوين الثلاثة وأجلها خطرًا ، وله من غير الشعر كتاب « الأيك والغصون » و « تاج الحرة » و « عبث الوليد » و « رسالة الملائكة » و « شرح ديوان المتنبي » و « رسالة الغفران» و « ملقى السبيل » و « خطبة الفصيح » و « رسالة الإغريض » و « الرسالة المنبجية » و « الفصول والغايات » و « اللامع العزيزي » و « زجر النابح » و « استغفر واستغفري » و « نجر الزجر » و « السجع السلطاني » و « ذكرى حبيب » و « رسالة الطير » و « رسالة الهناء » و « رسالة الصاهل والشاحج » و « معجز أحمد » ، وقد أحصوا كتبه فإذا هي خمسة وخمسون كتابًا في أكثر من أربعة آلاف كراسة ضاع أكثرها ولم يصلنا إلا القليل ولم يُطبع إلا « اللزوميات » و« سقط الزند والدرعيات » و « رسالة الغفران » و « زجر النابح » و « عبث الوليد» و « رسالة الملائكة » و « الفصول والغايات » و « رسالة الهناء » و « رسالة الصاهل والشاحج » و « مجموع رسائل أبي العلاء » (١).

* * *

كثرت المؤلفات التي كتبت عن أبي العلاء وتنوعت في زماننا وقبل زماننا فقد توفر على شروح دواوينه عدد من أهل العلم المعتبرين ، منهم : العلامة أبو القاسم بن الحسين الخوارزمي الملقب بصدر الأفاضل ، الذي كتب كتابًا سماه « ضرام السقط » في شرح سقط الزند ، وقد عني البلاغيون بما قاله ونقلوا منه شواهد ، وكان أكثر من عني به هو العلامة سعد الدين التفتازاني من كتابه الجليل « المطول» الذي شرح فيه متن التلخيص للخطيب القزويني .

وفي عصرنا قامت دراسات كثيرة حول أدب أبي العلاء ، وكان من أوائل من كتب في ذلك دكتور طه حسين في كتبه « ذكرى أبي العلاء » و « رهين المحبسين »

---

(١) المعري ، أبو العلاء أحمد بن عبدالله : ديوان لزوم ما لا يلزم « اللزوميات » . شرح وتقديم : د. وحيد كبابه ، د. حسن حمد ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م ، ص ٨ – ٩ . بتصرف .

و « مع أبي العلاء في سجنه » .

وأوفى من ترجم لأبي العلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، وتعتبر من أقرب المعاصرين لأبي العلاء لأنها حققت رسالتيه « الغفران » و « الصاهل والشاحج » والتصدي لتحقيق « الصاهل والشاحج » عمل من أشق الأعمال وأصعبها .

ثم تتابعت الدراسات حول أبي العلاء وأكثرها رسائل جامعية ، فكتب طلاب العلم في نقده وفي نثره ، وفي لغته ونزعة السخرية في نقده ، ومنهم من أفرد بعض كتبه بالدرس ، والمكتبة التي كتبت عن أبي العلاء عامرة .

ومع كل هذه الدراسات فليست هناك دراسة واحدة قامت من أولها إلى آخرها على التعرف على مذهب أبي العلاء البياني ، واستكشاف خصوصيات هذا المذهب، وتحديد ذلك تحديداً علمياً واضحاً ، وهذا هو عملي بين هذا الزخم الرائع الذي أثاره هذا العبقري الفذ فكانت منه تلك المكتبة العلائية التي تستحق أن تفرد وحدها ولا يكون فيها غير أبي العلاء وما كتب عنه .

الفصل الأول

مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء

استخدم كتاب الرسائل الأمثال كما استخدمها الشعراء والخطباء عامة . وإذا كنا نبحث عما تميز به بيان أبي العلاء حتى أصبح سمة ظاهرة في كلامه ، من وجود طريقة خاصة به كثرت لديه ولم تكثر عند غيره ، وقد توجد عند من جاءوا بعد زمانه ممن قرأوا أدبه ، وصغت نفوسهم إلى طريقته هذه =فإن في استخدام أبي العلاء للأمثال الكثير مما تميز به ، وكان من أسلوبه الدال عليه .

وأول ذلك كثرة استخدامه للمثل كثرة لافتة ، حتى بلغت الأمثال في رسائله الإخوانية الخمسين فوق أربع مائة مثل ، بل وتجاوزت في رسالة واحدة ستين مثلاً ، وهذه كثرة لم أجد لها مثيلاً على هذا الوجه في رسائل كاتب من كتاب العربية قبل أبي العلاء ؛ فأنت تجد مثلاً الرسائل الكثيرة لعبد الحميد الكاتب وليس فيها مثل واحد ، وإذا حدث ووجدت فإنها لا تتجاوز المثل أو المثلين على الأغلب ، بل إن رسالته للكتاب التي هي أشهر رسائله لم يأتِ فيها إلا بمثل واحد أورده في آخرها عندما قال[1] : « وأنا أقول في آخر كتابيَ هذا ما سبق به المثل " من تلزمه النصيحة يلزمه العمل " وهو موجز هذا الكتاب ، وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخره وختمته به ... » .

وإذا ما تتبعنا المثل في رسائل أبي العلاء ، فإننا نجد أن عشر رسائل فقط من رسائله الخمسين هي التي خلت من المثل، وإن لم تخل مما يقوم مقامه من تضمين الآيات ، وذكر الأشعار ، أو صور مقتبسة من الأمثال ، مع العلم بأن اثنتين منها قد سقطت أجزاءٌ منها ، وهذه الرسائل هي : (رسالته لأبي بكر الصابوني البغدادي[2]، رسالته إلى الوزير أبي القاسم المغربي[3] جوابًا عن رسالة بعثها إليه ، رسالته التي بعثها للقاضي أبي الطيب طاهر بن عبدالله[4] ، رسالته التي بعثها إلى أبي منصور محمد بن سختكين ، رسالته التي بعث بها إلى قاضٍ صديق له ، ورسالته إلى أبي القاسم جعفر بن أبي العود ، وثلاث رسائل أخرى لم يظهر لمن بعث بها ، وهي الرسالة الرابعة والثلاثون ، والرسالة الخامسة والثلاثون ، والرسالة الحادية والأربعون من نسخة الدكتور عبد الكريم خليفة) .

أما باقي رسائله فلا تخلو من الأمثال على اختلاف بينها في الكثرة والقلة ،

---

(١) الرفاعي ، عبد العزيز : من عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب والموظفين ، المكتبة الصغيرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م ، ص ٦٢ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبدالله ، أبو بكر المؤدب الأعور يعرف بابن أبي العباس الصابوني ولد سنة ٣٥٣هـ ومات في شوال سنة ٤٣٣هـ .

(٣) هو الحسين بن علي بن الحسين بن محمد بن يوسف ، وكنيته أبو القاسم ، وهو من أسرة بصرية هاجرت إلى بغداد ثم سكن جده وأبوه وعمه فترة بمصر ثم عادوا إلى حلب وعاشوا في ظل سيف الدولة ، فخدمه الجد أولاً ثم علي والد الحسين وأخيراً هاجر الأب إلى مصر ومعه أبناؤه وعاش في ظل الدولة الفاطمية إلى أن لقي منيته على يد الحاكم ففر أبو القاسم من مصر وحاول أن يقود بني الجراح في ثورة على الفاطميين فأخفق وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد متولياً المناصب العالية حيثما حل حتى توفي سنة ٤١٨ هـ . [مقتبس من كلام د. إحسان عباس] .

(٤) هو طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري – أبو الطيب ، ولد في آمد طبرستان سنة ٣٤٨هـ واستوطن بغداد ، وولي القضاء بربع الكرخ وكان من أعيان الشافعية ، وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ .

والرسائل التي تكثر بها الأمثال كثرة بالغة ثمان رسائل وهي على الترتيب:(الرسالة التي بعث بهاإلى خاله أبي القاسم[1]عند طلوعه من العراق، ووجد أن أمه قد توفيت، ولم يعلم قبل مقدمه بذلك ، ثم رسالة المنيح التي بعث بها إلى الوزير أبي القاسم المغربي ، ثم الرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي القاسم يعزيه فيها بأخيه أبي بكر وكان قد توفي بدمشق ، ثم الرسالة التي بعث بها إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي[2]لما استدناه إلى حضرة الأميرعزيز الدولة[3]، ثم الرسالة التي بعث بهاإلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يعرف بالحسين بن عنبسة بن عبدالله ، ثم رسالة الإغريض التي بعث بها إلى الوزير أبي القاسم المغربي لما أنفذ إليه مختصر إصلاح المنطق الذي ألفه ، ثم الرسالة التي بعث بها إلى صديق له يسأله أن ينقصه في ترتيب المكاتبة ، ثم التي بعث بها إلى رجل جواباً عن رقعة كتبها إليه في حال عدل من عدول القاضي ترك الشهادة واستعفى منها) .

وهناك خمس رسائل بين القلة والكثرة وهي على الترتيب أيضاً : (الرسالة التي بعث بها إلى بعض العلوية ، ثم الرسالة التي كتبها في جملة الجواب الذي ذكر السؤال عنه عرام ، ثم الرسالة التي بعث بها إلى رجل قيل أن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري ، ثم رسالة الجن[4] والتي بعث بها جواباً عن كتاب رجل يعرف بأبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري[5]، ثم رسالة الأخرسين وقد بعث بها أبو العلاء لأحد أولياء السلطان كما يبدو يشفع بها لأخرسين محاولاً رد مزرعتهما إليهما ...) . أما باقي الرسائل فتوجد بها أمثال بين الواحد والثلاثة لا أكثر .

ونجد أن الأمثال تأتي مفردة فتتوزع في تضاعيف رسائله التي يقل معدل الأمثال بها ، ولكن كلما ازداد عدد الأمثال في الرسالة وجدنا للأمثال مواقع تظهر فيها وتجتمع، ثم تختفي، ثم تعاود الظهور في موقع آخر مجتمعة وهكذا ، حتى يكاد يصبح الموقع الذي شهد ظهورها ذاته موقع أمثال صرفة في بعض الرسائل .. – ونستثني من ذلك رسالته في عزاء خاله فقد كانت الأمثال تتوزع في تضاعيفها ولا يكاد يتلو مثل فيها آخراً رغم ارتفاع نسبة الأمثال فيها– .

فأنت تجد مثلاً في رسالته التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد والتي

---

(١) أبو القاسم هو علي بن محمد بن سبيكة خال أبي العلاء سكن حلب ورحل إلى الغرب من أجل التجارة وعاد إلى حلب .

(٢) ربما يكون هو يوسف بن صدقة كان يهودياً ثم اعتنق الإسلام في سورية وخدم بعض الأمراء وذهب إلى مصر حيث دخل في خدمة الجرجرائي وبعد موته أصبح وزيراً للمستنصر وقتل سنة ٤٤٠هـ . وقد دخل خدمة منتخب الدولة في بداية حياته ، وكان منتخب الدولة والياً على بعلبك وقد توطدت علاقاته مع عزيز الدولة ،

(٣) هو والي الحاكم بأمر الله على حلب سنة ٤٠٧–٤١١ وفي سنة ٤١١هـ شق عصا الطاعة على الحاكم وقتل سنة ٤١٢هـ . [مقتبس من كلام د. عبد الكريم خليفة] .

(٤) اعتمدت في تسميتها (رسالة الجن) على ما جاء في كتاب الدكتور السعيد السيد عبادة: أبو العلاء الناقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص ٨٧ .

(٥) يرى د. السعيد السيد عبادة أنه ربما يكون « أبا الحسين البصري » الذي ذكره أبو العلاء في الغفران على أنه من أهل (نصيبين) وأنه كان معلماً لبعض العلوية .

تجاوز عدد أمثالها الستين مثلاً –اثني عشر موقعًا للأمثال ، تتراوح أمثال كل موقع منها ما بين ثلاثة إلى اثني عشر مثلاً ، وكذلك رسالة المنيح والتي تقاربها في عدد الأمثال – فأمثالها أيضًا تجاوزت الستين – بها أحد عشر موقعًا للأمثال غير ما نثر هنا وهناك في أعطاف الرسالة .

وقد رأيت أن أقف عند هاتين الرسالتين لأنهما خير مثال لمذهبه الخاص في سوق الأمثال ، وللأولى منهما أهمية خاصة كونها في الفترة الفاصلة والحاسمة بين مرحلتين من مراحل حياة أبي العلاء ، وكونها أتت لتصدع بقراره العزلة ، والحق أننا نتجاوز كثيرًا عندما نقول (تصدع) فالرجل لا يعطينا هذه الحقيقة[1]: « ولَمَّا فاتَنِي الـمُقَامُ بِحَيثُ اخْتَرْتُ ، اجْمَعْتُ عَلَى انْفِرادٍ يجعَلُني كالظَّبِي في الكِنَاسِ ، ويَقْطَعُ ما بَيْني وبَين النَّاسِ ... » إلا بعد أخذنا في رحلة عجيبة شاقة ومشوقة في أدغال من الأمثال ، ما نكاد نخرج من سياق بني فيها على مجموعة من الأمثال حتى ندخل في آخر .

أما رسالة المنيح فقد بعث بها كما أسلفت للوزير أبي القاسم المغربي جوابًا عن كتاب بعث به إلى أهل المعرة ، وضمنه سلامًا خاصًا بأبي العلاء ، فيمتدح فيها أبو العلاء بيانه في هذا الكتاب، ويصف سلامه الذي بعثه وأثره في المعرة ، وأهلها، وفي أبي العلاء خاصة ، كما يصف أثر بلاغته فيمن يدعي البلاغة من أهلها بما فيهم أبو العلاء نفسه ، وهي من أشهر رسائله، ويظهر فيها الكثير من خصائص أسلوبه وفكره ، وقد أكثر فيها من الجناس ، والغريب ، والازدواج ، والتشبيه بالإضافة للأمثال .

وسوف نبدأ بدراسة المواقع أو السياقات التي صبت صبًا كاملاً في قالب من الأمثال. يقول من رسالته لخاله مطلعه من بغداد عند حديثه عن سبب تركه لبغداد[2] « فَلَمَّا زَبَنَتِ الضَّرُوصُ الحَالِبَ[3] ، ونَزَتِ العَتُودُ تَحْتَ

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، اللجنة الأردنية للتعريب والنشر ، عمان ، ١٩٧٦م ، ٢١٣/١ .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٩٦/١ – ١٩٧ .

(٣) زبنت أي ضربت بثفنات رجلها عند الحلب ، ويقولون : حرب زبون ، أي : صعبة كالناقة الزبون في صعوبتها ، وناقة ضروص ، أي : تعض حالبها . وهم أيضًا يقولون: حرب ضروص ، كما يُقال : ضرَّسهم الزمان . فهذه الناقة التي يصفها أبو العلاء لا تدفع حالبها فقط بل وتأذيه بعضها له .

الرَّاكِب[1] ، ومَنَعَت القُلُوعُ النَّازِعَ[2] ، ولَمْ تَعُمَّ الفَلُوتُ شَاكِيَ الأَرِيزِ[3] ، وغَشِيَ القَوْلُ وَجْهَ المُشْتَار[4] وخَيَّبَ رَائِدًا سَحَابٌ[5] ، وكَذَّبَ شَائِمًا بَرْقٌ[6] ، وأَخْلَفَ رُوَيْعِيًا مَظِنَّةٌ[7] ، عَادَتْ إلى عِتْرِها لَمِيسُ[8] ، وذَكَرَ وِجَارَهُ ثُعَالَةُ[9] ، وطَرِبَ لِوُكْنَتِهِ ابْنُ دَأْيَةَ [10]». انظر إلى هذا السيل المنهمر من الأمثال على بيانه ، والذي قلما نجد له نظيرًا في بيان غيره ، فقد أدرج هنا أحد عشر مثلاً في سياق واحدٍ متتالية، لم يعترض بينها جملة عادية واحدة أو حتى كلمة من كلمات الربط، ثم انظر كيف سبك هذه الأمثال في سياقه فجعل السياق كله جملة واحدة متكونة من جملة الشرط « فلما زبنت الضروص ... » التي تمتد لتحوي بداخلها ثمانية أمثال ، وجملة الجواب « عادت لعترها لميس ... » والتي تمتد بدورها لتحوي ثلاثة أمثال ، فألف بين أحد عشر مثلاً أيما تأليف على تباعدها ، فهي أشبه بأمثال أخذت من حقول عدة لا يكاد يجمعها حقل واحد؛ فأين الضروص والعتود من القلوع والفلوت؟! وأين شكوى الأريز من اشتيار العسل ؟! وأين عودة لميس إلى عترها من عودة ثعالة وابن داية إلى الوجار والوكنة ؟ !!

ولكن صنعة أبي العلاء لا تتوقف عند جمعها في جملة واحدة متكونة من جملة شرط وجملة جواب ، وإنما أيضًا فيما أكسبها من صياغة واحدة ، فقارب بينها كون تسعة منها نرجح أنها من صنع أبي العلاء نفسه . فتراه قد جعل الثلاثة الأمثال الأولى « فلما زبنت الضروص الحالب ، ونزت العتود تحت الراكب ، ومنعت

---

(١) نزت بمعنى وثبت ، والعتود : الفرس المعد للجري ..

(٢) القلوع : هي قوس إذا نزع فيها انقلبت ، والنازع : من نزع القوس إذا مدها ، وأراد أنه يعالجها للرمي فتأبى وتنقلب بسهمه .

(٣) والفلوت : كساء لا ينضم طرفاه من صغره أو من ضيقه ، والأريز : الصقيع .

(٤) القول قد تكون مصحفة عن الثول الذي هو جماعة النحل ، المشتار : جاني العسل ...

(٥) الرائد : هو الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكانًا ينزلون فيه ..

(٦) الشائم : من شام البرق إذا نظر أين يمطر ، و كذَّب : أي جعله كاذبًا أو وصفه بالكذب .

(٧) مظنة الشيء : موضعه الذي يظن فيه وجوده ، رويعيًا : تصغير راعٍ ، أي : أن الموضع الذي ظن الراعي وجود المرعى فيه وُجد بخلاف ذلك ، وهو مثل يُضرب للحاجة يعوق دونها عائق ..

(٨) « عادت إلى عترها لميس » : مثل يضرب لمن يرجع إلى خلق كان قد تركه ..

(٩) ثعالة : أنثى الثعلب ، ووجاره : بيته ..

(١٠) الوكنة : العش ، وابن دأية : الغراب ..

القلوع النازع » لها نفس التركيب ؛ تبدأ بفعل ماضٍ متصل بتاء التأنيث (زبنت ، نزت ، منعت) ، ثم الفاعل محلى بـ (أل) على صيغة فعول (الضروص، العتود ، القلوع) ، ثم المفعول به محلىً بـ(أل) أيضًا، على صيغة اسم الفاعل (الحالب ، الراكب ، النازع) ، واقترب منها شيئًا ما المثل الرابع « ولم تعم الفلوت شاكي الأريز)، وذلك في جعل الفاعل أيضًا على صيغة فعول محلى بـ (أل) (الفلوت) ، ثم في جريه على نفس النسق في البناء فعل ففاعل فمفعول به ، والفاعل أيضًا على صيغة اسم الفاعل (شاكي)، وإلم يُعرف بـ(أل) فقد عُرف بالإضافة ، وهذا التغيير جيد حتى لا تمل الأذن سماع هذه الأبنية المتقاربة . ولكسر حدة الإيقاع أيضًا يأتي بقوله « وغشي القول وجه المشتار »، وليس فيه من سوابقه سوى أنه فعل ففاعل فمفعول به .

ثم يعود فيصنع لحمة جيدة ينشئها بين الثلاثة الأخيرة في جملة الشرط «وخيب رائدًا سحاب ، وكذب شائمًا برق ، وأخلف رويعيًا مظنة » ، فالمثلين الأوليين صناعة علائية سار بها على نهج المثل الثالث الموروث في البناء ؛ فجعلها فعل ماضٍ فمفعول مقدم ثم فاعل مؤخر ، والمفعول المقدم نكرة على صيغة اسم الفاعل (رائد، شائم ، وما رويعي إلا تصغير راعي)، والفعلين (خيَّب، و كَذَّب) لهما نفس الوزن. ثم تقابلنا الثلاثة الأمثال الأخيرة في جملة الجواب « عادت إلى عترها لميس ، وذكر وجاره ثعالة ، وطرب لوكنته ابن دأية » حيث تتكون من فعل وفاعل مؤخر (لميس ، ثعالة ، ابن دأية) يعترض بينه وبين فعله عارض ، في الأول والثالث كان هذا العارض شبه الجملة (إلى عترها ، لوكنته) ، وفي الثاني كان المفعول به (وجاره). هكذا ركب هذه الأمثال على كثرتها تركيبة واحدة ، وأكسبها بناءً متشابهًا ، وألحق بعضها ببعض ، وبنى بعضها على بعض ، في صورة تعطي مراده بطريقة غير مباشرة ، من غير أن يبين على كلامه إعياء الخروج كما يقول علماؤنا . وهذا وإن وجد عند غيره إلا أننا لم نجد أحدًا أكثر هذه الكثرة ، وأدمج الأمثال في بعضها حتى صيرها وحدة واحدة ، وصيَّر المختلف منها مؤتلفًا ، وهذا من أبواب البيان العصية، فقد ذكر علماؤنا أن تأليف المختلف هو العقدة العصية التي لا يحلها إلا بيان ينفث في العقد فيحلها بقوة سحره[1] ، وهكذا كان أبو العلاء، وبهذا نسجل

(١) الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب : إعجاز القرآن ، قدم له وشرحه وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠م ، ص ١٩١ .

هذه الخصوصية الفذة له، وسوف تلقانا مرة وأخرى .

ولا شك أن تذوقنا للبيان لا يقف عند أبنيته اللغوية التي وصفناها وإنما يجب أن ينفذ منها إلى ما وراءها مما تمور به النفوس ، ولا شك أيضًا أن كل مثل من هذه الأمثال يحمل كثيرًا من الخواطر التي احتدمت في نفس شيخ المعرة ، وأبو العلاء عندما يجمع هذه الأمثال على كثرتها ، واختلافها ، ويصبها في قالب واحد لا يغفل أن كل مثل منها يفتح أبوابًا للمعنى بمفرده ، فيلقي أبو العلاء خلفها بمعانيه التي تتسع بذلك وتتسع ، يقول ابن المقفع[1] « إذ جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث » ، وابن المقفع كما ترى يذكر ثلاثة مقاصد يحققها المثل ، الأول : الوضوح ، والمراد وضوح المعنى الذي ضُرب المثل له ، ولو استطاع الكلام المباشر أن يستوفي الدلالة عن كل ما يجده الكاتب ؛ ما لجأ إلى ضرب المثل ، وإنما هناك خفايا من الحس لا يدل عليها الكلام المباشر ، ولا يدل عليها المثل أيضًا دلالة مباشرة ، وإنما يومىء إليها ويدل عليها ، وهذا هو ما نتطلبه وراء أمثال أبي العلاء . الأمر الثاني : عذوبة الكلام ، وحسنه ، وهشاشة النفس له ، وتقبله بقبول حسن ، وهذا من الأهمية بمكان ؛ لأن هذا الجانب من المثل ، كأنه يستفتح القلب والعقل لما يحمله هذا المثل من المعاني والإشارات ، وكأن عذوبته وطلاوته هي الأنامل الحلوة التي بها يفتح باب القلب ليلج ويستقر هناك . والأمر الثالث : وهو أهمها ، قوله « أوسع لشعوب الحديث » ، وأفهم من هذا أن المثل تتسع به الدلالة ، وتتغازر به المعاني ، وكأنه من بين وسائل البيان هو ينبوعها الذي هو أكثر فيضًا ؛ لأن النص من المثل نص مفتوح لا يتجه اتجاهًا مباشرًا في الدلالة ، كما أقول مثلاً « ضاقت نفسي بهذا المكان » ، فرق بين هذا وبين الأمثال التي ضربها أبو العلاء لهذا المعنى ؛ لأن أمثال أبي العلاء لا تتجه اتجاهًا مباشرًا إلى معناه ، وإنما تعكس هذا الواقع النفسي من مرآة ، فيُرى هذا الواقع من خلال هذا المثل ، فإذا تتابعت الأمثال على الشيء الواحد ؛ فكأن أبا العلاء وضع المعنى في جملة مرايا متعاكسة نرى من بين تعاكسها صورًا للمعاني لا تتناهى ، فأي فيض من المعنى يمكن أن يعطينا إياه سياق من الأمثال في رسائل

---

(١) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٩٩٢م ، ٦/١ .

أبي العلاء، بله أكثر من سياق في رسالة واحدة!!! ولكن في المقابل أي جهد نحتاجه لنجمع معاني أمثاله ونخلص إلى أفكاره القابعة خلفها ؛ لأنه لا يخفى علينا أنه وإن كان أبو العلاء يثري معانيه بطريقته هذه في سوق الأمثال ، فهو أيضًا يخفيها ويسترها بها، لأنه عندما يعدل عن الأسلوب المباشر ويدخل في قاعدة عامة، تسلمك إلى أخرى ، ومن ثم تسلمك تلك إلى غيرها وهكذا –وهذا هو أسلوبه في كل سياق صب كله أو جله من المثل– فإنك تجد نفسك أمام كثير من الصور والأقيسة التي لا محيد لك من وعي ما سبقها من الكلام المباشر ، وهي من ثم ليست معانيه ولكنها منها بسبيل ، وبذا فأنت بحاجة إلى مزيد نظر ، وفضل تأمل حتى تصل إلى ما يريد وما يرمي إليه .

ففي السياق السابق تجده قد وضع معناه خلف أحد عشر مثلاً ، كل واحد منها صورة مستقلة مختلفة عن صاحبتها ، وترك لنا مهمة البحث والتنقيب ، فإذا افترضنا أن الأمثال الثمانية الأولى وهي « فلما زبنت الضروص الحالب ، ونزت العتود تحت الراكب ، ومنعت القلوع النازع ، ولم تعم الفلوت شاكي الأريز ، وغشي القول وجه المشتار، وخيب رائدًا سحاب، وكذب شائمًا برق ، وأخلف رويعيًا مظنة»، تجسد تجربة البقاء في بغداد (لأن السياق يأتي في إطار حديثه عن سبب عودته منها) ، والثلاثة الأخيرة التي هي « عادت إلى عترها لميس ، وذكر وجاره ثعالة ، وطرب لوكنته ابن دأية » ، تجسد تجربة العودة عنها ؛ بدليل أنه بعد هذا السياق يدخل مباشرة في وصف الطريق والرحلة = فهل يمكن أن يُقال أن أبا العلاء هو الحالب ، وبغداد هي الضروص ؟ وأن أبا العلاء هو الراكب ، وبغداد هي العتود ؟ وأنه النازع ، وبغداد هي القلوع ؟ وهكذا .

فأنت تلمس في قوله « زبنت الضروص الحالب » معنى من معاني الرغبة والأمل الذي كان في نفس أبي العلاء ، وكان يريد تحقيقه من هذه الرحلة ، وأنه لم يخب سعيه في هذا فحسب ، وإنما واجهته وجوه غاضبة عابسة ، وقلوب مغيظة ؛ لأن زَبْن الضروص فيه ضراوة ، وفيه حدة ، ورغبة في المنع ، والإبعاد ، والإيذاء ، وفي كونه الحالب وهو المنتفع ، إشارة قوية إلى ما جرى في نفسه من الرغبة في الخير ، والرغد ، والنعمة التي كانت تغدقها بغداد على من فيها ، وفي قوله « ونزت العتود تحت الراكب » رمز إلى التطلع إلى أصحاب الهيئة ، والمنزلة ،

وإشارة غامضة إلى ما كان يتوقعه من شر لو بقي على هذه العتود ، والعتود إذا نزت سقط راكبها ، وفي قوله « ومنعت القلوع النازع » رمز إلى الرغبة في إحراز القوة ، وإشارة صريحة إلى خيبة المسعى ، وفي قوله « ولم تعم الفلوت شاكي الأريز » معنى ما وجده من ضيق في الرزق ، وأن حاجاته لم تقض وهكذا ..

وبذلك يكون أبو العلاء قد واجه في بغداد كل هذه الصعاب ، وحاول أن يتفاداها ، وأتى إلى بغداد من كل وجه ، لم يترك سبيلاً لبقائه فيها إلا سلكه . وكأن في امتداد جملة الشرط رمزًا لامتداد معاناته هناك .

ربما كان هذا أو كان شيئًا منه ، ولكن الثابت أن هذه الأمثال تقول لنا أن خروجه من بغداد لم يكن خروجًا عاديًا !!

والذي يعنينا من ذلك هذا الغموض الذي يلف سياقه ، ويظلّل معانيه ، وهذه في حقيقتها خصوصية فكر أكثر من كونها خصوصية لسان ؛ فاستخدام الأمثال عنده إنما هو طريقة في الإبانة ، يبتعد بها عن المباشرة، فيجعل لغته تحاذي معانيه ولا تتلبس بها ، فهناك دومًا – كما سترى من الشواهد – مسافة ما بين معانيه ولغته ، فطبيعته طبيعة تأنف من أن تلقي معناها غفلاً متكشفًا ، وإنما تتفنن في تحجيبه حتى لا يُدرك إلا بعد كد ومكابدة ، كالكد والمكابدة اللذين بذلهما أبو العلاء في انتاجه ، ثم لا يصل إلى معانيه إلا من هو أهل لها ، وكأنه ضنينٌ بها ، فأدبه ومعانيه وتراثه جدير بأن يُقال عنه المضنون به على غير أهله ، كما يقول أبو حامد الغزالي .

وأمرٌ آخر لا بد ألاّ نغفله في اعتماد أبي العلاء هذا الطريق في الإبانة عن معانيه ، فإذا كان جملة المعنى ومحصوله في السياق السابق أن بغداد قد نبت به ، ولم يطب له المقام فيها ، فلماذا لم يعبر عن المعنى بذلك فحسب ؟ ! والحق أنه وإن كان الشأن أن الأمثال تفتح آفاقًا للمعنى ، وتتغازر بها الأفكار، فتثري بيان المبين ، وتخفي وتحجب وتظلل كما أسلفنا ، إلا أن ذلك لا يكون إلا إذا كانت تعكس في ذات الوقت غزارة هذه المعاني في نفس قائلها ، في نفس أبي العلاء ، وعمقها ، وخفاءها أيضًا ، ومن هنا تكون استجابة طبيعية لما يجده في نفسه من معنى ؛ لأنك تجده قد عبر عن هذا المعنى الذي وصفت لك بهذا السيل المنهمر من الأمثال ، ولو كان وجد هذا المعنى في نفسه على الحد الذي ذكرته لقال نبا بي المكان واكتفى،

ولكن هذه الأمثال دلت على أن تيارات من المعاني المتداخلة، والمحتدمة ، والمتضاربة هاجت في نفسه وماجت ، فأطلقت لسانه بهذه الأمثال ، وكل مثل منها فيه بيان عن معنى من المعاني التي وجدها هذا الشيخ الجليل في نفسه ، وكانت عميقة الصلة به وبتجربته .

وشبيه بالسياق السابق ، أول سياق أمثال يقابلنا في رسالة المنيح –الآنفة الذكر– ، التي بعث بها أبو العلاء للوزير المغربي ردًا على كتابه لأهل المعرة ، فبعد أن وصف أبو العلاء تفوق بيان الوزير ، وعجز أهل المعرة في المقابل عن مجاراته ، وأطال في ذلك ، ثم تساءل هل يستطيع أهل المعرة تكليف ألبابهم ليظفروا بفقر زاهرة ، ولآلئ من البيان فاخرة ، ينافسون بها بيان ابن المغربي= كان هذا السياق القادم من الأمثال بمثابة إجابة على هذا التساؤل ، والذي يريد أن يقوله بهذه الأمثال هو استحالة حدوث هذا الأمر ؛ لأن البون بين ما يمكن أن يصدر عن عقولهم وبين بيان ابن المغربي بون شاسع ، وكأن هذا السياق بكل ما فيه يخلص ليجيب على تساؤله السابق (بلا) ، يقول[1] : « عَلَى أَنَّـه من العَنَاءِ سُؤَالُ البَرِمِ ورياضةُ الهَرِمِ[2]، وهَيْهات بَعُدت مَحَالُّ الغَفْرِ الطَّالِعِ من مَزَالِّ الغُفْرِالظَّالِعِ[3] ، وأَعْجَـزَ البارِقُ يَـدَ السَّارِق، وجلَّت الشُّموسُ عن سُكْنَى الرُّموس[4]، ولـو اجْتَهَدَ الخُزَزُ مدَى عُمْرِهِ ما أشْبَهَ ضَغِيبُهُ زَئِيرَ الأسد[5]، ولن يصيرَ شَوْطُ باطلٍ في القُوَّةِ كالمَسَدِ..[6]» عندما تنظر إلى أمثال هذا السياق الذي صب كله أيضًا في قالب من المثل، تشعر وكأنها جمعت من عوالم مختلفة ، فإذا ما تأملتها وجدت أن هناك

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، دار الشروق ، بيروت – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، ١٥٩/١ .

(٢) سؤال البرم أي البخيل أو الضجر ، وكلاهما من العناء سؤالهما ، ورياضة الهرم : أي معالجة الكبير تريده على غير خلقه شديدة ..

(٣) الغَفر – بفتح الغين – منزل من منازل القمر ، والغُفر بضمها وقد تفتح : ولد الأروى . والمزال : المزالق يزل عنها لأنه ما يزال يظلع أي يعرج في مشيه .

(٤) يريد أي يد تستطيع أن تمتد إلى البرق فتسرقه ؟ والشمس أعظم مكانة من أن تختفي في رمس ، والرمس هو القبر .

(٥) ضغيب الخزز : صوت ذكر الأرانب .

(٦) وشوط الباطل ، هو الهباء ، والمسد : الحبل من الليف ، وأبو العلاء ناظر في قوله هذا إلى المثل العربي: « أدق من خيط باطل » ..

خيطًا رقيقًا من المعنى التقطته أنامل أبي العلاء لتسلك هذه الأمثال الستة فيه ، وتجعلها في قران واحد ، وتخلص لأداء معنىً واحد ، ذلك المعنى الذي وصفت لك في بداية الحديث ، وهذا من قدرة أبي العلاء على تأليف المختلف ، وهي تتجلى في سياقاته للأمثال ، وجمعها على اختلافها في سلك واحد على الوجه الذي ترى ؛ فقد ربطها ببعضها البعض عن طريق عطفها بالواو ، وهي جميعًا داخلة في معنى الاستدراك ، وهذا يعطينا لحمة قوية ، حيث أنها جميعًا بمثابة جملة واحدة . ونعود لما كنا فيه ، فهذا الخيط من المعنى هو التيئيس ، حيث تخلص كلها إلى هذه النتيجة ، ففي المثلين الأوليين « من العناء سؤال البرم ، ورياضة الهرم » ، يكون التيئيس عن طريق ما يقتضيه العرف من ذلك ، سواءً بالنسبة لرياضة الهرم ، أو سؤال البرم ، أما في باقي الأمثال، فمن المسافة الكبيرة بين طرفي الصورة في كلٍ: بين محال الغفر في السماء ومزال الغفر في الأرض ، وبين يد السارق والبارق ، وبين الشموس وقبور البسيطة ، وبين ضغيب الخزز وزئير الأسد ، وبين شوط الباطل في القوة والمسد .

وشبيه به ما يلقانا في رسالته إلى بعض العلوية ، ويبدو أن إرسالها قريب العهد بقراره العزلة ، وعودته عن بغداد ، لأنه كلف في بدايتها بإخبار الرجل عن وصوله إلى المعرة ، وعن وفاة أمه ، وما اعتزمه من اعتزال ، وما وجد عليه المعرة من سوء أحوال وجدب عام . وهو يمهد بهذا الأخير للاعتذار عن هديته التي بعث بها إلى الرجل حيث يقول[1] : « وقد بعثت شيئًا من النفقة ، نفسي من قلته كل المشفقة » ، وبعد قوله هذ ا يقابلك سياق من الأمثال ، يبدو أن أبا العلاء يسخره للاعتذار عن بساطة هذه الهدية التي نفسه منها كل المشفقة يقول[2] : « والسَّفَرُ عَوْدٌ في مَغْمَضَةَ ، يَعْبَثُ بكل عِضَةٍ [3]، ولكن أشْبَهَ امْرءًا بعضُ بَزِّه ، وجاءك النَّاكِزُ بدون الرِّيِّ [4]، أعطتك الجاذِبُ بعضَ غَبُوقٍ [5]، يا قَطامِ أهلاً بقَطَاك[6]

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) السابق ، ص ٢٢٦ .

(٣) العود : المسن من الإبل ، والمغمضة : الأرض المطمئنة ، ويعبث بكل عضة : أي يعلق بكل شجرة ..

(٤) الناكز : البئر فني ماؤها .

(٥) الجاذب : الناقة قل لبنها ، والغبوق : ما يُشرب بالعشي .

(٦) قطام : اسم امرأة ، والقطا : نوع من الطير ..

خُذِي من جِذْعٍ ما أَعْطَاكِ » . فأول ما يواجهك في هذا السياق قوله « والسفر عود في مغمضة ، يعبث بكل عضة » ، ويبدو أن هذا المثل من صنع أبي العلاء ؛ لأنني لم أقع عليه في كتب الأمثال المبسوطة . وأبو العلاء من خلاله يريد أن يقول بأن رحلته إلى بغداد قد آضته ، وكلفته الكثير ، فلم تبق له على مال ، فأتى بهذا المثل يشبه فيه السفر بالمسن من الإبل ، الذي يعبث بكل شجرة يقابلها فلا يدعها ، ثم يستدرك على هذا بقوله « ولكن أشبه امرءًا بعض بزه » ، أي ماله مثله ، وهو ما قاله ذي الإصبع العدواني في صفة زوج ابنته الصغرى ، عندما وافق سوءُ خلقه سوءَ خلق ضأنه[1]، وكأن أبا العلاء بذلك يقول للرجل:ولا غرابة أن تأتيك هديتي على هذه الصفة ، التي نفسي منها كل المشفقة ، فهي بعضي ، وهذا ما يمكن أن يجود به شخص مثلي . وهذا المثل مع ما سبقه، كان من الممكن أن يفي بمراد أبي العلاء في الاعتذار عن هديته ، وكان من الممكن أن ينتهي حديثه هنا ، ولكن أبا العلاء يردفه بمثلين من صنعه – على ما أرجح – القطع بينهما من كمال الاتصال ، حيث الثاني كأنه توكيد لمعنى الأول ، يقول « وجاءتك الناكز بدون الري ، أعطتك الجاذب بعض غبوق » وكأنه استمرار لفكرة أنه لا غرابة في تواضع الهدية ؛ لأنها بمنزلة دلو من بئر ناكز ، ولن تكون إلا دون الري ، وغبوق من ناقة جاذب ، ولن يكون إلا القليل غير المروي أيضًا . والذي زاد به معنى أبي العلاء بهذين المثلين ، هو إظهار جانب العطاء الذي لم يكن ظاهرًا مع المثل « أشبه امرءًا بعض بزه » . وتراه بعد هذا ، وأنت لا تدري هل بقي لمعنى أبي العلاء بقية؟– يقطع ويستأنف ، وهو هنا من كمال الانقطاع ، لأن السابق خبر والتالي إنشاء ، يقول « يا قطام أهلاً بقطاك » ولا أدري أيعني هنا بقطام وقطاها ، زرقاء اليمامة وقطاها الستة والستين الواردة في المثل ؟ !؟[2] ثم بعد هذا يحق لنا أن نتساءل ، ما شأن هذا المثل ، وهذا النداء ، بمعنى أبي العلاء وهديته ؟ ! فهل أراد بذلك الإشارة إلى هدية سبقت من هذا العلوي إلى أبي العلاء ؟ ! لأنه يردف قوله « أهلاً بقطاك » ، بالمثل الأخير في هذا السياق وهو قوله « خذي من جذع ما أعطاك » ، وهو مثل يضرب لاغتنام ما يجود

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١/٤٠٥ .

(٢) الذبياني ، زياد بن معاوية : ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد الطاهر عاشور ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦م ، ص٨٤ – ٨٥ .

به البخيل[1] ، وتأمل معي فإن أبا العلاء بدأ في سياقه هذا معذوراً بسوء حاله ، وضيق ذات يده ، وربما أيضًا عجزه وزمانته ؛ لأنها تدخل في حاله ، وفي قوله «أشبه امرءًا بعض بزه» – ثم انتهى شحيحًا بخيلاً ، انتهى في صورة جذعٍ ، ذلك البخيل الذي كان جوده لمن استجاده أخيرًا ضربة سيف !!

وهذا يدعو للتأمل ، وهذا هو الغموض الذي حدثتك عنه من قبل ، والذي ربما وقفت أمامه بلا حيلة ، فهل نقول هنا بأن اعتذاره ليس على ظاهر أمره ، وأن وراء الأكمة ما وراءها ؟ ! فإذا استحضرنا أن المرسل إليه علوي ومن بغداد ، التي استحالت من قبل على لسانه عتودًا ، وضروصًا، وقلوعًا ، وسوف ترى أهلها فيما بعد إماءً ، وعبيدًا ، بل وضارية ، وغربانًا . وإذا ما أضفت إلى ذلك أن العلويين في بغداد يكرهون أبا الطيب ، وأبو العلاء كان عظيم الحب له = فهل في كلامه هذا تلويح بضربة سيف علائية ؟ ! وهل رأى أبو العلاء في هدية هذا العلوي شيئًا من الرغبة في التفضل عليه ، والامتنان فقط ؟ ! خاصة أنه اعتدَّ كثيرًا في رسالته إلى خاله مطلعه من بغداد ، بترفعه عن فضل أهل بغداد ، وأن هذا الترفع من قبله سجية وطبع غير مجتلب ، يقول[2] : « وأَمَرُوني لِرغبتهم في صَقَبِي منهم بأُمُورٍ ، تنهى عنها القَنَاعة ، وتَكُفُّ دُونها العادة ...

عَلَى حِينَ أن ذَكَّيْتُ وابْيَضَّ مَفْرِقي أُسَامُ الَّذي أَعْيَيْتُ إِذْ أَنَا أَمْرَدُ

والله يُحْسِنُ جزاءَهم ، إن كان ما فَعَلُوه حِفَاظًا، فهو مِنَّةٌ عظيمةٌ ، وإن كان نِفَاقًا، فهو عِشْرَةٌ جميلةٌ » تأمل قوله « نفاقًا » ، وهل سَمِعَتْ أذناك من قبل شكرًا لصنيعة عُرِضت ، وإن اعتُذِرَ عنها ، بأنها نفاقًا يُشكر عليه صاحبها ؟ !! وهذا من غرائب أبي العلاء التي لا تزال تطالعنا في رسائله ، وتفاجئنا بها لغته ، باختلاف وسائله في ذلك من أمثال ، أو غريب ، أو خيال .

فهل لنا أن نقول بأنه أراد هذا المعنى منذ البدء ؟ ! وإن كان ظاهر كلامه يوهمنا بعكس ذلك، وأنه بصدد الاعتذار. ثم إن الجاذب تحمل معنى الشحِّ مستترًا؛ فالعرب تسمي الناقة التي قل لبنها أيضًا جمودًا أي بخيلة ، كما أنه من سوء

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٤٢١/١ .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٠٤/١ – ٢٠٥ .

أخلاق زوج ابنة ذي الإصبع المقصود في المثل « أشبه امرءًا بعض بزه » ، هو أنه « يكرم نفسه ويهين عرسه »[(١)].فهل هديته على تواضعها تحمل إهانة من نوع ما ؟ ! ربما كان هذا بعيداً، ولكن الذي يعنينا هذه الحيرة التي أوقعنا بها سياقه للأمثال هنا ، وهذا الغموض الذي جَلَّلَ به معناه . وإن أعدت التأمل فإن هذا السياق الغامض ، وسياق « فلما زبنت ... » ، جميعها كانت في الحديث عن نفسه ، فهل لنا أن نقول بأنه كلما كان حديث أبي العلاء عن نفسه بالأمثال ، كان بيانه أكثر غموضاً ، وأكثر التباساً ؟ ! لأنك ترى سياق « على أنه من العناء ... » ، وإن كان غامضاً ، إلا أننا ما لبثنا أن استقرّينا إلى معنى نطمئن إليه بشأنه ، .. أما هذا السياق ، وسياق « فلما زبنت ... » ، فما نصيبنا منهما إلا حدس وتخمين ، يتركان في النفس حزازاً من الشك حامزاً !!

ويقرب من هذا حديثه عن نفسه في رسالته إلى أبي نصر الفلاحي عندما استدناه لحضرة عزيز الدولة ، وهو بصدد الاعتذار عن هذه الدعوة ، فبعد أن ذكر شوقه إلى الرجل ، وبالغ في صفته، أخذ في ذكر الموانع التي تمنع من ارواء شوقه، وظمئه الذي وصف ، يقول[(٢)] : « ولكن صَنَع الزَّمن ما هو صَانِع ، واعتَرَض دُونَ الخير مَانِع ، حَالَ الغَصَصُ دُونَ القَصَصِ [(٣)]، والجَرِيضُ دُونَ القَرِيضِ[(٤)]، المَوْرِدُ نَمِيرٌ أَزْرَقُ ، ولكنَّ المُدْنِفَ بالشَّرَابِ يَشْرَقُ[(٥)] :

لما رَأَى لُبَدَ النُّسُورِ تَطَايَرَت　　　رَفَعَ القَوَادِمَ كالفَقِيرِ الأَعْزَلِ[(٦)]

انْهَضْ لُبَدُ ، هَيهاتِ صَدَّكَ الأَبَدُ[(٧)] ». وأنت ترى أن وتيرة كلامه هنا ترتفع شيئًا فشيئًا ، دون أن تلمس بنفسك ما هي هذه الموانع التي منعته ، حيث يبدأ

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة أمثال العرب ، ٤٠٥/١ .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٣٥/١ - ٣٣٦ .

(٣) الغصص : من غص الرجل بالماء والطعام إذا اعترض في حلقه شيء منه منعه من التنفس ، والقصص : البيان ، والعبارة مثل يُضرب لأمر يعوق دونه عائق .

(٤) القريض : الشعر ، والعبارة مثل يُضرب للمعضلة تعرض فتشغل عن غيرها .

(٥) المورد : موضع الماء ، نمير : أي زكي ، المدنف : المريض المشرف على الموت ، و يشرق : أي يغص .

(٦) لبد : آخر نسور لقمان السبعة ، والقوادم : عشر ريشات من مقدم الجناح ، والأعزل : الخالي من السلاح .

(٧) من المثل « طال الأبد على لبد » ، و « أتى أبدٌ على لبد » .

بقوله « صنع الزمن ما هو صانع » ، بكل ما تحمله « ما » من معنى غامض ، ثم يحمي الكلام أكثر فيقول عاطفًا على المثل الأول « واعترض دون الخير مانع » ، فدلنا على اصطدامه بحواجز تحول بينه وبين الخير ، وغضبه ورفضه لها ، ونزقه منها، ثم قطع بين هذا وبين تاليه ، والقطع هنا من باب كمال الاتصال ؛ فالمثلان القادمان بمثابة عطف بيان للسابقين ؛ لأنهما وكأنهما يخلصان لإيضاح هذا المانع، وهذا العارض ، يقول : « حال الغصص دون القصص » ، وأنت تنتظر البيان ولا بيان ، وإنما ترى هذا الارتفاع في وتيرة الكلام ، فقد دل بقوله هنا على حالة هي أكثر كظمًا له ، واستشرف بنا إلى شاطيء الفناء ، ثم ولجه بالمثل التالي « وحال الجريض دون القريض » ، وهي الكلمة التي قالها قائلها والسيف مصلت عليه[١] . ونظل لا ندري فيماذا يخبط أبو العلاء ؟ فيأتيك هذا المثل الذي أرجح أنه من صنعه « المورد نمير أزرق ، ولكن المدنف بالشراب يشرق » ، وهو وإن نقلك من الجريض إلى النمير الأزرق ، إلا أنه أعادك إليه بقوله المدنف . ويبدأ بعد قوله هذا معناه يسفر وينسفر شيئًا ما ، عندما يقول بيت الشعر الذي غدا مثلاً :

« لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل »

فينتقل من صورة المدنف إلى لبد آخر نسور لقمان ، فيجسد لك الوحدة والهرم والعجز ، وكأنك أخيرًا تخلص إلى معناه الأم في هذا النص ، وفكرته الأساس ، ألا وهي العجز ، ولكن بعد لأي ومكابدة ، ثم إنه عجز مطلق ، لا تعلم ما حقيقته ، رغم كل ذلك الزخم في المعنى الذي تفتحه أمامك أمثاله رغم غموضها . وهذا الشاهد أقرب مأخذًا من سابقيه .

وإذا رأيت هذا من لغته ، تأمل قوله من نفس الرسالة التي ظهر فيها سياق «فلما زبنت ...» بكل غموضه الآنف ، وهو هنا بصدد الحديث عن خاله ، وأفضاله عليه ، حيث يقول[٢] : « وما وَرِثَ بِرِّي عَنْ كَلاَلَةٍ [٣]، ولا أخذ تَفَقُّدي من دَارِ غَرْبَةٍ،

(١) قالها عبيد بن الأبرص عندما لاقاه النعمان بن المنذر في يوم بؤسه فاستنشده من قريضه قبل أن يقتله فقال له : « حال الجريض دون القريض » .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) الكلالة من العصبة : من ورث معه الأخوة من الأم ، والعرب تقول : لم يرثه كلالة ، أي لم يرثه عن عُرُض بل عن قرب واستحقاق ..

شِنْشِنَةٌ من أَخْزَم [1]، ونشْنشَةٌ مِنْ أَخْشَنَ[2] ، أنما تَقَيَّل أبَاهُ[3] ، والشَّكِيرُ نابِتٌ من العِضَةِ[4] ، والبَرَمُ من السَّلَمِ[5] ، ومن أشْبَه أباه فَمَا ظَلَمَ [6]» .

فأمثال هذا السياق الذي صب كله في قالب من المثل أكثر قربة من غيرها ، وكلها تقريبًا من حقل واحد ، ورغم مراوحته فيه بين الوصل والقطع ، إلا أن كل مثل فيه بمثابة توكيد لصاحبه في معناه ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من قبل . ولكننا مع ذاك لا ندعي أن كل سياق أمثال عن ذاته هو أشد غموضًا ، وأوعر مسلكًا ، وأن كل سياق لا يتناول فيه شأن نفسه هو قريب المأخذ كهذا ، ولكنَّ هذا هو الأغلب في رسائله موضع الدرس . ولا تغفل أني أقول أشد غموضًا ، فإن مسلكه في الأمثال إذا ما ساقها هكذا ، وأردفها ببعضها البعض ، وبنى معناه عليها وحدها – مسلكٌ غامضٌ لا جدال في ذلك ، ولكنَّ حديثنا هنا عن نسبة هذا الغموض والالتباس ، وإذا كان الشأن في سياقه السابق كما ذكرنا من قربه إلى الفهم ، وهو أقرب سياق أمثال للفهم في رسائله موضع الدرس= أقول إذا كان الشأن كذلك ، إذ أنه لا كبير فرق بين هذه الأمثال في معانيها فلماذا لم يكتف أبو العلاء بواحد منها ينوب عن البقية ، ويستقل بعبء معناه ؟ ! وبدلاً من الاكتفاء بواحد ، تراه يسوق لك سبعة أمثال متوالية ، يردف كلاً صاحبه ، ويؤكده به ، وهذا إلحاح من قبله على فكرته عجيب !! فهل لنا أن نضيف إلى كل ما سبق ، من أسباب داعية لأن يسلك بالمثل في كلامه هذا المسلك ، من الرغبة في الإغراب ، والرغبة في الغموض، وإخفاء معناه=أن نضيف لها الرغبة في الإلحاح على فكرته، وأن تتمكن في نفس القارئ تمكنها في نفسه ، وأن يبلغ في التعبير عنها

---

(١) الشنشنة : الطبيعة أو العادة ، والعبارة مثل يضرب في قرب الشبه ، قالها جد أبي حاتم الطائي عندما رأى من أحفاده ما يشبه فعل أبيهم أخزم ..

(٢) نشنشة من أخشن : أي حجر من جبل ، قالها عمرو لابن عباس حين سأله في شيء شاوره فيه فأعجبه كلامه .. وهو شبيه بسابقه في معناه .

(٣) تقيل : أشبه ، والعبارة مثل يُضرب للشيئين تقاربا في الشبه .

(٤) الشكير : ما ينبت في أصول الشجر ، وهو من المثل : « في عضة ما ينبتن شكيرها » ، ويُضرب في تشبيه الولد بأبيه .

(٥) البرم : ثمر العضاة ، والسلم : شجره ، وقد أجرى كلامه في هذا مجرى سابقه وأكسبه معناه .

(٦) مثل بمعنى : لم يوضع الشبه في غير موضعه لأنه ليس أحد أولى به منه بأن يشبهه ..

أقصى الطوق ، وفي توكيد معناه أبلغ ما يمكن ، خاصة إذا علمت بمنزلة أخواله في نفسه ، وقدم عهد صلاتهم به ؟ ! وينبغي ألا نغفل أن الرجل يتحدث هنا عن حقيقة ظاهرة ، لا عن مشاعر خافية !!

* * *

وكل ما سبق من شواهد كانت لسياقات بنى فيهاأبوالعلاء كلامه على الأمثال، والأمثال فقط . وربما تخلل سياق الأمثال في رسائل أبي العلاء جملة ، أو جملتان من الكلام العادي ، بحيث يدسها أبو العلاء في طيات كلامه ، فلا تكاد تميزها عن الأمثال لأول وهلة .

وهذه الجمل غالبًا ذات لغة خاصة تناسب لغة الأمثال ، بحيث يحرص أبو العلاء على إكسابها نوعًا من الموسيقى ، وجعلها تحوي صورة إن أمكن ، يقول في بداية رسالته التي بعث بها إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة ، وهو فيما أرجح بصدد الاعتذار عن هذا الاستدناء، إذ ليس الأمر ظاهرًا بل هو شديد الالتباس ، وما خلصت إليه إلا بعد لأي ، وسوف أتناوله في فصل (نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها) بمزيد تفصيل بإذن الله[1] = وهو أنه يريد أن يقول من خلاله ، بأن عجزه عن المنادمة عجزٌ لا كذب فيه، ولا محيد عنه ، وكأنه شيء متجذر في طبيعة نفسه ، يقول[2] : « والرَّائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَه [3] ، فأما العَبْدُ إذا كَذَبَ سَيِّدَه فبَعدَ ولا سَعدَ والذَّاهلُ من لم يذْكُر أمْسَه ، والجَاهلُ من لا يَعْرِفُ نَفْسَه ، و لِنَفْسِي الخَائنَة أَقُولُ : أعْيَيْتني بِأُشُرٍ فكيف بِدُرْدُرٍ[4] ، أَعْيَتْ رِيَاضَةُ الهَرِمِ[5] ، واعْتِصَارُ الماءِ منَ الجَمْرِ المُضْطَرِمِ » .

فهذا كما ترى سياق من ستة أمثال ، تخللته جملة وحيدة من الكلام العادي ،

---

(١) انظر فصل : نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها ، من هذه الرسالة ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) الرائد : هو الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكانًا ينزلون فيه ، والعبارة مثل يُضرب للنصيح غير المتهم لمن تنصح له .

(٤) الأشر : هو تحزيز الأسنان ، والدردر : هو مغارز أسنان الصبي قبل نباتها ، والعبارة بمعنى : أنك لم تقبلي الأدب وأنت شابة ذات أشر في أسنانك فكيف الآن وقد أسننت ، وهي مثل ..

(٥) أعيت رياضة الهرم : أي معالجة الكبير تريده على غير خلقه شديدة .

وهي قوله : « فأما العبد إذا كذب سيده فبعد ولا سعد » ، وأنت تراه قد أعطى صياغتها مزيد عناية ، فهذا طباق ظاهر بين العبد وسيده ، وطباق خفي بين بعد وسعد ، وجناس مقلوب بين (العبد ، وبعد) ، وآخر لاحقٌ بين (بعد ، وسعد) ، وهي في النهاية تشبيه ضمني لحال أبي العلاء ، كما هو شأن أغلب الأمثال في سياقه ، ولك أن تعتبرها تمثيلاً ، ولكنها ليست من الأمثال السائرة .

وشبيه به قوله من رسالة المنيح الآنفة الذكر ، وهو بصدد الحديث عن المعرة وأهلها ، فبعد أن ذكر زيارة الوزير المغربي للمعرة ، ورحلته عنها ، ومقامه في مصر ، ذكر بأنه رغم بعد المسافات ، فإنه ما يزال يتعهد المعرة وأهلها ، فهو وإن بعد وتحمل من أعباء السياسة ما تحمل ، فنواحي المعرة وضواحيها مما يتعهده ويرعاه ، وقد كان هذا أشبه بمقدمة ليلج أبو العلاء في وصف المعرة ، وأحوال أهلها السيئة ، بسياق كامل من الأمثال ، يلفت فيه الوزير إلى أحوالهم كما أرجح ، وظاهر كلامه أنه يسوق ما يسوقه من صفة سوء أحوالهم ؛ ليبرر عدم تفرغهم للآداب ، وبالتالي عدم تضلعهم فيها ، وعجزهم من ثم عن مجاراته ، ومجارات فصاحته وبلاغته وبيانه ، فتراه يقول معقبًا على هذا السياق[1] : « فقَلِيلُ العِلْمِ منهم يُسْتَطْرَف ، ويُسْتَغْرَب ، ولا يَكادُ يُعْرَف »، كنتيجة حتمية لما وصفه من حالهم. ودعنا نتأمل سياق الأمثال هذا الذي ذكرت لك ، يقول[2]: « وهُمْ في هَذَا الصُّقْعِ كأسْنَانِ المَسَارِحِ ، ونواجِذِ القُمْرِ القَوارِحِ[3] ، تَنَكَّبَهُمُ الفوائدُ تَنْكيبَ السَّهمِ العائرِ ، والرَّكْبِ الجائر [4]:

بناحيةٍ أمَّا العَدُوُّ فنَازلٌ ... مُطيفٌ بها في مِثْلِ دَائِرةِ المُهْرِ

يَحُول فيها الجَرِيضُ دونَ القَرِيضِ [5]، والحَذَارُ دونَ أداءِ الاعْتِذَارِ ، فَقَد أَدْمَى

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧١ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المسارح : الأمشاط ، ونواجذ القمر القوارح : أي أسنان الحمير ، والمثلان يُضربان للمستويين في الشر .

(٤) العائر : الذي لا يدري من رماه ، والجائر : المائل عن الطريق ، فكلاهما السهم والركب لا يصل إلى غايته ، وكذلك الفوائد لا تصل إلى أهل المعرة ..

(٥) « حال الجريض دون القريض » ، مثل يُضرب للمعضلة تعرض فتشغل عن غيرها ، « والحذار دون أداء الاعتذار » : ساقه مساقه وألبسه رداءه وشمله بمعناه ..

الخُفَّ وَطْءُ القُفِّ ، وذهبَ الخَارِبُ بذي الغَارِب[1] ، وإنّما هو رِفْقٌ ثم اقْتِسار ، وليس بعد السَّلْبِ إلاَّ الإسَار [2] ، فَهُم يَتَوَقَّون كفَّةَ الحَابِلِ ، ويتوقَّعُونَ رَشْقَ النَّابل[3] ، على أنَّ القَارِبَ أَخُو الشَّارِب ، والهُبَعَ طَرِيدُ الرُّبَع[4] ، ما أَقْرَبَ طَسْماً من جَدِيس ، وأَدْنَى البَازِلَ من السَّدِيس »[5] وهذا سياق من اثني عشر مثلاً ، اندست بداخله ثلاث جمل فقط من الكلام الخالي من المثل ، لا تكاد تميزها عن أمثاله إلا بعد معاودة نظر ، وفضل تدبر وتأمل .

فقد جرى في سياقه في الأغلب على أن يجعل كل مثلين منه في قران واحدٍ ، تركيباً ومعنى ، فكانت هذه الجمل الخالية من المثل سائرة على نفس السنن العام للسياق ؛ فالجملة الأولى هي « تنكبهم الفوائد تنكيب السهم العائر ، والركب الجائر » ، فيها صورتان من قبيل التشبيه المؤكد على صورة الفعل مع المفعول المطلق ، وهي وإن كانت جملة واحدة ، إلا أن احتواءها على صورتين أوحى وكأنها جملتان ، فكانت متساوقة مع المثلين السابقين عليها في قوله « كأسنان المسارح ، ونواجذ القمر القوارح » ، حيث يدخلان في إطار التشبيه بأداة ، وهما أيضاً في حيز جملة واحدة .

وكذلك الحال مع الجملتين المتبقيتين من الكلام الخالي من المثل في هذاالسياق، وهما قوله « فهم يتوقون كفة الحابل ، ويتوقعون رشق النابل » ، فقد أكسبهما أبو العلاء نفس الصياغة ، مع ما تراه من جناس ناقص بين (يتوقون ، ويتوقعون)، ولهما نفس المعنى تقريباً ، من كونهم في مظنة الخوف في كلا الجملتين ، وهذا شبيه بقوله في المثلين من نفس السياق : « ما أقرب طسماً من جديس ، وأدني البازل من السديس » ، فلهما نفس البناء ، ونفس المعنى ، وهو أنه يلفت إلى اقتراب

---

(١) القف : الغليظ من الأرض ، الخارب : سارق الإبل ، ذي الغارب : أي البعير .

(٢) « ليس بعدالسلب إلاّ الإسار » : يُضرب مثلاً عند الإساءة يستدل بها على أكثر منها، ويفسره بالجملتين التاليتين .

(٣) يتوقون كفة الحابل : أي يحذرون حبالة الصيد ، النابل : رامي النبال ، ويشير بهما إلى حالة عدم الأمن والخوف والترقب التي يعيشها أهل المعرة .

(٤) القارب : الذي يسير إلى الماء ليلة، الهبع: الفصيل يولد في آخر النتاج ، الربع : الذي يولد في أوله.

(٥) طسم وجديس : من قبائل العرب البائدة ونهايتهما كانت قريبة . وهذا ما يرمي إليه أبو العلاء ، والبازل : من بزل نابه من الإبل ، وذلك في (التاسعة)، والسديس : من كان في السن الذي قبله ..

الأحوال وتشابهها ، بما تلمحه من قرب القبيلتين في زمن الهلاك ، وقرب الحيوانين في العمر ، فأحدهما لاحق بأخيه . وأغلب أمثال السياق على هذا المنوال ، في كونها كما أسلفنا كل مثلين منها يتساوقان معنىً ومبنىً ؛ لذلك عندما اتّبع نفس النهج مع جمله الخالية من المثل ، وأتى بها وقد أكسبها شيئًا من الصنعة ، ظهرت للوهلة الأولى وكأنها أيضًا أمثال .

والجدير بالملاحظة هنا أن الأمثال قد استخدمت للوصف ، وهذا جديد على لغة الأمثال ، فأمثال هذا السياق مجتمعة – كما أخبرتك من قبل – ترسم صورة دقيقة متعددة التفاصيل لوضع المعرة ، وأحوال أهلها ، من سوء حال عم الجميع ، ويعبر عنه المثلين الأولين « وهم في هذا الصقع كأسنان المسارح ، ونواجذ القمر القوارح » ، ومصائب تلو المصائب ، تمنع أهلها من التفرغ لحيازة علم أو أدب ، تراها في الثالث والرابع والخامس والسادس « يحول فيها الجريض دون القريض، والحذار دون أداء الاعتذار،فقد أدمى الخف وطء القف،وذهب الخارب بذي الغارب»، وخوف وترقب ؛ لأن هناك من الدلائل ما يبررهما ، ويدعو إليهما ، في السابع والثامن « وإنما هو رفق ثم اقتسار ، وليس بعد السلب إلا الإسار » ، ومصير غائم يعم الجميع ، فلا يسلم منه جيل دون جيل ، تراه في باقي الأمثال « على أن القارب أخو الشارب ، والهبع طريد الربع ، ما أقرب طسماً من جديس ، وأدنى البازل من السديس » .

* * *

ومن أفانين تصرف أبي العلاء في الأمثال ، أن يراوح في سياقته الأمثال بين الكلام المباشر والمثل ؛ فيجعل نصف المعنى للكلام المباشر ، والنصف الآخر للمثل، وهذا مذهب ظاهر ، وفيه دلالة على فضل تمكنه من البيان ومن المثل ، فلا تنتهي الجملة حتى يتبعها مثل ، تليه جملة ، ثم يليها مثل أو أكثر وهكذا ، بحيث يكون المثل تتمة لمعنى الجملة ، أو مبتدئًا لمعنى تتمه الجملة التالية له .

انظر إلى قوله من رسالته لأبي نصر الفلاحي ، وهو في هذا الجزء من الرسالة ينفي تواضعًا أن يكون له مكانة في العلم والأدب ، يقول(١) : « وَكَيْفَ يَتَأَدَّى

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٠ – ٣٤١ .

العِلْمُ إِلَيَّ، وَأَنا رَجُلٌ ضَرِير[١] ، وَكَفَى مِنْ شَرٍ سَمَاعُه[٢] ، ونَشَأْتُ في بَلَدٍ لا عَالِمَ فيهِ، وإنَّما تَشَبَّثُ النَّامِيَةُ بِالجَوَازِعِ [٣]، ولَمْ أَكُنْ صَاحِبَ ثَرْوَةٍ،فَكَيْفَ الحداءُ بِغَيرِ بَعيرٍ [٤]، والإنْبَاضُ مَعَ فَقْدِ التَّوْتِيرِ [٥]» فكل مثل هنا أتى به أبو العلاء متمماً لمعنى الجملة السابقة له ، بينما النص كله يناقش قضية واحدة ، وهي نفي أن يكون له مكانة في العلم والأدب – كما أسلفنا – ولكنه نفي بدليل ، وهذا الدليل هو الإشارة إلى أنه في سبيل وصول العلم إلى أبي العلاء موانع وعقبات ، ليس من شأن من كانت في سبيله أن يكون صاحب علم أو منزلة ، فراوح كما رأيت جملة فمثل ، فجملة فمثل ، فجملة فمثلين . وراجع كلامه عندما يقول : « أنا رجل ضرير، وكفى من شر سماعه » ، تجد أن جملة « وكفى من شر سماعه » تقدم العذر للضرير في العجز عن الطلب ، وقوله « ونشأت في بلد لا عالم فيه، وإنما تشبث النامية بالجوازع » ، تجد جملة « وإنما تشبث النامية بالجوازع » تؤكد أنه لا حيلة له في التعلم ما دام في بلد لا عالم فيه ، وأن نامية الكرم إذا لم تكن لها جوازع تحملها فإنها لا تنهض ولا تثمر ، وهو هذه النامية التي افتقدت الجوازع . وتأمل موقع إنما هنا ، وكيف أصاب به أبو العلاء ؛ لأنها تفيد أن المعنى الذي دخلت عليه مسلم به لا مشاحة فيه ولا جهل ولا إنكار ، وهكذا تجد قوله « فكيف الحُداء بغير بعير » يؤكد عذره لفقره ، وأن المال هو الذي يجعل له ذكر يتغنى به الناس ؛ لأن الحداء غناء ، فيأتي تاليه ورديفه « والإنباض مع فقد التوتير » ، ليؤكد نفس المعنى .

فأنت ترى بجلاء كيف تصورجملة المثل معنى الجملة السابقة عليها وكيف تمهد لتاليتها من الكلام المباشر ، وكيف يتآزر المثل والكلام المباشر في صنع المقطع من كلام أبي العلاء ، ويستقلا بحمل أوق معناه مناصفة ومشاطرة .

---

(١) يتأدى : يصل ، ضرير : ذاهب البصر ..

(٢) كفى من شر سماعه : من المثل : «حسبك من شر سماعه» ، أي كفاك بالقول عاراً وإن كان باطلاً .

(٣) النامية : قضيب الكرم ، الجوازع : الأخشاب التي توضع في العريش عرضاً وتطرح عليها قضبان الكرم .

(٤) الحداء : سوق الإبل والغناء بها ، والعبارة من المثل « كالحادي وليس له بعير » ، يُضرب للرجل ينتحل ما لا يحسن ، وكذلك للرجل ينتفخ بما لا يملك .

(٥) الإنباض : جذب وتر القوس وتركه ليرن ، التوتير : شد وتر القوس ، والعبارة من قولهم : «إنباض بغير توتير» ، ويُضرب مثلاً للرجل ينتحل ما لا يحسن أو يدعيه وليس له .

وشبيه به قوله من رسالته التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد ، فبعد أن ذكر رعاية خاله له وكتبه إلى أهل بغداد يوصيهم به ، وترفعه هو في المقابل عن كل جميل أبدوه ، وكل رعاية عرضوها= قطع واستأنف معنىً جديداً هو هذا السياق الذي نحن بصدده، والذي مجمل معناه حسرة علائية ممتدة على رحلته إلى بغداد ، وأنه لو كان يعرف خاتمتها لما بدأها ، ولكن هذه سنة الحياة ، وأنّى للإنسان بمعرفة الغيوب ؟ !! يقول[1] : « ولو عَلِمْتُ أَنِّي أَرْجِعُ على قَرْوَائِي ، لم أَتَوَجَّه لهذه الجهَة، ولكن البَلاَءُ مُوكَّلٌ بالمَنْطق، والخِيَرَةَ مُغَبَّبَةٌ ، والخُطُوبُ مثل دَوْك النَّوْفَل [2]، يُفْتَحُ بعضُهُ عن مثْل نَبَات الغَمَق [3]، وبَعْضُهُ عَنْ ذَوَاتِ النَّسَق [4] ، لا يَدْرِي الرَّجُلُ بِمَ يُولَعُ هَرِمُه [5] ، ولا إلى أَيِّ أَجَمَةٍ يَسُوقُه جَدُّه[6] ، (ولو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ومَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)[7]:

يا أيُّها المُضْمِرُ هَمّاً لا تُهَمّ إنَّك إنْ تُقْدَرْ لَكَ الحُمَّى تُحَمّ »

فضمن الجملة الأولى في سياقه المثل القائل « رجع على قرواه » ، ومعناه رجع إلى أول أمره[8] ، ويضرب لمن يرجع إلى طبعه وخلقه[9]، ويقصد به أبو العلاء عودته غير المرضية إلى المعرة عن بغداد ، ثم كانت جملة « لم أتوجه لهذه الجهة » متمة لمعنى جملة المثل السابقة ؛ كونها واقعةً جوابَ لو ، ثم استدرك بعد هذه الجملة التي هي من الكلام المباشر بمثلين « البلاء موكل بالمنطق ، والخيرة مغببة » ، والأول مثل يُضرب لمن سقط بكلام أو أمر [10]، أي أن كلامه هو الذي جر عليه عاقبةً لو صمت لما تعرض لها ، وهذا هو المعنى الذي يريده أبو العلاء هنا من هذا المثل ، كونه

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٠١ -٢٠٢ .
(٢) قرواه : قفاه ، والدوك : ضرب من محار البحر ، النوفل : البحر .
(٣) نبات لريحه خمة وفساد لكثرة الندى ، والمراد نبات الأرض ذات الغمق .
(٤) ذوات النسق : الثغور المستوية ، فشبه اللؤلؤة في المحارة بها .
(٥) هرمه : عقله .
(٦) أجمة : غابة ، جده : حظه .
(٧) سورة الأعراف ، آية رقم ١٨٨ .
(٨) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٤٨٥ .
(٩) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ١/٣١٤ .
(١٠) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٠١ .

معادل لإقدامه على الرحلة إلى بغداد ، و « الخيرة مغببة » يريد أنه قد تكون الخيرة فيما تُقدم عليه وقد لا تكون، فمعنى مغببة أي أحيانًا تستعمل وأحيانًا تترك، ثم يعطف عليهما جملة ثالثة « والخطوب مثل دوك النوفل » ، وهي تشبيه يجسد معنى المثل الأخير ، حيث يُشبه أبو العلاء تجارب الحياة بمحار البحر ، ثم لا يدعنا لنخمن وجه الشبه ، وإنما يسفر عنه ببيانه بجملة صفة داخلة في حيز هذه الجملة ، وهي قوله « يفتح بعضه عن مثل نبات الغمق ، وبعضه عن ذوات النسق » ، وهذا من بيان أبي العلاء في هذه الرسائل موضع الدرس بمكان ، فقد يتولى بنفسه بيان غرضه في مقام لا تظنه مقام إفصاح ، ويبهم في مقام الإفصاح ، ثم يجعل كلاً وكأنه في حاق مقامه ؛ لأن الصورة هنا تعمق معنى الحسرة الذي يجلل السياق ، حيث تتصور غواصًا قمس في لجة البحر ، وتعب في البحث عن محارة راجيًا أن تتكشف صدفتها عن لؤلؤة ، رغم معرفته أنها قد تتكشف عنها ، وقد تتكشف عن غيرها ؛ عما يشبه « نبات الغمق » في سوء رائحته ، وتراه يقدم الأخير ، ويرجيء اللؤلؤ الذي أشار إليه بقوله « ذوات النسق » ، وكأن الأول هو الأكثر ، والأغلب ، والأقرب إلى التحقق، ويبدو أن رحلته لبغداد قد تكشفت عما يشبه « نبات الغمق ». وفي إظهار هذه الصورة ، وعدم الاكتفاء بالتشبيه ، ما يخدم معناه أيما خدمة ، في تجسيد خيبة المسعى في أسوأ مثال « نبات الغمق » ، ونعود لما كنا فيه ، فجملة «والخطوب مثل دوك النوفل ... » هذه ، جملة من الكلام المباشر معطوفة بتوابعها على المثلين السابقين « البلاء موكل بالمنطق ، والخيرة مغببة » ، وداخلة معهما في حيز الاستدراك ، ثم يأتي بعد هذه الجملة بمثل يقول فيه « لا يدري الرجل بما يولع هرمه » ، أي لا تدري ما يكون في آخر أمرك[1] ، والقطع هنا من كمال الاتصال فهو بمثابة توكيد لكل ما مضى في معناه ، ثم يتبعه بجملة هي أشبه ما تكون بالمثل ، ومسوقة مساقه ، وبنفس معناه « ولا إلى أي أجمة يسوقه جده » . فقد رأيت بجلاء كيف يراوح أبو العلاء بين الأمثال والكلام المباشر في كلامه السابق .

وشبيه به أيضًا قوله من رسالته التي بعث بها إلى رجل قيل أن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري . وهذا السياق منها يصف تلقي أبي العلاء لما أشيع عن هذا الرجل من خبر فقده ، وعدم معرفة طريقه ، وكونه غدا طعامًا للأسد، ثم رد

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة أمثال العرب ، ٢/٤٠١ .

أبي العلاء على هذه الأخبار الباطلة بالتكذيب ، وعدم التصديق ، وما داخل نفسه رغم تكذيبه لها من خوف ، وإشفاق على صديقه ، ومن ثم الأخبار الجديدة التي تلقفتها أذنه عن خبر سلامته ، وفرحه بها ، يقول[1] : « لَمْ أَزَلْ طَائِشَ الفكْرِ لـمّـا قِيلَ ، جُهِلَ عَلَى صَرْعَيـــــه وَقَعَ ، ولم يُدْرَ أَيْنَ بَقَعَ ، وقيلَ سَقَطَ العَشَـاءُ به عَلَى سِرْحَـانٍ [2] ، فَقُلْتُ دُهْدُرَّيْنِ سَعْدُ القَيْنِ [3]، وَلْعٌ جَاءَ به مَلْعٌ، وأَدْخَلَني لِذَلكَ هَلَعٌ [4]، والشَّـفِيقُ بِسُوءِ ظَـــنٍ مُولَـعٌ [5]، فلـمّـا وَرَدَت الرُّفْقَـةُ رُفْقَةُ حُسَـيْنٍ من أَفَـامِيَـةَ[6] خَبَّرُوني أَنَّهم رَأَوْكَ، فَقُلْتُ الإشرَاقُ عَلَى ثَبِير[7] ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ[8] » .

فتراه بدأ بمثلين أتم بهما معنى الجملة الأولى وجعلهما داخلين في مقول القول ألا وهما « على أي صرعيه وقع ، ولم يدر أين بقع » ، ثم يردفهما بقوله « وقيل سقط العشاء به على سرحان » ، فعاد بهذه الجملة إلى الكلام المباشر ، ثم قال : « فقلت : دهدرين سعد القين » ، وهذه مثل مترتب على الجملة السابقة بالفاء ، ثم يعقبه بجملتين من الكلام الخالي من المثل « وَلْع جاء به مَلْع ، وأدخلني لذلك هَلَع »، والأولى منهما داخلة في حيز قول أبي العلاء ، ومؤكدة لجملة المثل فيه ، والثانية في وصفه لحالته إزاء هذه الأخبار ، والتي يعقبها بجملة مفسرًا ومعللاً لها ، يقول : « والشفيق بسوء ظن مولع » ، وهذا مثل يعود عنه إلى الكلام المباشر بقوله : « فلما وردت الرفقة من أفامية ، رفقة حسين ، خبروني أنهم رأوك » ، ثم يظهر المثل من جديد بقوله : « فقلت الإشراق على ثبير » .

والطريف أنه استخدم المثل هنا للقصِّ والحكي ، كما رأيت فلخص بكلامه السالف قصته مع سماع الأنباء عن صديقه ، وردود أفعاله عليها ، ولم نجد أحدًا

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) صرعيه : يقال للأمر صرعان أي طرفان ، بقع : ذهب ، سرحان : أي أسد .

(٣) « دهدرينِ سعد القين » : مثل يُقال لمن يأتي بالباطل ، وموضعه من التمثل عند رد خبر أو فعل فاعل يُخطِّأ .

(٤) ولع : أي كذب ، ملع : أي عدو ، هلع : أي جزع شديد .

(٥) الشفيق : الحريص على الشيء ، والعبارة مثل بمعنى أن المعني بالشيء لا يكاد يظن به إلا المكروه .

(٦) الإشراق : أي طلوع الشمس ، ثبير : جبل بمكة ، والعبارة من المثل : « أشرق ثبير كيما نغير » ، ويضرب في الإسراع والعجلة ، أي : ادخل يا ثبير في الشروق كي نسرع للنحر .

(٨) سورة فاطر ، آية ١٤ .

استطاع تطويع الأمثال لمراده كأبي العلاء ، ففي سياق سابق استخدمها للوصف ، وصف أحوال المعرة وأهلها ، وقد أوفت غرضه على أتم وجه ، وهنا تراه يستخدمها للقص والرواية ، حيث يرسم لك صورة حية نابضة بالحركة والتوتر بواسطتها ، فهو لا يراوح فقط بين الأمثال والكلام المباشر ، بل بين معانيها أيضاً ، بين ما يسمعه من أنباء ، وما يعلق عليها ، ومن ثم ما ينفي تلك الأنباء ، وتوقفه هو منها بين التصديق والتكذيب .

انظر إليه في الرسالة التي بعث بها جواباً إلى رجل عن رقعة كتبها إليه في حال عدل من عدول القاضي ترك الشهادة واستعفى منها ، ويبدو أنه طلب من أبي العلاء أن يحاول ثني هذا العدل عما عزمه من ترك للشهادة ، يقول من مفتتحها(1) :

« فيما ذَكَره سَيِّدي الشَّيْخ أَدَام اللّهُ عِزَّهُ تَذْكِرَةٌ (لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(2)» وهذه آية يمهد بها لظهور المثل « ولَكِن لَيْسَ لِقَلْبِ خِدَاشٍ أُذُنَانِ (3)، وقَدْ أَفْصَحَ مَن نَصَحَ ، وكَيْفَ بِغُلَامٍ أَعْيَانِي أَبُوهُ (4)، شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا من أَخْزَمَ (5) قَدْ كَانَ أَبُو هَذَا الرَّجُلِ رَحِمَهُ اللّهُ تَرَكَ الشَّهَادَةَ في آخِرِ عُمُرِه ، والسَّعِيدُ من وُعِظَ بِغَيْرِه(6) ، وقد خَبَرْتُ ما عِنْدَ هذا الرَّجُلِ فكان كالظَّبْيِ تَرَكَ ظِلَّهُ (7) ، والعَيْرُ أَوْقَى لِدَمِه (8)، شَبَّ عَمْرٌو عَنِ الطَّوْقِ (9):

إِنَّ الغُصُونَ إِذَا قَوَّمْتَها اعْتَدَلَتْ   ولَنْ يَلِينَ إِذَا قَوَّمْتَهُ الخَشَبُ ..»

وقد استخدم المثل في هذا السياق للغايتين الوصف والقص ، ففي الأربعة الأمثال الأولى كان للقص ، حيث لخص قصة محاولته نصح الرجل وتأبيه ، بدون معونة جملة من الكلام المباشر ، فقط بالأمثال ، حيث تراه يقذف بدءاً بنتيجة هذا

---

(1) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٤٧٤ – ٤٧٦ .
(2) سورة (ق) ، الآية ٣٧ .
(3) ورد اسم خداش مرتين في شرح الميداني لمجمع الأمثال .
(4) أي لم يستقم لي أبوك فكيف تستقيم أنت ، والعبارة مثل .
(5) الشنشنة : الطبيعة أو العادة ، والعبارة مثل يُضرب في قرب الشبه .
(6) أي نو الجد من اعتبر بما لحق غيره من المكروه فيجتنب الوقوع في مثله ، والعبارة مثل .
(7) مثل يُضرب للرجل النفور لأن الظبي إذا نفر من شيء لا يعود إليه أبداً .
(8) مثل يُضرب للموصوف بالحذر أي أنه أشد إبقاءً على نفسه من غيره ، والعير : الحمار الذكر .
(9) مثل يُضرب للابس ما هو دون قدره .

النــصح بقـوله « ليس لقلب خِداش أذنان » ، فـتـفـهـم من هذا المثل بأن الرجل لم يستجب ، ثم يعقب عليها بفعله هو ، وأنه أدى ما عليه تجاهه « وقد أفصح من نصح »، ثم يردفه بمثلين وكأنهما علة هذه النتيجة المخيبة لأمل المرسل إليه « وكيف بغلام أعياني أبوه ، شنشنة أعرفها من أخزم » ، والثاني منهما بمثابة توكيد للأول. ثم في الأمثال الأخيرة من هذا السياق تراه يصف الرجل، وصعوبة أخلاقه بالأمثال أيضًا ، ولكن قبل ذلك تجد كلامًا خاليًا من المثل وهو قوله « وقد كان أبو هذا الرجل رحمه الله ترك الشهادة آخر عمره » ، وأبو العلاء يفسر به ما ألمح إليه بالمثلين الثالث والرابع « وكيف بغلام ... » ، حيث نص بهما على أن ذلك فيه صفة موروثة وجبلة وطبعٌ ، فتراه هنا يذكر لك قصة أباه ، وأنه قد ترك الشهادة هو أيضًا ، كما تركها ابنه في أواخر عمره ، وأن الرجل في فعله هذا مقتدٍ بأباه ، فيظهر المثل من جديد « والسعيد من وُعِظَ بغيره » ، ثم يقول وهو بصدد الحديث عن صفاته « وقد خبرت ما عند هذا الرجل » ، قبل أن يشرع فيها ، وبذلك يفصح لك عن غرض أمثاله القادمة ، وأنها في صفة الرجل ، وإلم يفصح عن معانيها ، حيث يردف قوله هذا بأربعة أمثال ، الأولان في صعوبة أخلاقه ، والأخيران في كون استصلاحه ليس في الإمكان والطوق ، يقول « فكان كالظبي ترك ظلِّه ، والعَيْر أَوْقى لدمه ، شَبَّ عمرو عن الطوق :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن يلين إذا قومته الخشب ».

وهكذا قام هذا السياق من الأمثال في بيان أبي العلاء بمهمتي الوصف والقص في آن واحد كما رأيت ، وهذا التطويع للمثل كأداة ، من أظهر خصوصيات أبي العلاء ، وهي قدرة لا يستهان بها ، فالمثل في لغة أبي العلاء يصبح وكأنه جملة عادية ، تبنى عليها صاحبتها ، وتعطف عليها أخرى، ويترتب عليه مثل آخر ، ويشترط لحصوله آخر . بل إن أبا العلاء لا يكتفي بأن يبني أحدها على الآخر ، بل يبني مجموعة منها على أخرى ، فتقوم تلك المجموعة مقام جملة واحدة ، كما رأينا في سياق « فلما زبنت ... » ، وهو لا يتوقف بها عند هذا الحد ، بل ويحمِّلها من أغراضه المختلفة ما شاء ، من توكيد ووصف وقص ، حتى تنهض بها بمفردها وباقتدار عجيب ، وهذا ما رأيناه في كل ما سبق ، وما أنت واجده في رسائله موضع الدرس كثيرًا ، وبهذا يؤكد ويبرز أبو العلاء طريقًا في لغة الأمثال جديدًا

على المستويين الوظيفي والبنائي؛ فالناس كانوا يسوقون كلامهم ثم يؤكدونه بالمثل ، حتى كبار المترسلين قبل أبي العلاء مثل ابن العميد والصابي ، فإن طالت صنعتهما الأمثال لتجعلها جزءًا من سياق بيانهما ، إلا أنها توقفت بها عند وظيفتها المتعارف عليها وهي توكيد المعنى. تأمل قول ابن العميد من رسالة بعث بها إلى بعض إخوانه يعاتبه فيها على جفائه وقلة وصله ، يقول[1] : « وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك ، وحبسٌ في سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضًا طريًا ، فجربه في المعاودة فإنه في العود أحمد »، وهذا من المثل « العود أحمد » أي أن الابتداء محمود والعود أحق بأن يحمد منه[2] . وتأمل قول الصابي من رسالة بعث بها إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل[3] « وعند الله نحتسبه غُصْنًا ذوى ، وشهابًا خبا ، وفرعًا دل على أصله ، وخطيًا أنبته وشيجه » وهذا الأخير من المثل السائر :

« وهل ينبت الخطي إلا وشيجه   وتغرس إلا في منابتها النخل »

ويقول أيضًا منها موردًا مثلاً ومشيرًا إلى كونه مثلاً في تصبيره للرجل، وكون المصاب قد جاوز الكبار إلى هذا الطفل الصغير ، فإن ذلك أمارة لطف ورحمة ، يقول : « وأما الرئيس فإن الله عز وجل لما اختار ذلك له قبضه قبل رؤيته إياه على الحالة التي تكون معها الرقة ، ومعانيه التي تتضاعف معها الحرقة ... وقد قيل إن تسلم الجلة فالسخل هدر » وهذا هو المثل ، والجلة المسان من الإبل ، والسخلة ولد الشاة وجمعه سخل[4] .

وعلى هذه الطريقة التي رأيت تجد أن الجاحظ نفسه أكثر استخدامه للأمثال وهو يشير إلى كونها أمثالاً وأقوالاً سائرة ، ويذكرك بطبيعة وظيفتها وهي التوكيد ، فيقول « قالوا » ثم يذكر المثل ، أو يقول « قال الحكماء » ويذكر المثل ، وهو كثيرًا ما يجعلها خاتمة حديثه في قضية ما تأكيدًا لما هو بصدده من الأفكار والآراء ، فيقول مثلاً من رسالته « فخر السودان على البيضان »، في حديثه عن رسوخ لون السواد

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، ٥٦٢/١ .

(٢) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٤١/٢ .

(٣) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٣٥/٢ .

(٤) السابق ، الصفحة نفسها .

وبقائه[1] : « وقد جرى المثل في تبعيد الشيء : لا ترى ذلك حتى يبيض القار ، وحتى يشيب الغراب » ، فهو كما ترى يسوق المثل وهو يشير إلى كونه مثلاً ليثبت به قضيته التي هو بصددها . ويقول أيضاً في رسالة «مناقب الترك» معلقًا على بيت أورده ، ذكر فيه شأن الضب ، يقول[2] : « وأبو الحسل هو الضب ، والعرب تقول : « هو أعق من ضب » لأنه يأكل ولده » .

وأنا لا أدعي اقتصار ظهور المثل في بيانه على هذه الصورة ، ولكنها الصورة الأبرز والأظهر لسياقته للمثل .

أما أبو العلاء فقد جعل الكلام نفسه من جلد المثل ، وقده من معدن الأمثال قدًا ، وراضها حتى جعلها مطية ذلولاً لكل ما يعن له من أغراض ، وهذا من عوائد أبي العلاء ، كما تراه يُخْضِعُ الغريب النافر ويروضه حتى يُجري بيانه عليه ، تراه أيضًا يخضع الأمثال ويروضها ويُجري بيانه عليها ، وأول دليل على ذلك هذا السياق من رسالته إلى خاله مطلعه من بغداد، حيث اضطلع المثل فيه بمهمة جديدة، يقول معتذرًا عن عدم مروره على حلب (حيث يقيم أخواله) في عودته من بغداد[3] : « ورُبَّ سَامِعٍ خَبَري لم يَسْمَعْ عُذْري [4]، والمَعَاذِرُ مَكَاذِبُ [5]، غيرَ أنَّ الرَّائدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَه[6] ، فَإِنْ قَالَ أَدامَ اللّهُ عِزَّهُ يَأْبَى الحَقِينُ العِذْرَةَ [7] ، وَإِذَا سَمِعْتَ بِسُرَى القَيْنِ فَاعْلَمْ أَنَّه مُصْبِحُ [8]، وفي النَّوَى يَكْذِبُكَ الصَّادِقُ[9]، فَوَالَّذِي أَخْرَجَ الجِذْعَ مِنَ الجَرِيمَةِ[10] والنَّارَ مِنَ الوَثِيمَةِ،ما نَكَّبْتُ حَلَبَ في الإِبْدَاءِ والانْكِفَاءِ ، إلا كَمَا تَنَكَّبُ خَرِيدَةُ المِحَارِ لما دُونَها مِنْ هَوْلِ البِحَارِ [11]» .

---

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ – الرسائل السياسية ، تحقيق : د. علي أبو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م ، ص ٥٤٦ .

(٢) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ – الرسائل السياسية ، ص ٥١٣ .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٨٠ – ١٨٢ .

(٤) أي لا أستطيع أن أعلنه لأن في الإعلان أمرًا أكرهه، ولست أقدرأن أوسع الناس عذرًا، والعبارة مثل.

(٥) وهي من المثل : « إن المعاذير يشوبها الكذب » .

(٦) مثل يُضرب للنصيح غير المتهم على من تنصح له .

(٧) الحقين : المحبوس ، والعبارة مثل يُضرب للرجل يعتذر ولا عذر له .

(٨) القين : الحداد ، والعبارة مثل يُضرب للرجل يعرفه الناس بالكذب فلا يقبل قوله .

(٩) يُضرب مثلاً للرجل يعرف بالصدق ثم يحتاج إلى الكذب .

(١٠) الجذع : ساق النخلة ، والجريمة : النواة .

(١١) الوثيمة : الحجارة ، نكبت : عدلت ، الإبداء والانكفاء : الذهاب والرجوع ، الخريدة : اللؤلؤة .

وهذا لونٌ من ألوان استخدام أبي العلاء للمثل ، وهو إدخال جملة من الأمثال في سياق الحوار ، وبناء الحوار عليها وحدها، فحديثه هو في أول السياق من المثل، وهو قوله « ورب سامع خبري لم يسمع عذري ، والـمَعَاذِر مَكَاذِب ، غير أن الرائد لا يكذب أهله » ، وكأنه يقول: وإن كان عذري غير معروف ، والمعاذير مظنة التكذيب ، إلا أنني بمنزلة الرائد الذي لا يكذب أهله ، ولا يأتي الباطل من قبله ، وهذا يمثل قول أبي العلاء ، وبداية الحوار ، وهذا كله من المثل . ثم تجد أن الذي افترض أن خاله يرد به كجواب على قوله السابق مثل بحت أيضًا ، حيث سبك ثلاثة أمثال سبكًا واحدًا، وأنطق بها لسان خاله ، ولم يأت بكلمة واحدة من عنده وهو « فإن قال أدام اللّه عزه يأبى الحقين العِذْرة ، وإذا سمعت بُسرى القَيْن فاعلم أنه مُصْبِح ، وفي النَّوَى يكذبك الصادق »، وكلها - لما رأيت من معانيها - تخلص لتكذيب أبي العلاء ، والتشكيك في عذره . ثم يكون جوابه هو على هذا القول المفترض من قبل خاله مؤسسًا على قسم بناه على مثلين « فوالذي أخرج الجِذْع من الجَرِيمة ، والنار من الوَثِيمة » .

وهكذا صارت الأمثال في لغة أبي العلاء تتحاور ، ويقف بعضها في مواجهة بعض ، وكل منها يستخرج ما فيه، ويستخرج ما عند صاحبه ، فالأمثال تتحاور ويشتد حوارها، وتستقل هي بالحوار في سابقة جديدة، وبضرب من الجدل الرفيع ، وكأنها بهذا الجدل تختبر قواها ، وتروز ما بنيت عليه من حقائق ثابتة ، وصدق يقوى على الدفاع عن نفسه، فقوله « يأبى الحَقِينَ العذرة ، وإذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح ، وفي النوى يكذبك الصادق » يمثل قوة مهاجمة لقوله « الرائد لا يكذب أهله»، فيستنصر أبو العلاء الذي يقود حركة الحوار هذه بين الأمثال ، على هجوم هذه الأمثال الثلاثة التي أجراها على لسان خاله بقوله « فوالذي أخرج الجذع من الجريمة، والنار من الوثيمة » ، وكأنه يستدعي أقوى مظاهر القدرة ، والتي تواجه الناس بما لا عهد لهم به ؛ ليدفع بها هذا التكذيب الماثل في هذه الأمثال الثلاثة التي أجراها على لسان خاله .

وهكذا صاغ أبو العلاء من جلد المثل ، والمثل فقط،حوارًا كاملاً بينه وبين خاله، كما وصف مسبقًا به وقص ، ولم نرَ المثل يستقل بمثل هذه الأعباء في بيان غيره على هذا الوجه الذي ساقه . ولسوف يقابلنا في رسائله أيضًا الحوار من طرف واحد ، الحوار مع الذات ، يقول من هذه الرسالة أيضًا وهو بصدد الحديث عن

السبب الذي حمله على النزول من بغداد ، فبعد أن ساق مجموعة من الأبيات بدأها بقول القائل[1] :

« إِنَّ العِرَاقَ لأَهْلِي لَمْ يكن وَطَنًا ... والبابُ دُونَ أبي غَسَّانَ مَسْدُودُ

فَأَنِمِ القُتُودَ على عَيْرَانَةٍ أُجُدٍ ... مَهْرِيَّةٍ مَخَطَتْهَاغِرْسَهَا الصِّيدُ »

حيث تشم أنفاس خيبة الرجاء والعزم على الارتحال ، وبعد مجموعة من الأبيات تالية لهذا الذي ذكرت ، وقريبة منه في معناه يظهر هذا السياق الذي نحن بصدد درسه ، وفيه يصرح أبو العلاء منذ البدء بأن حديثه هنا موجه لنفسه ، لذاته، يقول[2] : « لِنَفْسِي أَقُولُ : أَعْيَيْتِنِي بِأُشُرٍ فَكَيْفَ بِدُرْدُرٍ ، وعَصَيْتِنِي مِنْ شُبَّ إلى دُبَّ [3]، لَيْسَ بِعُشِّكِ فَادْرُجِي[4] ، هَذَا أَحَقُّ مَنْزِلٍ بِتَرْكٍ[5] ، الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ[6]،الرَّبِيعَ أَغْفَلْتِ الكَمْأَةَ [7] ، وَعَلَى المَفَازَةِ أَرَقْتِ السِّقَاءَ [8] ، عُودِي إِلَى مَبَارِكِكِ [9] ، أَلْحَقَكِ الشَّرُّ بِأَهْلِكِ ، فَمِنْ أُنَاسٍ مَا أَنْتِ ، لَيْسَ النِّيقُ بِمَوْطِنِ الظَّلِيمِ ، ولاَ الهَجْلُ بِمَرْتَعِ الغُفْرِ[10] :

لِكُلِّ أُنَاسٍ مِنْ مَعَدٍّ عَمَارَةٍ ... عُرُوضٌ إِلَيْهَا يَلْجَؤونَ وَجَانِبُ [11]»

فصوت نَفْس أبي العلاء في هذا الحوار هامس ، كون أبي العلاء يطويه في حديثه إليها طيًا ، ببراعة استخدامه لأسلوب القطع ، ومن هنا كانت الأمثال في

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٠ .

(٢) السابق ، ص ١٩٢ - ١٩٤ .

(٣) الأشر : تحزيز الأسنان ، والدردر : مغارز أسنان الصبي قبل نباتها ، والعبارة مثل ، أي لم تقبلي الأدب وأنت شابة ذات أشر في أسنانك فكيف الآن وقد أسننت ، وعصيتني من شب إلى دب ، أي: من لدن كنت شابة إلى أن دببت على العصا ، والمثلان يُضربان لمن يكون في أمر عظيم غير مرضي ثم يمتد فيه أو يأتي بما هو أعظم منه .

(٤) أي ليس هذا الأمر الذي لك فيه حق فدعيه ، والعبارة مثل يُضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .

(٥) مثل يُضرب لكل شيء استحق أن يترك من رجل أو جوار أو غيره .

(٦) مثل يُضرب للرجل يضيع الأمر ثم يريد استدراكه .

(٧) أغفلت : أي تركت ، الكمأة : نبات معروف ، والعبارة مثلٌ كالتي قبلها .

(٨) المفازة : الفلاة ، أرقت : سكبت ، السقاء : وعاء من جلد يكون للماء أو اللبن .

(٩) مثل يُضرب لمن نفر من شيء أشد النفار .

(١٠) النيق : أرفع موضع في الجبل ، والظليم : ذكر النعام ، ولا يكون في الجبال ، والهجل : السهل ، والغفر : ولد الوعلة ، ولا يكون في السهل .

(١١) معد: قبيلة من العرب، والعمارة : أصغر من القبيلة ، وعروض: طريق في عرض الجبل في مضيق.

والاستئناف

هذا السياق تثير تساؤلات ، ومن ثم تضطلع بالإجابة عليها ، بدلاً من أن تتحاور وتتصادم كحالها في السياق السابق ، ذلك أن أسلوب القطع في هذا السياق والاستئناف من باب شبه كمال الاتصال ، بمعنى أن أبا العلاء جعل من نفسه بواسطته سائلاً ومجيباً .

وشيء آخر في هذه الأمثال الموجهة إلى النفس، ويرجع أيضًا إلى هذا القطع، ذلك هو أن كل مثل من هذه الأمثال كأنه حقيقة وحده ، حقيقة قائمة بنفسها ، كاملة شافية في مقامها .

ويفتتح أبو العلاء الحوار الساخن مع نفسه بقوله « أعييتني بأُشُر فكيف بدُرْدُر »، وقوله « وعصيتني من شُبَّ إلى دُبَّ » ، وتأمل قوله لنفسه « عصيتني من شب إلى دب » ، وكيف دل على أن رحلة حياته هي في جوهرها رحلة صراع مع نفسه أولاً قبل أن تكون صراعًا مع الحياة والأحياء ، وراجع هذا التشديد والإيجاز والتوازن بين كلمتي (شب ، ودب) ، ودلالة ذلك على أنها أبت إلا حالة واحدة رغم معالجته وسياسته لها ، فالشب أخو الدب في الوزن والجناس ، وفيه لمح أنها من شبابه إلى دبيبها ذات نفحة واحدة موجزة وحادة ، وأنا لا أشك أنني بهذا البحث ومثله وراء ملامح نفس أبي العلاء من خلال لغته – أضع يدي على جذور خصائصه البلاغية ؛ لأن هذه النفس التي يصعب تسيسها والتي أعيته، هي التي تجعله يأتي بهذا الفيض من المثل في خطابه لها ، ويحتشد لها كل هذا الاحتشاد ، فنحن أمام اثني عشر مثلاً ، انتهت ببيت شعر هو مما يتمثل بـه ، ولم نر هذا العدد وهذا الاحتفال في حواره مع خاله مثلاً .

وبعد هذا العتاب لذاته متمثلاً في المثلين السابقين يبدأ أسلوب القطع ، والنفس قد استشرفت لمعرفة الكلام التالي لمثل هذا العتاب ، وأي أمر عصته فيه هذه النفس ، فيأتي قوله « ليس بعشك فادرجي » ، وظاهر الأمر أن الحديث هنا عن بغداد ؛ لأن هذا النص يأتي في سياق حديثه عن تركه لبغداد ، وأسباب ذلك كما أسلفنا ، فتراه بذا ينتقل من تمردها عليه إلى كفها عن الرغبة في البقاء ، مبينًا بالمثل أن بقاءها هنا بقاء في غير محله ، وكأنها تغتصب أرضًا ليست لها ، وعشًا ليس عشها . ثم يردف ذلك بأن ما كان كذلك فهو « أحق منزلٍ بترك » ، وهو ما يزال محافظًا على أسلوب القطع ليقول لنا أن نفسه لا تكاد تسلم ، فتتساءل لماذا

تتركه، وما الداعي لذلك ، فيأتي المثل السالف بمثابة إجابة حاسمة وقاطعة لكل أمل في البقاء . ولاحظ أن في قوله « هذا أحق منزل بترك » ارتفاع في نبرة الخطاب عن المثل الأول ، مما يشير إلى أن هناك صوتًا يتأبى ويستعصي ، وإلا لسار الكلام على وتيرة واحدة ، ويبدو أن التساؤل لا يتوقف ، فكأن نفسه ما تزال تتساءل وما ذنبي ؟ أو لماذا يكون هذا أحق منزل بترك ؟ ! فتظهر أمثال الإدانة ، حيث أن السياق في مجمله كبح ممزوج بالإدانة «الصَّيْفَ ضيعت اللبن، الربيع أَغْفلت الكَمَأة، وعلى المَفَازة أرقت السِّقاء »، والمثل الثاني هنا أكسبه أبو العلاء نفس بناء الأول ، وساقه مساقه ، ومتحه معناه ، لذلك فالقطع بينهما من كمال الاتصال ؛ لأنه أصبح بمثابة توكيد للأول ، وهذا القطع أكسبهما نبرة تعداد، وهذا فيه من التأنيب ما فيه، ثم يأتي المثل الثالث معطوفًا بالواو عليهما ، ونظن أنه من المثل « خَلِّ سبيل من وَهِيَ سقاؤه ، وهريق بالفلاة ماؤه »، ويراد به من لم يستقم أمره فلا تعانه[1] ، وقد صنع منه أبو العلاء مثلاً للتضييع والتفريط ، فماذا بعد إراقة السقاء على المفازه ؟! والعرب تقول « أعطش من رمل »[2] . وبهذه الأمثال الثلاثة يُدخل أبو العلاء نفسَه قفصَ الاتهام، ويكبلها بتعداد سوآتها على مسامعها ، فكلها تفيد معنى: أنك غَفَلْتِ وضيعت بالأمس شيئًا، هذا الشيء الذي ضاع بالأمس هو الذي ضَيَّع اليوم والغد ، وعلى هذا يجب أن تكفكفي من غلواء الأمل الذي كان يراودك بالرحلة إلى بغداد.

وفي عودته إلى القطع بعد هذا إشارة إلى أن نفسه بدأت تستشرف ، وتسأل عن السبيل إلى النجاة بعد كل هذا التضييع ، فيظهر المثل « عودي إلى مباركك »، أي ارجعي إلى أمرك الأول ، ونظن والله أعلم أنه من المثل الآخر « يا إبلي عودي إلى مباركك »، حيث يضرب لمن ينفر من شيء لا بد له منه[3] ، وهذا بمعنى أبي العلاء أشبه ، وذلك أن رجلاً عقر ناقته فنفرت الإبل فقال: عودي... فإن هذا لك ما عشت ، وكأني بأبي العلاء يقول لنفسه عودي فإن المحبس لك ما عشت ، وهذا المثل يمثل عودٌ لذي بدء بعد رحلة الإدانة المتمثلة في الأمثال الثلاثة الماضية ، ولكن

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٤١٤ .

(٢) السابق ، ٢/٣٣ .

(٣) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٢/٤١٤ .

بأسلوب أقوى لا تعليل فيه كما في « ليس بعشك فادرجي »، الذي يؤنس بمحاولة الإقناع ، ثم إنها مبارك كما رأينا وليست عشًا ، ونفسه الرقيقة الحس ولا ريب قد التقطت هذه الإرهاصة بالمحبس ، فأرادت أن تتمرد ، فقيل لها « ألحقك الشر بأهلك » !!

وقد ذكرت المحبس فيما سبق لأن هذا الاحتفال والاحتشاد بالأمثال ، وهذا التأبي في المقابل من قبل نفسه، والاستعصاء على القياد – لا يبدو لي فقط لترك بغداد، بل لترك الدنيا في ترك بغداد ، إنه احتفال للعزم على المحبس ، فهو بتوديعه بغداد ودع الحياة العامة كلها، وأصبح رهين المحبسين ، فأضاف ذلك القيد الجديد لحياته، وهذا يعيدنا إلى حديثنا السابق عن الغموض ، الذي يغلف به أبو العلاء معانيه بواسطة هذا الأسلوب ، وحاجتنا من ثم إلى البحث والتنقيب والظن والتخمين !!

* * *

والمتأمل في أسلوب أبي العلاء في هذه الرسائل يجده أسلوبًا قد بني بناءً قابلاً لأن يتشرب كثيراً من الأمثال ، حتى أننا نجده يضع لنا علامات تدلنا على أن المنطقة القادمة من لغته منطقة أمثال .

وبيان ذلك أن رسالته لخاله مطلعه من بغداد يبدؤها أبو العلاء بقوله[1]:« كتَابِي أَطَالَ اللّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي ما طَلَعَ صَبِيرٌ، وَرَسَا ثَبِيرٌ [2]، مِنْ مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ،(لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ)[3]، وَوَرَدْتُهَا بَعْدَ سَامَةٍ ، وُرُودَ كَعْبِ بن مَامَةَ [4] ، فَإِنَّا للّهِ وإِنَّا إِليه رَاجِعُون، ولَهُ الحَمْدُ مَمْزُوجًا بِهِ الدَّمْعُ، مُسْتَكًا لَهُ مِنَ الوَجْدِ السَّمْعُ ، وصَلَّى اللّهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعِتْرَتِه صَلاَةً يَثْقُلُ بِهَا لِسَانِي حُزْنًا ، وتَرْجَحُ في المَحْشَرِ قَدْرًا وَوَزْنًا ، ثُمَّ أَذْكُرُ قَصَصَي بَعْدَ ذَلِكَ .. » .

فقوله «ما طلع صبير، ورسا ثبير» فيه رائحة المثل ، لأن طلوع الصبير، ورسو

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧٦ – ١٧٩ .

(٢) صبير : أي سحاب ، ثبير : جبل بمكة .

(٣) سورة الأنعام ، آية رقم ٦٧ .

(٤) شبه عودته إلى المعرة بعد فوات الأوان، ووفاة أمه قبل مجيئه، وعدم إدراكه لها، بورود كعب بن مامة الماء بعد أن بلغ به الظمأ أقصاه ، ولم يعد قادراً على الورود، فكان الموت أسبق إليه .

الثبير يذكران لبيان الدوام الذي لا ينقطع ، كما تقول ما طلعت شمس وما تعاقب الليل والنهار ، ، ثم قارب المثل أكثر بقوله « لكل نبأ مستقر » ؛ لأن هذا المعنى مما يسير مسير المثل وإن لم يكن مثلاً ، وهكذا ويذكر كعب بن مامة، وهو من المثل « اسق أخاك النمري » [١]، ومنه قولهم « أجود من كعب بن مامه » [٢] – يدخل أسلوبه باب المثل . ثم يرجع عنه ، ويسترجع ، ثم يحمد حمداً غريباً ممزوجاً بالدمع –حمداً على البلاء– مستكاً له من الوجد السمع ، وهو من المثل « استكت مسامعه » أي ضاقت وصمت[٣] ، ثم يصلي ويسلم، ثم يعود إلى المثل البحت ولكنه من الشعر، يبدؤه بقول القائل :

« ألا ليتنـــي والمـــرء ميـــت وما تغني من الحدثان ليت .. »

وبعد ما يعطي الشعر حقه ، ويتمثل بسبعة أبيات ، يدخل إلى عالم المثل مباشرة ، ويقول « يا سَلْوَةَ الأيَّامِ مَوْعِدُكِ الحَشْـرُ »، وهو شطر بيت يسير مسير المثل ، وكأنه العروة التي تربط الشعر السالف بالمثل البحت ، الذي يظهر بعد ذلك مباشرة في صورة ثلاثة أمثال ، وهو أول ظهور صريح للأمثال في الرسالة : « لا سَلْوَةَ حَتَّى يَؤُوبَ عَنَزيُّ القَرَظَةِ [٤]، ويَرْجِعُ النُّعْمَانُ إِلَى الحِيرَةِ [٥]، ويُبْعَثُ نَبِيٌّ مِنْ مَكَّةَ[٦] » .

وهكذا ترى كلامه ينزع إلى المثل ، يتهيء له ، ويقترب منه ، ويعود عنه ، ويرجع إليه .

وشبيه به ظهور المثل في الرسالة التي كتبها أبوالعلاء جواباً عن السؤال الذي ذكره عُرام ، وليس لدينا ما نعرفه عن عُرامٍ هذا ، وعن سؤاله ، كما أن الرسالة غير

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٩٤/١ ، الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٣٣٠/١ .

(٢) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢٣٨/١ .

(٣) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٣٣٧/١ .

(٤) من قولهم : « حتى يؤوب المنخل » ويتمثل به في اليأس عن الشيء ، والمنخل : هو القارظ العنزي ، والمثل يقول أيضاً : « إذا ما القارظ العنزي آبا » ، ويُضرب مثلاً للغائب لا يُرجى إيابه .

(٥) وهو النعمان بن المنذر ملك الحيرة خرج منها ولم يرجع إليها أبداً ، وقد صاغ أبو العلاء من قصته هذا المثل في عدم الأوبة واليأس عن الشيء على شاكلة الأول .

(٦) مثل ساقه أبو العلاء مساق المثلين الآنفين من صنعه .

مكتملة ، فقد سقط آخرها ، وهي رسالة قدت لغتها من معدن الأمثال في الأغلب ، ويبدو أن أبا العلاء لم يكن راضياً عن هذه الأسئلة ، التي هو بصدد الإجابة عنها في هذه الرسالة ، فتراه يصرح منذ البداية بتوديعه للأدب ، وأن سائله لو سأل شاباً لكان خيراً له ، ولوجد عنده بغيته ، وأن الحديث عما يُسأل عنه قديم مكرور لا جديد فيه ، إلى غير ذلك مما من شأنه أن يشعرنا بنزق أبي العلاء ، وتبرمه من هذا السؤال ، وتشككه في غرض سائله ، اسمع إليه يقول منها [1]: « ومِنَ النَّجَابَةِ تَرْكُ الإجَابَةِ، لأنَّ الكَلِمةَ إذَا لم تَكُنْ صَوَابًا، كَانَتِ السَّكْتَةُ لها جَوَابًا، فَإنْ أَجَبْتُ،فَمُكْرَهُ أَخُوكَ لاَ بَطَلٌ » وهذا كله من المثل ، لذا فدعنا نتأمل كيف افتتح أبو العلاء هذه الرسالة ، وكيف هيأ لظهور المثل بهذا الزخم فيها ، يقول بعد البداية بالصلاة على الرسول[2] : « للَّه دَرُّكَ أَبَا السَّابِعِ منَ القدَاحِ [3]، ما أَنْفَعَها لِبَرَمٍ [4]، وأَغْنَاهَا عَنْ ذي كَرَمٍ ، لَكَ مَثَلُ الخَيْرِ ، لاَ مَثَلُ عَديٍّ وبُجَيْرٍ [5]، مَنْ غَدَا بِفَرْعٍ ضَالٍ [6]، فَقَدْ بَعُدَ عَهْدِي بِالنِّضَالِ [7]، أَلَمْ يَبْلُغْكَ أَدَامَ اللّهُ عِزَّكَ أَنِّي دَفَنْتُ الأَدَبَ إلى جَانِبِ كُلَيْبٍ [8]، وعَقَدْتُهُ بأُذُنِ الضُّبَيْبِ[9]،فَأَخَذَ وَادِيَ العُنْصُلَيْنِ، واقْتُسِمَ بَيْنَ مُنْصُلَيْنِ[10]،

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٥٨ .

(٢) السابق ، ٢/٣٥٥ – ٣٥٨ .

(٣) السابع من قداح الميسر هو المعلى وله سبعة أنصبة ، وقوله : « للّه درك أبا السابع من القداح » ، يريد به يا صاحب الحظ الوافر ، فهي كناية من أبي العلاء .

(٤) البرم : من لا يدخل مع القوم في الميسر لشحه ، شُبه ببرم العضاة لأنه لا ينتفع به .

(٥) عدي : عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب وائل ، وبجير : هو بجير بن الحارث بن عباد اليشكري ، كان أرسله أبوه ليصلح بين بكر وتغلب في أيام حرب البسوس فقتله عدي ، ويريد أبو العلاء أن يقول : « أنه يكون له مثل الخير لا مثل الشر » ، فكل الذي يريده من استحضار قصة عدي وبجير على شؤمها هو أن تكون رمزاً لمثل الشر .

(٦) الضال : الشجر الذي تصنع منه القسي ، ويريد به مثل الخير أيضاً ، ومعنى أبو العلاء هنا في ضرب مثل الخير والشر كان من الممكن أن يعبر عنه تعبيراً مباشراً إلا أنه لما كان بيانه التالي مليء بالأمثال وكانت نفسه تنزع إلى صياغتها ترى ظهور المثل هنا رغم أنه كان من الممكن أن يستغني عنه .

(٧) النضال : المباراة في رمي السهام .

(٨) هو كليب وائل .

(٩) تصغير ضب الحيوان المعروف .

(١٠) العنصلين : وادٍ ما بين اليمامة والبصرة ، منصلين : سيفين .

وَفَارَقْتُه فِرَاقَ الوَكْرِيِّ الزَّانَ[1] ، والبَكْرِيِّ أُخْتَ هِزَّانَ ...[2] » .

انظر إليه كيف يدخل عالم المثل ولا يكاد ، ثم ينسل منه مسرعًا ، أولاً في قوله « لا مثل عدي وبجير » ، وهذا يجعلك تستحضر قول الحارث بن عباد اليشكري من المثل المعروف « نعم القتيل بجير إن أصلح بين بكرٍ وتغلب »[3] .

ثم يرجع عن المثل في جملتين ، الأولى منهما ليست من المثل « من غدا بفرع ضال » ، والثانية من شطر بيت فتقرب بذلك من المثل وإلم تكنه « فقد بعد عهدي بالنضال » ، من قول أبي حية النميري[4] :

« ألا رب يومٍ لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم »

ثم يعود إلى المثل بصور يعتمد فيها على موروث من الأمثال ، فيقول « ألم يبلغك ... أني دفنت الأدب بجانب كليب » يقصد كليب وائل ، والعرب تقول « أعز من كليب وائل »[5] . ثم يقول بعد هذا « وعقدته بأذن الضُّبيب »، فالضب يضرب به المثل في التيه ، فيقال « أضل من ضب »[6]. وبهاتين الصورتين يقارب المثل ولا يكاد يدخل في حيزه ، ثم يظهر المثل ظهورًا صريحًا في قوله « وأخذ وادي العُنْصُلَين »، يقصد بذلك ضبه الذي حمَّله أدبه ، والعرب تقول للرجل إذا ضل « أخذ طريق العنصلين »[7] . ثم يعود عن المثل بقوله « واقْتُسم بين مُنْصُلَين » أي بين سيفين ، وهذه هي نهاية ضبه . وهو وإن كان قد أكسب هذه الجملة بناءً شبيهًا ببناء المثل الأول إلا أنها ليست مثلاً . ثم يأتي بصورتين « وفارقته فراق الوَكْري الزَّان ، والبَكْري أخت هِزَّان »، وهما تأكيد لفكرة فراقه للأدب ، ثم يظهر الشعر وكله من

---

(١) الزان : التخمة لأن ذوات الأوكار لا يحصل لها تخمة أبدًا .

(٢) البكري : نسبة إلى بكر بن نزار ، هزان : قبيلة من العرب ، ويرى د. عبدالكريم خليفة أنه ربما عنى بذلك الأعشى ، وأن يكون قد تزوج بزوجة من بني هزان ثم طلقها .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٥٥/٢ .

(٤) الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، ص ٩٩ .

(٥) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١٣٢/١ .

(٦) السابق ، ٤١٥/١ .

(٧) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٥٦/٢ .

المثل بسبيل[1] :

« مُحَيَّاكِ وُدٌّ مِنْ هَـــوَاكِ لِفِتْيَةٍ وشُعْثٍ بِأَعْلَى ذي طُوَالَةَ هُجَّـدِ

تَيَمَّمَنَا مِنْ بَعْدِ مَا نَامَ طَالِعُ الـ ـكِلَابِ وأَخْبَى نَارَهُ كُلُّ مُوقِدِ »

وهذه الأبيات بها تصحيف فالأبيات في ديوان الحطيئة على هذا النحو [2]:

فَحَيَّاكِ وُدٌّ مَنْ هَـــدَاكِ لِفِتْيَةٍ وخُوصٍ بِأَعْلَى ذي طُوَالَةَ هُجَّـدِ

وهناك بيت بين هذا والذي ذكره أبو العلاء يقول فيه :

وأَنَّى اهْتَدَتْ والدَّو بَيْنِي وبَيْنَهَا وما كُلُّ سَارِي الدَّوِّ باللَّيل يَهْتَدِي

تَفَدَّيْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا نَامَ طَالِعُ الـ ـكِــلَابِ وأَخْبَى نَارَه كُلُّ مُوْقِدِ

وهو هنا يخاطب خيال أم معبد ؛ إذ البيت الذي يسبق هذه الأبيات يقول فيه :

وفي كل مُمْسى لَيْلَة أو مُعَرّسٍ خَيَالٌ يُوافي الرَّكْبَ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ..

وأبو العلاء يريد أن يقول بهذه الأبيات لعرامٍ هذا : كيف اهتديت إلي ، وطالبتني بالجواب، وكان حالك في الاهتداء إلي كحال خيال أم معبد ، الذي اهتدى إلى الحطيئة ورَكْبِه « وما كل ساري الدو بالليل يهتدي » ؟!

ثم بعد هذا يعود أبو العلاء إلى الكلام المباشر الخالي من المثل فيقول : « لَوْ سَأَلْتَ أَطَالَ اللّهُ بقَاءَك أَحَدَ الشَّرْخِ، لوَجَدْتَ سِقْطًا في المَرْخِ [3]» . وهذه العبارة جعلها مجازًا عن سرعة الإجابة ، أي لو سألت عن مسائلك هذه شابًا لوجدته أسرع إلى إجابتك ، وهو يقرب بمجازه هذا من المثل ؛ لأن الزناد من مرخ مضرب المثل في القدح، يقولون«في كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار»[4]، ومنه قول القائل « ارخ يديك واسترخ * إن الزناد من مرخ »[5]، ثم يعود للتشبيهات

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٥٦/٢ .

(٢) الحطيئة ، جرول بن أوس : ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ، تحقيق : النعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص ٧٣ .

(٣) الشرخ : الشبان ، السقط : ما سقط من النار بين الزندين قبل استحكام الوري ، المرخ : شجر سريع الوري يقتدح به .

(٤) العسكري ، أبو هلال : جمهرة أمثال العرب ، ٩٢/٢ .

(٥) السابق ، ١٧٣/١ .

والصور ، التي يوضح بها بأن الكلام في هذه القضايا التي سئل عنها كلام قديم ، مكرور ، أشبع بحثًا ، لا طائل من وراء إعادة السؤال عنه والكلام فيه ، يقول «والكلام عليها غُبْرٌ قَدْ جُهِدَ(١) ، وخِلْفٌ طَالَ مَا أُفِنَ (٢)» . ثم يظهر المثل أخيرًا في سياق كامل بقوله : « وقَدْ مَلَّتْ بِنْتُ الأَنْوَرِ (٣)، ومَلِيْخُ الحُوَارِ (٤)، وقَبِيحٌ بالـمُذَكِّيَةِ أَنْ يُقَاسَ بِالـمِهَارِ (٥)، ولِغَيْرِ تِلْكَ الغَايَةِ ضُمِّرت بَنْوَةُ ، وجَرَتِ القَطِيبُ (٦)، ومِنَ النَّجَابَةِ تَرْكُ الإجَابَةِ ، لأَنَّ الكَلِمَةَ إِذَا لم تَكُنْ صَوَابًا ، كَانَتِ السَّكْتَةُ لَهَا جَوَابًا ، فَإِنْ أَجَبْتُ ، فَمُكْرَهٌ أَخُوكَ لاَ بَطَلٌ (٧)» .

وهذه الأمثال بعضها من صنع أبي العلاء ، وبعضها موروث ، وأظنها تخلص لتصور نزق أبي العلاء من هذا السؤال ، وأنه ليس بالسؤال الذي يتصدّى مثل أبي العلاء للإجابة عنه « فقبيح بالمذكية أن يقاس بالمهار، ولغير تلك الغاية ضمرت بنوة، وجرت القطيب » !! وكأنه يقول: الخيل الجياد ليس هذا مضمارها ، كما أن العقول الكبيرة الراجحة ليس هذا ما تختبر به . ومما يؤكد لنا هذا قوله التالي : « ومن النجابة ترك الإجابة ... » .

وبهذه الطريقة ترى كلامه يقترب من حمى الأمثال ، ويوشك أن يقع فيه ، ثم يعود عنه ، ثم يقترب منه من جديد ، حتى تزداد النفس تشوفًا ، والأذن طلبًا ، والبيان تقبلاً لظهور المثل بمثل هذا الزخم الذي رأيت في بيانه .

وراقب من ثم ظهور المثل في رسالته المنيح ، فإن لظهوره فيها شأنًا آخرَ ، فبعد أن وصف كتاب الوزير أبي القاسم المغربي إلى أهل المعرة ، وأحال وبالغ في

---

(١) غبر : بقية لبن ، جُهِد : استخرج زبده .

(٢) الخلف : حلمة الضرع ، أفن : أي حُلب .

(٣) ملت : أسرعت في المشي ، الأنور : الحسن .

(٤) مليخ : بطيء وضعيف ، الحوار : ولد الناقة ساعة تضعه أو إلى أن يفصل عن أمه .

(٥) المذكية من الخيل التي كمل سنها وتمت قوتها ، ومن أمثال العرب : « مذكية تقاس بالجذاع » إنكارًا، ويضرب مثلاً لخطأ الناس في التشبيه ، والمعنى ما يجعل الصغير مثل الكبير .

(٦) يُقال : ضمر الخيل إذا ربطها وأكثر علفها وماءها حتى تسمن ، ثم قللهما مدة وركضها في الميدان حتى تهزل ، ومدة التضمير عند العرب أربعون يومًا ، وبنوة : اسم فرس ، وجرت : مشت ، والقطيب : اسم فرس أخرى .

(٧) أي إنما أنا محمول على القتال ولست شجاعًا ، وهو مثل يُضرب لمن دُفع لعمل وليس أهلاً له .

صفته ما شاء ، ووصف من ثم شوقه إليه ، أخذ يصف سلامه الوارد في الكتاب ، وفعله في أهل المعرة ، متوسطًا بذلك لوصف براعة بيان ابن المغربي ، وهنا تبدأ لغة أبي العلاء بالتهيء لدخول عالم المثل منذ قوله : « وإنْ نَالُوا بِمنِّه أَوصَافَ الأَتْقِياءِ الأَبْرَارِ ، فقد نَزَلَتْ بِهم خِلة من خِلال الأَشْقِياء الكُفَّار »، وهو في هذا الجزء يريد أن يصف أثر الكتاب في أهل المعرة ، فإن كان سلامه الذي فيه يقربهم من صورة أهل الجنة ، والسلام الذي وعدوا به ، فإن بلاغته التي لا طوق لهم بها ، وما يصيبهم من عجز أمامها ، تقربهم من صفة أهل النار ، الذين لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يقول [1] : « وذلك أَنَّهم بِأَسَدِ البَلاَغَةِ افْتُرِسُوا ، وبِأسبابها عُقِدَتْ أَلسنتهم عنِ الجوابِ فَخَرِسُوا [2] ، وكأنما قيل لهم (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)، وإنما غرقوا في لُجِّ التَّبَانَةِ فصمتوا [3]، وسمعوا صَوَاعِقَ الإبانةِ فَخَفَتُوا [4] ، فَقَلَمُ كاتبهم عُودُ النَّاكتِ [5] » .

وفي هذا الجزء تتلاحق كما ترى ست جمل ، في كل واحدة منها صورة : (أسد البلاغة ، لج التبانة ، صواعق الإبانة ، كأنما قيل لهم هذا يوم ... ، قلم كاتبهم عود الناكت)، وكلها تشبيه على اختلاف صوره . ثم تأتي ثلاث جمل خالية من التشبيهات والصور يقول فيها « وجوابُ بليغهم حَيْرَةُ السَّاكِتِ ،على أنهم رَامُوا تَصْرِيفَ الخطابِ فَصرُفُوا [6] ، وعَرَفوا مكانَ فَضْلِهِ فاعْتَرفوا »، ثم تعود التشبيهات للظهور، حيث شبه منزلتهم بمبارك الإبل، ومنزلته هو بإزائهم بمواقع نجوم السماء، ثم ترى استعارتين مكنية في جعله الهمم تُستنهض ، والهواجس تُوعَد ، ويُوفى لها بالوعد يقول : « وتراءَوْهُ من مَبَارِكِ العُرُوجِ ، فَلَمَحُوه في مَآرِكِ البُرُوجِ [7]،

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٧ .

(٢) أسد البلاغة : يريد به أبا القاسم المغربي .

(٣) التبانة : الفطنة .

(٤) الإبانة : الفصاحة ، خفتوا : أي خفتت أصواتهم .

(٥) الناكت : الذي ينجث الأرض بعود أو قلم ، وإنما يفعل ذلك لحياء أو شغل قلب .

(٦) تصريف الخطاب : تبيينه ، صرفوا : أي أصيبوا بالصرفة ، أي صرفهم الله عز وجل عن مداناة ما هو في مثل بلاغته .

(٧) تراءوه : نظروه أو تكلفوا النظر إليه ، العروج : جمع عرج وهو القطيع من الإبل ، المآرك : جمع مأرك وهو المقام ، ويأرك : يقيم .

واستَنْهَضَتْهُم الهِمَمُ إلى مُدانَاتِـهِ فَعَجَزوا ، ووعَدُوا هَوَاجِسَهُم التبلُّدَ فأَنْجَزُوا »، وهو في كل الجمل السابقة محافظ على السجع والجناس إن أمكن ، فقد ألزم نفسه في كل ذلك بأن تتفق كل فاصلتين في ثلاثة أحرف بدلاً من حرف واحد ، وأخذ يراوح بين التي تنتهي بواو الجماعة والتي تنتهي بغيرها ، فالأولى والثانية تنتهي بواو الجماعة في قوله : (افترسوا ، فخسروا) ، والثالثة والرابعة التي هي في الآية القرآنية تنتهي بالواو مع النون (ينطقون ، فيعتذرون) ، ثم في الخامسة والسادسة يعود لواو الجماعة في (صمتوا ، وخفتوا) ، وفيما بعد ذلك يعود عنها مع (الساكت، الناكت) ، ثم يعود إليها في قوله (فصرفوا ، فاعترفوا) ، ثم يعود عنها مع (العروج ، البروج) ، ثم يعود إليها في (فعجزوا ، فأنجزوا) . وبذلك ألزم نفسه بهذا الترتيب الذي أكسبها إيقاعًا لا تغفله الأذن . ولا تغفل ما لتساوي جمله في الطول من إيقاع ونغم ، بالإضافة لتكراره لبعض الأصوات فيها ، فتأمل كيف أشاع صوت السين والتاء بين الجملتين الأوليين « وذلك أنهم بأسد البلاغة افترسوا، وبأسبابها عقدت ألسنتهم عن الجواب فخرسوا »، ثم تراه من بعد قوله « وإنما غرقوا في لج التبانة » ، وحتى قوله « وقلم كاتبهم عود الناكت » يرفع تكرار صوتي التاء والنون . وتراه يجانس جناسًا اشتقاقيًا بين (تصريف ، وصرفوا)، و(عرفوا ، واعترفوا) ، وجناسًا لاحقًا بين (مبارك ، ومارك) . وترى المقابلة بين (مبارك العروج « وهي قطعان الإبل وأماكنها » ، و مارك البروج « منازل أبراج السماء ») ، ثم إن هناك شيئًا هو أشبه ما يكون بالطباق والمقابلة ، وليس طباقًا محضًا ولا مقابلة محضة ، وقد يدخل في الطباق الخفي ، تراه بين (لج التبانة ، وصواعق الإبانة)، و (قلم الكاتب ، وعود الناكت) ، وبين (جواب البليغ ، وحيرة الساكت) ، وبين (استنهاض الهمم ، ووعد الهواجس بالتبلد) ، ثم يظهر المثل « ولَنْ تُوجَدَ آثَارُ النُّوق في أَوْكَارِ الأَنُوق (١)» والنفس قد استشرفت لظهوره ، والمقام قد بدأ يتطلبه ؛ لأن هذه الصور المتلاحقة في وصف العجز ، والصمت ، والخرس الذي

(١) الأنوق : الرخمة أو العقاب تبيض في رؤوس الجبال ، لذلك يقال في المثل : أعز من بيض الأنوق .

لحق بأهل المعرة من جراء بيان ابن المغربي ، تتطلب ما يثبتها ويخرج بها عن حدود المبالغة ، فيأتي المثل ليؤكد أنها حقيقة لا مراء فيها ، لأن المثل هنا يفترض بأن هذا العجز منهم أمر مسلم به ، كما أن عجز النوق عن أن يكون لها أثر في أوكار العقبان أمر مسلم به سواءً بسواء .

ثم يعود أبو العلاء بعد هذا المثل إلى الكلام الخالي من المثل ، والذي يتحدث فيه عن مقدرة الوزير البلاغية التي يُستطاع بها « إِعَادَةُ اليَمِّ كَالْغَدِيرِ المُسَمَّى بالغَدْرِ ، وإِلْحَاقِ السُّهَى بِالقَمَرِ ليلة البَدْرِ [(١)] » ولا يكاد يطيل فيه ، وكله أخيلة (يتأملون وميضه الآلق ، إعادة اليم كالغدير ، وإلحاق السهى بالبدر) ، ثم يظهر المثل من جديد « ولَمْ يَزَلِ المَاشِي العَازِمُ أَسْرَعَ مِنْ رَاكِبِ الرَّازِمِ[(٢)] » ثم يعود كلامه عن المثل، ويرجع عنه إلى الكلام الخالي منه ، ويستمر فيه شيئًا ما ، مسترسلاً في وصف مقدرة الوزير البلاغية ، حتى يقول : « وَمنْ لَنَا بأَنَّ اللفظَ المَشُوفَ يُمَثَّلُ عليه التمثيلُ على الحَرُوف، فَتُكَلَّفَ أَلْبَابُنَا اقتضابَ العَسِير ، ورُكوبَ ما ليس بيسير، فعساها تَبَلُّ بِفِقْرَةٍ زاهرة ، أو تظفَرُ باستخراج لؤلؤةٍ فَاخِرة[(٣)] » .

وهذا التساؤل تجسده هذه الصورة المبتكرة ، الحية ، لألباب أهل المعرة تمتطي ظهور الألفاظ ، وقد استحالت الأخيرة حَروف فتية ، صعبة المراس ؛ لتذللها طمعًا بأن تظفر بلآلىء من البيان فاخرة = أقول أن هذا التساؤل بعد كل ما سبق من تفنن في وصف بلاغة ابن المغربي ، وفي عجز أهل المعرة في المقابل يحتاج إلى إجابة من نوعٍ خاص ، إجابة على مستوى عالٍ من تكثيف الدلالة ، فيقع اختيار أبي العلاء على المثل كاستجابة ذكية لما يقتضيه مقام الكلام ، فيظهر أول سياق للأمثال في رسالة المنيح في موقع يتطلبه ، ومعنىً يُطالب به، وهو « على أنه من العناء سؤال البرم ... »، وقد سبق تناوله بالدرس، وقد رأينا في كل ما سبق كيف

---

(١) السهى : كويكب خفي الضوء صغير .

(٢) الرازم : البعير المعيي ، وهو يريد أن يقول بأن الماشي إذا صدقت عزيمته كان أسرع من راكب بعير منهوك القوى ، وهو بذلك يُعرض بأهل المعرة .

(٣) المشوف : المجلو ، يمثل : يؤتى له بمثال ، الحروف : النوق الضامرة ، الاقتضاب : ركوب الناقة الفتية لتذليلها ، العسير : الناقة الصعبة ، تبل : تظفر .

هيأ بتزاحم الصور وكثرة المحسنات لظهور المثل ، فظهر في صورة فردية ، ثم اختفى، ثم عاود الظهور أيضًا في صورة فردية ، ثم اختفى ، ثم ظهر أخيرًا في سياق كامل ، ومن ثم تتعاقب مناطق الأمثال في رسالته بين الظهور والاختفاء !!

وبمثل هذه الأساليب يُضمىء أبو العلاء بيانه للأمثال ، حتى إذا جاء فيضها رأينا هذا البيان يتشربها ولا يَغصُّ بها !!

وأنت واجد أن هناك علاقة وطيدة في لغة أبي العلاء بين التشبيه أو التصوير بصفة عامة وظهور المثل ، انظر إلى قوله من الرسالة التي بعث بها إلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يدعى الحسين بن عنبسة ، وهو بصدد الاعتذار عن تقصيره في المكاتبة للمرسل إليه ، وتقصيره أيضًا عن أداء حقه عليه، ويشبهه بعجز قرن الفتاة عن إدراك الرمح ، وعجز كفيل منقع الماء عن دفع الإبل المطرودة يقول(١) : « وقد كُنْت عَجِزْتُ عن أداء حَقّ سيدي عَجْزَ رَوْقِ الفَتَاةِ دون إدْرَاك القَنَاةِ ، وضَمِين الوَجْد المَوْرُودِ عن تَغْمير نَعَمٍ مَطْرُود(٢) » ، ثم يظهر سياق المثل بقوله :« فَمَا تَرَاني الآنَ أقولُ، عَلَي أيِّ صرِعيَّ أقع، وفي أيِّ وجهٍ أَبْقَع، حَيَّاك من خَلاَفُوهُ ، لا أُحَدِّثُ عَرِيبًا ، ولا أَسْأَلُ مُجِيبًا(٣) » ، فأنت ترى أنه مهد بهاتين الصورتين في تشبيه عجزه عن أداء حق سيده بعجز روق الفتاة، وعجز ضمين الوجد المورود –لظهور هذا السياق من الأمثال الذي أمامك ، ولا تغفل لغة التشبيهين ، وهذا التساوق في البناء ، والتوازن والازدواج ، وتكراره لصوت العين والدال والراء ، مما أكسب كلامه نغمًا وجرسًا . وهذا يذكرك ولا بد بسياق التشبيهات الآنفة الذكر ، التي مهدت لظهور المثل في رسالة المنيح ، حيث تتآزر صنعة أبي العلاء النغمية –إن جاز لنا التعبير– من جناس ، وسجع ، وتكرار حروف ، وتساوق بناء ، وتوازن في طول الجمل – بالإضافة لوجود الأخيلة ،

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٤٥ .

(٢) روق الفتاة : قرنها ، القناة : الرمح ، ضمين الوجد المورود : أي كفيل منقع الماء ، عن تغمير نعم مطرود : أي دفع الإبل المطرودة عن الماء .

(٣) على أي صرعي أقع : مثل ، وصرعي الشيء : طرفاه ، وفي أي وجه أبقع : مثل كذلك ، وأبقع : بمعنى أذهب ، وحياك من خلافوه : مثل أيضًا يُضرب للرجل تكلمه وهو منشغل عنك لا يجيبك ، ومعناه : رد سلامك من ليس في فمه لقمة تشغله .

والتشبيهات ، التي هي بمثابة نغم داخلي لمعاني كلامه ، يؤازر ذلك النغم الخارجي لأصواته .

وشبيه به قوله من الرسالة نفسها [1]« ولو كَتَمْتُها نَمَّ بها الخَلَدُ نَميمَةَ الزُّجَاجِ بالرَّاحِ ، والنَّخْلَةِ بنفسها في البَرَاحِ[2] ، وكيف يَسْتَسِرُّ من قادَ البَازِلَ ، ويَسْتَتِرُ من طَوَى المَنَازِلَ[3] ، والنَّظْرَةُ من ذِي عَلَقٍ كافِيَةٌ ، والنَّهْلَةُ بعد طَلَقٍ شَافِيَةٌ [4]» .

فهذان تشبيهان على صورة المفعول المطلق : (نم بها نميمة الزجاج ... ، ونميمة النخلة ...) يتقدمان ظهور المثل في هذا السياق ، فأبو العلاء يتحدث هنا عن عدم مقدرته على إخفاء مودته للمرسل إليه ، وأن قلبه سوف يفضح هذه المودة ، ويظهرها ، كما تكشف الزجاجة ما بداخلها من شراب ، وكما تتكشف النخلة بادية في الأرض الخالية .

واللافت للنظر هنا أن الصورة ذاتها من المثل ؛ فالعرب تقول « أنم من الزجاجة على ما فيها » [5]، ويقولون « أنم من كأس على راح »[6] ، ويكاد يكون سياق الأمثال منذ قوله « وكيف يستسر ... » كله بمثابة توكيد لهاتين الصورتين .

ومن ذلك أيضًا تهيئته لسياق « ولكن صنع الزمن ما هو صانع ... » الآنف الذكر ، حيث مَهَّد له بصورة طويلة، تمتد هذه الصورة بين مبتدأ وخبر ما الحجازية في قوله[7] : « مـا حَمَامَـةٌ ذَاتُ طَوْقٍ يُضْرَبُ بهـا المَثَلُ في الشَّوْقِ ، كَانَتْ في وَكْرٍ مَصُونٍ ... بِأَشْوَقَ إلى المعيشَةِالنَّضْرةِ مني إلى تِلْك الحَضْرَةِ ، ولكن صَنَعَ الزَّمَنُ ما هُو صَانِع» وهذا من التشبيه الضمني، وسوف نتناولها بمزيد تفصيل في فصل تكوينات الجمل بإذن اللّه [8].

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٣٦ .

(٢) البراح : الأرض الواسعة التي لا نبات فيها .

(٣) يستسر : يختفي ، البازل : ما بزل نابه من الإبل ، والجملتين من المثل « أشهر ممن قاد الجمل » .

(٤) النظرة من ذي علق كافية : مثل يُضرب للرجل يحب الشيء فيجتزيء من معرفته بالقليل ، والنهلة : الشربة أول الشرب ، والطلق : سير الإبل لورد العب ، وهو أن يكون بينها وبين الماء ليلتان ، فالليلة الأولى تسمى الطلق لأن الراعي يخليها إلى الماء ويتركها مع ذلك ترعى في سيرها، وبذلك تكون النهلة بعد شرب الطلق شافية وكافية ، وهو مثل من صنع أبي العلاء على ما أرجح .

(٥) العسكري ، أبو هلال : جمهرة أمثال العرب ، ٢/٢٩٨ .

(٦) السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٨) انظر فصل « نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها » من هذه الرسالة ، ص ٢١٤ وما بعدها .

وربما سبقت الصورة ظهور الأمثال، ومهدت لها منذ بداية الرسالة ، واستقلت بهذه المهمة بمفردها في مثل رسالته هذه إلى أبي نصر الفلاحي ، عندما استدناه إلى حضرة عزيز الدولة ، حيث يمهد للسياق الذي سبقت دراسته « والرائد لا يكذب أهله ، فأما العبد ... » بقوله « لَوْ أهْدَيتُ إلى حَضْرَةِ سَيِّدي الرَّبيع يُزْهَي بِأَحْسَنِ زَهْرِهِ ، والبَحْرَ يَتَباهى بالنَّفِيس من جَوْهَرِه، لكان عندي أنِّي قد قَصَّرْتُ واخْتَصرْتُ، فكيفَ بِي ولاَ أَقْدِرَ أن أُهْدِي زَهْرَةًولا أَنْتَزِعُ صَدفَةً، فَدَعِ الجَوْهَرَة، والرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أهلَه ... » فهاتان استعارتان مكنيتان ، يستحيل بهما الربيع والبحر كائنين يرفلان في ثوب الخيلاء ، ويُزَفَّان إلى أبي نصر الفلاحي .

وربما تكون التهيئة لظهور المثل بآية يعدل بها عن الأسلوب المباشر إلى الأمثال ، وهذا قليل في بيانه ، ومن ذلك ما رأيناه في رسالته ، التي بعث بها جوابًا عن رقعة كتبها إليه رجل في حال عدل من عدول القاضي ترك الشهادة واستعفى منها، حيث يقول:« فيما ذكره سيدي الشيخ تذكرة (لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)» فهذه آية مَهَّد بها لسياق من أربعة أمثال ، تلاه سياق للأمثال آخر . وهو الذي يقول في بدايته « ولكن ليس لقلب خداش أذنان ... » . ومن ذلك أيضًا قوله من الرسالة التي بعث بها إلى خاله ، يذكر فيها أمر شرح السيرافي ، وما جرى فيه من التعب يقول[1] : « وإنَّما رَجَوْت ببَركته أن يَتَّفق أُنَاسٌ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعالَى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ[2] دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ)، فَأَمَّا أنا فلا أقول (عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا) » فقد اقتبس آيتين شريفتين من سورة يوسف ، كما استدعى قصته عليه السلام، ثم قطع واستأنف حديثًا جديدًا، حيث يقول : « وأَمَّا مَا ذكَرَه من فَسَاد النَّاس فَأَحْلفُ ما حَلِمَ الأديمُ ، وإنَّ ذلك لَدَاءٌ قَدِيمٌ [3]، النَّمرةُ بِنْتُ النَّمرَة ، والقَتَادةُ أُخْتُ السَّمُرَة [4]» .

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٣٧ .

(٢) بخس : أي مبخوس .

(٣) قوله : ما حلم الأديم ، وإن ذلك لداء قديم : من المثل كـ « دابغة وقد حلم الأديم » ، ويُضرب للسعي في إصلاح الأمر بعد بلوغ الفساد فيه مبلغًا لا يرجى معه الإصلاح .

(٤) القتادة : واحدة القتاد ، وهو شجر صلب له شوك كالإبر ، السمرة : العضاة . وقوله : النمرة بنت النمرة ، والقتادة أخت السمرة : على شاكلة المثل القائل : هو أشبه به من التمرة بالتمرة ، وهو أشبه به من الغراب بالغراب ، وهو أشبه به من الماء بالماء ، ويُضرب مثلاً في تشابه الشيئين من غير نسب .

وقد تُسْلمنا أبيات من الشعر لفيض أمثاله فسياق « لنفسي أقول... » السابق، مهد له بستة أبيات ، يبدؤها بقوله[1] :

إنَّ العِرَاقَ لأهْلي لم يَكُن وَطَنًا   والبابُ دون أبي غَسَّان مَسْدودُ

وفي البيت الرابع منها تظهر أنفاس السياق التالي من الأمثال " لنفسي أقـول ... " بجلاء حيث يقول البيت[2] :

حَنَّت إلَى نَخْلَةِ القُصْوَى فقُلْتُ لَهَا   بَسْلٌ حَرَامٌ ألاَ تِلْكَ الدَّهَارِيسُ

والشاعر هنا يخاطب نفسه : لا تستشرفي يا نفس إلى ما لا سبيل إليه ، وسياق « لنفسي أقول ... » كله حديث مع الذات ، فيه الكثير من اللوم والكبح . وكما مهد لهذا السياق الذي يتكون من اثني عشر مثلاً بالشعر ، فهو ينسل منه بالشعر أيضًا ، فيقول في ختامه[3] :

لِكُلِّ أُنَاسٍ مِنْ مَعَدٍّ عَمَارة   عُرُوض إليها يَلْجَؤُن وجَانِبُ

وتتكرر هذه الظاهرة في بيانه ، فمن نفس الرسالة ترى سياق « ولو علمت أني أرجع على قروائي ... » الآنف ، قد سُبق ببيت شعر ، وهو[4] :

ومَنْ لا يَزَلْ يَسْتَحْمِلَ النَّاسَ نَفْسَهُ   ولا يُعْفِهـا يومًا من الذَّمِّ يُسأَمِ

ويختمه ببيت شعر :

يا أيُّهَا المُضْمِرُ هَمًّا لا تُهَمّ   إنَّكَ إنْ تُقْدَر لَكَ الحُمَّى تُحَمّ

وربما مهد الشعر لظهور المثل والمثلين ، وليس السياق الكامل فحسب ، فمن ذلك قوله من الرسالة التي بعث بها جوابًا لأبي الحسن محمد بن سنان ، لما جاءه كتابه في أمر كليلة ودمنة ، وما تقدم بـه السلطان من اختصار أمثاله ، حيث يقول وهو بصدد إظهار علة طاعته للسلطان ، وأنها عليه بالذات فرض واجب [5] :

« إذا كَانَ هَادِي الفَتَى في البِلاَ   دِ صَدْرَ القَنَاةِ أَطَاعَ الأميرا[6]

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٩٠/١ .
(٢) السابق ، ص ١٩١ .
(٣) السابق ، ص ١٩٤ .
(٤) السابق ، ص ٢٠١ .
(٥) السابق ، ٣/ ٦٥٠ - ٦٥١ .
(٦) هادي : دليل ، صدر القناة : أعلاها ومقدمها .

وإنْ وُفِّقْتُ والتَّوْفِيقُ مِنِّي بَعِيدٌ ، فَإِنَّمَا ذلك مَيْسِرٌ من أَبْرَامٍ (١) ، ورَمْيَةٌ من غير رَامٍ (٢)».

هذا عندما لا تكون مناطق المثل في بيانه متقاربة ، أما عندما تكون متقاربة ، فإن اللغة التي يستروح بها أبو العلاء من عالم المثل ، وهي غالبًا لغة ذات طبيعة خاصة جدًا - تكون بمثابة تمهيد لمنطقة جديدة من الأمثال ، فتراه حين يترك المثل البحت ينتقل إلى اللغة التي هي من المثل بسبيل ، فمثلاً عندما ينتهي سياق « ورب سامع خبري لم يسمع عذري ... » الآنف ، يقول(٣) : « مـا نَكَّبْتُ حلَب في الإبْداء والانْكِفَاء ، إلا كما تَنَكَّبُ خَرِيدَةُ المحار ، لما دُونَها منْ هَوْل البِحَار(٤) ، وأَنَا كَمَا علم أدَام الله تَأْييدَهُ وَحْشِيُّ الغَرِيزَةِ(٥) ، إِنْسِيُّ الوِلاَدَةِ ، وكُلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ (٦)» .

فاللغة هنا تنزع إلى المثل ، وتحن إليه ، وكأنه لا يترك المثل إلا وهو متعلق به ؛ فيشبع تعلق لغته بالمثل بمثل هذه التشبيهات« إلا كما تنكب خريدة المحار، لما دونها من هول البحار » ، وبالسجع الذي تحول إلى جناس مضارع بين (المحار والبحار)، وبتكراره لحرف الكاف والنون والباء ، وأيضًا بهذا التعادل في المعاني ، والمقابلة بينها في قوله « وحشي الغريزة ، إنسي الولادة »، وفيه أيضًا تعادل في المباني . ثم تراه بعد هذه اللغة يرمي بمثل « وكل أَزَبَّ نَفُور » ، ثم ينتقل إلى الشعر وكله مثل . هكذا مهدت لغة أبي العلاء التي استروح بها من الأمثال إلى أمثال جديدة .

وانظر كيف استروح بعد أمثاله في الرسالة التي بعث بها إلى رجل قيل أن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري ، فبعد قوله « فقلت الإشراق على ثبير،

---

(١) الميسر : الجذور الذي يشترونه في لعب الميسر ويتقامرون عليه ، والأبرام : جمع بَرَم وهو البخيل ومن لا يدخل مع القوم في الميسر لشحه .

(٢) مثل يُضرب لمن أصاب في عمل وليس هو من أهله .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٨٢/١ .

(٤) نكبت : عدلت ، الإبداء والانكفاء : الذهاب والرجوع ، الخريدة : اللؤلؤة . وهو يريد أن يقول بأنني لم أترك المرور على حلب إلا كما تُترك اللؤلؤة لما دونها من مخافة البحر وليس زهادة فيها .

(٥) الغريزة : أي الطبيعة .

(٦) الأزب من الإبل : الكثير شعر الوجه والعثنون ، والعبارة مثل ، والمعنى أن البعير الكثير الشعر على وجهه وعثنونه نفور ، وذلك أن ما حول عينيه من الشعر يخيل له المنظورات على خلاف ما هي عليه فينفر .. وأبو العلاء يشير بذلك إلى زمانته وعماه .

(ولا ينبئك مثل خبير » ، وهـو آخر سياق أمثالـه السابق درسـه = تراه يقول[1] :

« فَلَمَّا وَرَدَ كِتَابُك أَنَّك لم تَدْخُلها ، صرْتُ بين عَجَبَيْنِ ، عَجَبٍ من مُوْسى وعَجَبٍ مِنْ حُسَيْنٍ ، ظَانِّ الخَيْر ، وزَاجِرِ شِمالي الطَّيْر[2] ، فأما مُوسَى فَجَرَى على عَادَة المُكَارِينَ، ونَوَات البُرِينَ ، ورَكِبَ لهم طريقًا كالضَّيْحِ ، وخُطُوط السَّيْحِ [3] ، وأَمَّا حُسَيْن فَهُو الثِّقَةُ ، ولكِنَّهُ شَبَّهَ ومَا أَبَهَ ، وَتَحسَّبَ وما نَسَبَ [4]» .

فانظر إلى هذه القطعة ذات اللغة الخاصة ، التي استروح بها أبو العلاء من سياق أمثاله السابق درسه ، فهذا التقسيم ، وهذا التوازن في طول الجمل ، الذي يفرض إيقاعه الخاص ، وهذا الطباق الخفي بين « ظان الخير »، و« زاجر شمالي الطير»، والتشبيه : (كالضيح، وخطوط السيح) ، والكناية : (تحسَّب – كناية عن النوم والغفلة) ، والتكرار « عجبين ، عجب ... ، وعجب ...» ، والسجع بين (عجبين، وحسين) ، و (الخير ، الطير) ، و (المكارين ، والبرين) ، و(الضيح، والسيح) ، والجناس اللاحق بين (الضيح ، والسيح)، و بين (شبه ، وأبه)، وبين (تحسَّب ونسب) = فالجزء زاخرٌ بألوانٍ بلاغية شتى ، وزاخر بالموسيقى، حتى يسلمك إلى المثل من جديد بقوله : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود »، وهو شطر بيت لطرفة بن العبد يسير سيرورة المثل .

وكذلك تأمل لغته بعد فراغه من سياق « والرائد لا يكذب أهله ... » الآنف الذكر، يقول[5] : « إِنْ كَذَبْت ، فَعَن الخيرِ أَعْذَبْت ، ماَاعْتَزَلْتُ ، حَتَّى جَدَدْتُ وهَزَلْتُ، فَوَجَدْتُنِي لا أَصْلُح لِجَدٍّ ولا هَزْلٍ ، فعندها رَضِيتُ بالأَزْلِ[6] » .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) زاجر الطير : هو الذي يرمي الطائر بحصاة أو يصيح به ، فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل به ، وإن ولاه مياسره تطير منه ، ويريد به من أتاه بخبر فَقْد هذا الصديق ، وربما عنى به المتشائم ليقابل به ظان الخير .

(٣) البرين – جمع بُرَة – : وهي حلقة صفر أو نحاس تكون في أنف البعير ، فذوات البرين هي الإبل ، الضيح : الشمس ، السيح : كساء فيه خطوط ، ويقصد بهذين التشبيهين « كالضيح وخطوط السيح » ، أي : اتبع لهم طريقًا واضحة كون المكارين يُعرفون بالغدر .

(٤) تحسب : أي توسد ، أي جعل الوسادة تحت رأسه كناية عن النوم والغفلة ، وما نسب : أي ما ذكر شيئًا ، أبه : أي فطن .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٣٣ .

(٦) أعذبت : كففت عنه وتركت ، الأزل : الضيق والشدة .

انظر إلى ارتفاع تكرار حرف التاء في قوله : « إن كذبت ، فعن الخير أعذبت، ما اعتزلت ، حتى جددت وهزلت » ، وانظر إلى الطباق بين (جددت ، وهزلت) ، وبين (الجد ، والهزل) ، والقرب الشديد في طول فواصلها، مع قصرها ، بالإضافة إلى السجع بين (كذبت ، وأعذبت) ، وبين (اعتزلت ، وهزلت) ، والذي تحول إلى جناس مضارع بين (هزل ، والأزل) .

ونحن وإن كنا نعلم أن السجع ، والجناس من لوازم أسلوب أبي العلاء بصفة عامة ، إلا أن ارتفاع وتيرتها في كلامه ، مع حشد المحسنات الأخرى التي قد تعضدها–وسيلة جيدة لإعطائنا لغة ذات طبيعة خاصة ، تصلح لأن تكون لغة للفراغ من لغة الأمثال ، أو ممهدة لظهور الأمثال . وهذا أظهر ما يكون في رسالته المنيح ، وقد رأيت من قبل كيف مَهَّد بها لظهور المثل فيها . وتأمل هذا أيضًا ، ففي السياق الذي يقول فيه : « وهم في هذا الصُّقْع كأسنان المَسَارح ... » الآنف، والذي تحدث فيه عن صفة المعرة وأهلها–يشترك الجناس ، والتشبيه في نسج لغة خاصة يستروح بها أبو العلاء من هذا السياق الطويل ، الذي يحوي بداخله اثني عشر مثلاً ، حيث يُتْبِعه بثلاث جمل ، كل جملة منها يتبعها تشبيه ، والثالثة يتبعها تشبيه بداخله أربع صور متتالية ، معطوفة بعضها على بعض ، وكما قلنا فقد اعتمدت لغة التشبيهات على الجناس انظر[1] : « لا يزالُونَ يُمارسون جَابَة تَنْفِي النَّجابَة [2]»، هذه هي الجملة الأولى ، أردفها بتشبيه على صورة المفعول المطلق « نَفْيَ الدَّبرِ للوَبَر ، والسَّبُعِ لابن الضَّبُع[3] » ، ويريد أن يقول بأنهم لا يزالون يعانون معه غلظ العيش ، الذي يبعد عنهم النجابة والذكاء ، وينفيها كما تنفي قروح الناقة شعرها ، وكما ينفي السبع أبناء الضباع عن صيده ، فجانس بين (جابة ، ونجابة) جناسًا ناقصًا ، ولاحقًا بين (الدبر ، والوبر) ، وبين (السبع ، والضبع).

ثم قال : « ويَتَبَيَّنُ فيهم الزَّلَلُ من خَوْفِ الثَّلل[4] » ، وهذه هي الجملة الثانية

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧١ .
(٢) أصل الجابة : الغليظة ، توصف بها الأروية ونحوها واستعيرت هنا للمعيشة الغليظة .
(٣) الدبر : قروح الناقة .
(٤) الثلل : الهلاك .

التي يردفها بتشبيه أيضًا ، ولكنه هنا تشبيه مرسل « كما بـان القَلَـح مِنْ وراءِ الفَلَـح[1] » ، وهو يريد أن يقول أن خوفهم الهلاك لا يزال يُظهر منهم الزلات ، كما يُظهر الشَقُّ في الشفة ما وراءه من صفرة الأسنان . فجانس بين (الزلل ، والثلل) جناسًا مضـارعًا ، ولاحقًا بين (القلح ، الفلح). ثم يقول : « فـقليلُ العِلْمِ منهم يُسْتَطْرَف، ويُسْتَغْرَبُ ، ولا يَكادُ يُعْرَف» وهي جملة تعدد خبرها في صورة جمل فعلية ، ويقصد بها أن قليل العلم فيهم يعد أمرًا ظريفًا عجيبًا في غير محله ، كما تستطرف الأقراط إذا ما عُلِّقت على الأنوف، وحلية المرأة إذا ما تحلى بها العقاب ، أو رأيتها في عنق الوعل، أو كما تستطرف الظباء إذا حلت القرى، يقول:«كالشُّنُوفِ على الأُنُوف ، والحِقَابِ في وسط العـقـاب ، والوَدَعِ في عُنُق الصَّدَع ، والفُورِ بين أَهْلِ الكُفُور » ، فجانس جناسًا لاحقًا بين (الشنوف ، والأنوف) ، وبين (الودع ، والصدع)، وجناسًا مضارعًا بين (الحقاب ، والعقاب) ، وآخر ناقصًا بين (الفور، والكفور) . ثم تسلمنا هذه اللغة التي رأيت من وصفها ما رأيت للمثل من جديد ، بقوله : « فَسَالِمُهم هَـامَةُ اليومِ أو غَدٍ » .

أرأيت أي لغة استروح بها أبو العلاء بعد سياقه الطويل السابق للأمثال حتى يلج إلى الأمثال من جديد ؟ ! فهي لغة شديدة التحبير، عالية التوقيع ، لا تخلو جملة فيها من صورة أو محسن بديعي ! .

وقد يستغني أبو العلاء عن هذه اللغة فيسلم سياق من الأمثال إلى آخر ، حيث يقطع ويستـأنف كلامًا جديدًا هو أيضًا من جلد المثل ، وهذا هو الأندر وقوعًا في بيانه . تجده في نحو سياق « فلما زنبت ... » الآنف الذكر ، حيث يسبقه سياق يقول فيه بعد حديثه عن العلم في بغداد وتوفره[2] : « وَلَكِن عَلَى كُلِّ خـيـر مَـانِع ، ودُونَ كلِّ دُرَّةٍ خَرْسَـاءُ مُوَحِّيَةٌ[3] ، أو خَضْرَاءُ طَامِيَةٌ [4]:

إِذَا لم تَسْتَطِعِ شَـيْئًا فَدَعْهُ ... وجَـاوِزْهُ إلـى ما تَـسْـتَطِيعُ

(١) القلح : صفرة الأسنان ، الفلح : شق في الشفة السفلى .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٦ .

(٣) الدرة : اللؤلؤة ، الخرساء : سحابة ليس فيها رعد ولا برق وهي تمنع من التقاط الدر ، موحية : أي معجلة .

(٤) الخضراء : اللجة ، طامية : مرتفعة .

يَكْفِيكَ مـا بَـلَّـغَكَ الـمَحَـلَّ ، إنْ عَجزَ ظِـلٌّ عن شَخْـصِكَ فَـلاَ يَـعْجَزَنَّ عن عُضْـوٍ مِنْكَ . فلـمَّـا زَبَنَتِ الضَّـرُوصُ الحَـالِبَ ... » .

وقد رأيت كيف أسلم هذا السياق مباشرة ، ودون أي كلمة من الكلام الخالي من المثل إلى سياق الأمثال التالي ، والأول متكون من خمسة أمثال ، وتاليه من أحد عشر مثلاً . بمعنى أنه تعاقب في بيان أبي العلاء ستة عشر مثلاً دون أي فاصل !!

ومع اختلاف أساليب أبي العلاء للتهيئة للمثل وظهوره ، وللانسلال من زخمه ، إلا أنه لا يظهر في بيانه إلا وقد عطَّش أبو العلاء بيانه له ، وهيأه لاستقباله بكل ذلك الزخم ، فلا تشعر بثقله ، وإنما يأتي وهو مصادف من النفس تشوفًا ، ومن البيان مكانًا مطمئنًا طالبًا ، لا قلقًا ولا نابيًا !!

* * *

والجدير بالملاحظة أن الكثير من أمثال أبي العلاء التي استخدمها في رسائله لم أقع عليها في كتب الأمثال المعروفة ؛ فلم أجد سوى ثلث تلك الأمثال تقريبًا في كتب الأمثال .

فهل بلـغ مـن تصرف أبـي العـلاء فـي الأمثال أن يصنع هـو بنفسه أمثاله الخاصة بـه ؟ ! أم أنها من كلام العرب الذي ضاع ولم يصل إلينا ؟ !!

وأرجح أن هذه الأمثال صناعة علائية ، وأنها مجرد عبارات أخضعها أبو العلاء لصنعته فصاغها صياغة المثل ، وساقها مساقه ، لأنه لا يبعد على من كانت له حافظة كحافظة أبي العلاء ، والتي مكنته من استيعاب هذا المخزون المعرفي الهائل بما فيه الأمثال العربية – أن يتقن النظام العربي العام لصياغة الأمثال العربية ، مما يمكنه أن يصنع أمثالاً هو أبو عذرتها ، أمثالاً لم ترَ النور إلا من خلال رسائله .

انظر إلى قوله من رسالته التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد، وهـو بصدد الحديث عن بغداد والإقامة بها، يقول[1]: « وكُنْتُ ظَنَنْتُ أن الأيَّام تَسْمَحُ لي بالإقامة هُنَاك ، فإذا الضَّارِيَةُ أَحْجَأُ بِعُرَاقِهَا[2] ، والأَمَـةُ أَبْخَلُ بِضَرْبَتِهَا ،

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) الضارية من الحيوانات كالأسد والذئب ، أحجأ : أشد ولعًا وتمسكًا ، عراقها : اللحم والعظم اللذان يبقيان من فريستها .

والعَبْدُ أَشَحُّ بكُرَاعِهِ ، والغُرابُ أَضَنُّ بِتَمْرَتِه [1]» .

وأول ما يقع في روعك عند سماعك لهذه الأمثال العلائية أنها أمثال موروثة ، كونها تسير على السنن العام للأمثال العربية ، ولشدة شبهها بها فإنك وإن نقرت عنها ولم تجدها في كتب الأمثال الموجودة لا تستطيع الجزم بعلائيتها ؛ ذلك أنها أشبه بالأمثال التي هي نتيجة قصة ، أو حدث ، أو عرف عام . فإن أبا العلاء لا يشاكل الأمثال الموروثة ويحاكيها في صياغتها فقط ؛ فتبتعد عبارته عن المباشرة ، وتأخذ شكل القاعدة، بل يشاكلها في مادتها أيضًا ؛ لأنك تجد أنفاس أمثالٍ عربية تحوم حول أمثاله ، ولكنها ليست هي . فإذا كان أبو العلاء صانع أمثاله كما نفترض ، فإنه ولا بد كان حريصًا على ألا تخرج عن حيز العرف العربي ، وكأنه بذلك يريد أن يكسبها شرعية الوجود ، فهذه الأمثال في قربها وبعدها عن المثل الموروث ، بين أن يكون الشأن فيها شأن تغيير في شكل المثل ، أحدثته صنعة أبي العلاء ليناسب سياقه، وبين أن يبتعد – وهو الأكثر – فيكون مثلاً آخر مختلفًا (صناعة علائية محضة)، يشترك مع الأول في عرف عام، أو في جزء من مادته فقط، وأحيانًا لا نجد له قرابة بمثل ما سوى في الصياغة .

ولو عدنا لتأمل الأمثال التي صنعها في السياق السابق ، فأول ما يصادفنا قوله « الضَّارية أَحْجَأ بعُرَاقِها » ، فنحن نجد أمثالاً شبيهة به نحو قولهم « أحرص من كلب على جيفة » ، و « أبخل من كلب »؛ ذلك لأنه إذا نال شيئًا لم يُطمع فيه[2] ، كما نجد من نفس الحقل أمثالاً بها ذكر « العرق » بالذات نحو قولهم « ألأم من كلب على عرق »[3] ، و « أحرص من كلب على عرق » . فجعل أبو العلاء في مثله «الضارية أحجأ بعراقها» الصفة تنسحب على كل السباع وليس الكلاب فقط ، وجعل الصورة أقوى باختياره للفظة « الضارية » دون غيرها (أي التي اعتادت الصيد وضريته) ، بالإضافة للفظة « أحجأ » فهي أشد من الألأم ، ومن أبخل ، وما شاكلها .

ثم انظر من ثم لقوله : « والعبد أَشَحُّ بكُرَاعِهِ » نجد مثلاً عربيًا يقول « أعطي

---

(١) أشح : أبخل ، الكراع : مستدق الساق ، أضن : أبخل .

(٢) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢٤٧/١ .

(٣) السابق ، ١٨٠/٢ .

العبد كراعًا فطلب ذراعًا » ، وهذا يضرب للرجل الشره يُعطى الشيء فيأخذه ، ويطلب أكثر منه[1] . فهذا العبد الشره المستزيد إلحافًا أولى به أن يكون أبخل على كراعه من أن يهبه لأحد ، خاصة وأن العرب تقول في بخل العبيد « الحرُّ يعطي والعبد يَألُم قلبه » ، ومعناه أن العبد لا يجود ، ويشق عليه جود الحر ، وهذا أبعد غايات البخل[2] . وكذلك قول أبي العلاء التالي « والأمة أبخل بضَرْبتها » ، فالعبد والأمة لا يكتفيان بالعبودية حتى يضيفا إليها سوء الطبع ، وشح الأنفس في مثلي أبي العلاء . وهذا لا يخرج عن التصور العربي للعبيد ، وسوء أخلاقهم ، ولؤم طباعهم ، فتراهم يقولون « عبدٌ وخلي في يديه » ، ويضرب للرجل اللئيم يفوض إليه الأمر فيعيث فيه فسادًا[3] ، وشبيه به قولهم « عبد أرسل في سومه » ، و « عبد أرسل في يديه » ، وكلها بنفس المعنى ، ويقولون « عبد صريخه أمة » ، ويضرب مثلاً للذليل يستعين بمثله[4] ، وقولهم « عبد ملك عبدًا » ، ويضرب للشيء يملكه من ليس له بأهل فيعيث فيه[5] ، وكذلك قولهم « حبيب إلى عبد سوء محتده »[6] ، وأيضًا « ليس عبد بأخٍ لك »، أي لا تتكل على عبدك في كل الأمور فإنه لا ينصح لك[7] ، وقولهم«من أَضْرِب بعد الأمة المعارة؟»، ويضرب فيمن يهون عليك أمره[8]و«ما جعل العبد كربه »[9] ، وأيضًا قولهم « من قريب يشبه العبد الأمة »[10] ، وغيره كثير ..

ثم ننتقل إلى المثل الرابع « الغراب أَضَنُّ بتمرته » ، وهذا أيضًا استقاه أبو العلاء من أمثالٍ عربية مشابهة منها « الغراب أعرف بالتمر » ، و « أصاب تمرة الغراب ، أو وجد تمرة الغراب »[11] ، وكلها تضرب للشيء النفيس ؛ لأن الغراب

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١٠٧/١ .
(٢) السابق ، ٣٥٩/١ .
(٣) السابق ، ٥٤/٢ .
(٤) السابق ، ٤٠/٢ .
(٥) السابق ، ٤٣/٢ .
(٦) السابق ، ٣٧٥/١ .
(٧) السابق ، ١٨٥/٢ .
(٨) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٢٦٤/٢ .
(٩) السابق ، ٢٧٢/٢ .
(١٠) السابق ، ٢٧٤/٢ .
(١١) السابق ، ٤٠٤/١ .

يختار أجود التمر ، فهناك إذاً علاقة بين الغراب والتمر ، ولكنها تتحول دلالتها للتعبير عن شح هذا المخلوق ، الذي تنفر منه الطبيعة، العربية وربما البشرية بصفة عامة ، وتتشاءم منه .

هذا الطائر البغيض ، على يدي أبي العلاء يضيف إلى صفاته الشح ، (لأننا نجد في كلامهم « أبكر من غراب »[١] ، و « أبصر من غراب »[٢] ، و « أشأم من غراب »[٣] ، و « أصفى من عين الغراب »[٤] ، ولكننا لا نجد « أبخل من غراب ») .

وهذا التصوير له أنسب للصورة التي يرسمها أبو العلاء ، فهو جيد لكي يكون بجانب الأمة ، والعبد ، والضارية في صورة واحدة ، وفي إطار سياق واحد. وأبو العلاء في هذا السياق يريد أن يعبر عن انقطاع أمله في الحياة في بغداد « وكنت ظننت أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك فإذا الضارية أحجأ بعراقها ... » –بتصويره شح هذه المخلوقات بهائم ، وعبيد ، قاطعًا الأمل فيما بين أيديها !!

ولا شك أن صورة بغداد في رسالة أبي العلاء غير صورتها المستقرة لدينا ، وهي أنها بلد العلماء الذين يقصدهم طلاب العلم ، وبلد القيادات ، والخلافة التي بنت مجد المسلمين .

فهل كان واقع بغداد في زمن أبي العلاء يستحق منه هذا الوصف ؟ ! أم أن ذلك منه تعبير عن شعور خاص ، وتجربة خاصة لا أكثر ؟ !!

وما يدعو للتساؤل هو لماذا يتجه أبو العلاء لصناعة الأمثال هنا رغم أن هناك أمثالاً موروثة عن البخل ؟ !!

لماذا يتجه أبو العلاء إلى الطريق الأصعب ؟! فبدلاً من أن يأخذ المثل الجاهز للاستعمال عن البخل ، يبحث بذهنه في طبائع الأشياء بمعونة ثقافة المثل ، حتى يجد صوراً تجسد البخل ، فيصنع منها أمثاله !!

هل يمكن أن نقول أن من طبع أبي العلاء الرغبة في أن يقدم صيغًا ، وتراكيبًا

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢٤٣/١ .
(٢) السابق ، ٢٤٠/١ .
(٣) السابق ، ٥٥٩/١ .
(٤) السابق ، ٥٦٧/١ .

جديدة ، تدخل في تراث البيان العربي الممثل في الأمثال ، التي كانت من البيان الأثير لديه ، بشهادة هذا الفيض الذي رأيناه . وهذه الرغبة في إبدا ع هذا الفن البياني العالي تدخله في السير في الطريق غير الممهَّد ، الذي يتعشق دائمًا السير فيه ؟ !!

ومن ثم تأمل قدرة أبي العلاء على تحقيق هذه المعادلة الصعبة ، وهي أن يقدم لك التركيب الجديد الخاص به في مجال التركيب الجاهز المعد ، مجال المثل . ثم إذا كانت الأمثال إحدى ذرى بيان العرب ، التي لا يطيق بناءها إلا من كان صحيح الطبع قوي الفطرة ، فهل لنا أن نقول بأن أبا العلاء يروم إلى هذه الذروة ، وينازع بذلك أصحاب الطبع الأول ؟ !!

وتأمل قوله من المنيح وهو بصدد إثبات أن إقامة الوزير المغربي في المعرة وإن أكسبتها محمدة ومأثرة فإنه لا يجوز لها أن تظن بأنها أهل لإقامته بها ، فهناك من البلدان ما يستحق هذا الشرف ، وهي أولى به يقول[1] : « ولَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا أَنَّ الغَيْثَ من الدُّجُون في مِثْل السُّجُون[2] ، وأنّ مَواضِعَ الزَّهرَة أعلى العَبْهَرَة[3] ، وأنَّ القَمَر لم يُخْلَق للسَّمَرِ ، وليس للمُسْتَعِير أن يحسبَ العاريةَ هِبَةً ، ولا يَظُنَّ رَدَّهَا إلى المُعِير مَثْلَبَةً ، لكن شَرَفٌ للصعلوك العاريَّةُ من الملوك » .

وأرجح أن هذه الأمثال كلها علائية ؛ فلم أجد في الأمثال العربية ما يقاربها ، فمثلاً مثل قوله « القمر لم يخلق للسمر » ، هناك أمثال عن القمر ، ولكنها لا تقرب منه مثل قولهم « اسر وقمر لك »، ويضرب في اغتنام الفرصة، أي قبل أن يغيب[4] ، وشبيه به « الليل طويل وأنت مقمر » في التأني، والصبر على الحاجة حتى تمكن[5]، وقولهم « في القمر ضياء والشمس أضوأ منه » ويضرب في تفضيل الشيء على مثله[6] ، وقولهم « إن يبغ عليك قومك لا يبغ القمر » ، ويضرب مثلاً للرجل يدعي

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) الدجون : جمع دجن وهو الغيم الملبس أقطار السماء .

(٣) العبهرة : الياسمينة أو النرجسة .

(٤) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/١٩٠ .

(٥) السابق ، ٢/١٨٩ .

(٦) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٢/٧٤ .

تلبيساً في الأمور المشهورة[1] ، وقولهم « أشهر من قمر »[2] .

فكلها لا تقرب من مثلنا هذا ، كما أنني لم أجد ما يقاربه صياغة أو معنى ، وإلم يكن فيه ذكر القمر ، فهذا المثل علائي صرف – كما أرجح – ويقصد به هنا وضع الأمور في نصابها .

ولكن الشأن يختلف شيئًا ما مع المثل الذي يقول فيه « ليس للمستعير أن يحسب العارية هبة ، ولا يظن ردها إلى المعير مثلبة » ، إذ تجد العرب تقول « رجلا مستعير أخف من رجلي مؤدٍ » ، ويضرب لمن يسرع في الاستعارة ، ويبطيء في الرد[3] ، وتقول العرب أيضًا « لو سئلت العارية أين تذهبين لقالت : أكسب أهلي ذمًا » ، ويضرب في سوء الجزاء للمنعم[4] . أما أبو العلاء ، فقد صنع من فكرة المستعير ، والمعير ، والعارية مثلاً لوضع الأمور في نصابها ، وإعطائها لأربابها ، وهي الفكرة التي تخلص لها معاني أمثال السياق كلها ، وهذا المثل قريبٌ كما ترى إلى حدٍ ما من الأمثال الموروثة السابقة ، ومن نفس مادتها .

وربما اقتربت أمثاله كثيراً من المثل الموروث ، مثل قوله من المنيح ، وهو بصدد الحديث عن إقدام أهل المعرة على الأدب والعلم رغم أنهم ليسوا أهلاً له ، وكأنه يقول لا غرابة فـ[5] « السُّرْفَةُ تتخذُ لمنفعتها الغُرْفَةَ » ، والسرفة دويبة تتخذ لنفسها بيتًا من حطام العيدان[6] ، والعرب تضرب بها المثل ، فتقول « أصنع من سرفة »[7] ، فمثل أبي العلاء إذًا مؤسس على هذا المثل العربي . وشبيه بهذا المستوى من القرب هذا المثل من المنيح أيضًا – وهي أكثر رسائله إيرادًا للأمثال المصنوعة– والذي ذكره وهو بصدد الحديث عن عجز أهل المعرة عن مجارات الوزير

---

(١) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٣٤/١ .

(٢) السابق ، ٥٣٨/١ .

(٣) السابق ، ٤٩٦/١ .

(٤) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ١٨٩/٢ .

(٥) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٣/١ .

(٦) السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٥٨٣/١ .

ابن المغربي وبلاغته ، حيث أنه[1] « لن توجد آثار النوق في أوكار الأنوق [2]» ، والعرب تقول « أعز من بيض الأنوق »[3] ؛ ذلك لأنها تبيض في أعالي الجبال ، فلا يوصل إلى بيضها ، فمثل أبي العلاء مبني على هذا المثل ، وعلى هذه الحقيقة في إعلائه لمكانة الوزير ، وبلاغته ، وبعدها ، وعزها عن أن تصل إليها قرائح أهل المعرة .

ومن ذلك أيضًا قوله من المنيح « ولَنْ يصير شَوْطُ باطلٍ في القُوَّة كالمَسَد » في السياق الآنف ، فهو مستقيه من المثل العربي الذي يقول « أدق من خيط باطل»[4] . وشبيه بها أيضًا قوله الآنف من الرسالة التي بعث بها إلى بعض أولياء السلطان ، يشفع في صديق لــه كان عاملاً يعرف بالحسين بن عنبسة يقول[5] : « وكيف يَسْتَسِرُّ مَنْ قَادَ البَازِلَ ، ويَسْتَتِرُ من طَوَى المَنَازِلَ[6] » ، وقد ذكرهما في اشتهار مودته للرجل ، وأنها لا يمكن أن تخفى ، وقد استمدهما أبو العلاء من قول العرب « أشهر ممن قاد الجمل » [7]، ومن قولهم أيضًا « ما استتر من قاد الجمل »[8] ، فقال البازل وغير في الصياغة فقط ، فجعله استفهامًا ، وأردفه بآخر شبيهًا به ، ومنه أيضًا قولهم « أشهر من فارس الأبلق » [9].

وربما ابتعدت قليلاً ، نحو قوله من المنيح وهو يصف أحوال أهل المعرة في السياق السابق : « لقد أدمى الخُفَّ وَطْءُ القُفِّ [10]» ، وقوله من الإغريض وهو بصدد حديثه عن نصيبه من الأدب والعلم يقول[11] : « أَتْعَبْتُ الأَظَلّ ، فلم

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٧ .

(٢) الأنوق : العقبان .

(٣) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢/٦٤ .

(٤) السابق ، ١/٤٥٤ .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٣٦ .

(٦) يستسر : يختفي ، البازل : من بزل نابه من الإبل .

(٧) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٥٣٨ .

(٨) الميداني ، أبو الفضل محمد بن أحمد : مجمع الأمثال ، ٢/٣٠١ .

(٩) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٥٣٨ .

(١٠) الخف : هو باطن القدم ، القف : الغليظ من الأرض .

(١١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٤٨ .

أَجِـد إلا الحَنْظَـل[1] » ، فـهناك مثل عـربي يقـول : « إن يدمَ أظلك فقد نَقَبَ خـفي » ويضـربه المشكو إليه إلى الشـاكي ، أي أنا منه في مـثل ما تشكوه[2] ، فقد استغل أبو العلاء مادة المثل فصنع أمثاله هو ليسخرها لمعانيه ، والرابط الوحيد بينها هو أن إدماء الخف والأظل مما يضـرب به المثل في الشـدة ، أو هو وسيلة للتعـبير عن الشدة في العرف العربي .

ومثله قوله من المنيح في نفس السياق ، وهو يصف أحوال أهل المعرة « والهُبَعُ طريدُ الرُّبَع[3] » ، وقد اسـتخـدمه أبو العـلاء ليدل على تشـابه الحال ، ولحوق الآخر بالسابق ، ونجد العرب تقول « ما له هبع ولا ربع » ، أي ليس له مال[4] ، وليس بين المثلين من قرب سوى أن الهبع والربع كانا مادة المثل في كلٍ .

أو ربما كانت علاقة هذا المثل العلائي بالآخر الموروث من البعد لدرجة تصل معـها إلى التضـاد ، أو شـيئًا شـبيهًا به . مـن ذلك قوله مـن المنيح ، وهـو أيضًا بصـدد الحديث عن عجز أهل المعرة عن مجارات ابن المغربي[5] : « فَـإِنَّ العُجْمَـةَ أَسْـهَـلُ من البُكْمَةِ [6]» ، بينما تجد المثل العربي يقول « عي الصمت أحمد من عي المنطق »[7] !! .

ومن ذلك أيضًا قـوله من الرسـالة التي بعث بها إلى بعض العلوية في حديثـه عن وده للرجل في مفتتحها ، يقول[8] : « إِذ وُدُّ العَلُوقِ وُدٌّ مَـأْلُـوق[9] » وهو بمعنى أن مَحبة الحاضنة محـبة كاذبـة ، بينما العـرب تقول : « ظـئـر رؤوم خير مـن أم

---

(١) الأظل : باطن الخف ، الحنظل : نبت مر الطعم . ويريد أنه قد بذل الجهد في طلب الأدب فلم يجد إلا ما هو أشبه بنبات الحنظل في سوئه وقلة فائدته وربما مر مذاقته .

(٢) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٣٦١/١ .

(٣) الهبع : الفصيل الذي يولد في آخر النتاج ، الربع : الفصيل الذي يولد في أوله .

(٤) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢٦٧/٢ .

(٥) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٦٩/١ .

(٦) العجمة : عدم الإفصاح في الكلام ، البكمة : عدم النطق خلقة .

(٧) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٤٩٤/١ .

(٨) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٢٤/١ .

(٩) العلوق : المرأة التي ترضع ولد غيرها ، مألوق : كاذب .

سـؤوم[1] »[2] ، فمن الممكن إذاً في عرفهم أن تكون الظئر رؤوماً ، بل وأفضل من الأم أيضاً !!

وهناك الكثير من الأمثال التي لا نجد لها شبيهاً عربياً ، مثل قوله من رسالته لأبي نصر الفلاحي الآنفة [3]« الـمَوْرِدُ نَميرٌ أَزْرَقُ ، ولكنَّ الـمُدْنِفَ بالشَّرَابِ يَشْـرَقُ[4] »، وقد ضربه أبو العلاء للخير يعرض ويحول دونه حائل . ومن ذلك قوله من رسالته لبعض العلوية الآنفة الذكر ، وهو بصدد الاعتذار عن هديته للرجل[5] « السَّفَرُ عَوْدٌ في مَغْمَضَـةٍ ، يعبث بكلِّ عِضَـةٍ [6]»، ويرمي به إلى ما تجنيه الأسفار على أموال المرتحلين . وكذلك قوله من الإغريض وهو بصدد حديثه عن نصيبه من العلم والأدب[7]: « لَيْس في اللَّبِيدِ إلا الهَبِيـد[8] »، ويقصد به خلو المكان من الخير، وأيضاً قوله من المنيح[9]«إنما نَحْكُم بِثَمرِ الجبَّار، لمن أَصْلَحهُ في وَقْتِ الإِبَار[10]»، وكذلك قوله « ويَصِيدُ ظَلِيمَ المِقَّاء ، من زَهِدَ في ظليم السِّقَاء[11] »، وكلاهما في لزوم تقديم الجهد في سبيل الوصول إلى النجح .

* * *

ونستطيع أن نحدد سبباً – بالإضافة إلى ما سبق – لظهور كثير من أمثال أبي العلاء المصنوعة ، وهو كلفه الشديد بأن يورد أمثالاً متساوقة في التركيب والمعنى ، فيظهر المثل الموروث ، ويتبعه مثل أو أكثر على شاكلته صناعة علائية ،

---

(١) ظئر : حاضنة ، سؤوم : ملول .

(٢) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٤٤٥/١ .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٣٥/٢ .

(٤) المورد : موضع الماء ، نمير : زكي ، المدنف : المريض المشرف على الموت ، ويشرق : يغص .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٢٦/١ .

(٦) العود : المسن من الإبل ، المغمضة : الأرض المطمئنة ، يعبث : يعلق ، عضة : شجرة .

(٧) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٤٨/١ .

(٨) أي ليس في الجراب إلا الحنظل .

(٩) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٦٦/١ – ١٦٧ .

(١٠) ثمر الجبار : النخل ، ووقت الإبار : وقت لقاح النخل .

(١١) قوله : ظليم المقاء : أي ذكر النعام في الأرض الواسعة ، و ظليم السقاء : اللبن الذي يشرب قبل أن يبلغ الروب ، وهو هنا كناية عن الدعة والتطامن إلى الأرض وترك طلب الحاجة التي رمز لها بالظليم في الأرض الواسعة .

ونحن لا ندعي أن كل أمثاله المصنوعة تظهر في هذه المناطق وعلى هذه الصورة ، ولكن أغلب أمثاله المصنوعة ذات العلاقة بأخرى موروثة تظهر بهذه الطريقة .

من ذلك قوله من الرسالة التي بعث بها إلى أحد أولياء السلطان ، يشفع في صديق له كان عاملاً يُعرف بالحسين بن عنبسة ، وهي من رسائله المميزة في استخدام المثل يقول[1] : « فَقَد مَنَعَه أن يُجَذَّ جَذَّ الصِّلِّيَّانَة [2] ، ويُقْتَرف اقْتِرافَ الصَّرَبَة [3] ، ويسقطَ سُقُوطَ نَابِ المُخْلِف [4] ، ويُلْتَمَعَ التِماعَ شُفَافَةِ السَّعْنِ البَدِيع [5]» .

فيبدأ سياق الأمثال هنا بمثل موروث « يجذ جذ الصليانة » ، فالعرب تقول : « جذها جذ العير الصليانة » ، يقال ذلك في اليمين إذا أقرها ولم يتتعتع فيها[6] ، ثم أتبع الأمثال التالية صياغة هذا المثل ، وكلها من صنعه ، حيث بناها على الجملة الفعلية ، وبنى التشبيه فيها على صورة الفعل مع المفعول المطلق ، وكلها تخلص لتصوير الشر الذي كان من الممكن أن يقع فيه صاحبه لولا أن تداركته نعمة المرسل إليه وفضله .

وهذا التركيب الذي اعتمده أبو العلاء هنا له حضور بارز في الأمثال العربية ، من ذلك قولهم « يعصب عصب السلمة »[7] ، و« ضربه ضرب غرائب الإبل »[8] ، و« لأضربنه ضرب أوابي الحمر » [9]، وقولهم « سامه سوم عالة » [10]، و« لطمه لطم المنتقش »[11] ، و« لأضمنك ضم الشناتر »[12] ، و« لأكوينه كية

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٤٠ .

(٢) يجذ : أي يقطع من أصله ، والصليانة : واحدة الصليان وهو البقل .

(٣) يقترف : يقشر ، الصربة : واحدة الصرب وهو صمغ الطلح .

(٤) المخلف : البعير فوق البازل وهو ما كان في السنة العاشرة فصاعداً .

(٥) يلتمع : يختلس ، الشفافة : بقية الماء في الإناء ، السعن : قربة تقطع من نصفها ويلقى فيها التمر أو الزبيب ليصير نبيذاً ، البديع : الجديد .

(٦) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٣١٩ .

(٧) السابق ، ٢/١١٣ .

(٨) السابق ، ٢/٨ .

(٩) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٢/١٨٠ .

(١٠) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٥١٣ .

(١١) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٢/١٨٥ .

(١٢) السابق ، ٢/١٨٩ .

المتلـوم »[1] ، و« لأفشنك فش الوطـب »[2] ... إلخ .

فهذا التركيب كثير الوجود في الأمثال العربية ، فالمثلين الأخيرين « ويسقط سقوط ناب المُخْلف ، ويُلتمع التماع شُفافة السُّعن البديع » ، ليس لهما علاقة بمثل موروث سوى أنهما على نفس التركيب السابق ، وهذا ما يربطهما أيضًا بالمثل الأول في السياق : « يجذ جذ الصليانة » .

أما قولـه « يُقترف اقتراف الصَّرَبَة » فهناك مثل يقول « أشد حمرة من الصربة »[3] ، وبذا تكون العلاقة الوحيدة بينهما هي أن الصربة كانت مضربًا للمثل في بعض جوانبها .

وربما كان هذا المثل من قولهم « تركه على مثل مقلع الصمغة » [4]، فالصمغة إذا قلعت بقي مكانها عاريًا لا شيء فيه ، ويضربونه لمن أُجتيح ما له ولم يُترك له شيءٌ ، وهذا بمعنى أبي العلاء هنا أشبه، وبذلك يكون قربه من المثل الموروث أشد .

ومن ذلك قوله من رسالته التي بعث بها إلى صديق له يسأله أن ينقصه في ترتيب المكاتبة يقول [5]: « فَـأَمَّـا تَدَارُكُه مـا جَرَى من الوَهْم ، فـإذا أُعطيت القَوْسُ بَـارِيها ، والخَيْلُ فَوَارِسَها ، والقَنَاةُ مُصَرِّفَهَا ...[6] » .

« إذا أعطيت القـوس باريها » من المثل الموروث « أعط القـوس باريها » [7] ، وهو بمعنى وضعت الأمور في نصابها وفي مواضعها ، ألحق عليه أبو العلاء المثلين الآخرين من صنعه « والخيل فوارسها ، والقناة مصرفها » ، وهما بنفس المعنى ونفس التركيب .

وشبيه به من الرسالة التي بعث بها إلى رجل كانت له عند رجل مئة وستة وستون درهمًا ونصف ، فسأله أن يشتري بها فرسًا يقول[8] : « فَـأَعْـطَـانـي فُـلَان

---

(١) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ١٨٩/٢ .
(٢) السابق ، ٢٠٠/٢ .
(٣) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٣٩٩/١ .
(٤) السابق ، ٢٦٥/١ .
(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٥٦/١ .
(٦) باريها : أي ناحتها ، القناة : الرمح ، مصرفها : مقومها .
(٧) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٧٦/١ .
(٨) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٤/١ .

أَمَانِيَّ الرَّقُوبِ، وَمَواعِيدَ عُرْقُوبٍ »ومواعيد عرقوب مضرب المثل المعروف في خلف الوعـد[1] ، أما أماني الرقوب وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد فهي ترقب موت ولدها[2] ، وأمانيها التي يريدها أبو العلاء هنا هي ما ترجوه ، وتمني نفسها به من عدم موته ، وهي أمانٍ غير متحققة ، كما أن مواعيد عرقوب كذلك .

فهو صناعة علائية على شاكلة المثل الموروث كما ترى معنىً، وصياغةً ، وجرساً. ونضيف إلى ذلك أن الرقوب كانت مادة للمثل العربي الذي يقول : « أهنأ من ميراث العمة الرقوب » إذ لا شركة فيه ؛ لأنه لا ولد لها[3] .

وشبيه به قوله من الرسالة التي بعث بها جوابًا لأبي الحسن محمد بن سنان ، لما جاءه كتابه في أمر كليلة ودمنة ، وما تقدم به السلطان من اختصار أمثاله يقول[4] : « وإِنْ وُفِّقْت والتَّوْفِيق مني بعيد ، فَإِنَّما ذَلِك مَيْسِرٌ من أَبْرَام ، ورَمْيَةٌ من غير رَامٍ[5] » .

فالمثل الأخير هو المعروف الموروث « رب رمية من غير رام »[6] ، ويُضرب مثلاً لمن أصاب في عمل وليس من أهله ، وكذلك الأول يصلح لهذا المعنى ؛ لأن البرم لا ييسر بخلاً ، فإن فعل فهو يدخل في عمل وهو ليس من أهله ، فصنعه أبو العلاء على شاكلة الثاني ، وأكسبه نفس البناء ، ونفس الجرس ، وتأمل تكرار الميم والراء ولا تغفله .

وشبيه به قوله من رسالته لأبي نصر الفلاحي، وهو بصدد الحديث عن تحسره لفوات هذه المنزلة ، وهي المنادمة التي يعتذر عنها في رسالته هذه ، وقد استدعي إليها – أقول يتحدث عن تحسره لأن غيره يهفو إليها ، ويبذل الغالي والنفيس لأجل

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٤/١ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٣٥٣/٢ .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٦٥١/٣ .

(٥) الميسر : هو الجذور الذي يشترونه في لعب الميسر ويتقامرون عليه ، والأبرام : جمع برم وهو البخيل ومن لا يدخل مع القوم في الميسر لشحه ، ورمية من غير رام : أي رمية مصيبة من رام لا يحسن الرمي .

(٦) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٤٩١/١ .

إدراكها ، وهي تَعْرض له فيعتذر عنها مجبرًا ، يقول[1] : « أَعْرَض النَّوْفَلُ ، وغَابَ العَائِم ، وأَوْمَضَ البَارِقُ ، فأين الشَّائِمُ ، إنَّ الحَيَّ خَلُوفٌ [2]» .

فالمثل الثاني من قولهم « سحابة خالت وليس شائم »[3] ، أما الأول فقد قُدَّ على شاكلته . وأشباهه كثير منها : « عشب ولا بعير »[4]، و« مرعى ولا أكولة »[5] ، وهي وإن كانت تضرب لمن له مال ولا آكل له ، إلا أن أبا العلاء يجعلها أعم ، فتعبر عن توفر الحاجة وعدم الطالب .

وربما كان هذا الاتباع ، أعني اتباع المثل الموروث بأمثال أخرى على شاكلته في سياقه ليس فقط لاشباع المعنى، وإنما لإضفاء معنىً جديد على المثل الموروث، تأزره هذه الأمثال الملحقة به .

فمن ذلك قوله من رسالته التي بعث بها إلى رجل قيل إن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري[6]«وإذْ قَدْ مَنَّ اللّهُ بالسَّلامَة،فَأَهْوِن بالنَّصِيِّ في المَكَان القَصيِّ[7]، (وهذا هو المثل الموروث) وكَرَبَةٍ في اليَمامَةِ ، وحَصَاةٍ بِتِهَامَة[8] (وهذان المثلان الملحقان به) » .

ويضرب المثل الأول لطلب النفيس ولو كان بعيداً[9] ، ولكن ما تليه من أمثال تدعو للتأمل ، فالكربة في اليمامة شيء متوفر ، كما أن الحصاة في تهامة كذلك ، فكيف تكون بإزاء « النصي في المكان القصي »؟! إلا إذا كان أبو العلاء قد نفحها معنىً جديداً ، ذلك لأن السياق نفسه يرفض هذا المعنى للمثل ؛ لأن أبا العلاء هنا يريد أن يهون ما افتقده الرجل (المال) إزاء ما سلم له (السلامة) ، وليس

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) النوفل : البحر، العائم : السابح على وجه الماء ، أومض : لمع ، الشائم : الذي ينظر البرق أين يمطر، الحي : منزلة القوم ، خلوف : خالي من الرجال .

(٣) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ٣٤٥/١ .

(٤) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢٥٤/٢ .

(٥) السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٠/١ .

(٧) النصي : من أفضل مراعي الإبل ، القصي : أي البعيد .

(٨) الكربة : أصول سعف النخل .

(٩) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٠/١ .

العكس ، لذا فأنا أظن أن أهون التي كانت تقع على المشقة في المثل الموروث واقعةٌ على المطلوب في المثل العلائي .

ويكون جمعه بينهم على أن الشيء الثمين في المكان البعيد وهو خير يحول دونه حائل أمر يُزهد فيه ، كما هو حال الشيء المتوفر في مكانه والله أعلم .

وشواهد هذه الطريقة ، وهي اتباعه أمثالاً مصنوعة لأخرى موروثة على شاكلتها في رسائله موضع الدرس أكثر من أن تحصى ؛ لأنه يكاد يكون من ديدنه في كل سياق للأمثال في بيانه .

* * *

الفصل الثاني

مواقع الجناس في رسائل أبي العلاء

لقد تنبه أبو العلاء للونٍ جديد من استخدام الجناس وإلم يكن هو أبا عذرته إلا أنه قد وضع عليه بصمته الخاصة ، فكشف لنا بذلك عن مساحة جديدة من الاستعمال اللغوي الغائب، وذلك أن جناسه أحيانًا جناس من ورائه طباق من ورائه مفارقة ما ، فهو يدعو هذا التشابه بين الألفاظ ليضربه بهذا التخالف في المعاني .

فأبو العلاء عندما يجانس يبحث في أعماق اللغة عن لفظة تجانس لفظته وتفارقها في المعنى، فيبسُّ الغريب بالقريب، ويجمع بين الكلمتين المتشابهتين جداً في اللفظ المتباعدتين جداً في المعنى . فتتآزر بذلك في صنعته الخاصة للجناس محاولة الطباق واستحضار الغريب بالإضافة للتجنيس !

وأنت ترى هذه الصنعة العلائية تظهر أكثر ما تظهر في رسالتيه المنيح، والإغريض، تليهم في ذلك رسالة الهناء . بالإضافة إلى أن الجناس يتكاثر في هاتين الرسالتين، حتى يصبح تكاثره فيهما ظاهرة في حد ذاته لم أرَ مثيلاً له في رسائل سابقيه حتى أولئك الذين كان لهم كلف بالجناس كبديع الزمان الهمذاني .

فأنت تجد أن إيقاع الجناس في الرسالة وتواتره يرتفع ويرتفع، حتى يصبح المقطع الكامل ولا تخلو جملة من جمله من جناسٍ ما . فتسمع مقطوعة موسيقية يتردد صدى أصواتها في أذنك عذبًا، وتعيده عليك الكرة تلو الأخرى، ويحتشد بجوار الجناس الصريح شيء هو أشبه بالجناس وإلم يكن هو، وكأنه الجذور المكونة لهذا الجناس؛ فيزيد من انسجام إيقاع الكلام، وهذا الشبيه بالجناس في حد ذاته ظاهرة في بيان أبي العلاء – موضع الدرس – بحاجة للدرس ، ويكاد يشمل أغلب كلامه، وسوف نعرض له في فصل آخر بإذن اللّه (١). وإذا لم يتوفر رأيت الوزن يقوم مقامه ، وكأن هناك حرص علائي خلف كل هذا بأن يكون لكلامه نغم وإيقاع تطرب له الأذن ، وكأنه يريد لكلامه أن يسمع أكثر من أن يقرأ ، ويريد لسماعه لذة تضاهي لذة سماع الشعر .

ولا شك أن أبا العلاء لا يعرف لذة القراءة ، وإنما كل لذاته في العلم لذات سماع وكأنه يريدك أن تعيش لحظته هو لحظة الإنشاء، حيث تغيب الصور والرسوم في ظلام زمانته ، ولا يبقى سوى الصوت ، والجرس ، وتتحول كل حواسك لأذن تسمع ، وتنصت وتتذوق ، وكأنه أتاك بغر أبي تمام التي :

---

(١) انظر فصل حذو البناء في المعاني والأساليب من هذه الرسالة ص ٢٦٤ وما بعدها .

... يراها من يراها بســـــمعه ويهفو إليها ذو الحجى وهو شاسع

يود ودادًا لو ان أعضاء جسمه إذا أنشدت شوقًا إليها مســـامع[1]

وقد كان ..

وفواصل أبي العلاء في حد ذاتها ضربٌ من الجناس إذا صح لنا القول؛فكثيرًا ما تتحول إلى جناس،وكثيرًا ما تتفق في ثلاثة أحرف وليس فقط في الحرف الأخير، وربما اتفقت في أكثر. بل وربما وصلت إليها عدوى صنعته في المزج بين التجانس والطباق أيضًا .

*   *   *

وكلام أبي العلاء يتهيأ لفيض الجناس تهيئًا يذكرنا بتهيئه لفيض الأمثال ؛ فترى صنعته في الجناس تبدو وتختفي ، ثم تظهر سافرة ويسبقها جناس بسيط، يسبقه سجع أبي العلاء الذي هو بمثابة جذور الجناس ، وأصول النغم في كلامه. وشيئًا فشيئًا يتكاثر الجناس في الرسالة .

وقد آثرت أن تقوم دراستي لهذه الخصوصية على رسالة كاملة ؛ تطلبًا مني لوحدة سياق هذه الرسالة ، ولبيان أن هذا المذهب في الجناس يوشك أن يكون عامًا عنده ؛ لأن توفره وكثرته في رسالة واحدة ، وعلى أشكال متقاربة دليل ذلك . لأن وحدة النص مظنة أن تتنوع فيه طرق الجناس ، وعدم تنوعها دليل على أنها تشبه أن تكون خصوصيات ثابتة، وملامح أساسية من أسلوبه . وهذه الرسالة هي رسالة المنيح ، وهي الرسالة التي بعث بها إلى الوزير أبي القاسم المغربي جوابًا عن كتابه لأهل المعرة ، يمتدح فيها بيانه وبلاغته ، مازجًا ذلك بوصف حال المعرة وأهلها، طاويًا إياه في ثنايا المقارنة بين قدرتهم على البيان وقدرة الوزير المغربي عليه . وهي من أشهر رسائله ، ومعرض صنعته وتفننه ، حيث يظهر فيها الكثير من خصائص أسلوبه وفكره . وقد أكثر فيها بالإضافة إلى الجناس من الغريب، والازدواج ، والتشبيه في كثير من صوره ، والأمثال أيضًا كثرةً بالغةً .

فأول جناس يقابلك في هذه الرسالة قوله[2] « ولَوْلا الإلاَحَةُ على مَا ضَمِنَ من

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٥١٤ .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٣ .

المَلاَحَةِ » ، وهو جناس لاحق بين (الإلاحة ، والملاحة) والإلاحة تعني الإشفاق، وأنت ترى كيف نقَّب أبو العلاء عن كلمة يجانس بها الملاحة، وعزف عن هذه الكلمة، كلمة الإشفاق ، التي أكسبها ورودها في القرآن نباهة وسخاءً = أعرض عنها أبو العلاء وأتى بالإلاحة (وهي من الاستخدامات المجازية للجذر لاح يقولون ألاح من الشيء وأشاح بمعنى أشفق وحذر) .

وهكذا يظهر لنا كيف صبغ ولَعَه بالغريب صنعته في الجناس،فتآزُرُ الصنعتين في لغته كسى جناسه غالبًا بطابع الجدة؛ كونه يفاجئك بما بين الألفاظ من علاقات، ويفاجئك بألفاظ جديدة لمعانٍ قد ألفت الآذان سماع الألفاظ الشائعة في الدلالة عليها. وهكذا تجده عن طريق استدعاء الغريب يضع بصمته على الجناس .

ويسبق الجناس الآنف حديثه عن كتاب الوزير وأثره في المعرة مفتتح الرسالة، يقول[1] : « إن كَانَ للآدَابِ – أطَالَ اللـّه بقاء سيدنا – نسيمٌ يَتَضوَّعُ [2]، وللذكاءِ نَارٌ تُشْرِقُ وتَلْمَعُ ، فقد فَغَمَنا على بعد الدّارِ أَرَجُ أَدَبِه [3]، ومَحَا اللَّيلَ عنَّا ذَكَاؤُهُ بتلهبِّه ، وخَوَّلَ الأسماعَ شُنُوفًا غيرَ ذاهبة [4]، وأَطْلَع في سُويداوات القُلوبِ كواكبَ ليستْ بِغَاربة[5] ، وذلك أنَّا مَعْشَرَ أهلِ هذه البلدةِ وُهِبَ لنا شَرَفٌ عظيم ، وأُلقي إلينا كِتَابٌ كريم ، صَدَرَ عن حضرةِ السيِّدِ الحَبْرِ، ومالك أعنَّة النَّظْمِ والنَّثْرِ ، قرائتُهُ نُسْك[6] ، وختَامُهُ بل سائرُهُ مِسْكُ (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ)[7] أُجِلَّ عن التقبيل فَظلاَلُهُ المُقَبَّلَة ، ونُزِّهَ أنْ يُبْتَذَل فَنُسَخُهُ المُبْتَذَلة[8] ، وإنَّه عندنا لكتابٌ عزيز ، ولولا الإِلاَحةُ على ما ضَمِنَ من المَلاَحَةِ ... » .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٣.

(٢) التضوع : تحرك الطيب وانتشار رائحته .

(٣) فغمته الرائحة : سدت خياشيمه ، الأرج : نفحة الريح الطيبة .

(٤) الشنوف : جمع شنف وهي حلية في الأذن ، غير ذاهبة : دائمة باقية لا تندثر .

(٥) سويداوات : جمع سويداء وهي حبة القلب .

(٦) الحبر : العالم الصالح ، نسك : أي عبادة .

(٧) سورة المطففين ، آية (٢٦) .

(٨) يبتذل : أي يمتهن بكثرة تداول الأيدي له .

تأمل فقد سبق ظهور الجناس في كلامه ما هو من ديدن أبي العلاء في نثره من التزام السجع ، وكانت الفواصل السابقة لها متفقة وزناً، ومتفقة في الأغلب في حرفين وليس حرفاً واحداً، وهي كالتالي:(يتضوع وتلمع ، أدبه وتلهبه ، ذاهبة وغاربة ، عظيم وكريم ، الحبر والنثر ، نسك ومسك) ، وهذه الفاصلة الأخيرة هي جناس لاحق في حقيقتها. ثم يقابلك بعد هذه الفاصلة شيء مما يعده البلاغيون من ملحقات الجناس في قوله : « أجل عن التقبيل فظلاله المقبلة ، ونزه أن يبتذل فنسخه المبتذلة» ويعني بذلك كتاب الوزير، وعلو قدره لدى أهل المعرة؛ فقد صين عن الابتذال والتقبيل . وأنت ترى الجناس في الجملة الأولى بين المصدر (التقبيل) واسم المفعول (المقبلة) لنفس الجذر، وفي الثانية بين الفعل (يبتذل) واسم المفعول (المبتذلة) لنفس الجذر . وبهذا التلاؤم في الفواصل، وبهذا الجناس الاشتقاقي، هيأ أبو العلاء بيانه لتقبل الجناس، فظهرت جملته السابقة « ولولا الإلاحة .. » . وليس بهذا فحسب هيأه، بل تأمل هذه اللغة المنغمة الموقعة العذبة ، فتكرار الحروف، وتساوي المقاطع ، جعلنا أمام لغة فريدة هي لغة أبي العلاء المعري ، وسوف نتناول هذا الشأن من بيانه بالدرس في حينه إن شاء الله[1] .

ثم تراه بعد تلك الجملة يعود عن الجناس ، ويعود الكلام للاتفاق في الفواصل فقط ، حتى تتحول هذه الفواصل ذاتها جناساً في قوله[2] « ولولا ... أنّ شريعةَ الإسلامِ اعترضَتْ دُونَ إجالةِ الأزْلامِ ، لضربْنَا عليه بالسَّبْعَةِ الفَائِزَةِ[3] ، والثلاثةِ التي لَيْسَت لحظٍّ بالحَائِزَةِ » .

والرجل في هذا المقطع من كلامه يقول بأنه لولا خوفهم على الكتاب وحبره من الضياع، لعكف عليه أهل المعرة باللثم والانتشاء والشم، حتى تصبح سطوره « لمىً في الشفاه ، وخيلاناً على مواضع السجود من الجباه ». وانظر لطرافة هذه الفكرة ولخيال أبي العلاء كيف حلق ليأتي بهذه الصورة التي تتاخم المبالغة فيها حدود السخرية؛ فهي صورة أقرب ما تكون للتصوير الهزلي في زماننا ، ثم يتبعها بافتراض آخر لا يقل طرافة عن سابقه، وهو ما أتى في حيز هذه الجملة السابقة

(١) انظر فصل حذو البناء في المعاني والأساليب من هذه الرسالة ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٤ .

(٣) الأزلام : قداح الميسر ، إجالتها : تحريكها وإدارتها ، السبعة الفائزة : كناية عن قداح الميسر .

حيث يقول بأنه لولا أن القمار محرم في الشرع ، لاقترع أهل المعرة على إقامة الصحيفة لديهم واستهموا عليها . ونعود لما كنا فيه فأنت ترى بأن الاتفاق بين الفواصل هنا تحول إلى جناس وليس فقط سجعًا فترى جناسًا مضارعًا بين (الإسلام ، والأزلام)، وآخر لاحقًا بين (الفائزة ، والحائزة)، فيرتفع بهذا إيقاع التجانس الصوتي بين الفواصل تمهيدًا لظهور الجناس من جديد بقوله[1] : « ومعاذَ الأحلامِ أن يطمئِنَّ خَلَدُ المُنَافِسِ الشَّحيح ، إلى أَحْكَامِ النَّافِسِ والمَنِيح[2] » فبين (النافس ، والمنافس) جناس ناقص ، وهو يريد أن يقول بأن المستهم والمقامر على كتاب الوزير لن يطمئن خلده لأحكامهما لأن الخسارة فيهما واردة ، لذلك يجعل استهامهم على إقامته لديهم وليس على أجزاء الكتاب فيما يلي من كلام ، والذي يريده بقوله « أحكام النافس والمنيح » أي ما يتعرض له اللاعب بالقداح من الفوز والحرمان، ويكون بذلك كنّى عن الفوز بالنافس والحرمان بالمنيح، وإذا صح هذا فإنّ أبا العلاء قد عدل عن القدح المُعَلَّى، الذي هو الدليل الأظهر على الربح في الميسر، والأجدر بهذا المعنى لأنّ له سبعة أنصبة، وهو أعلى نصيب من قداح الميسر= أقول يكون قد عدل عنه إلى (النافس) لمجرد المجانسة بينه وبين قوله (المنافس)، وإذا كان هناك جناس بين (المنافس، والنافس) فإن بين(الشحيح، والمنيح) شيء هو أقرب إلى الجناس من عدمه، شيء تسمع فيه صدى النغم وإن لم يكن النغم نفسه، فقد اتفقا في حرفي (الحاء، والياء) بالإضافة إلى اتفاقهما في الوزن وما بينهما من سجع متوازٍ. وأذنك لا تغفل هذا الاتفاق، فهناك فرق كبير بين قوله (الشحيح، والمنيح)، وبين لو قال (الحريص، والمنيح) مثلاً.

وهكذا ترى أن جناس أبي العلاء بدأ يتجاوز حيز الكلمة الواحدة وإلم يظهر ذلك هنا كل الظهور ، ويرتقي إلى محاولة المجانسة على مستوى المفردتين، بمعنى أن يكون الجناس ثنائيًا، فتجانس مفردتان على التوالي مفردتين أخريين . ويلي هذا الجناس مباشرة جناسٌ لاحق في الفاصلة في قوله : « وإنَّما كَانَت أَوْلِياءُ سَيِّدنا جَعَلَ اللّهُ لِشَانِئِه كَوْكَبَ الرَّجْمِ، وحَادِيَ النَّجْمِ » وقد أضاف إلى الجناس اللفظي هنا جناسًا معنويًا، فما أقرب الدبران (حادي النجم) وهو كوكب نحس، بشهب اللّه

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٥٤/١ .

(٢) المنافس : هو المغالي بالشيء ، والشحيح : الحريص ، النافس : هو الخامس من قداح الميسر له غنم خمسة أنصباء إن فاز وعليه خمسة إن لم يفز، والمنيح هو القدح من قداح الميسرالذي لا نصيب له .

المسلطة على من في السماء (كوكب الرجم) ! وتأمل فبعد أن كان الظهور الأول للجناس في جملة واحدة ، تراه هنا يظهر في جملتين متتاليتين وقد ارتفعت وتيرته في الكلام ..

وبعد ذلك يعود الكلام عن الجناس إلى التوافق في الفواصل فقط، وهو توافق لا يتجاوز الاتفاق في حرفين، وإن ساندهما الاتفاق في الوزن، ثم يرتفع ليصبح جناسًا في قوله(١) : « أعذبَ من سُلافِ العُنْقود، وأَحْسَنَ من الدِّينَارِ المَنْقُود(٢) ».

وهو هنا يصف كتاب الوزير وعذوبة ألفاظه وجودة معانيه – وتجد الجناس اللاحق بين (العنقود، والمنقود)، وهكذا وبعد ست جمل سالفة وصف فيها الكتاب، وعظمه، وأن الاستهام عليه كالاستهام على البتول، أو الاستهام على السفر بين صواحب الرسول ، وأنه شرف عظيم لأهل المعرة ، يفتخرون به على الناس حيري الدهر = يعاود الجناس الظهور بقوله – وهو ما يزال يصف كتاب ابن المغربي – : « فجاءَ كَلَوائحِ البُرُوق ، أو يُوحَ عند الشُّروق » ، وهذا الجناس يذكرك بالجناس السابق في قوله : « ومعاذ الأحلام ... » ، فإن كان هناك جناس لاحق ظاهر بين (البروق ، والشروق)، وهو جناس لفظ وجناس معنى بجامع الإضاءة – وهذا من مراعاة النظير = فإن هناك توافقًا لا تغفله الأذن بين (يوح) علم للشمس ، وبين (لوائح) بمعنى لوامع ، يذكرك بذلك الذي كان بين (الشحيح ، والمنيح) ، وقد اشتركت الكلمتان في حرفين فقط دون الوزن . وكلمتا البروق والشروق إذا ما تأملتهما كلمتان قريبتا المأخذ، ولكن (يوح) ليست كذلك، فقد بحث أبو العلاء في غياهب اللغة عن هذا المسمى للشمس؛ ليحدث به هذا التوافق، ويَقْوى به الرنين مع لفظة (لوائح)، أو ربما استدعى الكلمتين كلتيهما (يوح ، ولوائح) لهذا الداعي .

فهذا التوافق مقصود أبي العلاء لا محالة، وإلم يكن له تأثيرٌ ما لما تكلف من أجله أبو العلاء إحضار كلمة (يوح). فنحن إذًا أمام « بصمة علائية » ،طريقة لا ترضى بجناس المفردة الواحدة دون أن تلحق بها أختها وبها شيء من الجناس على الأقل أو نفح منه ، وبهذا الجناس يفتتح أبو العلاء أول قطعة جناس في هذه

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٥ .

(٢) العنقود : عنقود الكرم ، المنقود : الدينار الذي اختبره الصيرفي ، وحكم أنه باريء من الزيف .

الرسالة، حيث يلي هذه الفقرة قوله : « ولم يَزَل لوَلِيِّه إلَى (تأمل هذه اللامات المتوالية، ولا تغفل أذنك هذا التكرار) جَنَابِهِ جَنَبُ الفَانِيةِ إلى عَيْشِ الغَانِيةِ » وفي هذه الجملة جناسان، جناس بين (جنابه، وجنب)، (والجناب هو الناحية والجانب ، والجنب هو الشوق) حيث أتى بهذه الكلمة الغريبة بدلاً من أن يقول (شوق) ليجانس بها كلمة جنابه ، وليحضرها في كلامه ، والكلمتان وإن تجانستا لفظًا إلا أن في معنييهما شوبًا من الاختلاف ؛ فالجناب يقتضي القرب بالضرورة ، والجنب يقتضي البعد بالضرورة .

وهناك جناس آخر بين الفانية والغانية ، وبينهما طباق في المعنى ؛ فالفانية هي المرأة المسنة ، والغانية الفتاة الشابة التي غنيت بجمالها عن الحلي .

انظر كيف ضرب أبو العلاء ذلك التجانس الظاهر بهذا التخالف الباطن، كيف أوهمك أولاً أن هناك تجانسًا في المعنى تنتظره من خلف تجانس المبنى، ثم يفاجئك بهذا الاختلاف، فإذا الفانية تقف على النقيض من الغانية . وهذه الكلمات التي تتجانس ألفاظها وتتباعد معانيها ، كأنها تمضي على عكس الطريق الذي ذكره أبو الفتح ، في تصاقب الألفاظ وأنه إنما كان لتصاقب المعاني[1] ، فأبو العلاء يقدم تصاقبًا للألفاظ يصاحبه تباعدٌ للمعاني، وكأنه يستدرك على ما قرره أبو الفتح . ولكن وقع المفاجأة هنا لا يعلو كثيرًا كون الفانية والغانية من الكلمات قريبة الاستعمال ، ولنعود لنتأمل هذه القطعة من كلام أبي العلاء يقول[2] : « ولم يَزَلْ لوَلِيِّه إلى جَنَابِه جَنَبُ الفَانِيةِ إلى عَيْشِ الغَانِيةِ ، وأَنْضَاءِ الإعْلَالِ إلى إفْضَاءِ الإبْلَالِ [3] ، ولَوْ أَنَّ شَوْقَه إلى حَضْرَتِه تَمثَّلَ فَمَثَلَ ، وتَجَسَّمَ حتى يُتَوَسَّم [4]، لَمَلأَ ذَاتَ الطُّولِ والعَرْضِ ، وشَغَلَ ما بين السَّمَاءِ والأَرْضِ ، ولَمْ يكتفِ حتى يُكَلِّفَ الخَطْوَةَ أَنْ تَسَعَ صَهْوَة ، والرَّاحَةَ أن تكونَ مِثْلَ السَّاحَةِ[5] » وهو في هذا الجزء

---

(١) ابن جني ، أبو الفتح : الخصائص ، تحقيق : الشيخ محمد علي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ٢/١٤٥ وما بعدها .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) أنضاء الإعلال : الذين أهزلهم المرض ، إفضاء : بلوغ ، الإبلال : الشفاء من المرض .

(٤) تمثل : تصور ، مَثَلَ : انتصب ماثلاً ، تجسم : صار ذا جسم ، يتوسم : أي يُرى ويتفرس فيه .

(٥) الخطوة : مسافة ما بين القدمين في المشي ، الصهوة : مكان متطامن من الأرض تأوي إليه ضوال الإبل، وهي أيضًا علم على موضع بفرع ظلم وقفه ابن عباس على زمزم ، الراحة : باطن الكف، الساحة : الناحية ، وهي فضاء يكون بين الدور ، وساحة الدار باحتها .

يقول بأنه يشتاق إلى ابن المغربي شوق العجوز إلى الشباب ، وشوق المرضى إلى الشفاء ، ولو أن هذا الشوق تجسد لملأ الأرض ، وشغل ما بينها وبين السماء ، بل وغير المساحات المعهودة ، فحوَّل الخطوة إلى موضع كامل يُعرف بصهوة ، وحول مقدار الراحة من اليد ليصبح قدر الساحة من الأرض .

فتجد أن الجملة الأولى كما أسلفنا فيها جناسان ، ثم تراه في الثانية « وأنضاء الإعلال إلى إفضاء الإبلال » ، وقد أصبح من قبيل الجناس الثنائي فـ(أنضاء الإعلال) تجانس كل لفظة فيها على الترتيب (إفضاء الإبلال) . ثم تكون الجملتان التاليتان لهذه الجملة وكل واحدة منهما بها جناس ، في قوله « لو أن شوقه إلى حضرته تمثل فمثل ، وتجسم حتى يتوسم » ، فجانس بين (تمثل ، ومثل) ، وجانس بين (تجسم ، ويتوسم) جناساً لاحقاً . ثم ترى الجناس بعد ذلك يقتصر على الفاصلة في الجملتين التاليتين ، فيكون بين (الأرض ، والعرض) جناساً مضارعاً في قوله :« لملأ ذات الطول والعرض ، وشغل ما بين السماء والأرض » ثم تراه يكتفي بتوافق الفاصلتين التاليتين في الوزن ، وذلك في قوله : « ولم يكتف حتى يكلف الخطوة ، أن تسع صهوة » ، فـ (الخطوة ، والصهوة) لهما نفس الوزن ، كما اتفقتا في حرفي (الواو ، والهاء) ، ثم تراه في قوله « والراحة أن تكون مثل الساحة » يجانس بين (الراحة ، والساحة) جناساً لاحقاً، وترى من معنييهما أن بينهما مفارقة أيضاً .

ولو عدنا لتأمل هذا الجزء الذي بدأت معه وتيرة الجناس في الارتفاع ، تجد أنه صفة شوق يبدأ على لسان أبي العلاء مألوفاً ، ثم يأخذ في التجسم والتمثل كما يقول أبو العلاء ، حتى يصبح كائناً ملموساً ضخماً أسطورياً ، يملأ ذات الطول والعرض ، ويشغل ما بين السماء والأرض ، ثم إنه لا يكتفي بأن يظل الطول والعرض طولاً وعرضاً مألوفين ، وإنما يخرج بالمساحات عن حدودها المعروفة ، يخرج بها عن طبيعتها فتتحول إلى مساحات جديدة أعظم وأرحب فمقدار راحة اليد تتحول إلى ساحة ، والخطوة تبلغ صهوة !!

وهذا الإخراج من أبي العلاء للأمور عن طبائعها في مبالغاته أمر من سمت بيانه، وسوف نعرض له بالتفصيل في حينه بإذن اللّه[(١)]. وحسبي أن أنبه إليه هنا.

(١) انظر فصل : المبالغة في رسائل أبي العلاء من هذه الرسالة ، ص ١٠٩ وما بعدها .

وما أريد أن ألفت إليه هو أن هذا الشوق العلائي العجيب ساعد على ظهور الجناس في لغته؛ لأنه كما أظن نتاج طبيعي لجموح خياله، فهذه الصورالعجيبة التي تبدعها مخيلةأبي العلاء،حتى تخرج بها عن حدود الإلف والعادة= تحتاج منه إلى لغةخاصة لتقربها من النفوس أكثر، وكلما ازدادت موسيقى الكلام ازداد قربًا من النفس .

لذا ترى منطقة الجناس هذه تمتد معنا حتى مع انتقاله إلى موضوع آخر، وهو وصف سلام ابن المغربي الذي يبعث به إلى أبي العلاء ؛ لأن النزعة الخيالية السابقة تمتد أيضًا في هـذا الجزء ، ومبالغته في خيالـه هنا أيضًا من ذلك النوع الذي من شـأنه أن يخـرج الأمور عن طبـائعـهـا ، ويقـفك وجـهًا لوجـه مع المحـالات والمستحيلات ، يقول وهـو يصف سلام الوزير الذي بعثـه لأبي العلاء في كتابه (١): « وبلغ وليَّهُ السَّلامُ الذي لو مَرَّ بِسَلِمَةٍ وارِيةٍ لأَغْدَقَتْ، أو سَلَـمَـةٍ عَـارِيَـةٍ لأَوْرَقَتْ(٢)، فَحَمَل فُـؤَادي من الطَّرَب على رَوْقِ اليَعْفُور(٣) ، بل فَـوْقَ جنَاحِ العُصْفُور، فكأنَّما رَفَعَني الفَلَكُ ، أو نَاجَاني الملَك، جَذَلاً بما لو جَازَ تَبَدُّلُ الغَرِيزَة، وتَحَوُّلُ النَّحيزَة (٤)، لَنَقَلَني من آلِي العَامَّة، إلى عَالِي السَّامَّة(٥) ، نَقْلَ الكيمياء ما خَالَط من المُزَأْبَق الجَايز ، إلى جُمْلَةِ النُّضَارِ المُمَايز (٦)» .

فـهـذا السلام من ابن المغـربي الذي يصـفـه أبو العلاء في كـلامـه السـابق له مفعول السحر، بل هو بالمعجزات أشبه؛ فلو مر هذا السلام بصخرة متقدة لتدفق ماؤها وجرى عذبًا . وكأنك ترى لمحًا من معـجزات مـوسى لقـومه عليه السلام ، واستلهام أبي العلاء للصور من قصص الأنبياء ، وخاصة موسى – بارز في بعض رسائله لذوي السلطان(٧) . وربما كان وراء ذلك ما وراءه ، خاصة أن قصة موسى

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٦ .

(٢) السلمة – بكسر اللام – : واحدة السلام ، وهي الحجارة الصلبة ، الوارية : التي توري أي تخرج شررًا بالقدح ، أغدقت : تدفق ماؤها ، والسلَمة – بفتح اللام – : الشجرة من السلم ، وهو نوع من العضاة ، العارية : الجرداء التي لا يكسوها ورق .

(٣) الروق : القرن ، اليعفور : الظبي .

(٤) النحيزة : الطبيعة .

(٥) الآل : الأهل ، السامة : الخاصة .

(٦) المزأبق من الدراهم : المطلي بالزئبق ، الجائز : الدرهم الذي يقبل على ما فيه من خفي الداخلة أو قليلها ، النضار : الذهب ، الممايز : المختلف المتميز بخلوصه .

(٧) انظر رسالة المنيح ص ١٦١ ، ورسالة الإغريض ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، ورسالة الهناء ص ٧٨ – ٧٩.

تجسد نصراً على سلطان جائر . ثم إن هذا السلام لو مر بشجرة عارية جرداء من الورق لبُعثت فيها الحياة وأورقت واكتست ثوب الخضرة بعد العُري . وهذا السلام العجيب لا يتوقف أثره على الصخور والأشجار ومفردات الطبيعة ، وإنما يتجاوز ذلك ليُخْرِج قلب أبي العلاء ويطير به طَرِباً ، وكأن قلبه صار على روق يعفور يسابق به الريح ، أو على جناح عصفور يحلق به في السماء ، وهذا مألوف في البيان يقولون هو على جناح طائر :

كأن قطاة علقت بجناحها　　　على كبدي من شدة الخفقان

وكأن صوت هذا السلام في أذني أبي العلاء مناجاة ملائكية ، وقد ارتفعت به الأفلاك ، فلاقاهم هناك . ولو جاز خروج الأمور عن طبائعها ، لنقل هذا السلام بما أورثه أبا العلاء من الجذل من طبقة العامة إلى طبقة الخاصة ، ولكن الأمور لا تخرج عن طبائعها ، وغريزة أبي العلاء ونحيزته تأبى إلا أن يكون من العامة أهله وخاصته . ولا تغفل أن سلام الوزير صنع كل هذه الأعاجيب إلا أن يرتفع بأبي العلاء عن طبقة العامة !!!

وفي هذا الجزء كما ترى لا تكاد تخلو جملة من الجناس، وأول ما يقابلنا منها جناس ثلاثي- إن جازت لي التسمية – في قوله : « لو مر بسلمة وارية لأغدقت ، أو سلمة عارية لأورقت » حيث تجانس الثلاث الكلمات في الجملة الأولى الثلاث في الثانية على الترتيب ، ثم تجد في الجملتين التاليتين « فحمل فؤادي من الطرب على روق اليعفور ، بل فوق جناح العصفور » – جناسين الأول بين (روق ، وفوق) جناس لاحق ، والثاني بين (اليعفور ، العصفور) جناس لاحق أيضاً وجناس قلب، حيث اختلف ترتيب الحروف كما اختلف حرفان في النوع (ص ، ي)(١)، ثم تبدأ وتيرة الجناس في الخفوت منذ قوله « فكأنما رفعني الفلك، أو ناجاني الملك »، فالجناس يقتصرعلى الفاصلة هنا، حيث تجد بين (الفلك، والملك) جناساً مضارعاً، ثم لا يكون ما بين الفواصل التالية (غريزة ونحيزة ، وتحول وتبدل) جناساً، وإنما هو بالجناس أشبه. وهذا يعود إلى أن قوة الصورة أخذت تضعف منذ أن تحولت إلى تشبيه صريح؛ فالتأكيد على التحقق الذي تراه في اللام التي ألحقها بالفعلين الأولين (لأغدقت ، لأورقت) ، ثم كون الصورة مبنية على الفعل الماضي (حَمَل) في قوله « فحمل فؤادي ... » حيث يدل على التحقق = لا تراه مع كأنما في قولـه

(١) راجع فصل مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء ص ٤٠ .

« فكأنما رفعني...» السابق ؛ لأن كأنما تقف بينك وبين الصورة المتخيلة ، لأن ظهورها في الكلام يذكرك بأن الأمر هنا تشبيه ، وبذلك تقضي على توهم أنه أمر حادث فعلاً . ثم ما تراه في قوله « بما لو جاز تبدل الغريزة ، وتحول النحيزة » ، فـ (لو) و (جاز) تقفان بدلالتيهما دون تأكيد الصورة ، وتخرج بالمبالغة هنا عن حد الإحالة والغلو .

وأنت ترى من ثم في هذا المقطع أن هذه النقلات الخيالية احتاجت من أبي العلاء لغة خاصة لتعبر عنها ، لغة تمكنها من القلوب تمكنها من قلب وخيال أبي العلاء .

ثم بعد هذا المقطع يخفت جرس الجناس ليعاود الظهور في مقطع آخر ، وهكذا هو الحال طوال الرسالة ما بين خفوتٍ للجناس لا يخلو من الجرس الذي يحدثه السجع واتفاق الوزن - وارتفاعٍ ترى معه الجناس ظاهرًا في كل جملة من جمل المقطع ، وربما آزره كما سبق وذكرنا عوامل الموسيقى في لغة أبي العلاء ، من جذور للجناس ، واتفاق في طول الجمل ، وفي فواصلها ، وفي وزنها ، فتصبح لغته نسيجًا متجانسًا من الأصوات والأوزان .

* * *

وترى هذا التجانس يبلغ أوجه في المقطع الحادي عشر، والثالث عشر، والرابع عشر من هذه الرسالة كما قسمها الدكتور إحسان عباس . وسوف نتناول بالدرس المقطع الثالث عشر، وهو عبارة عن سياق من الأمثال يصف به حال المعرة، وأهلها، وما يعانونه من ضنك وضيق في العيش، ومخاوف وترقب للغزو، وأن هذا كله منعهم من أن يتفرغوا لعلم أو أدب، فكيف يرتقون لمنزلة الوزير وبيانه؟!وانظر كيف انداحت هذه الفكرة في لغة أبي العلاء، وبأي لغة عبر عنها . وقد تعرضنا لجزء من هذا المقطع في فصل الأمثال[1] ، ولكننا سوف نتناوله هنا من زاوية أخرى بإذن الله يقول[2] :« وَهُمْ في هذا الصُّقْعِ كـأَسْنَانِ المسارحِ، ونواجذِ القُمْرِ القَوارِحِ [3]، تَنكَّبَهُمُ الفوائدُ تَنْكيبَ السَّهم العائِرِ ، والرَّكْبِ الجائِرِ[4] :

(١) فصل مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء ص ١٨ - ٢٠ ، ٤٨ - ٤٩ .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧١/١ .

(٣) المسارح : الأمشاط ، ونواجذ القمر القوارح : أي أسنان الحمير ، والمثلان يضربان للمستويين في الشر .

(٤) العائر : الذي لا يدري من رماه ، والجائر : المائل عن الطريق ، فكلاهما السهم والركب لا يصل إلى غايته ، وكذلك الفوائد لا تصل إلى أهل المعرة .

بناحيةٍ أمَّا العـــدوُّ فنازلٌ مطيفٌ بها في مثْلِ دائرةِ المُهْرِ

يَحُول فيها الجريضُ دونَ القريضِ ، والحذَارُ دونَ أداءِ الاعْتذَارِ[1] ، فقد أَدْمَى الخُفَّ وَطْءُ القُفِّ ، وذهبَ الخَاربُ بذي الغَاربِ[2] ، وإنَّما هو رِفْقٌ ثم اقْتِسَار ، وليس بعد السَّلْبِ إلاَّ الإِسَار[3] ، فـهم يَتَوقَّــوْن كفَّةَ الحَابِل ، ويَتَوقَّعُـونَ رَشْقَ النَّابل[4] ، على أنَّ القَارِبَ أخـو الشَّارِبِ ، والهُبَعَ طريدُ الرُّبَعَ [5] ، ما أقربَ طَسْمًا من جَديس، وأدْنَى البَازِلَ من السَّديس[6]. لا يَزالُونَ يُمَارِسُونَ جَابَةً تَنْفي النَّجابَة ، نَفْيَ الدَّبَرِ للوبَر ، والسَّبُعِ لابنِ الضَّبُعِ [7]، ويتبيَّنُ فيهم الزَّلَلُ من خَوْفِ الثَّلَل ، كما بان القَلَحُ منْ وراءِ الفَلَح [8]، فقليلُ العِلْمِ منْهُم يُسْتَطْرَفُ ، ويُسْتَغْرَبُ ولا يَكَادُ يُعْرَفُ ، كالشُّنُوفِ على الأنوف، والحِقَابِ في وَسَطِ العُقَابِ ، والوَدَعِ في

(١) حال الجريض دون القريض : مثل يضرب للمعضلة تعرض فتشغل عن غيرها ، والحذار دون أداء الاعتذار ، ساقه مساقه وألبسه رداءه ، وشمله بمعناه .

(٢) الخف : باطن القدم ، القف: الغليظ من الأرض ، والخارب : سارق الإبل ، وبذي الغارب : أي البعير، وهو يريد بهاتين الصورتين ما يعانيه أهل المعرة من شظف العيش ومن التعرض في نفس الوقت لهجمات الأعداء ، وما أخذته منهم معاناة كلا الأمرين .

(٣) ليس بعد السلب إلا الإسار : يضرب مثلاً عند الإساءة يستدل بها على أكثر منها ، ويفسره بالجملتين التاليتين .

(٤) يتوقون كفة الحابل : أي يحذرون حبالة الصيد ، النابل : رامي النبال ، ويشير بهما إلى حالة عدم الأمن والخوف والترقب التي يعيشها أهل المعرة ، فهم بين توقٍ وتوقعٍ مستمر .

(٥) القارب : الذي يسير إلى الماء ليلة ، الهبع : الفصيل يولد في آخر النتاج ، والربع : الفصيل يولد في أوله ، وهو يريد أن يقول بأنه لا فرق بين من شرب ومن أصبح وهو على ليلة من المشرب ، ولا فرق بين من يأتي في أول النتاج ومن يأتي في آخره ، فكل مدركٌ للآخر في ذلك .

(٦) طسم وجديس من قبائل العرب البائدة ، ونهايتهما كانت قريبة ، وهذا ما يرمي إليه أبو العلاء ، والبازل : من بزل نابه من الإبل وذلك في التاسعة ، والسديس : من كان في السن الذي قبله ، وكلٌ مدرك صاحبه . وهو يشير بهذه الجمل الأربع الأخيرة إلى المصير الغائم الذي يعم الجميع في المعرة ، فلا يسلم منه جيل دون جيل .

(٧) أصل الجابة الغليظة توصف بها الأودية ونحوها ، واستعيرت هنا للمعيشة الغليظة ، والدبر : قروح الناقة ، وهو يريد أن يقول بأنهم ما زالوا يمارسون عيشة غليظة من شأنها أن تنفي النجابة عنهم نفيًا كما تنفي قروح الناقة وبرها وتزيله ، وكما ينفي السبع المستأسد المتجبر ابن الضبع عن فريسته وعرِّيسته .

(٨) الثلل : الهلاك ، القلح : صفرة في الأسنان ، الفلح : شق في الشفة السفلى . يريد أن يقول بأنه لا زال خوف الهلاك يُظهر منهم المساويء كما يظهر الشق في شفة الإنسان عيوب أسنانه .

عُنُقِ الصَّدَعِ ، والفُوْرِ بين أَهْلِ الكُفُورِ[1] لأنَّ سَالِمَهم هَامَةُ اليومِ أوْ غَدٍ ، وإن لم يَكُن ما خَافَ فكأنْ قَدِ[2] ، ولو رَحَلُوا قَبلَ أن يُوحَلُوا [3]، وتَوَكَّلُوا على اللّه في المَسيرِ قَبْلَ أَنْ يُوكَلُوا ، لنَفَعَ الفِرَارُ الفُرَارَ، واستراح الفَقَارُ إلى وضع الأَوْقَار [4]، وكم مُصَابَرَةُ الـذَّرَعِ لابس الدَّرَعِ ، والبِرِّ الـهِرِّ[5]؟! وإنْ كَانَ دُونَ كَسْبِ العَتَاد ، مُمَارَسَةُ خَرْطِ القَتَاد ، فَقَتَدُ المَالِعِ أَوْطَأُ من العَتَدِ ذي القَالِعِ[6]، والمَرْقَدُ جَافٍ على ابْنِ أَنْقَد[7] » .

فترى ما بين (المسارح، والقوارح) في الجملة الأولى من اتفاق في ثلاثة أحرف جعلها أقرب إلى التجانس، وقد عدل أبو العلاء عن الصيغتين الأصليتين للمثلين من أجل إحداث هذا التجانس، فالأول حقه أن يقول فيه « كأسنان المشط »، والثاني « سواسية كأسنان الحمار». فترى تكرار السين في (الأسنان ، والمسارح) له وقعه، وتكرار القاف والراء في (القمر ، والقوارح) له وقعه أيضًا . وترى أن الذي بين (تنكبهم ، وتنكيب) مما يلحق بالجناس، وبين (العائر ، والجائر) جناس لاحق في قوله : « تنكبهم الفوائد تنكيب السهم العائر، والركب الجائر » وهي الجملة الثانية، ثم بعدها يصبح الجناس في صلب كل جملة وليس في فواصلها فقط، فترى

---

(١) الشنوف : الأقراط ، الحقاب : شيء محلى تشده المرأة في وسطها ، الودع : خرز بيض مشهورة ، الصدع : الوعل بين الوعلين لا بالعظيم ولا بالشخت ، ويطلق أيضًا على الفتي من الحمير ، الفور: الظباء ، الكفور : القُرى . وهو يريد أن يقول بأن قليل العلم فيهم يُعد أمرًا ظريفًا عجيبًا في غير محله ، كما تستغرب الأقراط إذا ما وضعت على الأنوف ، وحلية المرأة إذا ما تحلى بها العقاب ، أو رأيتها في عنق الحمار ، أو كما تستغرب الظباء النافرة إذا حلت القرى .

(٢) يقال فلان هامة اليوم أو غد إذا قرب موته ، وكأن قد : أي كأن قد كان .

(٣) يوحلوا : أي يوقعوا في الوحل . وهو يريد بذلك أهل المعرة ، لو رحلوا قبل أن يأتيهم الغزو .

(٤) الفُرار : ولد البقرة الوحشية ، الفقار : فقار الظهر ، والأوقار : الأحمال الثقيلة . أي لو رحلوا قبل أن يداهمهم الغزو لنفعهم الفرار وإن كانوا في الضعف كصغار الحيوان .

(٥) الذرع : ولد البقرة الوحشية ، ولابس الدرع : الذئب ، البر : الفأر . وهذا سؤال فيه استبطاء إلى متى يصابر أهل المعرة ما يلقون من سوء ؟ !

(٦) العتاد : العدة ، القتاد : شجر له شوك كالإبر ، يضرب به المثل في صعوبة الأمر، فيقال « دون ذلك خرط القتاد » ، القتد : أحد أقتاد الرحل ، المالع : الجمل الذي يسير سيرًا خفيفًا ، العتد : الفرس الموثق الخلق ، القالع : دائرة تكون تحت لبد الفرس وهي مكروهة .

(٧) أنقد : القنفذ ويضرب به المثل لأنه لا ينام الليل كله .

بين (الجريض ، والقريض) جناساً لاحقًا في قوله « يحول فيها الجريض دون القريض »، وهو وإن كان مثلاً مضروبًا إلا أن توظيف أبي العلاء له هنا يُحسب للصنعة العلائية ، ثم ترى جناساً لاحقًا بين (الخف ، القُف) في قوله : « فقد أدمى الخف وطء القف »، ومضارعًا كذلك بين (الخارب ، والغارب) في قوله : « وذهب الخارب بذي الغارب». ثم يعود الجناس ليقتصر على الفاصلة فترى جناساً ناقصاً بين (اقتسار ، وإسار) في قوله : « وإنما هو رفق ثم اقتسار ، وليس بعد السلب إلا الإسار »، وهنا في هاتين الجملتين عندما لم يتوفر الجناس في كل جملة على حدة عوض عنه في الأولى تكرار حرفي القاف والراء في (رفق ، اقتسار)، ثم تجد السين تتكرر في الثانية في (ليس، السلب، الإسار)، وكأنه تعويض عن النغم الذي كان من الممكن أن يحدثه جناس يقع في كل منهما على حدة بدلاً من أن يكون في الفاصلتين فحسب. ثم ترى هذا التوافق على مستوى الجملتين في قوله:« فهم يتوقون كفة الحابل ، ويتوقعون رشق النابل » حيث تجانس يتوقون يتوقعون جناساً ناقصاً، وتجانس الحابلُ النابلَ جناساً لاحقاً. ثم يعود الجناس لتراه في كل جملة على حدة ، فهذا جناس لاحق بين (القارب ، والشارب) في قوله : « على أن القارب أخو الشارب »، وشيء شبيه بالطباق بينهما أيضاً، ثم ترى جناساً لاحقًا أيضاً بين (الهبع ، والربع) وبينهما طباق أيضاً في قوله :« والهبع طريد الربع » .

ثم يعود الجناس للفواصل فترى جناساً لاحقًا بين (جديس ، والسديس) في قوله : « ما أقرب طسماً من جديس ، وأدنى البازل من السديس » ولذا فإننا نتوقع توافقًا داخليًا ينوب عن كون الجناس في الفاصلة فقط وليس في نفس الجملة، فيلقاك تكرار حرف السين في هاتين الجملتين (طسماً ، جديس ، السديس)، وكذلك حرف الزاي في قوله (البازل) وهو قريب من السين ، ثم ترى الزاي والسين يظهران في بداية الجملة الجديدة « لا يزالون يمارسون جابة تنفي النجابة »، وكأنهما وصلة نغم يصل بها أبو العلاء هذا الكلام الجديد، حيث قطع واستأنف، وخرج من حيز الأمثال ، فأغلب الجمل السابقة مسوقة مساق المثل (من صنع أبي العلاء)، أو هي أمثالٌ موروثة فعلاً. ومع هذا الجزء يبدأ أبو العلاء في الوصف الصريح – لأنه بالأمثال كان أيضاً يصف – لأحوال أهل المعرة ، حيث تستغرقه التشبيهات، فترى الجناس ظاهراً في نطاق الجملة الواحدة، فهناك جناس ناقص

بين (جابة، والنجابة) في الجملة السالفة، ثم ترى جناساً لاحقًا بين (الدبر، والوبر) في قوله « نفي الدبر للوبر»، ثم آخر بين (السبع، والضبع) في قوله « والسبع لابن الضبع»، ثم بين (الزلل ، والثلل) في قوله « ويتبين فيهم الزلل من خوف الثلل »، ثم جناساً لاحقًا بين (القلح ، والفلح) في قوله « كما بان القلح من وراء الفلح »، ثم تطول جملة يكون فيها شيء شبيه بالجناس بين (يستطرف ، يستغرب) حيث تشتركان في أربعة من حروفهما وتختلفان في اثنين ، في قوله «فقليل العلم منهم يستطرف، ويستغرب، ولا يكاد يعرف». وتمهد هذه الجملة بطولها لبدء صور جديدة، فتكسر بذلك ما من شأنه أن يكون من رتابة الإيقاع السابق لو استمر .. وبعد هذه الجملة تتوالى أربع جمل في كلٍ منها جناس، وفي كل منها صورة، وهي « كالشنوف على الأنوف ، والحقاب في وسط العقاب ، والودع في عنق الصدع ، والفور بين أهل الكفور»، والجناس فيها على الترتيب أولاً جناس لاحق بين (الشنوف ، الأنوف)، ثم جناس مضارع بين (الحقاب، والعقاب)، ثم جناسٌ لاحق بين (الودع ، والصدع)، ثم جناس ناقص بين (الفور ، الكفور) ، ثم يتوقف أبوالعلاء في جملتين عن الجناس، يجعل لكلا الجملتين نفس الوزن تقريباً دون جناس، فتكون بمثابة استرواح في هذه القطعة التي طالت بلغتها الخاصة، التي لا تكاد تخلو من الجناس، وذلك بقوله : « لأن سالمهم هامة اليوم أو غد ، وإلم يكن ما خاف فكأن قد » .

ثم يعود للجناس من جديد فيجانس جناساً لاحقًا بين (رحلوا ، يوحلوا)، في قوله « ولو رحلوا قبل أن يوحلوا »، ثم بين (توكلوا ، ويوكلوا) جناس اشتقاقي ، كما أن بين معنييهما طباق في قوله « وتوكلوا على الله في المسير قبل أن يوكلوا » ، ثم يجانس جناساً محرفاً بين (الفِرار ، الفُرار) في قوله « لنفع الفِرار الفُرار » ، ثم شيء شبيه بالجناس بين (الفقار ، الأوقار) في قوله « واستراح الفقار إلى وضع الأوقار»، ثم يجانس جناساً مضارعاً بين (الذّرع، والدرع)، ثم جناساً لاحقًا بين (البر ، والهر) في قوله « وكم مصابرة الذرع لابس الدرع ، والبر الهر؟ ! » . ثم يقابلك جناس لاحق بين (العتاد ، والقتاد) في قوله « وإن كان دون كسب العتاد ممارسة خرط القتاد » ، ثم يقابلك آخر ثنائي بين (القتد ، والمالع) من جانب ، و (العتد ، والقالع) من جانب آخر .

وهذا الذي تراه أمرٌ لافت للنظر ، فعناية أبي العلاء بمعناه هنا بلغت الغاية ، فقد مزج صنعته في الأمثال بصنعته في الجناس والخيال، فأحدث لغةً جِدُّ خاصة،

مكثفة الدلالة بتزاحم صورها، دالة دلالة لا تتخلف على أبي العلاء، فلا تكاد تخلو جملة في هذا السياق على طوله من صورة، وربما كانت مركبة، فكل الأمثال الواردة هنا مستخدمة على سبيل الاستعارة التمثيلية، وهي مكثفةالدلالة أيضًا؛ كون الأمثال في حد ذاتها تحمل بداخلها قصصًا تلقي بظلالها على معنى أبي العلاء . أضف إلى ذلك هذا التقسيم ، والتوازن بين الجمل ، والقدرة على كسر رتابة الإيقاع في الوقت المناسب . وهذا التجويد والاحتفال البالغ إن دل على شيء فإنما يدل على عناية أبي العلاء البالغة بمعناه هنا ، وأنه معنىً وثيق الصلة بنفسه ، وأن هذه اللغة بما داخلها من صنعة بيانية ، هي صورته التي تراه فيها لا يشتبه بأحد قط ، والتي يتميّز بها تميزًا يجافي كل نظير .

وإذا أخذت في الاعتبار أن المرسل إليه هنا ذو جاه وصاحب وزارة ربما ألقى ذلك فضل إضاءة على حرصه على معناه ، فالرجل هنا ظاهر كلامه أنه يعتذر عن عدم علو كعب أهل المعرة في العلم والأدب لعدم تفرغهم لذلك ، ثم يأتي السبب وكأنه مجرد علة يسوقها أبو العلاء معتذرًا ، والحق أنها غايته التي من أجلها أنشأ هذا الجزء ، وربما غايته التي سيطرت على ذهنه طوال الرسالة ، وهي وصف حال أهل المعرةالسيئة كونهم يعيشون في منطقة مضطربة ، يتقاذفها تداول الدول ، واختلاف الساسة، ويحيط بها الأعداء من كل جانب ، أخذ ت منهم مخافة العدو أكثر مما أخذت منهم هجماته « ويتبين فيهم الزلل من خوف الثلل ، كما بان القلح من وراء الفلح ، فقليل العلم منهم يستطرف ، ويستغرب ، ولا يكاد يعرف » ، ثم تراه يقول معللاً قوله السابق « لأن سالمهم هامة اليوم أو غد ، وإن لم يكن ما خاف فكأن قد » وكأني به يسخر من كتابه ، وحاجة أهل المعرة له ، والفائدة التي قد تعود عليهم من هذا الكتاب !!

ومن صفتهم أيضًا أنه قد سلبهم شظف العيش التفرغ للرقي في الحياة الفكرية والعلمية ، يقول « لا يزالون يمارسون جابة تنفي النجابة ، نفي الدبر للوبر، والسبع لابن الضبع »، فهم لا يزالون يمارسون عيشة غليظة من شأنها أن تنفي النجابة عنهم نفيًا كما تنفي قروح الناقة شعرها وتزيله، وكما ينفي السبع المستأسد المتجبر ابن الضبع عن فريسته وعرِّيسته . فهل يخفي هذا الوصف المبالغ فيه لحال المعرة وأهلها السيئة، وسمو الوزير في المقابل- نقدًا من أبي العلاء للطبقية التي يعاني منها المجتمع في زمانه، وإبرازًا للفروق الطبقية بين الناس، وأن من الناس من هم في طبقة أهل المعرة ، ومنهم من هم في طبقة الوزير ، فيبالغ في الحديث

عن طبقة أوتيت كل شيء حتى الثقافة والبلاغة، وطبقة مسحوقة حُرمت كل شيء حتى الفهم حتى تعجز عن استيعاب لغة الطبقة المتميزة !!

ثم إن هذاالوصف لحال المعرة ينبيء عن نفس حية تتألم وتشكوأوجاع الناس، تفكر بهم ولهم ، ثم هو لا يشكو حالهم ويصفه فقط، بل تلمح في وصفه فكر بحث عن الحلول بعد أن حلَّل الحال، وتشعر وكأن « ولو رحلوا قبل أن يُوحلوا ، وتوكلوا على اللّه في المسير قبل أن يُوكلوا، لنفع الفِرار الفُرار، وارتاح الفَقَار إلى وضع الأَوْقار»تخفي وراءها معاناة النصح من قبلهوامتداد هذا النصح ولكن دون سامع أو مجيب، فأنت ترى استفهامه الذي يدل على نفاد صبر« وكم مصابرة الذرع لابس الدرع، والبر الهر » ؟ ! وإلى أي نتيجة سوف تؤول هذه المصابرة ؟ ! لأنه عندما يقول « وإن كان دون كسب العتاد ممارسة خرط القتاد » كأنما يستحضر حججهم الواهية في مقابلة نصائحه لهم بالرحيل، فهم عاجزون عن المبادرة، ملتصقون بالأرض، ينتظرون أن يحل قضاء اللّه فيهم ، وهذا نموذج ترفضه نفس حية مثل نفس أبي العلاء، هذا العاجز الذي استطاع أن يتجاوز عجزه ومحبسه، فيصل إلى قومه وأمته، ويشعر بآلامهم، ويتفقد أحوالهم بفكره إلم يستطع تفقدها بناظره ، هذا الذي استطاع أن يمزج في بيانه بين قضايا لغته وقضايا أمته،فبحث عما من شأنه أن يحييها ويحيي في ذات الوقت قوماً تكالبت عليهم الأمم واستسلموا للجهل .

وكأن أبا العلاء يضع يده هنا، وبيانه أيضًا على المتلازمة الناجعة لعلاج هذه الأمة، وهي إحياء لغتهم، وإحياء ما غاب من حسنها وإحسانها، وفي إحيائها إحياءً لهذه الأمة ، إحياء اللغة إحياءٌ للنفس ، هذا هو الحل الذي ينقصنا وكان ينقصهم. يحييهم باستنفار طاقاتها، وروحها الشاعرة، وكوامنها، وأوابدها، وكأنما يحشد جيشًا من المعاني، والأمثال، والسجع، والأوزان، والجناس، والأخيلة، جيشًا لمقابلة ومقارعة هذا الموات ، جيشًا من شأنه أن يحيي بكوامن اللغة كوامن الإحساس؛ فتهش النفس لتقبل ما يقول، فتقع منه على منقع يشفي غلتها ويبل صداها .

فأبو العلاء وإن اعتزل مجتمعه جسدًا ، فإنه لم يعتزله عقلاً وفكرًا وروحًا ، وإنما كان هذا المجتمع هو همُّه وسدمه . كان همه ألا يرى الظلم أمامه، وألا يسكت عن الحق، في زمن كان قول الحق فيه من أكبر الرزايا، وما أشبهه بزماننا، وما أشبهنا بأهل المعرة، وما أحوجنا إلى أبي علاءٍ جديد، ينافح عن لغته، وينافح عن أمته، ويضرب الغافلين بسياط سخريته وحكمته، لعل صحوةً تدركهم، أو رحمةً تُغَيِّبُهُم!!

* * *

وإن كنا رأينا فيما مضى كيف يتهيأ بيان أبي العلاء لاستقبال فيض الجناس، وكيف كان تكاثر الجناس في بعض رسائله خصوصية قائمة بذاتها ، عوضاً عن مهيعه الخاص في الجناس الذي تحدثنا عنه في البدء .

فقد تفتقت قريحة أبي العلاء عن نماذج رائعة في هذا المجال ، مجال الجناس الذي يقترن بالطباق ، وغالبًا ما يأتي على مستوى مفردتين تقابل وتجانس في ذات الوقت مفردتين أخريين .

وهذا الجناس الثنائي الذي يحمل في ثناياه طباقًا أو مفارقة ما، يوجد أكثر ما يوجد في رسالته المنيح التي اخترناها لتكون أنموذجًا لدرسه .

لذا فإنني سوف أعرض في هذا الجزء من الفصل لكل نماذج هذه الطريقة التي ظهرت في هذه الرسالة كما أنبأتك من قبل .

وأول ما يواجهنا منها قوله في معرض وصفه لشوقه إلى الوزير المغربي، وأن هذا الشوق إلى الوزير كشوق « أنضاء الإعلال إلى إفضاء الإبلال(١) » وقد مرّ بنا من قبل ولكننا سنتناوله هنا بمزيد تفصيل ، وقد عدل أبو العلاء كما ترى عن أن يقول (نضو) على صيغة المفرد من أجل الجناس، فأتى بها على صورة الجمع (أنضاء) ليجانس بها (إفضاء)، وجانس أيضًا بين (الإعلال ، والإبلال) ، وكما ترى بينهما طباق بين العلة والشفاء منها ، وأصل المعنى « شوق المريض إلى الشفاء»، ولكن أباالعلاء عبر عن هذا المعنى بقوله:شوق «أنضاء الإعلال إلى إفضاء الإبلال » رغبة في الجناس، ولا يخفى ما لهذه الصيغة التي عمد إليها أبو العلاء ليجانس بها من جمال ومن فائدة، ومن إضافة جديدة للمعنى؛ فهو ليس شوق مريض إلى البرء والشفاء، إنما هو شوق مريض قد أهزله المرض إهزالاً حتى أصبح علمًا ينسب إليه، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على شدة المرض، أو طول مكثه، أو الاثنين معًا، فالشوق هنا لن يكون شوقًا عاديًا، بل هو شوق يحمل من قوة الرغبة في الحياة السليمة، وشدة النزق من المرض ، والحاجة إلى الشفاء الكثير.

(١) أنضاء تعني مهازيل ، يقولون ركبت نضواً من الأنضاء قد أنضته الأسفار ، وهي كلمة مستخدمة في معناها الأصلي وليست مستعملة استعمالاً مجازيًا ، الإعلال : المرض ، إفضاء : أي بلوغ ووصول، الإبلال : أي الشفاء .

ثم إن أبا العلاء لم يجعله شوق مهزول واحد، بل هو شوق مهازيل المرض جميعًا ، شوق كل من أهزله المرض إلى الشفاء والعافية، تجده في هذا التنكير لـ(أنضاء)الذي يحمل معه معنى العموم، ومن الغريب أن يجعل مَثَلَه من الحيوان!! ولا شك أن شوق الإنسان الذي أهزله المرض إلى العافية أبين وأظهر من شوق الحيوان المهزول إلى العافية ، فلماذا اختار أبو العلاء عالم الحيوان ؟! هل كان لحنين الإبل وأنها مثل للحنين في كلام العرب سر في هذا الاختيار ؟ خاصة وأن لحنين الإبل حضور بارز في صور أبي العلاء ، وأن أنضاءها تحن إلى العافية بكل ما أودعه خالقها في فطرتها من الحنين .

وثاني ظهور لهذه الصنعة في هذه الرسالة قوله « لنقلني من آلي العامة ، إلى عالي السامة[1] » يصف فعل سلام ابن المغربي الذي خصّ أبا العلاء به في كتابه لأهل المعرة، فالعامة كما ترى كلمة قريبة متداولة، نقب أبو العلاء عن كلمة تجانسها وتعبر عن هذه العلاقات الخفية بين الألفاظ، وأوهمك باديء الأمر ألا اختلاف، ثم فاجاك بوجوده . فالكلمتان المتجانستان (العامّة ، والسَّامة) بينهما طباق، وإن أوحى تجانسهما بتصاقب معنييهما وتشاربهما ، إلا أنك ما تلبث وتكتشف حقيقة الأمر، وكأن الطرقات غير المألوفة التي يطرق بها أبو العلاء ذاكرة الناس التي استنامت لمّا ألفت – كانت إحدى مقاصد هذا الطباق الذي وراء الجناس .

وكذلك جانس بين (آلي، وعالي) جناسًا مضارعًا، وبينهما شوب من الاختلاف؛ فأنت ترى القرب والحميمية في آلي، وترى البعد والسمو في عالي ، وهذا الانتقال من طبقة العوام إلى الخواص، انتقال اشترط له أبو العلاء اختلال الطبائع، فجعله أمرًا بعيدًا بأن شبهه بـ « نقل الكيمياء ما خالط من المُزَأْبَقِ الجايز إلى جُملة النُّضَار المُمَايز » . فأبو العلاء لا يريد هذه النقلة وإن تخيلها، وينبئك بذلك اختياره لكلمة (آلي)، ففيها قدر من الحميمية والاتصال والانتساب إلى هذه الطبقة، الأمر الذي يريد إثباته أبو العلاء؛ لأنه لو استغنى عنها لفهم ضمنًا أنه من العوام، لكنه يريد أن يقول بأنهم آله وأهله . وهو يرفض الانتقال بقوله قبل هذا « جذلاً بما لو جاز تبدل الغريزة، وتحول النَّحِيزة لنقلني ... » فالنحيزة : الطبيعة ، و (لو) حرف امتناع لامتناع .

(١) آلي : أهلي ، السامة : الخاصة .

فـ (آلي) هنا وإن اجتلبت من أجل الجناس الثنائي الذي يولع بـه أبو العلاء، إلا أنها أضافت إلى المعنى إضافة لم تكن بدونها !!

وانظر من ثم لقوله حيث تكتمل هذه الصنعة بكون كل كلمة هي في حقيقتها طباق للأخرى التي تقابلها[1] : « وَتَراءَوْهُ مـن مَبَارِكِ الـعُرُوجِ ، فَلَمَحُوه فـي مآرِكِ البُرُوجِ »، فأين المبارك وهي مواضع إناخة قطعان الإبل ، وفي الفعل الذي اشتقت منه ما فيه من معنى الالتصاق بالأرض – من المآرك وهي محال النجوم؟! وأصل معناها مقام الشيء، فأنت ترى ما فيها من معنى القيام والانتصاب !!

ثم ما بين العروج وهي قطعان الإبل، والبروج وهي منازل القمر . انظر لهذا البون ، وتأمل كيف كان التجانس بين هذه الألفاظ موهماً لك بأنك تسمع الجملة الأولى معادة عليك ومكرورة، ثم تتبين أنها أتتك بجديد، وتظن من بعد أن هذا التجانس في الجرس، والصوت، والبناء، يطوي وراءه تجانساً آخر في المعاني، أو تقارباً على الأقل، ثم يتكشف لك عن هذا الافتراق، والتضاد، والبون الشاسع بين مبارك قطعان الإبل ومنازل بروج السماء !! وبذا يزيد جناس أبي العلاء جمالاً على الجناس العادي بأنه إيهام من بعد إيهام ، فالإيهام الذي يعول عليه كثيراً الشيخ عبد القاهر الجرجاني في قضية فائدة الجناس – تجده وقد تضاعف لدى أبي العلاء ، وتجد أن حلاوة الوقوع على الفائدة الجديدة قد تضاعفت أيضاً ، فهي حلاوة من بعد حلاوة ، وغموض يتكشف من بعد غموض ، وكسر لاعتقاد من بعد كسر لاعتقاد سابق .

وهذا الجناس ظهر في بيان أبي العلاء عندما عبر عن ما أحدثته بلاغة ابن المغربي ، متجسدةً في كتابه إلى أهل المعرة ، حيث أنزلت بهم الخرس والعجز عن مجاراته ومداناته، فأصبح قلم كاتبهم عود الناكت، وجواب بليغهم حيرة الساكت ؛ لأنهم تراءوه من مبارك العروج فلمحوه في مآرك البروج !! فهذا التناقض الذي صنعه أبو العلاء في هذا الجناس ، سخره للتعبير عن البون الكبير بين بلاغة أهل المعرة وبلاغة الوزير ، وبين قدرات أهل المعرة البيانية من جانب ، وقدرات الوزير من جانب آخر .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٧ .

وفي نفس هذه الفقرة، ولخدمة نفس المعنى، يأتي أبو العلاء بجناس مقترن بالطباق آخر، يوشك أن يكون ثنائيًا في صورة مثل حيث يقول « ولن تُوجَدَ آثَارُ النُّوقِ ، في أَوْكَارِ الأَنُوقِ » فبين (آثار ، وأوكار) شيء شبيه بالجناس، حيث اتفقتا في ثلاثة أحرف ، ونلمس بين معنييهما أيضًا شيئًا شبيهًا بالطباق إلم يكن هو ، بين آثار الأخفاف في الأراضي المنبسطة، وبين الأوكار في رؤوس الجبال ، بين الأثر والوكر . ثم تجد بين (النوق، والأنوق) جناسًا ناقصًا وشيئًا شبيهًا بالطباق أيضًا، تراه بين النوق التي هي من دواب الأرض، وبين عقبان السماء، وبين منازل الأولى التي تسكن الأرض، ومنازل الثانية التي تسكن قمم الجبال !

وقد سلف في فصل الأمثال[1] ما نرجحه من أن هذا المثل صناعة علائية ، وقد استقاه من المثل العربي « أعز من بيض الأنوق » . والسؤال هو : لماذا أتى أبوالعلاء بهذا المثل على هذه الصورة ؟ ! ولم يقل بأن أدب المغربي أعز من بيض الأنوق مثلاً ، وكان بإمكانه أن يقول : ولن تصل النوق إلى أوكار الأنوق ، أو لن ترقى النوق مراقي الأنوق ، لماذا أتى بآثار وأوكار هنا ؟ !

أليزيد النغم ويزيد الرنين ، ويقترب بجناسه من أن يكون ثنائيًا كما هي صنعته فيه ؟ ! نعم ، ولكن ماذا بعد ؟ ! فلم نتعود أن تكون لغة أبي العلاء مجتلبة من أجل خدمة اللفظ فقط، فدومًا يكون نتاج هذا الاجتلاب إضافة جديدة للمعنى .

فما الإضافة التي يحققها قوله آثار ؟ فهي تفيد أولاً : أنها تصل إلى تلك المراقي فينتفي تبعًا لذلك أن يكون هناك أثر قدم أو أثر حافر في ذلك المكان العالي، وهو لم يجعله قمة عالية لا تدرك فحسب، بل هي ملك للغير (أوكار الأنوق)، وكأن بين النوق وبينها أمرين : العجز عن الارتقاء لبعدها، وكونها أرضًا محرمةً، وحمىً ممنوعًا، يخص عقبان السماء التي تستطيع التحليق لتصل إلى تلك الأوكار ، فاستحقت أن تكون ملكها .

وربما أيضًا لما في معنى الآثار من البقاء والخلود ، فليس لأدب هؤلاء آثار تذكر في مراقي العز الأدبية ، وربما هو لما في معنى الأثر من التقفي والتتبع ، وأنه مهما تقصيت فلن تجد لهم فيها أثرًا دارسًا فضلاً عن أن تجده ماثلاً !!

---

(١) انظر فصل : مواقع الأمثال في رسائل أبي العلاء ، ص ٥٦ .

ثم ترى هذه الصنعة تتجلى في نحو قوله[1] : « والظُّلم البَيِّن ... تَكْلِيفُ القُطْب النَّابِت مُدَانَـاةَ القُطْبِ الثَّابِت » والقطب الأول هو نوع من الزرع، والثاني برج من أبراج السماء، وكأنما بحث أبو العلاء عن مقابل أرضي لذلك البرج في غياهب اللغة فوقع على القطب الذي هو النبات، وكأنما البحث هنا كان على مستوى الطرفين؛ أراد متقابلات متباعدة جداً ، وفي نفس الوقت متجانسة، فوقع على قطب السماء (وهو بعيد أيضًا في الاستعمال)، كما وقع على قطب النبات ، وقد حقق من وجه آخر ضربًا من مراعاة النظير بين (أوكار النوق)، و (القطب الثابت) فكلاهما سماوي ، وبين (آثار النوق)، و (القطب النابت) فكلاهما أرضي .

وهو في صياغته لهذه الجملة التي يريد أن يعبر بها عن عمق البون، وبعد المسافة بين الطرفين،يجد من الأجرام السماوية مادة ثرية يمتح منها أسماء وصفات دالة عليها غير تلك التي اعتادت أن تسمعها الآذان من أسماء الكواكب والنجوم .

وقد أضاف إلى الأول كلمة النابت، وما فيها من معنى النمو والابتداء، بما يجانسها – جناساً لاحقًا – مع الثاني وهي الثابت، وما فيها من معنى الاستقرار والاكتمال . وهذه الثانية وإن كانت تبدو مجتلبة، إلا أنه قد جرت العادة في استخدام الجناس المماثل، الذي هو من قبيل المشترك اللفظي بأن يضاف كل لفظ منهما إلى أمر ما يحدد ويميز معناه عن صاحبه الذي هو عينه في البناء والتركيب والوزن . كقول أبي تمام « صدور العوالي في صدور الكتائب »، ولكن أبا العلاء هنا أتبع كلمة الجناس بوصف لم يعمل عمل الإضافة في جناس أبي تمام، وهو الكشف والبيان، وإنما هو وصف فيه شوب من الغموض والإبهام !!

فمثلاً قوله(النابت) ربما شعرت معه بأنه أتى به للتمييز والبيان، فمن صفات القطب الذي هو نوع من الزرع أنه نابت، أما مع(الثابت) فأنت تشعر بأنه لم يميز الجرم السماوي بهذا الأمر؛ فلو قال مثلاً : قطب السماء ، لكان تمييزًا حقيقيًا له، فتظن أنه لم يأت بـ(الثابت) إلا ليجانس بها(النابت) فقط ، وهذا ربما كان صحيحًا، وأنه اجتلبه من أجل الجناس، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون هذا المجتلب قد أضاف طباقًا آخر للجملة، فدخلت به حيِّز المقابلة، فلم تعد المسألة فقط مسافة بين نبتةٍ أرضيةٍ وجرمٍ سماوي، بل هي مع ذلك، مقابلة بين أمرٍ هين في بدايته غير

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٥ .

مكتمل ما زال في طور النمو فوق كونه أرضيًا ، وأمر ثابت مستقر قد اكتمل إضافة إلى كونه سماويًا !!

وبهذه الطريقة يجمع أبو العلاء بين استدعاء الغريب، والجناس، والطباق في قالب واحد، وفي شكل واحد، لا يفقد رونقه وأصالته في بيانه .

والفكرة التي كان هذا البناء اللغوي الذي تداخل فيه الجناس، والطباق، والمقابلة والتمثيل – لأن هذا تمثيل = أقول الفكرة التي حشد لها هذه الفنون البلاغية هي بيان الفرق بين المغربي وأهل المعرة ، وأن الذي بينهم وبينه كالذي بين السماء والأرض ، فقط .

فهل يريد أبو العلاء تغريب الفكرة القريبة المعروفة ، ووضعها في قماقم لغوية لا يصل الناس إليها ، إلا إذا استخرجوا معاني الغريب ؟ ! هل هذا ارتقاء بالعامّة إلى السامة ؟ !

هل هذه ثروة لغوية صحبتها قوة خيال ، فقصد أبو العلاء إلى أن يفرغ في الحياة الأدبية التي بدأ يجلّلها الركود ، هذا الضرب من الأدب ، وهذا الضرب من اللغة ، وهذا الضرب من الأسلوب ليوقظ وينبه ؟ !

واضح أن عصر أبي العلاء كان ينطوي وتطوى معه سلسلة من الأفذاذ كأبي الطيب وأبي العلاء ، فهل كان أبو العلاء يدرك بحسه أنه في نهاية زمن ماجد ؟ !!

ثم إن هذا الذي وصفت من احتشاد للفنون البلاغية على لسانه أمرٌ من لغته ومن سمته بمكان ، فاعرفه .

وشبيه بالجناس الماضي جناس يقرب من أن يكون ثنائيًا، يتلوه مباشرة دون استرواح بكلامٍ خال من هذه الصنعة الخاصة، وهذا هو الظهور الوحيد لنموذجين من هذا الجناس متتاليين على هذه الطريقة في رسالته هذه، وهو قوله« وإِلْزَامُ نَسْرِ الحَافِرِ ، مَرَامَ النَّسْرِ الطَّائِرِ ». فالنسر الثاني من النجوم قابله أبو العلاء (بنسر الحافر) وهو شيء يشبه النواة يكون في باطن الحافر ، وبذلك نكون ما نزال في نطاق المشترك اللفظي، حيث بحث أبو العلاء أيضًا عن كلمتين متجانستين، تعبران عن أمرين متنافرين بينهما بعد المفارقة ومسافة طويلة تنقلك من العالم الأرضي إلى العالم السماوي، تنقلك من أسفل سافلين إلى أعلى عليين. فكيف وقع أبو العلاء على

هذين النسرين ؟ !

فكلا الكلمتين من قبيل الغريب الغير مشهور من استخدامات اللغة ، كما أنها لا تأتيك بالنسر الذي ألفت سماعه وهو النسر من الطيور، وإنما تسفل عنه في الأولى كل السفول، وتعلو عنه في الثانية كل العلو .

وإننا لنرى في هذا الجناس أن حِدَّة المفارقة قد ارتفعت كثيراً ، فبينما كان الأمر مسافة ما بين نبات الأرض النامي وجرم السماء الثابت، تجدنا أمام المسافة بين نواة في حافر البعير وجرم سماوي طائر ، وما تحمله كلمة طائر من معنى الانطلاق والتحرر ، بينما نجد الالتصاق والجثوم وملامسة الأرض ظاهرة صريحة في نواة في حافر البعير، وكأن أبا العلاء لم يكتف بسفولهم إلا وأن يجعلهم داخل ذلك الحافر، ملتصقين به وبالأرض، ثم هو لا يزال يُوطأ ويُوطأ به. فأنت أيضاً تلمح بين الحافر والطائر لمحًا من الاختلاف؛ ما بين السير على الأرض وأداته الحافر، والطيران في السماء، فهناك مفارقة على مستوى المفردتين. ورغم أن كلمتي(الحافر، والطائر) لم تكن كـ(الثابت ، والنابت) متجانستين، إلا أنهما وإن اختلفتا في حرفين فقد اتفقتا في حرفين أيضًا، أي في نصف حروفهما ، وكذلك اتفقتا في الوزن فهما على وزن فاعل ، وهذا نوع من الجناس لا تغفله الأذن ولا النفس .

وانظر من ثم كيف استطاعت قريحة أبي العلاء أن تكشف لناعن هذا المشترك اللفظي الغائب ، لذلك كان لوقوعنا على معناهما لذة هي لذة الجدة ، لذة الاكتشاف والتكشف . وما كان ليحدث هذا لولا اتكاء أبي العلاء في صنعته للجناس على الكنز المذخور في نفسه من الغريب، وكأن أبا العلاء يتعمد في أدبه إحضار الألفاظ التي غابت وطرحتها ألسنة الناس، وأوشكت أن تسقط من ذاكرة أصحاب البيان، فيحفظها بأدبه، ويمكِّن لها بلغةٍ ثُقِّفت وصُقلت، حتى غدت نغمًا صرفًا، فيأتي بما يجانسها ويشاكلها؛ ليجعلها تَخِفُّ على الألسنة وتَذِفُّ، وينزع عنها بذلك ثوب غرابتها، فيجاورها بالأليف فيؤهلها. وكأن هذا منه ما عناه بقوله مادحًا قدرة ابن المغربي البيانية في هذه الرسالة : « وخصَّه بارؤه – تقدست أسماؤه – بطبع رَاضَ صِعابَ الأغْراضِ حتى ذلَّلَها ، **وأبَسَّ بوحُوشِ اللغَات فأهَّلَها**[2] ».

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٨ .

(٢) يقال أبسَّ بالناقة : إذا دعاها للحلب ، وأهَّل الوحوش : أي دجَّنَها .

ومن نماذج هذه الطريقة أيضًا قوله نهاية المقطع السالف، فإنه بعد أن ذكر أنه لا يمكن للأمور الخروج عن طبائعها ، فمن الظلم تكليف القطب من النبات أن يبلغ مرام قطب السماء ، ومن الظلم أيضًا أن يكلف نسر في حافر أن يشأى شأو النسر الطائر، وأنه لا عبرة في ذلك بالاتفاقات والمصادفات، وأن العبرة ببذل الجهد، فتنداح هذه الفكرة الأخيرة في مقطع من الكلام يطول ، كل جملة فيه مسوقة مساق المثل ، يقول فيه : « ويَصيدُ ظَلِيمَ المَقَّاء ، من زَهِدَ في ظَلِيم السِّقَاءِ » فتجد نفسك أمام مشترك لفظي غامض يدخل في تكوين هذا المثل، الذي أرجح أنه من صنع أبي العلاء، وقد تعرضت لذلك في فصل الأمثال .

فالظليم الأول هو ذكر النعام، والمقاء هي الأرض الواسعة ، والظليم الثاني هو اللبن الذي يشرب قبل أن يروب، والسقاء وعاء اللبن. فقد جانس أبو العلاء هنا على مستوى المفردتين جناسًا ثنائيًا ، فـ(ظليم) تجانس (ظليم) الثانية جناسًا مماثلاً ، و(المقَّاء) تجانس (السقاء) جناسًا لاحقًا . وقد ذكرت قبل ذلك أن من المفروض ما يضاف إلى اللفظ المشترك أو يوصف به يكون تمييزًا له (أعني بيانًا) عن الآخر الذي هو عينه، فانظر كيف ألغز أبو العلاء ظليمه الأول بإتيانه بهذه المفردة (المقَّاء)، فليس الغرابة مكمنها في كلمة (الظليم)، فهي مشهورةالاستعمال لدى الأدباء، وإنما عندما نسبه إلى هذه الأرض، واختار هذا المسمى دون غيره –حدثت الغرابة ، وقد اختاره ليجانس به (السِّقاء) الذي هو التمييز لـ(لظليم) الثاني، فيحدد ماهيته، وإنما هو اللبن المشروب قبل أن يروب ، فالـ(ظليم) الثاني هو الكلمة الغريبة، وما أضيف إليه هو الكلمة المعروفة، وهذا هو سمت أبي العلاء وهذا مهيعه .

فإذا قلنا أنه جاء بـ(المقَّاء) دون غيرها ليجانس بها (السقاء)، فهل يعني هذا أننا لم نجن من خلف هذه المفردة زيادة معنى، وأنها أتت تكلفًا للجناس ؟ !

الحقيقة أنه ربما استفاد منها المعنى استفادة جليلة؛ ذلك أن الظليم معروف بسرعة عدوه، وصعوبة صيده، فيصلح لأن يعبر به أبو العلاء عن الغاية الصعبة التي هي مراده من هذا المثل، والتي تحتاج إلى بذل الجهد، والتي تعرض عنك إذا لم تأخذ لها الأسباب والاحتياط . فإذا كان هذا الظليم في أرض واسعة رحبة، أليس هذا أدعى لسرعة عدوه، وسهولة هربه، وصعوبة إدراكه وصيده في المقابل؟! فيكون أبوالعلاء بذلك قد وظَّف الجناس توظيفًا معنويًا رائعًا، خدم غرضه ، وأضاف هذا الجرس إلى بيانه .

وبذا يكون ظليم السقاء كناية عن الدعة والحياة المنعمة، أو التخاذل عن بذل الجهد ، والذي يوضح لنا معنى هذا الجناس في كلامه هنا قوله في جزءٍ سابق من الرسالة عن المترسلين قبله، وانتقاده لصنعتهم في الرسائل، بأنهم جعلوا الرسائل مثل الوسائل، واستخدموا السجع، وما رقوا في درجته، ولا أتقنوا صنعته،فكان في بيانهم كأثر الوشم على من له حول من الغلمان . ثم قال بأنهم لو أرادوا الوصول إلى مثل هذه الفصول من بيان ابن المغربي في بلاغتها[1] « لاخْتَارُوا الرَّتَبَ على الرُّتَب » ، والأسلوب هنا أيضًا فيه جناس، وفي جناسه شوب من الاختلاف ، حيث الرَّتب : تعني غلظ العيش وشدته، والرُّتب : تعني المنزلة ، ومن هنا ينبغي أن نسأل: كيف يكون الركون إلى الدعة أمرًا يقدح في بلاغة الإنسان، واختيار غلظ العيش بالنيابة عن ذلك هو السبيل في الوصول إلى تلك الفصول ؟ !!

هل هي كناية عن الاجتهاد في طلب المعرفة والعلم ؟ أم الاجتهاد في صنعة الرسائل نفسها ؟ ! بمعنى التنقيح والتجويد، وأن الركون إلى الطبع فقط يفسد البلاغة، ويجعل السجع كأثر الوشم على من له حول من الغلمان . أم أن أبا العلاء يشير هنا إلى الطريق الذي انتهجه في حياته ؟ ! من اختيار الزهد وغلظ العيش على الارتقاء في المنازل مع الولاة وأهل السياسة والطامعين ، كما كان شأن أغلب المترسلين من كتَّاب ووزراء .

هل يعني هذا بأن هذا الاختيار للرَّتب وللمحبس ليس فقط لما ظهر لنا من أمور: بسبب اعتزال الفتن ، ومن تجربته المريرة في بغداد ، أو لطبيعة نفسه ، ورهافة حسه ، وكبريائه ، مع وصفه الخاص وزمانته وحاجته إلى غيره ، فنستطيع أن نضيف لها بأن هذه الحياة الغليظة أو المحبس هي السبيل للوصول إلى المثال البلاغي الذي ينشده أبو العلاء ؟ !

ولا تغفل أن أبا العلاء وهو ينقد رسائل المترسلين لا يجوز أن يخلي كلامه من إشارة خاطفة منه إلى مذهبه ، وقوله « ما رَقُوا في دَرَجَتِه، ولا وَضَعوا قدمًا على مَحَجَّتِه » وهو يعني السجع تفيد أنه ليس ممن يتقبلون السجع يأتي سهلاً رهوًا إذا كان المعنى قد استدعاه كما يقول عبد القاهر، وإنما يراه بابًا من أبواب الصنعة

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٠ .

تتقن محجته وطريقته ومذهبه . وتشبيهه للسجع كأثر الوشم على من له حول من الغلمان ، يعني ضعفه وخفوت جرسه ، ونستطيع أن نسحب هذا الرأي منه على الجناس وصنعته فيه .

ويقول في نطاق هذه الصنعة أيضاً[1] « لكن وَجَّبْتُ الشَّخِّيرَ، ورَجَّبْتُ الطِّرْفَ الأخِير [2]» – في الجزء الذي تحدث فيه عن لهجه بحب الوزير ، وأنه يؤيد ما يذكره من نبل الرجل بالأيمان، حتى استجهله الناس، واتهموه بمجانبة الحقيقة؛ ذلك أنه لم يقتنع بتفضيله على من هم في عصره وزمانه دون من سبقه من سالف الأقوام، وإنما « وجبت الشخير، ورجبت الطرف الأخير » ، وأراد أنه أسقط كل المترسلين الذين لم يرتقوا في هذه الصنعة، وعظَّم الفرس الكريم وإن جاء أخيراً، ويعني به ابن المغربي . وأنت ترى بأن الجناس هنا كان جناساً ثنائيًا على مستوى الكلمتين، حيث كان بين (وجّبت ، ورجّبت) جناس لاحق وطباق، وبين (الشخير ، والأخير) جناس لاحق أيضاً . وكلمة (الأخير) وصف للطرف ، و(الطرف) هو الذي يطابق (الشخير)، وبذا يختلف هذا الجناس عن سوابقه كون إحدى الكلمتين المتجانستين متكونة من موصوف (الطِّرف)، وصفة (الأخير)، فالموصوف هو الذي اضطلع بالمطابقة والصفة بالجناس .

وإن بدا أن الأخير مجلوبة لداعي الجناس فقط فإنها أتت هنا غاية أبي العلاء ومعناه؛ لأنه فضل المغربي رغم تأخر زمانه –وهذا هو مقعد الكلام– فضله رغم تأخر زمانه على المتقدمين، حيث يعقب على هذا بقوله«ولَيْس النَّصْرُ بِقِدَمِ العَصْر»، ثم يستمر في توكيده لهذه القضية، وهي أن الأفضلية ليست حكراً على عصر دون آخر، وليس القديم أولى بالتفرد والتميز لقدمه، وربما أتى متأخر ففاق المتقدمين، وقد ذكر هذا المعنى بقوله :

وإِنِّي وإِنْ كُنْتُ الأخِيرَ زَمَانه   لآتٍ بِمَا لَم تَسْتَطِعْه الأوَائِلُ .

وبذا يكون معنى كلامه الآنف : وجبت الشخير وإن كان قديماً، ورجبت الطرف وإن كان أخيراً ، فتتكشف هذه الجزئية عن فكرة نقدية عند أبي العلاء ..

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٧٧ .

(٢) وجَّب : أسقط ، الشخير : الذي يشخر من الحيوانات حمار أو غيره ، ورجبت : بمعنى عظمت، الطرف : الفرس الكريم ، والأخير : أي المتأخر زمانًا .

ومن هنا نرى أن جناس أبي العلاء في كل ما سبق لم يكن عالة على المعنى، بل كان مثريًا له، أو كان المعنى ذاته دون زيادة أو نقصان . وقد سبق أن ذكرت أنه كان يجتلب اللفظة الغريبة من أجل الجناس، وفي هذا شوب من التكلف ، وإنما عاب علماؤنا التكلف الذي ليس وراءه معنى، وهذا الذي بين أيدينا من عمل أبي العلاء تكلف يثري الأسلوب، ويتغازر به المعنى، وهو أولى بأن يسمَّى صنعة لأنه يُصَوِّر بدقة صنعة أبي العلاء . ولكل شاعر صنعة في بيانه ، والفرق بين شاعر وشاعر هو فرق بين صنعة وصنعة ، وليس كل صنعة تصنعًا .

وآخر ما يقابلنا من صنعته هذه في رسالته المنيح صورتان رائعتان لهذه الصنعة ، حيث أنه في آخر الرسالة يبدو كالمعتذر عن مديحه المبالغ فيه للوزير، أو بالأحرى كالمبرر لهذه الظاهرة التي انتظمت رسالته بسلكها، حيث يدعو على نفسه بالعذاب الواصب لو كان هذا منه تملقًا وتزلفًا وكذبًا وتخرصًا ، وأنه غني في تقريظه ومدحه عن الكذب ، كما أنه على إسهابه في صفته ومدحه مقصِّر كل التقصير، فهو رغم ما فعل « كَخَابِطِ الظَّلْمَاء ، وبَاسِطِ اليَدِ الجَذْماء »؛ وذلك أنه مهما بالغ في صنعته لن يكافيء ما يقدمه أبو العلاء من البيان بيانَ ابن المغربي المرسل إليه « ما كافأتُ على الفَرِيْدة من الدُّر »، ذلك أن أدب أبي العلاء ينظر إلى أدبه[1] « نَظَر جَرْبَاءِ العُنوقِ إلى جَرْبَاءِ العَيُّوق »، فجرباء الأولى من الجرب ، والعنوق جمع عِنَاق من المعز . وجرباء الثانية : هي السماء ، والعيوق : اسم نجم فيها . وبذا يكون المعنى نظر مَعِزٍ جُرْبٍ إلى السماء، وبينهما مسافة ما بين السماء والأرض . وهذا من الممكن أن نلحقه بالمشترك اللفظي ، فقد بحث أبو العلاء عن شيء يقابل به السماء في مُسَمَّاها الغريب « جرباء »، فأتى بمؤنث الوصف من أجرب ووصف بها المعز العناق، ثم أتى بالجمع منها على « عنوق »، وأتى من ثم باسم هذا النجم من السماء « العيوق » ليجانسه به جناسًا لاحقًا، فكانت العيوق بمثابة التمييز (أعني البيان) للفظة (جرباء) الثانية وهي السماء ، والعنوق أيضًا بمثابة تمييز للجرباء الأولى. وشتان ما بين المعزالجرباء، وبين السماء ذات الأجرام، فهناك مسافة كبيرة بينهما، فهو شيء شبيه بالطباق بما بين الطرفين من مسافة

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٨١ .

بعيدة في المنزلة بين التسفل والعلو ، وهذا من معدن قوله « تكليف القطب النابت مداناة القطب الثابت » وأيضاً « إلزام نسر الحافر ، مرام النسر الطائر » .

وترى تاليه من نفس الفقرة : « وَأَيْنَ ... النَّعَائِمُ الشَّارِدَةُ من النَّعَائِمِ الصَّادِرَةِ والوَارِدَةِ [(١)]» فبين النعائم الشاردة والنعائم الواردة جناس من نفس جنس الجناس السابق، وأيضاً مستمدة مادته من نجوم السماء وأجرامها، وهو جناس ثنائي كما ترى؛ فبين النعائم الثانية والأولى جناس مماثل، من قبيل المشترك اللفظي، وبين كل من (الواردة ، والشاردة) جناس لاحق. وهذه الجملة في حقيقتها مثل من صنع أبي العلاء .

وفي هذا وفي أغلب ما مضى رأيت جناساً، وسجعاً، وأمثالاً، وطباقاً، ومبالغة في آن واحد، بل وربما في جملة واحدة ، فأبرزُ خصوصيات أبي العلاء هو هذا التكثيف لوجوه الصنعة في بيانه ووضعها على حال لا تتزاحم فيه ولا تتنافر، وإنما تتوازن وتتعاون في إبراز المعنى، وإبراز الرنين . أما إبراز المعنى وتجسيمه وتصويره فهو من المثل والمبالغة ، وأما الرنين فهو من رنين الجناس المصاحب لرنين السجع ، وكأن أذن أبي العلاء تستمع بهاتين الطبقتين من طبقات الرنين والجرس، طبقة تجري في المفردات ، وطبقة عند قفل الجملة ونهاية مقطعها .

وقد استروح أبو العلاء بين الجناسين الثنائيين السابقين بجناسين مفردين، ولكن يمكن اعتبارهما من قبيل المطابق، يقول : « وأَيْنَ المَاءُ من السَّمَاءِ ، ومَوْقِعُ السَّيْلِ من مَطْلِعِ سُهَيْل » ، فبين (الماء ، والسماء) جناس ناقص ، وبينهما طباق بين الماء الجاري والسماء الثابتة ، وكذلك بين (السيل ، وسهيل) جناس ناقص، وبينهما شبه طباق أيضاً ، وكذلك ترى شيئاً شبيهاً بالطباق بين (موقع ، ومطلع)، بين مواقع السيل في الأرض ومطلع النجم سهيل في السماء .

وترانا ما زلنا مع هذه المقابلات بين الأرض والسماء، وبذا يتضح اتصال هذه الصنعة في هذه الرسالة بالذات بأجرام السماء، وأنها غالبًا ما تكون هذه الأجرام

---

(١) النعائم الأولى : جمع نعامة الطائر المعروف ، والشاردة : أي التي في القفار ، فالعرب تقول : «أشرد من نعامة» ، والنعائم الثانية : منازل القمر الأربعة منها صادرة ومنها واردة .

السماوية مقابلات لأمور أرضية تختلف فيما بينها في مدى التصاقها بالأرض، وفيما اكسبتها صنعة أبي العلاء من تسفل، فتكون كنسر في حافر،أو مبرك للعروج، أو أثر مجرد أثر للنوق ، وبين أن ترتقي شيئًا ما فتكون قطبًا من الزرع نابتًا ، أو معزًا جربًا، أو نعائم شاردة، وهي أرقى تلك المقابلات الأرضية . ولاحظ أن الإكثار من صور الأعلى والأدنى يحقق ضربًا من التجانس المعنوي بين كل الكلمات الدالة على العلو، وكذلك بين كل الكلمات الدالة على الدنو، وكأنه يثري كلامه بمحصلة من مراعاة النظير في صور العلو، ومحصلة من مراعاة النظير في صور الدنو، ثم يطابق بين المحصلتين طباقًا أوسع وأرحب !!

والذي طَوَّح بلغة أبي العلاء في حقل الجناس والطباق هذا، هو جنوح فكره، وجنوح خياله،لماأراد أن يبين البعد الشاسع بين بلاغة وبيان أهل المعرةوبلاغة وبيان ابن المغربي، ومدى عجزهم عن مداناته، وبين بلاغته هو وبلاغة ابن المغربي أخيراً .

فيشير إلى هذه المفارقات التي استقى مادتها في الأغلب من نجوم السماء، ومواقع تلك النجوم على اختلافها ، واختلاف مسمياتها ، واختلاف اعتقاد العرب فيها ، وبين المقابلات الأرضية التي تفنن في تنويعها كما رأيت .

ولا شك أن قوة النفس ، وقوة الخيال ، وقوة العقل ، كل هذه الطاقات الروحية المذخورة في هذا الرجل البارع ، هي التي كانت تُسخِّر اللغة وتوجهها إلى هذا الباب من أبواب الأساليب . قوة العقل الذي يضم هذه الأشياء المتباعدة ، والذي صَيَّر المختلف مؤتلفًا عن طريق الجناس ، وكأنه رغم كل هذا التباعد في معانيها يجعلها متقاربة ، متصاقبة !!

ومن هنا يظهر لنا أن هذه الصنعة ، وهي الجناس الثنائي المقترن بالطباق ، ترد في كلامه غالبًا في مقام المقارنة . يؤيد ذلك ما تراه في رسالته السابعة التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد بعد معرفته بوفاة أمه ، يعزيه فيها ، ويوضح سبب خروجه من بغداد ، ويذكر قراره العزلة . يقول منها في معرض وصفه لشوقه إلى خاله، وهو جزء بحاجة للدرس والتأمل(١) : « وشَوْقي إلى مُشَاهَدَته شَوْقُ اليَفَنِ إلى الشَّبَابِ، والشَّارِف إلى السِّقَاب(٢) ، ولو أُوسِقَتْهُ الحَمَائِلُ أَضْعَفَها عن الذَّميل،

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٨٥ - ١٨٧ .

(٢) اليفن : الشيخ الكبير ، الشارف : الناقة المسنة ، السقاب : أولادها .

أَوْ طُوِّقَتْهُ الحَمَائِمُ لأَغْصَّهَا بِالهَدِيلِ[1]،وكَيْفَ تَزِيدُ الحَمَامةُ الخَطْبَاءُ على الحَامَّةِ الخُطَبَاءِ[2] ؟! الرِّيَاشُ أَفْضَلُ من الرِّيشِ المَكْرِ ، والمَنْزِلُ أَشْرَفُ من الوَكْرِ[3] ، وطَوْقُ الذَّهَبِ خَيْرٌ من طَوْقِ الغَيْهَبِ [4] ، وأَيْنَ الشَّارِفُ من اللَّبِيبِ العَارِفِ؟! لَيْسَ أُمُّ الفَصِيلِ من ذَوَاتِ التَّحصيلِ[5]،إنَّماهي حَنِينٌ بعده سُلُوٌّ،واشْتِغَالُ لُبٍّ ثُمَّ خُلُوٌّ».

وبالنظر في هذه المقدمة السابقة لظهور جناسه نراه قد بدأ بمتقابلين، حيث جعل شوقه لخاله شوق اليفن إلى الشباب، وبينهما ما بين الشيخوخة والشباب من مفارقة، ثم جعله شوق الناقة المسنة إلى أولادها الصغار، وهي أشد شوقًا من الشواب ، فالعرب تقول « أحن من شارف » . وفي هاتين الفقرتين وإن كان لا يظهر فيهما صريح جناس، إلا أن هناك نغم علائي، فأنت تجد حرف الشين قد تكرر أربع مرات (شوقي ، مشاهدته ، شوق ، الشباب) ، ثم انظر كيف أسلمت نهاية الفقرة الأولى لبداية الثانية، حيث اشتركت الكلمتان في حرف الشين(الشباب ، الشارف) ثم كيف أسلمت نهاية الفقرة الثانية إلى بدايةالثالثة، وارتفع هنا الالتقاء إلى حرفين وليس حرفًا واحدًا بين (السقاب ، وأوسقته) السين والقاف ، ثم ما بين الشباب والسقاب من تساوٍ في الوزن. هذا كله يجعلنا في قطعة متجانسة يزيد من ترابطها هذا التوافق في البناء (اليفن إلى الشباب ، الشارف إلى السقاب) ، وأيضًا هذا التجانس الصوتي الخافت بين كلماتها ، وبعد هاتين الجملتين يبدأ شوقه في التجسم فيصبح حملاً ثقيلاً تئن الإبل تحت وطأته، وتغص به الحمائم إن هي طوقت به، يقول : « ولو أُوسِقته الحمائل أضعفها عن الذميل ، أو طوقته الحمائم لأغصها بالهديل » ، ويظهر هنا جناس مفرد، فبين (الحمائم ، والحمائل) جناس لاحق، بالإضافة لما بين (هديل ، وذميل) من قرب، ولا تغفل أنه سجع لُزم فيه ما لا يلزم ، وفي هاتين الصورتين يجمع أبو العلاء أشهر ما يشبه به في الحنين والشوق ،

(١) أوسقته : حملته ، الحمائل : الإبل ، الذميل : السير ، لأغصها : أي جعلها تغص ، الهديل : صوت الحمام ونواحه .

(٢) الخَطْباء : التي لونها مشرب حمرة في صفرة ، الحامَّة : خاصة الرجل من أهله وولده ، الخُطباء : جمع خطيب .

(٣) الرياش : أي اللباس الفاخر ، والريش المكر : أي المصبوغ بالمكر وهو المغرة ، والوكر : عش الطائر.

(٤) الغيهب : الظلمة .

(٥) الفصيل : ولد الناقة المفصول عن أمه ، التحصيل : التمييز .

فحنين الإبل وهديل الحمائم كانا دوماً مهيجين للشوق وباعثين له ، وهما رمزان مكثفان في الشعر . وهو في تشبيه شوقه بشوقهم لا يأتي بجديد، فهذا نهج عربي في التعبير عن لوعة الشوق ، ولكن الجديد ما هو آتٍ بعد هاتين الجملتين، حيث تواجهنا صنعته الخاصة في الجناس، حيث يقول : « وكيف تزيد الحمامة الخَطْباء ، على الحامَّة الخُطَباء؟!» فـ(حمامة) تجانس(حامة) جناساً ناقصاً، و (الخَطباء) تجانس (الخُطباء) جناساً محرفاً . وهذا جناس ثنائي يحوي بداخله مقابلة صارخة بين الحمامة وما تكتنفه صورة هديلها وسجعها من حنين، وبين الرجال المحزونين من خاصة الرجل وأهله ، أي مقابلة بين حنين الحمامة وحنين الإنسان . فـ(الخُطباء) لم تأت هنا كما يوهم الظاهر فقط لتوافق(الخَطباء)، وإنما لتقابل ما يكتنزه رمز الحمامة في المخيلة؛ كونها بهديلها وسجعها رمزاً للحنين في أقصى شجنه. وكأنها مقارنة بين بلاغة الإنسان ممثلة في الخطابة، وبين أصوات الحمائم وسجعها وما فيه من عجمة تخاطب الشعور، وإن كانت تعجز عن مخاطبة العقول .

ثم يستمر نسق المقارنة في شكل الجناس في كلامه التالي : « الرياش أفضل من الريش المكر »، فالجناس بين (الرياش ، والريش) جناس ناقص ، ثم في قوله « وطوق الذهب خير من طوق الغَيْهب » شيء شبيه بالجناس بين (الذهب، الغيهب) ، وبهذه الجملة يُفضل طوق الإنسان المصنوع من الذهب على طوق الحمامة الأسود، وهو بهذا يضرب عرض الحائط برمزية الطوق في المخيلة العربية، حيث يعتبرونه زينة قد وُهِبَتْها الحمامة إثر دعوة نوح عليه السلام لها(١) !!

ثم يستمر في مقارنته بين الإنسان والحمامة والشارف على التناوب فيقول : « أين الشارف من اللبيب العارف؟! » فبين (الشارف ، والعارف) جناس لاحق، وطباق أيضاً بين فاقد العقل وصاحبه ، فانظر كيف أتى بهذا التجانس في الألفاظ ليضربه بهذا التخالف في المعاني !! وهذا مهيعه الذي رأيناه في كل ما مضى .

وهنا يظهر جلياً كيف يعمد أبوالعلاء إلى اختيار الألفاظ غير المشهورة وإيثارها على الألفاظ المشهورة في معانيها، ليحدث بها هذا التجانس الغريب، تجده في اختياره لكلمة(حامَّة) وكلمة (الرياش). لأنه مع هذا التجانس يُحدث

---

(١) الطيب ، عبدالله : المرشد إلى فهم أشعار العرب ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠م ، ٩١٢/٣ .

المفارقات ليتلاعب بعقولنا ،أو قُل ليوقظ ويعلم ويبعث في نفوسنا حسّاً جديداً باللغة. فاختار الحامَّة ليشابهها بالحمامة ويوهم أن الألفاظ تقاربت لتقارب المعاني، وهو مع هذا في حقيقة الأمر يضرب صوراً من التخالف العجيب على امتداد المقطع، فليس الرياش كالريش ، ولا الذهب كالغيهب ، ولا الشارف كاللبيب العارف !!

ونلاحظ هنا أن هذا اللون قد ظهر عند إجراء المقارنة بين حنين الحمائم وحنين الإنسان، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه يظهر غالبًا في كلامه في مقام المقارنة .

ولكن ما زاد به هذا الشاهد هو استمرار نفس المقارنة، واستمرار الجناس الذي من ورائه طباق على مستوى الكلمة الواحدة ، فأصبح معنى أبي العلاء يقول لك: ليس هذا شبيهًا بذاك، وشتان ما بينهما= بينما لفظه يقول لك بأنهما متقاربان متشاكلان !! فتقع في حيرة ما تلبث وأن تنقشع بزوال غربة ألفاظه عنك ، والحيرة وإن كانت هنا محدودة العمر ، إلا أنها ربما قابلتك في بيانه فتظلَّ أسيرها لا تملك أمامها حوِلاً ، وهي سمة خياله، وسمة فكره، وسوف نعرض لبعض النماذج التي أورثتنا إياها في مواضع متفرقة من هذه الرسالة بإذن اللّه .

* * *

وقد رأينا في كل ما سبق كيف تآزر الجناس والطباق ، ثم رأينا الجناس الثنائي بصفته ظاهرة مستقلة في بيان أبي العلاء، وقد ورد كثيرًا في رسالته المنيح حتى دون أن يتوفر فيه شرط المقابلة، فقد ورد فيها غير تلك النماذج التي تعرضنا لها بالدرس أربعة عشر مرة . فهو بذلك ظاهرة أخرى من ظواهر الجناس في بيان أبي العلاء، حيث تلح قريحته وصنعته على ألا يتوقف التجانس الذي تنتجه على مفردتين، بل يتجاوزها إلى مفردتين تجانس مفردتين أخريين . وقد ظهر في نطاق هذا الجناس الثنائي جناس المشترك اللفظي الذي هو صناعة علائية، نقب عنه في غياهب اللغة فوقع عليه – وسوف أتعرض لذلك فيما يلي بإذن اللّه – حيث تشترك لفظتين في البناء وتختلف في المعنى، وتضاف كل لفظة إلى لفظة أخرى تميز معناها عن صاحبتها التي هي عينها في البناء ، فيجعل أبو العلاء بين اللفظتين المميزتين تجانسًا أيضًا .

وقد وجدناه في نطاق الجناس الثنائي المقترن بالطباق السابق الدرس ، وربما خلص لإحداث هذا المشترك اللفظي الجديد كما تراه في رسالته الإغريض ، فإذا كان الجناس الذي يقترن بالطباق أكثر ما يظهر في رسالته المنيح ، فإن الجناس

الثنائي الذي هو من قبيل المشترك اللفظي أكثر ما يظهر في رسالته الإغريض .

ورسالته الإغريض هي أيضًا موجهة للوزير المغربي عندما بعث لـه مختصر إصلاح المنطق الـذي ألفه ، وفيها وصف للمختصر ، وثناء بفضله ، وتنبيه علـى كثرة فوائده .

وأول ظهور لهذه الصنعة فيها تجده بعد أن أثنى أبو العلاء على الحكمة المغربية، ووصف شوقه بشوق غراب غادر أرضه، وفقد شبابه، فمات كمداً وحسرة، فقال معقبًا على ذلك[1] : « وربُّ وَلـيٍّ أَغْرَقَ فـي الإِكْرامِ ، فَوَقَعَ فـي الإِبْرَامِ ، إِبْرَامِ السَّـأَمِ لا إِبْرَامِ السَّـلَمِ [2]» .

وكأن أباالعلاء شعر أنه بذلك المديح وتلك الصفة لشوقه قد بالغ، فخشي إدراك الملل للوزير ، فاعتذر سائقًا كلامه مساق المثل ، وفي هذا الجزء ظهرت صنعته في الجناس من باب المشترك اللفظي في قوله : « إبرام السأم ، لا إبرام السلم »، ولكنه ليس كأي مشترك لفظي حيث أن المضاف إليه الذي من شأنه أن يبين نوع المعنى المقصود يقع هو أيضًا في حيز الجناس – كما أسلفنا – فتراه جانس بين (السأم، والسلم) جناسًا لاحقًا . وهذا المشترك تستطيع أن تقول أنه وليد قريحة أبي العلاء فهو ليس مشتركًا منصوصًا عليه، كاشتراك عين الماء وعين الإنسان فـي اللفظ، وهـو ليس من قبيل « صدور العوالي في صدور الكتائب » أيضًا، وإنما هو نتيجة بحث أبي العلاء عن صيغة بعينها، فأصل الكلمتين (بَرِمَ ، بَرَمَة) . وهو عندما تحدث عن (الإبرام) وهو ما يخشى دائمًا الوقوع فيه، ويعتذر عنه في رسائله وهو مصدر (أبرم)= أضاف إليه هذه الإضافة وهي (السأم) ليمزه بها–رغم أنه معروف المعنى بدونها – ولكن لأن قريحة أبي العلاء نقبت في اللغة عن شبيه لـه جرسًا وصوتًا فوقعت على ثمر السلم (برمة)، فأتت منه بالفعل (أبرم)، ثم المصدر منه (إبرام) ، وهو من قولهم : أبرم السلم إذا ظهر بَرَمُه بمعنى ثمره . وكان بين (السأم ، والسلم) ما كان من جناس لاحق. وكأن أبا العلاء يفترض أنه سوف

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٤ .

(٢) السأم : الضجر ، السلم : شجر معروف .

يتبادر إلى الذهن (إبرام السلم)، فينفي ذلك ليحدد نوع الإبرام الذي يقصده. وكأن(إبرام السلم) أشهر لدى السامع من (الإبرام) الذي هو من السأم ! فما الذي يرمي إليه أبو العلاء من مثل هذه المغالطة ؟ !

لماذا يحرص أبو العلاء على أن يلقي في روعك وهمًا ما ثم ينقضه ؟ أليظل معناه دومًا متخفيًا متأبيًا ؟ !

أم أن وراء كلامه هنا ما وراءه ، وأن هذا الإيهام الذي نظن هو الحقيقة المحضة ، وأن من المفروض أن يتبادر إلى الذهن أولاً : (إبرام السلم) ، وهل في هذا حسب ما يقتضيه معنى أبي العلاء ومقام كلامه رمز إلى معنىً في خبيئة نفسه يغلف علاقته بهذا الوزير ؟ ! ونحن نعلم أن أبا العلاء قلما كان مع الساسة على اتفاق ، وهو القائل :

فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رِئاسته خساسة

خاصةً أنه يُغرق بعد ذلك فيما أوهم أنه يأمر نفسه بالكف عنه (الإكرام)، فتراه يدعو بعد هذه الكلمة مباشرة للوزير ولأبيه، ويدعو على أعدائهما في سياق يطول ويطول !!

وبعد هذه الفقرة الدعائية التي طالت، واستخدم فيها أبو العلاء مصطلحات العلوم، وصنع منها صورًا بيانية متنوعة–يظهر المشترك اللفظي من جديد يقول[1]: « وأنَا أعدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سيدنا الجليلةِ عِدَةَ ثُرَيَّا الليلِ ، وثُرَيَّا سُهَيْلٍ هذه القَمَرَ ، وتلك عُمَرَ » .

فبين (ثريا الأولى ، وثريا الثانية) جناس من قبيل المشترك اللفظي، جناس مماثل ، وقد اقتربت كثيرًا لفظتي(الليل، وسهيل) حتى كأنهما متجانستين ، فانظر إلى كلمة سهيل بعد حرف السين تجد باقي الكلمة موافقًا لكلمة (ليل) في الوزن، فضلاً عن اتفاق حرفي(الياء ، واللام) ، وهذا قريبٌ جدًا من الجناس ، وإن كان لا يُسمى جناسًا اصطلاحيًا، ثم فيه شيء آخر هو مراعاة النظير؛ لأن (الليل، وسهيل) من عائلة لغوية واحدة من حيث الدلالة، فالليل هو زمان ظهور سهيل. وكأن جناس المعري إذا لم تتوفر فيه المطابقة، توفر فيه ما هو بالضد منها وهو المقاربة، التي

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٠٨/١ .

يسميها علماؤنا مراعاة النظير .

وأيضًا هناك جناس بين (القمر ، وعمر) جناس لاحق . وهذا الجناس الذي نقبت عنه قريحة أبي العلاء فوقعت عليه، يحمل مفارقة طريفة بين ثريا السماء ذلك الكوكب المعروف، وبين الثريا وهي امرأة من قريش تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وكان عمر بن أبي ربيعة يذكرها في شعره. فيكون معناه أنه يَعِدُ نفسه مراسلة الوزير له عدة الثريا القمر، وهي في كل شهر مرة، وقيل بل في كل سنة مرة = وعدة الثريا زوجة سهيل عمرَ بن أبي ربيعة . ولا أدري ما الذي يقصده أبو العلاء من موعودها إياه ؟ ! هل أراد تعلق عمر بعدتها مع يقين عمر بأن عدتها له أمر مستبعد جدًا ؟ ! ربما .

وفي أسلوبه هذا شيء من الإلغاز والإغراب لا يخفى، فهو يطلق(ثريا سهيل) هكذا وكأنها علمٌ في بابها إذا ما ذكرت عرفت، ولولا اتباعه بقوله « هذه القمر، وتلك عمر » – لما عرفت إلا بعد طول بحث واستقصاء .

ثم تحدث بعد ذلك عما أحدثه الوزير في كتاب إصلاح المنطق الذي اختصره، وبأنه قد نصب به للآداب قبة عظيمة كفت الناس بظلالها عن البردين[1] « وأَغْنَتِ العَالَمَ عن الهِنْدَيْن، هندِ الطيِّبِ، وهندِ النَّسِيبِ» . هند الطيب : بلاد الهند، وأضافها إلى الطيب لكثرة وجوده بها ، وهند النسيب: يعني بها استخدام الشعراء لاسم هند في نسيبهم كناية عن الصاحبة، فهو من أعلام النساء التي يتغزل بها الشعراء . فهذا مشترك كشفت عنه قريحة أبي العلاء، حيث جانس بين الهندين جناسًا مماثلاً، وقارب بين الطيب والنسيب أيضًا، وقرن بينهما، وكأنه يشير إلى ما بينهما من قرابة بيانية؛ لأن الشعراء إذا نسبوا كثيرًا ما يذكرون من أحوال الصاحبة طيبها، ولهم في ذلك أفانين كثيرة :

يضحى فتيت المسك فوق فراشها   كأن بها طيبًا إن لم تطيب

وفي إغناء قبة ابن المغربي التي نصبها للآداب عن هند النسيب أمر مفهوم، من أن هناك في أدبه ما يغني عن النسيب بالنساء والتشبيب بهن في الشعر = ولكن في إغنائها عن هند الطيب أمر يدعو للتأمل، فما شأن هند الطيب بالأدب وقبة الآداب هذه ؟ !!

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢١١/١ .

إلا إذا كان غرض أبي العلاء أغنت عن الطيب الذي يجلب من الهند، كما يرى البكرباذي في شرحه للرسالة حيث يقول[١] :« استغنى الخلق بالأنس بها، وبالتسلي بذكرها، عن الطيب الذي يجلب من الهند »، وهذا ظاهر في تشبيه الآداب بالطيب؛ لأن النفوس تطيب بالآداب وتهش لها كما تطيب بالمسك والكافور .

ويقابلنا من هذه الصنعة أيضًا قوله وهو يتحدث عن صفة بيان الوزير، وأنه جمع اللفظ القليل والمعنى الجليل، وكيف أنه بَزّ بيان غيره الفضل، فلم يَعد يُعَدُّ في شيء إذا ذكر وإذا بيانه عُرف، يقول[٢] : « فالسَّاعِي في أَثَرِه فَارِسُ عَصَا بَصيرٍ ، لا فَارِسُ عَصَا قَصِيرٍ [٣]» .

فأنت تلحظ هنا أن بين (عصا ، وعصا) جناس تام مماثل ، وبين (بصير ، وقصير) جناس لاحق ، أما ما بين (فارس ، وفارس) فهو من قبيل التكرار، إلا أن الأولى مستخدمة استخدامًا مجازيًا، والثانية حقيقيًا . فالمشترك المقصود هنا هو في العصا : (عصا بصير) وهي العود الذي يتوكأ عليه فاقد البصر ، و(عصا قصير) وهي أشهر خيول الجاهلية . وهذا المشترك لولا قريحة أبي العلاء المولدة لما ظهر لنا، فإن أبا العلاء تكشف في هذه الصنعة عن قدرة عجيبة على استحضار المتشابهات، حتى لو توقف الأمر على الرابطة اللفظية فقط، وعلى صنع المفارقة في قالب التجانس، وعلى اختلاق مشترك لفظي الواحد تلو الآخر، كهذا الذي رأيناه، ويعتمد في نحوه على الإحالات التاريخية والأدبية كـ(ثريا سهيل)، و(عصا قصير) ، و(هند النسيب) .

ومن ذلك أيضًا قوله[٤] : « ولَقَد سمعتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ المِسْكُ جَارَهَا من الشِّيَام ، ويَوَدُّ سَعْدُ الأَخْبِيَةِ أَنَّه سَعْدُ الخِيام » .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢١١/١ .

(٢) السابق ، ص ٢١٩ .

(٣) عصا البصير : هي العصا التي يتوكأ عليها الأعمى ، ويقولون له بصيرًا على معنى الفأل، فيعكسون ذلك إيثارًا لحسن اللفظ ، وقصير : هو قصير بن سعد اللخمي صاحب جذيمة الأبرش ، والعصا : هي فرس جذيمة المشهورة . وبذلك يكون المعنى على أن المحاول مداناته والساعي في أثره كأنه أعمى ليس لديه مركوبة سوى عصاه ، ولن يكون كفارسٍ يمتطي صهوة عصا قصير فيسابق بها الريح ، والمعروف أن قصير عندما امتطى العصا نجا بنفسه ولم يدركه الطلب .

(٤) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٤٠/١ .

يقول أبو العلاء أن الوزير قد سبق منه وصف خيمة ، وأنها بوصفه إياها ليغبط المسكُ الترابَ المجاور لها ، ويتمنى مكانه ومكانته ، بل ويتمنى سعد الأخبية -وهو منزل من منازل القمر- أن يكون سعد الخيام : أي من سعود العرب وهي قبائل شتى منها سعد تميم ، وسعد هذيل ، وسعد قيس ، وسعد بكر ، والمثل يقول : « في كل وادٍ بنو سعد » ، ونسبها إلى الخيام لأنها مساكنها التي عرفت بها، فالمقصود أن سعد الأخبية يتمنى أن يصبح من العرب،ليتسنى له سكنى تلك الخيمة لاستحسانه وصف الوزير لها !! وبذا يتكشف لنا هذا المشترك الجديد بين سعد الأخبية وسعد الخيام ، ولكن هذا المشترك لا يتحول إلى جناس ثنائي، فليس بين الأخبية والخيام سوى الاشتراك في حرف الخاء ، وهذا لا يُعَدُّ جناسًا، ولا حتى شبيهًا به، ولكن الخيام تجانس الشيام من الفقرة السابقة جناسًا لاحقًا .

وتأمل هذه الصورة الجميلة التي تهدّى إليها أبو العلاء، حيث يرضى هذا النجم السماوي أن يترك علياءه، ويتحول من نجم سماوي إلى عربي من سعود العرب، لكي ينعم بالمقام بخيمة الوزير المغربي، التي هي صناعة بيانه، ويتمنى ذلك تمنيًا !! وقد أكمل جمال هذه الصورة كون المتبادلين سعدين، وكونهما ينتميان إلى عالمين مختلفين كل الاختلاف ، وكون الأعلى منهما يتمنى منزلة الأدنى !!

ومن هنا يظهر لنا ارتباط الجناس في بيانه بقفزات خيال قوية ، هي التي تعينه وتحرك أسلوبه ، وترمي به في مخزون لغوي متسع من ذاكرة أبي العلاء .

وقد يستخدم طريقة أخرى للمشترك اللفظي ، ولكنه أبدًا لا ينحو نحو ذلك المتداول المعروف ، بل يفاجئك دومًا بمشترك قد كان غائبًا غيبةَ غفلة المتأدبين عن استعماله ، ففي قوله عندما وصف القبة التي نصبها الوزير للآداب من خلال مختصر إصلاح المنطق يقول(١): « فَقَدْ نَصَبَ لِلآدَابِ قُبَّةً صَارَ الشَّامَ فيها شَامَةَ المَعِيبِ ، والعِرَاقُ كعِرَاقِ الشَّعيبِ » .

فبين (الشام ، والشامة) جناس ناقص، ولكنه ليس مقصدنا ، وإنما الذي بين (العراق)البلدالمعروف، و(عراق الشعيب)وهو جلدة تحمل على ملتقى طرفي الجلد إذا

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢١٠ .

خرز في أسفل المزادة . ومثل هذا المشترك كان غائبًا قد أفصحت عنه صنعة أبي العلاء، الذي بَسَّ بكلمة(العراق)المعروفةالمتداولة(عراقَ الشعيب)الغائبة الغريبة، وهذا يتطلب منه أن تكون غرائب اللغة حاضرة في ذهنه يمتح من فيضها متى شاء !!

وأنت تلمح بين (العراق) المُتحول، و(العراق) المتحول إليه شبه طباق في المساحة، في تحول البلد الواسع إلى قطعة جلد صغيرة ، وكيف سَخَّر ذلك لتصوير هذا التحول الذي تحدثه قبة ابن المغربي، حيث أنه من شأنها أن تخرج الأشياء عن طبائعها؛ فاتساعها كفيل لأن يجعل العراق -البلد الرحب- بالنسبة إليها كعراق الشعيب !! بل ربما قصد العراق هنا بوصفه قبة العلم ، ومنارة الأدب ، فيتحول في قبة الوزير إلى قطعة جلد تخرز بها المزادة لا أكثر ولا أقل !!

* * *

وهذا الذي رأيت منه في صنعته للجناس ، وإن وجد في بيان غيره ، إلا أنه ليفتقر لأن يكون ظاهرة في ذلك البيان ، كما أنه يفتقر إلى هذه الجدة الدائمة التي تلاقيك في كل جناس لأبي العلاء. فما يميز هذا الجناس المقترن بالطباق في رسائل أبي العلاء هو هذا الغريب الذي يقع عليه لسان أبي العلاء، ويأتي له بالمشابهات بما يخدم معناه ولا ينبو عنه، فتراه دومًا يعطيك ألفاظًا جديدة غير بسيطة مبذولة .

فإن ابن العميد مثلاً لا يظهر في بيانه هذا الولع بالجناس، ولا ترى وتيرة الجناس قد ارتفعت لديه سوى في بعض رسائله فقط، ثم إنه ارتفاع نسبي بالنسبة إلى وجود الجناس في بيانه-الذي يكاد يكون غير ظاهر البتة-فارتفاعه في رسائله هذه لا يبلغ ذلك الارتفاع الذي يواجهنا به أبو العلاء في المنيح أو في الإغريض، وهو إن وقع في بيانه جناس يحمل في ثناياه طباقًا فهو من ذلك النوع البسيط المتكشف كالذي تراه في نحو قوله من رسالته إلى أبي عبدالله الطبري[1] : « ما وصلتنا حال تجمعنا على ائتلاف ، وضمتنا من اختلاف » فـ (الائتلاف) ضد (الاختلاف) ، وبينهما جناس مضارع وهما من القرب من عادة الاستعمال ما هما، وانظر أيضًا لقوله[2] : « وموافقة شكل وخَلْق ، ومطابقة خيم وخُلُق » فبين

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٢/٨٢٣ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

(خَلْقٍ ، وخُلُق) جناس محرف ، فأينهما من قول أبي العلاء : « والظلم البين ... تكليف القُطْـب النابت مـداناة القطب الثـابت ، وإلزام نَسْـر الحـافـر مـرام النسـر الطائــر » ؟!!

والأقرب إلى أبي العلاء في ارتفاع إيقاع الجناس، وتواتره في رسائله، وكلفه به، هو بديع الزمان الهمذاني، ومع ذلك فهو ينقص عن أبي العلاء بكون سجعاته وإن اتفقت في كثير من الأحيان بأكثر من حرف فهي لا تتجاوز الحرفين إلا نادراً، وبذا لا تدخل فواصله حيز الجناس كما يحدث في رسائل أبي العلاء ، كما أنها لا تخرج كل الخروج عن نوع من المجانسة وإن كان خفياً، ولكنك لا تجد الجناس في رسائله يتكاثر كثرته في رسائل أبي العلاء حتى تصبح لغته كلها نسيجاً متجانساً. وتراه مع هذا الولع لا يظهر لديه الجناس الثنائي ظهوره لدى أبي العلاء، وإنما تراه يتفق له مرة أو مرتين خلال الرسالة، وربما لم ترَ منه شيئًا حتى في تلك الرسائل التي يرتفع إيقاع التجنيس فيها عن غيرها ، فرسالته مثلاً التي بعث بها جواباً عن كتاب لرجل عُزِل عن ولايته، فأخذ يستمد وداد البديع، ويستميل فؤاده، بعد أن كان – كما يبدو من نص الرسالة – يترفع ويصد عن البديع، يقول فيها[1]: « وانتصر لنا منه بشعراتٍ قد كسفت هلاله، وأكسفت باله »، وأنت ترى أن (كسفت ، وأكسفت) بينهما جناس ناقص، وهما كلمتان قريبتان من الاستعمال، وكذلك (هلاله ، وباله) والذي بينهما شيء شبيه بالجناس وليس جناساً . وهو يعقبها بقوله : « ومسخت جماله، وغيرت حاله» حيث تلتقي (مسخت ، وكسفت) في السين والتاء فقط ، وهذا الامتداد (هلاله ، باله ، جماله ، حاله) لا يقع فيه أبو العلاء، وهذا ما يميز فواصله وبيانه أجمع، بأن هناك ثنائية تسيطر عليه سواءً على مستوى السجع أو الجناس، فأنت ترى فواصله لا تتجاوز الاتفاق في سجعتين إلى ثلاث إلا نادراً، وهذا ما يمنع عن الأذن الإحساس برتابة الإيقاع، أو بالتوالي المبرم للمتشابهات . ولم يأت في بيانه ثلاث جمل متجانسة ، إنما هو في حيز الجملتين سواءً على مستوى كلمتين أو ثلاث ، وهذه الثنائية ربما هي التي تدعوه للطباق ؛ لأن الطباق والاختلاف دوماً له طرفان وحدان .

ونعود لما كنا فيه، فالبديع ظهر لديه الجناس المقترن بالطباق، ولكن لأبي العلاء

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٧٣٢/٢ .

في ذلك صنعة،حيث هذا قريب مبتذل، وذلك بعيد يوصل إليه بإعمال الفكر، والتنقيب في غياهب كلام العرب، فتحدث المفاجآت، ويتم الغرض، ويكشف لك عن علاقات لم تكن لتدركها لولا هذا الخاطر، الذي امترى الفِضَّة من القِضَّة، والوَصَاة من مثل الحصاة[١] كما يقول أبو العلاء عن الوزير المغربي .

وقد وقع للبديع في رسالته السالفة من الجناس المقترن بالطباق قوله[٢] : « وما لك إلا أن تعتاض ... من ذلك التدلل علينا تذللاً لنا » ، وقوله : « لقد اعتضنا من النزاع نزوعًا » ، وكلاهما واضح بسيط قريب مما هو متداول (تدلل وتذلل ، نزاع ونزوع) ، تلمس المفارقة بين معنيي اللفظين منذ أن تسمعهما دون أن يطول معك وهم الائتلاف والتجانس .

ثم إنه وإن وجد في بيانه فهو على هذا المستوى من الندرة ، وفقد التميز بالصنعة ، وأنا لم أشمل ببحثي مقاماته ، فهي معرض للصنعة ، تتكاثر بها فنون البديع تكاثرًا عجيبًا ، ويفتن بها الرجل أيما افتنان ، ويغرب أيما إغراب ، ولكني خصصت ذلك برسائله الإخوانية فقط ؛ ليصح مقارنتها ببيان أبي العلاء في رسائله الإخوانية التي هي هنا مدار البحث .

وقد وجدت في رسائله ما يقرب من صنعة أبي العلاء ولا يساويها من نحو قوله[٣]:« غَضَبُ العاشقِ أقصرُ عمرًا من أن ينتظر عذرًا، وإن كان في ظاهره مهابة سيف ، فإنه في الباطن سحابة صيف » ، وإن كان السياق يوهم أن بينهما تضادًا ولكن الذي بينهما ليس تضادًا على الحقيقة ، وإنما هو شيء أشبه بالتضاد . وهو في الأول يتحدث عن رهبته (غضب العاشق) ، وفي الثانية يتحدث عن أنه لا يدوم . ولا يخفى ما في هذا الجناس من جمال، ومن لذة الوقوع على المفارقة، وإن كانت ليست وليدة الجناس فأنت لا تجدها بين (السيف ، والصيف)، أو (السحابة ، والمهابة) كما هو الحال غالبًا لدى أبي العلاء – وهو ما يحتاج إلى مزيد صنعة وفضل تمكن – وإنما أنت واجدها بين (السيف والسحابة) وبينهما ما بينهما من الفرقة والاختلاف ، ولكن ليس بينهما الجناس !!

---

(١) القضة : الحصى الصغار فيكون امترى الفضة منها ، والوصاة : هي من وصاة الإنسان، وربما أراد بها الحكمة يستخرجها من الحصا .

(٢) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٢/٧٣٤ .

(٣) السابق ، ٢/٧٦٩ .

الفصل الثالث

المبالغة في بيان أبي العلاء

أولاً - المبالغات التي تتغير معها حقائق الأشياء .

ثانياً - المبالغة في تحليل المشاعر والأفكار .

ثالثاً - المبالغة في التعبير عن التأبيد .

إن للمبالغة نفساً حاضراً كل الحضور في بيان أبي العلاء، بشكل يجعلها من أهم السمات المميزة لبيانه،والتي قد تنطوي تحتها كثير من سماته الخاصة الأخرى. فقلما يطرق أبو العلاء موضوعاً من الموضوعات إلا وترك عليه للمبالغة ميسماً .

وأول ما نبدأ في رسالته نجده يبالغ في الدعاء للمرسل إليه، ويبالغ في الثناء عليه،ويبالغ في وصفه لحنينه وشوقه، وحرصه على أخبار صاحبه،ويبالغ في سلامه. وهذه الموضوعات قلما تخلو منها أو من أحد منها رسالة إخوانية لأبي العلاء .

وإذا كانت المبالغة لا تخلو منها رسالة ، فإن هناك رسائل يرتفع فيها نفس المبالغة حتى يكاد يشمل كل معنىً تَطَرَّق له الرجل، وإذا تأملتها وجدتها هي عينها تلك الرسائل التي تتكاثر فيها القيم الأسلوبية التي يحرص عليها أبو العلاء في بيانه، من أمثال، وسجع، وجناس، وطباق، وكأن خصائصه الأسلوبية تتنادى. نجد ذلك في رسالة المنيح ، وفي رسالة الإغريض ، وفي رسالته لخاله مطلعه من بغداد ، وفي رسالة الهناء ، وفي رسالة الجن، وهي رسالته للنكتي البصري . وهذه الرسائل إذا أنعمت النظر فيها وجدتها حقلاً خصباً لخيال أبي العلاء المجنح ، والخيال مطية المبالغة الذلول، وهي حاضرة بحضوره ، وقد سبق وذكرنا أن تلك القيم تتزاحم في بيانه عندما يكون المعنى المعبر عنه شديد الصلة بنفسه، وعندما يكون حرصه على إيصاله وتمكينه من نفس المخاطب قد بلغ الغاية .

بمعنى أن أبا العلاء يُسخِّر كل أدواتـــه الأسلوبية، ويحتشد بصنعته البيانية، لخدمة هذا المعنى المُبالغ فيه .

فهل يمكن أن نعتبر حرصه على تمكين معانيه في نفوس من يخاطبهم مُفَسِّراً لهذه الخصوصية في بيانه ؟ !

فإذا علمنا أن المبالغة إنما يراد بها [1]« المثل وبلوغ الغاية في النعت »، فهل نستطيع أن نقول أن أبا العلاء عندما يسلك طريق المبالغة، إنما يريد لمعانيه الكمال؟ أو هو بذلك لا يتصورها إلا في نهاياتها؟، وإذا صح هذا فهو راجع إلى عمق وشفافية فكر أبي العلاء، وقوة خياله، مما يجعل تصوره للمعاني تصوراً يبلغ به

(١) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ٦٢/٢ .

غايتها؛ فيدفعه إلى المبالغة دفعًا،حتى تكون المبالغة هي طريقه الذي لا محيد له عنه.

تراه عندما يثني على رجلٍ ما، على أدبه ، على بيانه ، على فضله أو ما شئت، هو إنما يثني على المثال وليس على الشخص ، هو لا يتصور الفضل إلا في غايته، فيصنع ببيانه الصورة المثلى للفضل، أو الصورة المثلى للمقدرة البيانية، وكأنه دائمًا يتخطى الواقع إلى المثال، ويحث عليه، ويُحرِّض عليه من خلال تصويره له ، ومنزعه هذا يشبه منزع المتطلعين إلى المثال، والموجهين خطابهم إليه، وليس إلى الواقع الذي يرفضون كثيرًا من جوانبه .

ربما كان هذا هو السبب وراء هذا المنزع البياني في رسائله ، ولكن أنت واجد بعد هذا تمتمات خفية تشي بها مبالغاتُ أبي العلاء، تجد لها حسًا يختلف باختلاف المعنى واختلاف السياق ، تقول لك بأن خلفي من أسرار أبي العلاء، ومما أودعني إياه من ذات نفسه الكثير، فهي بحق أقوى المثيرات التي يقذفها أبو العلاء في بيانه، فتجعلك تتحير، وتفكر، وتتأمل، وتقول: هل لمبالغات أبي العلاء نميمة من نمائمُ الأسلوب التي تلفت لفتًا غامضًا إلى معاني غامضة في سر أبي العلاء ؟ !!

لذا فأنت لا تجد أبا العلاء يتوقف بمبالغاته عند تلك المعاني السابقة التي هي أقرب للعموميات ، بل تراه يبالغ أيضًا باضطراد كلما مرت معانٍ ذات صلة وثيقة بنفسه، فهو يبالغ عندما يصف حال المعرة وأهلها ، يبالغ عندما يصف أحوال نفسه، يبالغ متواضعًا ، يبالغ معتذرًا للمحبس أوبه ، يبالغ عندما يعبر عن التأبيد .

فعندما يضع أبو العلاء لسانه عليها يتجاوز بها القدر على اختلاف الطريقة التي يسلكها لتحقيق ذلك، فتتعدد صور المبالغة في بيانه وتتنوع، وسنحاول إجمالها في ثلاثة فروع كبيرة –لا شك أن هناك صورًا مفردة تشذ عنها ولا تندرج تحتها – وهي :

أولاً : المبالغات التي تتغير معها حقائق الأشياء .

ثانيًا : المبالغة في تحليل المشاعر والأفكار .

ثالثًا : المبالغة في التعبير عن التأبيد .

أولاً - المبالغات التي تتغير معها حقائق الأشياء :

يشمل هذا الفرع أغلب صور أبي العلاء، حيث تتغير في صوره حقائق الأشياء باختلاف قوة هذا التغيير ما بين تشبيه أو استعارة، وهو موجود عنده كما هو موجود عند غيره ، ولا يظهر ميسمه فيه بجلاء إلا عند مطله لتلك اللحظة الخيالية، وكأنما يستعذبها لسانه وفكره فيطيل فيها ما شاء ، وهذا مما يدخل في حيز القسم الثاني من مبالغاته، وهو المبالغة في تحليل المشاعر والأفكار ، لذلك لن نتعرض له في هذا الجزء من كلامنا .

أما ما نريد أن نسلط عليه الضوء هنا، ونرى لأبي العلاء فيه ميسماً ومنزعًا، لا يخفى ولا يلتبس بما قد يوجد عند غيره؛ وذلك لأنه يتميز ويبرز لديه أكثر – فهو فكرة التحول وإحداث التغيير، حيث يجعل أبو العلاء عملية التحول ماثلة لناظرك، ويعقد عليها كلامه ، وليست هي خفية مطوية في أعطاف الصورة كالتحول الذي يكون في باطن الاستعارة مثلاً .

وأنت مع هذا التحول بين أمرين على الأغلب : فإما أن ترى فيه الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى منفصلة عنها ، وإما أن تراه ينزع عنها بعض صفاتها الملازمة لها، أو يجعلها تجود بما ليس في طبائعها ، والأخيرين من حقل واحد تقريباً، قسيما الأول الذي هو الأكثر والأظهر في رسائله موضع الدرس .

وسوف نتخذ من سلامه نموذجًا لدراسة هذا الأول ، وقبل أن نخوض فيه سوف نستعرض بعض الصور التي تمثل الصنفين الأخيرين في عجالة .

وأقوى ظهور لهذه الفكرة ، فكرة التحول، تشهده رسالة الإغريض، و هي رسالة أبي العلاء الثانية للوزير أبي القاسم المغربي لما بعث إليه بمختصر إصلاح المنطق الذي ألفه، وبعث معه برسالة وقصيدتين من نظمه ، ويظهر في هذه الرسالة العديد من النماذج لصور التحول الثلاثة السابقة في معرض ثنائه على بيان الوزير وبلاغة شعره .

فمن ذلك ما تراه من ثناء أبي العلاء على وصف الوزير للخيل في شعره، فقد جعله أبو العلاء فاق بهذا الوصف أشهر من وصف الخيل من العرب جميعًا، وعلى رأسهم امرؤ القيس ، وهذه وإن كانت مبالغة إلا أنها من النوع القريب المتداول ،

ولكن أنفاس أبي العلاء الخاصة تظهر في التالي من مبالغته، فبعد أن فضّل قدرته البيانية على الأوائل– وهبها من طاقة التحويل والتغيير ما يثير العجب ، فوَصْف المغربي للخيل أخرجها عن طبائعها ، فشمل بعضها بركات بعض ، ولم يعد فيها معيباً ولا مشئوماً، بل خلت الجبهة من المعض ، يقول من ذلك[١] : « وقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وخَفَتَ جَرْسٌ، وللقَالِعِ أَبْغَضُ طَالِعٍ والأَزْرَقُ يُجَنِّبُكَ عنه الفَرَق، فالآن سَلِمَت الجَبْهَةُ من المَعْض، وشَمِلَ بَعْضَهَا بركاتُ بَعْضٍ[٢](أي الآن بعد وصف ابن المغربي لها) فأَيْقَنَ النَّطِيحُ أنَّ ربَّهُ لا يَطِيحُ [٣](بدأ أبو العلاء منذ الآن يستعرض الخيل المعيبة لدى العرب، والتي يتشاءمون منها لينزع عنها كل عيب وكل شؤم) والمَهْقُوعُ نَجَا راكبُهُ من الوُقُوعِ، فَلَنْ يُحْرَبَ قَائِدُ المُغْرَبِ ، ولَنْ يَرْجَلَ سَائِسُ الأَرْجَل[٤]، والعَابُ وإنْ لَحِقَ الكَعَاب ، نَاكِبٌ عَنْ نَاقِلاتِ المَرَاكِبِ [٥]» .

وهذا كما ترى إخراج للأمور عن طبائعها، وتغيير لحقائق الأشياء، فقد نزع عن هذه الخيول ، التي مضى حرس وخفت جرس وهي تحمل هذه الصفات المشؤمة –نزع عنها شؤمها وأذاها فسلمت من كل عيب، ولم يعد هناك ما يستوجب التطير

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٣٠ – ٢٣٤ .

(٢) حرس : دهر ، الجرس : الصوت ، القالع : فرس دائرته تكون تحت اللبد وتكره ، والأزرق : ربما كانت من الزرق وهو بياض في ناصية الفرس أو قذاله، فيكون الأزرق هو الفرس الذي به زرق، ويبدو من سياق أبي العلاء أنهم يتشاءمون منه ، الجبهة : اسم للخيل .
المعض : من قولهم معضت الرجل وأمعضته إذا ذكرته بما يغضبه ، وهو يريد أن يقول بأنه قد مرّ دهر والعرب تتشاءم من بعض الخيول كالقالع والأزرق، ولكن الآن سلمت الخيل بكل أنواعها من أن تذكر بسوء .

(٣) النطيح : له موضعان أن تميل غرته في أحد شقي وجهه وذلك غير مستحب ، وهو المراد هنا ، يطيح: أي يهلك .

(٤) المهقوع : الذي به دائرة الهقعة وهي في عرض الزور ، المغرب : الذي يبيض وجهه ورأسه وكانوا يتطيرون به ، ويُحرب : أي يغضب، ولن يَرْجل : بمعنى لن يبق راجلاً ، الأرجل : الذي في إحدى رجليه بياض وهو مكروه . وهو يريد أن يقول بأن كل هذه الخيل المعيبة لن يتأذى أصحابها بعد اليوم فقد خلت ببركة بيان الوزير من العيب .

(٥) العاب : مثل العيب ، الكعاب : مثل الكاعب ، وهو من المثل « لن تعدم الحسناء ذاماً » ، وهو يريد أن يقول بأنه وإن لم ينج من العيب أحد حتى لحق العيب الحسناء ، فإنه بعيد كل البعد منذ الآن عن ناقلات المراكب أي الخيول .

منها والخوف منها . وكل هذا مبالغة في تأثير بيان ابن المغربي، وأن وصفه للخيل كفيل بأن ينزع عنها كل عيب مهما كان، ولكنها مبالغة تحمل ميسم أبي العلاء ووسمه ، ومتى كانت جودة البيان عن الأشياء تنتقل إلى الأشياء نفسها، فتصير الأشياء جيدة مبرأة لأننا جوّدنا البيان عنها ؟ أمن الجد هذا ؟ !!

ومن ذلك أيضًا وصفٌ عجيب لليوم الذي جاءته رسالة الوزير أبي القاسم فيه، فهو يوم تتساقط فيه الثلوج، وقد حشرت فيه الكائنات من إنس وحيوان لاستقبال الكتاب، حتى ائتلفت الأضداد، فرأيت السباع والظباء في مكان واحد، يجتمعون ليستمعوا، ويتلذذوا بما يسمعون، ولا يؤذي بعضهم بعضًا، يقول[1]:« كَانَ يَومُ قُدُومِ تِلْكَ النُّسْخَةِ يومَ ضَرِيب[2]، حَشَـرَ الإِنْسَ مـع الإِنْس ، وأَضَـافَ الجِنْسَ إلـى غَيْرِ الجِنْس ، لَمْ يَحكُم علـى الظِّبَـاءِ بالسِّـبَاء ، ولا رمـى الآجَـالَ بالأَوْجَـالِ[3] ، ولكنَّ الأَضْدَاد تَجْتَمعُ فتستمع ، وتتصرَّفُ بَلَذَاتٍ من غيرِ أَذَاة » .

أبو العلاء هنا يجزم بأن يومه كان كذلك، ولم يأتِ بـ (لو) ، أو بـ (أحسب)، أو ما شابهها كعادته، وهذا يبلغ بفكرة التحول هنا الغاية؛ فهو يتعامل معها كحقيقة تمت، وهو بصدد الإخبار فحسب .

ومبالغة أبي العلاء هنا أخرجت الكائنات عن طبائعها، ونزعت عنها صفاتها الملازمة لها؛ فهي تجتمع بلا ضغائنها التي أُودعتهاغرائزها، وكل ذلك بتأثير الكتاب وما فيه من حكمة، حتى استشعرتها الحيوانات، فاجتمعت لتستمع مخلفةً كل شيء.

وكأن أبا العلاء هنا ينقلك إلى أرض غير الأرض، وواقع غير الواقع، وكأنك في عالم جديد، تستجيب فيه الكائنات لهاتف الحكمة، فتجتمع من كل جنس، فلا أحقاد ولا نزاع ولا طرائد، في يوم مثلج . وربما كان ذلك رمزًا للنقاء وصفاء السرائر، وربما رمز لبرودة مثل هذه الحياة التي ينسجها ، لا تعلم، ولكن البارز والظاهر هو هذه الرغبة العلائية في التحول وإخراج الأمور عن طبائعها، وإلباس الأشياء غير لباسها، والمبالغة في قوة التأثير التي يمنحها للأشياء ، وأخيرًا إحداث الغرابة التي

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ٢٤٦ .
(٢) الضريب : ما يسقط من السماء من ثلج ، وما يصبح على الأرض من سقيط جامد .
(٣) الآجال : جمع إجل ، وهو القطيع من الظباء أو بقر الوحش .

لا يستطيع إحداثها إلا عقل كعقل أبي العلاء .

ومما جعل فيه الأمور تجود بما ليس في طبائعها ماتراه في رسالته لأبي نصر الفلاحي عندما استدناه لحضرة عزيز الدولة، فقد أراد أبو العلاء أن يصف ورود كتاب الرجل عليه فقال[1] : « وَلَمَّا كَانَ اليومُ الذي وَرَدَ فيه كِتَابُهُ –المُشتملُ من حُسْنِ الظَّنِّ بوليِّه على ما لا يَسْتَوْجِبُهُ – عَكَفَتْ عليَّ الغِرْبَانُ مُبشِّراتٍ ، مُثَلِّثَاتٍ للنَّعيبِ ومُعَشِّرات[2]» .

فأنت كما ترى الغربان تحولت من نذائر شؤمٍ إلى زافي بشرى، فقد جعل الغراب يجود بما ليس في طبعه، وقد ضُرب به المثل في الشؤم فقيل « أشأم من غراب » !!

وكأن أبا العلاء يريد أن يقول بأن هذا الكتاب أدهش الأشياء، وأخرجها عن طبائعها ،حتى صارت الغربان إلى البشرى، فكيف بغيرها على سبيل المبالغة في أثر هذا الكتاب . وكأنَّ أباالعلاء كَلِفٌ بإحداث طرقات وصدمات للعقل والنفس ،حتى يراجع كل ما عنده من مسلمات ، فالغربان لا ترى فيها غرابًا يخرج عن مألوف جنسه ويصير مبشراً، وإنما ترى الغربان كلها خرجت عن مألوف جنسها وجادت بما ليس في طبعها، ثم تراها تجتمع، ثم تراها تعكف مع هذا الاجتماع، ثم ترى نعيبها تحول إلى أناشيد، فهي تُطَرِّبُ نعيبها وتحوِّله إلى ما يشبه المقطوعات (مثلثات ، ومعشرات) وهذا كما ترى ليس تحولاً للأشياء عن طبائعها فحسب ، وإنما هو تحول إلى النقيض، فالغراب – على لسان أبي العلاء – يصير عندليباً !!

ومن ذلك ما ساقه في رسالته المنيح، وهو بصدد الحديث عن مكانته ومكانة أهل المعرة في البلاغة، وما قد يصل من أنباء إلى سمع الوزير المغربي عن هذه المكانة، وأنه من يقول بأن لهم باعٌ في علمٍ أو أدب بمنزلة من يقول بالمستحيلات والخوارق، ويجعل الأمور تجود بما ليس في طبائعها . وهو وإن كان الشأن هنا أنه يذكر هذه الأمور لاستحالتها، إلا أنه أبدعها بلسانه، وأحضرها في بيانه، وصاغها بادءًا ذي بدء في صورة ما يجود بما ليس في طبعه ، قبل أن ينقض ذلك ،

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٣٦ .

(٢) للنعيب : أي للصوت .

يقـول[1] : « فـــإن ذُكِر لَـهُ ، أَدامَ اللّهُ تـأييـــده أن حَافِرَ الـقَلِيب ، أنْبَطَ الـمَحْضَ الحَلِيب[2] ، وأَنَّ الرَّسَلَ حُلِبَ العَسَل [3]، وأَنَّ نَجْلاً مِنْ رَاحٍ ظَهَر في هَجْلٍ بَرَاحٍ[4] ، فَعَارِضَتُهُ أَعْلَمُ بِالـمُعَارَضَة ، وأُرْبَةُ أُرْبَتِـهِ أَقْدَرُ على الـمُنَاقَضَة [5]» .

فهو في هذه الصور كما ترى جعل الأمور تجود بما ليس في طبائعها؛ فجعل البئر تجود لحافرها بدلاً من الماء حليبًا محضًا ، وجعل قطيع الإبل يُحلب فلا يكون ما جاد به حليبًا وإنما عسلاً ، ثم يُظهر في أرض غليظة عينًا، وليست عين ماءٍ وإنما عين من خمر لذة لمن يشربها . كل هذا مساق على أنه أقاويل، وأن من يقول بها بمنزلة من يقول بأن قرائح أهل المعرة قد تجود بما يُعوَّل عليه من أدب وعلم ، ولهذا الشاهد شبيه به سوف نتناوله بالدرس في فصل قادم بإذن اللّه[6] .

* * *

أما المبالغة التي ترى معها تحول الأشياء إلى أشياء جديدة مختلفة فخير مثال لها كما أسلفنا ما يظهر في سلام أبي العلاء ، كما يظهر له أيضًا في القوالب الدالة على التأبيد شواهد جيدة سوف نعرض لها في حينها بإذن اللّه .

ويُظهر أبو العلاء عناية خاصة بوصف سلامه، وإن كان لا يشغل مساحة نصية واسعة من بيانه في رسائله موضع الدرس إذا ما قورن بصفة الشوق مثلاً، إلا أنه حاضر في كثير من رسائله .

من ذلك ما تجده في وصفه لسلامه الذي بعث به في ختام رسالته إلى رجل قائم بأمر الديوان ، وهذه الرسالة أنطق فيها أبو العلاء هذا الديوان مادحًا ومثنيًا

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٣/١ .

(٢) القليب : البئر ، أنبط : استخرج ، بمعنى أن حافر البئر يستخرج منها حليبًا .

(٣) الرسل : جماعة من الإبل ليست بالكثيرة .

(٤) النجل : من قولهم استنجل الوادي إذا ظهر فيه ماءٌ ينز ، الهجل : مطمئن من الأرض سهل ، وقيل بل يكون غليظًا ، وأصله المكان الواسع ، البراح : المتسع من الأرض المنكشف .

(٥) العارضة : قدرته على الحجة ، الأربة : العقدة ، من قولهم رجل أريب أي عاقل فطن ، ويعني بذلك أنه قادر على رد أباطيلهم برجاحة عقله وقدرته على المحاجة .

(٦) انظر فصل : نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها ، من هذه الرسالة ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

على القائم به ، وفي المقابل أنطق ديوان امرئ القيس فعقدت به سبعٌ من قصائده كل ملام . وكما ترى فخياله ومبالغاته حاضرة فيها بجلاء . وفي ختام الرسالة يشكر أبو العلاء الرجل على حسن معاملته لربيب أخيه الذي يعمل عنده ، ويدعو اللّه أن يكافأه على أياديه العظيمة عليه، ثم يبعث بسلامه الذي يقول في صفته[1] : « وأَنَا أُهدي إلى جَنَابِهِ الأعزِّ سَلامًا إذا مَرَّ بالرُّتَبِ جعله غَضَارة[2] ، وبالجديبِ الأغْبَرِ كَسَاهُ نَضَارة [3]» .

وسلام أبي العلاء هنا سلامٌ ذو قوة خارقة للطبيعة؛ فلديه القدرة على تحويل الصخور الصلدة إلى طين يسهل تشكيله والتأثير فيه، وربما أيضًا رمز بذلك للخصوبة والنماء لارتباط الطين بهما، ولديه القدرة أن يحول الأرض الممحلة الجافة الغبراء إلى أرضٍ خضراء نضرة تكسوها الحياة . فسلام أبي العلاء في رحلة وصوله يبعث الحياة في الأشياء، ويغير معالم الأرض من حوله حتى يصل إلى صاحبه ، وكأنما يمد أبو العلاء الخصوبة والنماء بينه وبين صاحبه فيجعل كل ما بينهما خصبًا نضرًا نديًا .

فسلامه ليس سلامًا محمولاً فحسب بل هو حياة يبعثها رهين المحبسين من محبسه للآخر ، لا يبعثها إليه فحسب بل يجعلها تشمل كل شيء في طريق الرحلة إليه ، حياة من المحبس الذي طالما شبهه بقبر، وشبه نفسه بساكنه من الأموات، وأرسل منه السلام الذي يبعث الحياة والخصب !!!

وشبيه بهذا قوله من الرسالة التي بعث بها لأبي منصور خازن دار العلم ببغداد، ونفس المبالغة في هذه الرسالة شديد الحضور، تراه في مقدمتها بتعبيرات تدل على التأبيد ، وتراه في وصفه لشوقه إليه، وتشبيهه إياه بشوق حمامة يُطيل في صفتها ، ثم يتحدث عن كتبه المتوالية للرجل، التي لم تجد جوابًا ، التي شبهها

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٥ .

(٢) الرتب : الصخور المتقاربة ، والغضارة : الطين الذي يتخذ منه الخزف .

(٣) الجديب : يقال مكان جديب أي بيِّن الجدوبة ، والجَدْب المحل ، والأجادب هي الأراضي التي لا نبات فيها ، الغبرة : لون الغبار وقد غبر واغبَّر اغبرارًا فهو أغبر ، غضارة : حسنًا ورونقًا وخصبًا ، وأنضر الشجر : إذا اخضر ورقه .

أيضًا بالحمام . وأخيرًا يبعث سلامه فيقول في صفته [1]: « وأَنَا أَهْدِي إِلَى حَضْرَتِه سَلامًا إذا مَرَّ بِرُثَيْمَةَ العُفْرِ جَعَلَهَا كَعُتَيْرَةَ الأَذْفَر [2] ، وإِذَا قَارَبَ التَّفِل فكأنَّما عُطِّرَ ، والرَّوضَ الظَّامي فكأنَّما مُطِرَ [3]» .

وهذا السلام شبيه بسابقه في قوة تأثيره، ولكن مفعوله في الأشياء مختلف، فهو هنا يحيل الكائنات الحية عن طبيعتها فتتحول إلى جمادات بمجرد مروره ، فسلامه إذا مر بالفأرة في الرمال الحمراء جعلها كقطعة مسك أذفر تعبق رائحتها في الأجواء ، وربما الذي سوغ لأبي العلاء هذا التحول الغريب من فأرة إلى قطعة مسك، هو أن لفظة (فأرة) تدل فيما تدل عليه على وعاء المسك ، وبدلاً من أن يقول جريًا على عادته في تتبع المشترك اللفظي وحرصه على الجناس (إذا مر بفأرة العفر جعلها فأرة الأذفر) أو شيء من هذا القبيل ، نراه قد حاد عن هذا وقال : « إذا مر برثيمة العفر جعلها كعتيرة الأذفر »، والسبب في ذلك هو أن كلمة (فأرة) قريبة من الاستعمال بينما رثيمة بعيدة غريبة .

فنحن نرى هنا أن الإغراب مقدم لدى أبي العلاء على طلب الجناس والتجنيس، وكأن رغبته في إحضار الغريب تفوق أي رغبة أخرى ، وتأتي على رأس أولوياته اللغوية والأسلوبية . أضف إلى ذلك أن هذا يُظهر أن أبا العلاء يعول كثيرًا على الرابطة اللفظية ، وسوف نرى أمثلة لذلك في مبحث الدلالة على التأبيد القادم ، وقد عول عليها هنا رغم كونها غير ظاهرة ، وقد يكون أبو العلاء إنما حول الفأرة إلى مسك لأن المسك في قول بعضهم يكون من الفأر، فيبعد مع هذا أن يكون قد اعتمد فقط على الرابطة اللفظية في بناء صورته ، وقد حاول أبو العلاء أن يعوض عن ذلك الجناس التام الذي كان من الممكن أن يظهر في كلامه بأن أحدث نوعًا من التقارب أو التجانس بين وزن (رُثيمة) و (عُتيرة)، حيث عمد إلى صيغة التصغير

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٠٧ .

(٢) الرثيمة : الفأرة ، ورثيم الحصى هو ما دق منه بالأخفاف ، العُفر : ربما هي من الأعفر وهو الرمل الأحمر ، العُتيرة : تصغير العَتيرة وهي قطعة من المسك الخالص ، الأذفر : يقال مسك أذفر أي جيد للغاية .

(٣) التفل : الذي أنتن ريحه لترك الطيب والأدهان .

في (عُتيرة) بدلاً من (عَتيرة) من أجل أن تناسب (رثيمة) المصغرة وضعًا ، وأيضًا في اتفاق كلمتي (العفر ، والأذفر) في الحرفين الأخيرين ؛ مما يوحي بأن تصاقب الألفاظ كان لتصاقب المعاني ، أو أنه من الممكن أن تتحول الرُثيمة إلى عُتيرة .

ولكن الغريب في الأمر أن أبا العلاء عندما يبدأ مبالغته بهذا النفس العالي إلى حد ما، واكساب سلامه القدرة على تحويل الفأرة إلى مسك خالص بمجرد مروره بها، يقول بعد ذلك « وإذا قارب التفل فكأنما عُطِّر » فيكون فعله التالي أنه يكسب التفل المنتن إن هو اقترب منه ريحًا طيبًا فكأنما عُطِّر ، وليس هذا بشيء إذا ما قورن بسابقه، ولو بدأ به لاتفق هذا مع أسلوب أبي العلاء في التمهيد لمعانيه حتى يرتفع توقيعها، أو لقيمه الأسلوبية ، وقد عاب ابن رشيق هذا المسلك عندما وجده لدى المتنبي وقال [1]: « وربما أفسد أبو الطيب إغراقه هكذا، ونقص منه بما يظنه إصلاحًا له وزيادةً فيه » فهل ينطبق هذا الحكم على أبي العلاء هنا ؟ !

والحق أن أبا العلاء يعود فيرفع من قدرة سلامه، وبالتالي من نفس مبالغته، فيجعله يحول الروضة الظامية إلى الماء إلى روضة ندية، فكأنما أمطرت فاهتزت وربت بقوله « والروض الظامي فكأنما مُطِر » ، ولو تأملنا بناء أبي العلاء لكلامه للاحظنا أن تعطير التفل، وإمطار الروض بمثابة جملة واحدة تتكون من جزئين، قد عطفت على الجملة الأولى المتضمنة معنى التحول من فأرة إلى قطعة مسك .

وبذا يكون أبو العلاء قد جعل الفعلين التاليين (التعطير ، والإمطار) بمثابة فعل واحد في مواجهة فعل التحول في الأولى .

وربما كان هذا مُخْرِجًا لكلامه عن دائرة الحكم السابق ، كما أن في تصاقب بناء الجملتين ما يوحي بأن أبا العلاء يرى بأن تعطير التفل موازٍ لإمطار الروض، فالجملتان تبدآن بالفعل – في الأولى ظاهر وفي الثانية مقدر – يتلوه المفعول به (التفل، الروض الظامي) ثم أداة التشبيه نفسها « كأنما » ثم فعل ماض مبني للمجهول (عُطِّر ، مطر)، ولا ننسى ما بينهما من جناس لاحق .

---

(١) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة ، ٦٣/٢ .

وهذا بالإضافةإلى أنه ملمح أسلوبي بارز في لغة أبي العلاء في هذه الرسائل، إلا أنه يشير إلى أن تصاقب البناء هنا كان لتصاقب المعاني وأن أبا العلاء أراد أن يرتقي بالفعل الأول ليوهمنا أنه من الصعوبة بمكان كإمطار الروض وإخصابه .

وليس مقصد أبي العلاء هنا كما أرجح من إمطار الروض هو عبيره فقط بعد الارتواء بالمطر فيكون شبيهًا بتعطير التفل ، وإنما مقصوده أن يخصب هذا الروض ويهتز، وتبعث فيه الحياة، فيكون العبير مؤشرًا على وجودها، وإلا لما خَصّ الروض الظامي بالذكر . ومما يرجح ذلك أن هذا هو شأن سلامه غالبًا أن يرسل الخصب، بل ويكون أحيانًا بديلاً لأنواء السماء . ثم إن في ذكر التفل شيئًا ملفتًا فبعد الفأرة يذكر التفل ، ولم يذكر في سلام آخر أمورًا مثل هذه في كراهتها للنفس، وهي وإن كان لإيرادها وجه في زيادة المبالغة في قدرة سلامه ، ووضعها بإزاء ما تحولت إليه يقوي من هذا المعنى فبضدها تتميز الأشياء – إلا أنه قد استطاع أن يبلغ ما يريد من مبالغة ومجاوزة حد في تصويره لسلامه دون الحاجة إلى مثلهما بصور مليئة بالحبور والجمال ، فسلامه ينشر الخصب ، يحول الرمال إلى مسك ، إذا رؤي أنار، وإذا ترك في مضلة لما حار .

فلماذا يذكر التفل والرثيمة (الفأرة) في سلامه هذا بالذات ؟ ! هل يعود ذلك إلى كون المرسل إليه رجلاًمن بغداد ؟ ! تلك المدينة التي لا يخلو تصويره لها ولأهلها من إرهاصات تدعو للتأمل – كما أسلفنا – كما أن في تضاعيف رسالته أنفاس عتاب على كتب أُرسلت (من قبل أبي العلاء) ولم تلقَ جوابًا ، يقول معلقًا على ذلك : « أما أنا فعلي الجهد، ولا معتبة إن وقع في زهد »، ثم تحدث عن قصيدة بعثها فيها وعلق أخيرًا [1]: « فما أدري أولعها والع[2]، أم سدت عليها المطالع ، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ »

وفي المثالين السابقين كانت فكرة التحول ظاهرة جلية ، ولكن مما هو خفي في هذا المجال وطريفٌ أيضًا فليس له شبيه في رسائله موضع الدرس – سلامه

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٠٦ .

(٢) ولعها والع ، الولع : الكذب ، الوالع : الكذاب .

الذي بعث به في رسالته في الوساطة لمنير بن الحسن لدى رجل يدعوه أبو العلاء بالشيخ ، ولا ندري هل لهذا الشيخ علاقة بالدولة الفاطمية ؟ ! لأن أبا العلاء يُذَكِّره بما لآل منير من فضل على الدولةالفاطمية في تسليم حصن أفامية يستوجب أن تُقْضَى وساطته فيهم . ويبالغ فيها أبو العلاء في ثنائه على هذا الشيخ ، وفي اعتذاره من التثقيل عليه ، وفي محاولة التماس حاجته لديه ، فنفس المبالغة كما ترى ممتد في الرسالة . ثم يبعث إليه بسلام قد وسم بميسمها يقول في صفته [1]:

« وعَلَى حَضْرَته سَلاَمٌ إذا رَأْتَهُ الشَـامِيَّـةُ ظَنَّت الثُّريا في نَحْرِها أو فَوْقَ جَبِينها ، وإنْ مَرَّ باليَمَانِيَّة حَسِبَت سُهَيلاً وَقَع في يَمِيْنِهَا [2]» .

ومفعول سلام أبي العلاء هنا كما يبدو مفعول شعوري ، فإن رأته الشامية (ولاحظ أنه هنا ذو جسم فيُرى) – ملأها حبوراً وغبطةً ، وكأنها ملكت النجوم حتى غدت الثريا حلية في جيدها أو فوق جبينها ، وإن رأته اليمانية فكأن سهيلاً النجم سقط في يمينها، ويقول د. إحسان عباس أن في هذا السلام إشارة إلى « الشعرى العبور وموقع الثريا منها، والشعرى اليمانية وموقع سهيل منها »[3] فلا يبعد إذاً على ظننا أن أبا العلاء لم يرد فقط بأن المرأتين قد نالتا النجوم، وإنما قد استحالتا نجوماً . فاستحالت الأولى إلى الشعرى العبور ، والثانية إلى الشعرى اليمانية ، وهذا إلى أنفاس الأسطورة أقرب .

ومما مضى ترى أن سلام أبي العلاء يُطَوِّفُ بالأرض شمالها وجنوبها، يرسل الحبور والخصب والخير، وكأنه سلام يبعثه من محبسه للبشرية جمعاء ، فأنت لا ترى مفعوله في المرسل إليه، وإنما في الأراضي التي يقطعها نحوه حتى يصل إليه، وفيمن يمر به ويصادفه ، وربما غلب على ظنك أنه يظل على هذه الحال من التطواف بالأرض ، وكأنها مهمته الأم التي بعث من أجلها . ترى ذلك جليًا في سلامه الذي بعثه في رسالته لأبي نصر الفلاحي لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة ،

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٣٥ .

(٢) الشامية : امرأة من الشام ، اليمانية : امرأة من اليمن ، الثريا وسهيل : نجمان معروفان .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٣٥ .

وهي رسالة من الرسائل التي يُسيطر عليها نفس المبالغة، والتي ألمحنا إليها بداية هذا الفصل ، ويعتذر فيها أبو العلاء بمحبسه ، ويبالغ متواضعاً وواصفاً لأحوال نفسه ، حتى تكاد تخلص الرسالة لهذا الغرض ، يقول في ذلك السلام [1]: « وَوَلِيَّهُ يَحْمِلُ إلى حَضْرَتِه الجَليلَةِ تحيَّةَ شَاكرٍ طَرُوبٍ ، تَصِلُ شُرُوقَ الشَّمْسِ بالغُرُوبِ ، وتَكُرُّ مع طُلُوعِ الشَّفَقِ إلى حين تَمَزُّقِ ثيابِ الغَسَقِ [2]، كُلَّما اجْتازَت بالصَّعيدِ الأعْفَرِ ، جَعَلَته كالهِنْدِيِّ الأذْفَر ..[3]» .

فبالإضافة لهذا الذي تراه من تحويل الصعيد الأعفر إلى مسك ، هناك هذه الدورة التي هي أشبه بدورة الزمن، والتي تستغرق سلام أو تحية أبي العلاء، فهي تحية متصلة منذ الشروق وحتى الغروب، ثم تواصل دورتها وكأنها جيش يطلقه أبو العلاء فيظل يدور في الأرض من الغسق وحتى الفجر ، وهكذا يملأ أرجاء الأرض. ومع ما يحمله هذا التصوير من معنى الاستمرار والانتشار والشيوع الذي هو في حد ذاته مبالغة، إلا أنه يقول بأن هذه الدورة التي يضطلع بها سلام أبي العلاء هي بيت القصيد ، وأن هذا التطواف مهمته الأم ، وربما كان هذا هو السبب الذي دعا أبو العلاء للعزوف عن التعبير عن الدوام بطريقة نمطية فيقول : « ما طلعت شمس، أو ما أشرقت شمس » مثلاً، لأن هذا يفيد الدوام فقط ولا يفيد السيرورة ، وإنما فَصَّل القضية، وآثر هذه الطريقة المبتكرة التي يستحضر معها -مع ما قلناه- هذه الألوان الشفق والغسق -مع ما بينهما من تجانس صوتي- وصورة الشروق والغروب وهي من أجمل لحظات اليوم . بالإضافة إلى كونها ألفاظاً تكتظ بدلالتها، ومن أهمها التحول والتغيير ، وهذا أهم غايات سلام أبي العلاء إحداث التغيير ، فأي تغيير هذا الذي يصبو إليه أبو العلاء ؟ وهل هذا التغيير الذي يحدثه سلامه في الأشياء من حوله يحمل وراءه رغبة في تغيير الواقع ؟ وهل نستطيع أن نتلمس شيئاً في اختياره للفعل (تكر) ذلك الذي يذكرك بكر الجيوش في الحرب، وإن كان

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٥ .

(٢) الشفق : الحمرة من الغروب إلى العشاء ، الغسق : الظلمة ، وتمزق ثياب الغسق كناية عن تبدد ظلمته بضوء الصباح .

(٣) الصعيد : التراب ، الأعفر : ما لونه العفرة وهو بياض في حمرة ، والهندي : المسك الذي يجلب من الهند ، والأذفر : الجيد للغاية ، أي أن سلامه يحول التراب الأعفر إلى مسك .

يعني الرجوع بصفة عامة ؟ ! فإذا كان سلام أبي العلاء هنا جيشًا فعلى أي شيء سوف ينقض ؟ !

ثم تأمل قوله « تمزق ثياب الغسق » لماذا عبر عن الفجر بهذه الصورة، وجعلها الغاية التي ينتهي عندها ذلك الكر ؟ هل هذا للملاعمة بين الكر والتمزيق ؟ ، ثم لماذا فعل التمزق هنا دون غيره ؟ ولا تغفل أن الظلمة سر من أسرار نفس أبي العلاء، فهو أسيرها، وفي ذكره لها دومًا توق للتحرر منها ، فهذه النفس التي تتوق للضوء تريد أن تمزق ثياب الغسق !!

فهل الظلمة هنا رمز للزيف بشتى صوره، والذي اشتكى دومًا من تلبسه بالناس ؟ ! أم هي رمز لتلك الحجب التي تفصلنا عن المعرفة ، للغموض الذي يكتنف أسرار الوجود ؟ ! فسلامه[1]« لو طُرح في مِضَلَّةٍ لَمَا حَارَ [2]» ، فهل هو الحكمة التي يبحث عنها الفلاسفة ؟ ! لأن الحكمة هي التي لا تحار في الضلال ، أو هو العقل ، أو الهدى ، فالحكمة لا تضل ، والعقل لا يضل ، والهدى لا يضل ، وسلام أبي العلاء لا يضل ، والأعمى هو الذي إذا ترك في مضلة حار ، فهل نستطيع أن نضم إلى هذا أن سلامه مضيء فهو[3] « لو رؤي لأنار »، و [4]« لو رئي لمع »،[5] « سلام يلقاك بأنوار مضية »– وأن سلامه مؤنس في ذاته [6] « يضحك أبلجه »، ومؤنس لغيره[7] « وتبتهج قلوب النفر إن الآذان منهم سمعته » ، بل ويؤنس كل ما يمر به من ولايات مقفرة ما بين أرض أبي العلاء وأرض صاحبه[8] «يؤنس موحش الأمرات ، ويتصل من الشام إلى الصراة [9]» . وكأن سلامه يحارب

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٦٥٦/٣ .
(٢) مضلة : متاهة ، حار : تاه .
(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٦٥٦/٣ .
(٤) السابق ، ٢٧٧/٢ .
(٥) السابق ، ٣٣٠/٢ .
(٦) السابق ، ٣٢٧/٢ .
(٧) السابق ، ٤٧٢/٢ .
(٨) السابق ، ٢٨٩/٢ .
(٩) الأمرات : الولايات ، الصراة : نهر بالعراق .

الوحشة والظلمة محبسي أبي العلاء !!

ثم إن فعل سلامه هنا أنه يحول الصعيد إلى مسك ، ونحن لا نعرف صعيدًا من مسك سوى صعيد الجنة ، مما يكشف عن مصدر مهم من مصادر خيال أبي العلاء وهو الأخبار عن الجنة وصفتها ، فهل يريد أبو العلاء أن يجعل من الأرض جنة : (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ) ؟ ! هل يريد أن يقول بأنه لن يَعُمَّ الأرض السلام – كما يصوره هو مُطَوِّفًا بها – إلا عندما تستحيل جنةً كجنة الخلد ؟ !

أم أن سلامه المنشود هو الجنة ؟ !

وما أردت أن أقوله ، أن سلام أبي العلاء مخبوء على ما فيه ، وحسبي أني حاولت أن أدل عليه !!

وهذا – ومعه كل ما سبق – إذا تأملناه محاولة تَصَوُّر للسلام المبعوث في أكمل صوره ، فسلام أبي العلاء يضيء ، ويؤنس ، ويتضوع ، ويخصب ، وينوب عن أنواء السماء ، ويتتابع ، ويطوف بالأرض . مما يؤكد ما ذهبنا إليه في بداية هذا الفصل ، من أن تصور أبي العلاء لمعانيه إنما هو تصور يبلغ بها نهاياتها لذلك يبالغ في التعبير عنها ، فسلامه ليس تحيةً مبعوثةً فحسب ، وإنما هو السلام بمفهومه الأشمل ، وليس خاصًا بفرد بل عامًا للأرض كلها ، وفكرة التحول فيه – ولا تغفل أنها حاضرة في رسائله وسلامه أنموذجًا لها فحسب – تخفي خلفها رغبة علائية في التغيير ، وبعث الخير والحياة والطيب في الأشياء ، ينفثها من محبسه ، وكأني به يلخص في سلامه رسالة أدبه ، حيث لا يفتأ يضع مبضع لسانه على جراحات أمته ومجتمعه ، مصلحًا ، طالبًا للتغيير ، بنظرته الثاقبة ، وسخريته المـــرة .

وأنا لا أدعي أن أبا العلاء قد أبدع التأثير الخارق للسلام ، فهو متداول مشهور ترى من ذلك قول الشاعر :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت	علي ودوني جندل وصفائح(١)
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أو زقا	إليها صدىً من جانب القبر صائح

---

(١) يريد وهو في قبره .

فسلامه أحدث أمرين خارقين للعادة رد الميت ، أو إجابة الروح المطوفة بالقبر.

ولكن لسلام أبي العلاء خصوصية تميزه،وهي خصوصية تلك العناصر التي يحرص على إحضارها فيه، فتشي بسرائره ، وأهم من ذلك فكرة التحول الماثلة فيه، التي عليها المدار في هذا الجزء من حديثنا، وإنما ذكرت السلام لأجلها .

وقد أطلت في موضوع السلام،واخترته دون غيره أنموذجًا لمبالغاته التي تتغير معها حقائق الأشياء؛ ذلك لأن اهتمام أبي العلاء به لافتًا إذا ما قورن بكبار الكتّاب المشهورين في هذا الفن ، فأنت تجده يُظهر كلفًا به لا يظهرونه، فقد راجعت رسائل الجاحظ[1] ولم أجده مهتمًا بالسلام، ولم يأت السلام سوى في رسالة واحدة من رسائله نسبهاإلى غيره، ثم هو سلام يخلو من الخيال وقوة التأثير، وهي[2] رسالة « كتاب القيان » .

وراجعت رسائل أبي بكرٍ الخوارزمي[3] ، وكان يكتفي بأن يقول « والسلام » في نهاية بعض رسائله فقط ، وراجعت رسائل ابن العميد، والصابي، والصاحب، والميكالي الموجودة في زهر الآداب للحصري، ولم أجد أي اهتمام بالسلام إلا ما أتى نادرًا على طريقة أبي بكر الخوارزمي التي أشرت إليها آنفًا .

ولنا أن نتساءل ما السبب وراء حفاوة أبي العلاء بسلامه ومبالغته فيه ؟ ! فهل لنا أن نقول بأن أبا العلاء عندما يبعث سلامه هو لا يبعثه وقد غُلِّف بقشور الواجب، وقُتل بروح الإلف والعادة، لمجرد الجري على سنن معين في الرسائل، أو عادة المتخاطبين والمتراسلين ، إنما هو يبعثه وهو يعلم ألا بديل عنه من رؤية أو لقاء، فقد حكم على نفسه بالمحبس، فهو أشبه بهدية يبعثها إلى المرسل إليه، أو هو البديل المشروع لها؛ لذلك لا بد وأن يتفنن في وصفه ، يعضد ذلك أن أكثر سلامه قد سبق بكلمة (أُهدي)–لم يشذ عن ذلك سوى أربع رسائل فقط – خاصة تلك التي يبعثها لأخواله – ما عدا واحدة منها قال في سلامه فيها (أحمل) بدلاً من (أهدي)

---

(١) أعني بذلك رسائل الجاحظ الصادرة عن دار ومكتبة الهلال ، تحقيق : د. علي أبو ملحم ، في ثلاثة أجزاء : رسائل الجاحظ الكلامية ، ورسائل الجاحظ السياسية ، ورسائل الجاحظ الأدبية .

(٢) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ٦٣ .

(٣) أعني بذلك : رسائل أبي بكر الخوارزمي ، التي نشرتها دار مكتبة الحياة ببيروت عام ١٩٧٠م .

ولكنه أفرط في المقابل في صفة سلامه .

كما أنه لا يهتم بسلامه، وأحيانًا لا يذكره في رسائله لذوي السلطان، ما عدا رسالته السابقة لأبي نصر الفلاحي وهو مع ذلك لم يقرنه بأهدي !!

لذلك فهو عندما يُكسب سلامه ما يكسبه من ملامح قد تبدو خارقة أحيانًا، فهو لا يريد التفنن في الصنعة بقدر ما يخفي ذلك رغبة حقيقية في أن يكون هذا هو شكل سلامه وهذا هو حاله ، وهو بتخليده لصفته التي صنعه عليها، يوصله إلى المبعوث إليهم كما أراد له أن يكون ، ليكون هذا المخلوق العلائي مستمداً ملامحه من لسان أبي العلاء، وحياته من عقول القارئين ومخيلاتهم .

فمبالغته وإن كان يقف وراءها خيال خلاّق وقوي ، فإنه يقف وراءها في ذات الوقت حس صادق لا محالة استطاع أن يجعلها في تقبلنا لها أقرب ما تكون للحقيقة ، مع ما تحمله في ذات الوقت من قوة الخيال المجاوز للواقع ، لذا فمبالغاته ليست المبالغات التي تشعر معها بالثقل ، وإنما هي مبالغات – رغم ما فيها من جنوح – مقبولة أشد القبول !!

*   *   *

ثانيًا - المبالغة في تحليل المشاعر والأفكار :

وهذا الفرع تنطوي تحته أغلب الموضوعات التي استأثرت بجل مبالغات أبي العلاء من صفة للشوق ، أو ثناء على المرسل عليه ، أو وصف لحال المعرة وأهلها، أو وصف لأحوال نفسه .

والحق أن أبا العلاء يمتد نَفَسه امتدادًا لافتًا في معالجة مثل هذه الموضوعات، ويحتشد بلغته وأخيلته لوصف كتاب المرسل إليه مثلاً ، أو لوصف شوقه ..الخ ، وهذا الوصف في حد ذاته لا يخلو من مبالغة ، فيجتمع في هذا ونحوه نوعان من المبالغة ، المبالغة بامتداد نفس أبي العلاء في التحليل ، والمبالغة في المعاني ذاتها التي يدرجها أثناء تحليله . وسوف أكتفي في هذا المبحث ببعض النماذج التي توضح هذا المذهب في بيانه دون استقراءٍ كامل للمثال موضع الدرس ؛ لأنه قد يمتد ليشغل حيزًا نصيًا كبيرًا، وصل في بعض رسائله إلى خمسٍ وثلاثين صفحة ، بحيث لا يمكننا استعراضه كاملاً ، وسوف أكون معنيةً هنا - قدر الإمكان - بمحاولة كشف تلك التمتمات الخفية التي تشي بها مبالغات أبي العلاء في أساليبه المختلفة والتي ألمحت إليها من قبل .

فنحن مع أبي العلاء أمام شخصية لا تكشف مضامينها ، فأبو العلاء يجعل من لغته بأساليبها المتميزة من جناس، وأمثال، وسجع، وغريب حاجزًا من الصنعة العجيبة بيننا وبين مراده، حتى إن القارئ ليوشك أن تستنفد طاقته في حل هذه الصنعة البيانية المكثفة والمتراكبة قبل أن يصل إلى سر أبي العلاء ، حتى أننا لنتوهم أحيانًا أننا أمام صانع أبنية لغوية ولسنا أمام صانع فكر !!

وقد رأيت في كل ما سبق أن نفس المبالغة يستدعي في بيانه تلك الخصوصيات ، وكلما ارتفع هذا النفس ودخلنا معه في حيز الخيال المجاوز كثيراً للواقع ، ازدادت لغة أبي العلاء تنميقًا وتحبيراً ، كما رأينا من قبل في فصل الجناس في وصف أبي العلاء للمعرة وأهلها وثنائه على الوزير المغربي من رسالته المنيح[1] ، فقد كان ذلك نموذجًا صارخًا لمبالغات أبي العلاء بلغة شديدة التحبير. وتساءلت حينها عما إذا كان هذا التصوير المبالغ فيه لعجز أهل المعرة ودونيتهم

---

(١) انظر فصل : مواقع الجناس في رسائل أبي العلاء ، من هذه الرسالة ، ص ٧٥ - ٨١ .

الذي يقابله ارتفاع وسمو للوزير – نقد من قبل أبي العلاء للطبقية التي يعاني منها المجتمع في زمانه ، وإبراز للفروق الطبقية بين الناس ، وأن من الناس من هم في طبقة أهل المعرة ومنهم من هم في طبقة الوزير ، فيبالغ جداً في الحديث عن طبقة أوتيت كل شيء حتى الثقافة ، وطبقة مسحوقة حُرمت كل شيء حتى الفهم ، حتى تعجز عن استيعاب لغة الطبقة المتميزة !!

وشبيه بذاك الذي وجدناه في المنيح هذا الذي نحن بصدده الآن من رسالة الهناء التي بعثها لأحد الوزراء يهنئه فيها بقدوم « حليف الجلالة أبي علي » كما سماه أبو العلاء ، ويبالغ أبو العلاء أيما مبالغة في الثناء على الوزير وضيفه حتى تكاد تخلص الرسالة لهذا الغرض ، ويبدأ مبالغاته فيها بأن يجعل الزمان نفسه يُهَنَّأُ بهما، وهي وإن كانت مبالغة قريبة متداولة –فلا أدعي أنها خصوصية علائية– إلا أنك ترى بها أن أنفاس المبالغة بدأت من أول رسالته ، ثم تأخذ في النمو حتى تجاوز حدود المنطق والعقل ، فتخرج إلى الإحالة في قلب الرسالة ، بله أنها تقريباً تنتظم أغلب رسالته ، وهذه هي الخصوصية التي أنبأتك عنها .

يقول أبو العلاء إن تهانيه ترادف إلى حضرة الأستاذ[1] : « بقدوم الأستاذِ حليفِ الجلالةِ أبي عَلي ، لافَتيَا للزَّمن أَنْفَس حُلِيّ ، فهو بهما يُهَنَّأ ، خَضَبَ لَوْنَه اليُرَنَّأ[2] ، إذْ هو أَحَمُّ أو أَحْمَر ، والحُسْنُ – كما ذُكِر – أَحْمَر [3]» .

ومعاني أبي العلاء كما ترى عالم متجسم لأن إحساسه بالأشياء قوي ، فهذا الزمان قد صبغته حمرة الحسن لشدة ابتهاجه بالوزير وصاحبه، فهو ذات حية بهما يهنأ . فأي الرجال من يستطيع أن يكون حلية للزمان ؟ ! به يُعاد للأمة شرفها، فيقيم العدل ويرفع الظلم ويعم الرخاء ويستقيم حال العباد ، فينسب الزمان له فيقول قائل القوم : هذا زمان فلان ، فيُدعا له ولزمانه ويُمتدح الزمان بمدحه . ولا أرى معنىً لكون الإنسان ذي السلطان حلية للزمان ، ولكون الزمان يُهنأ به سوى

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٧٣ .

(٢) لافتيا : يقصد الوزير وضيفه ، فهو بهما يهنأ : يريد الزمان ، اليرنأ : الحناء .

(٣) الأحم : الأسود ، « الحسن أحمر » مثل يتأوله العامة على أن الرجل إذا كان جميلاً كان لونه إلى الحمرة .

هـذا ، فهل يفترض أبو العلاء وجود ذلك بالفعل في الـوزير وصاحبه ؟ ! فما بالنا إذًا لم نسمع بوزير في عهد أبي العلاء استحق مثل هذا الوصف ؟ ! أم أن وراء الأكمة ما وراءها ؟ ! ووراء ثناء أبي العلاء هنا من الأسرار ما نحتاج إلى فك طلسمه وحل رموزه .

وقبل أن نستمر في استعراض بعض نماذج ثنائه في الرسالة دعنا نتوقف مع لغته لنتأملها ، ألا تذكرك بتلك التي واجهتنا في رسالتي المنيح والإغريض في فصل الجناس ؟ فتراه جانس بين (حلي ، وعلي) جناسًا مضارعًا ، وجانس بين (يهنأ ، ويرنأ) جناسًا لاحقًا ، وعمد إلى هذا الاسم الغريب للحناء دون غيره من أجل الجناس وتوافق الفواصل ، بل وربما لغرابته أولاً قبل كل شيء .

ثم جانس بين (أحم ، وأحمر) جناسًا ناقصًا مطرفًا ، ثم هذا التكرار لحرف الحاء في (أحم ، أحمر ، الحسن ، أحمر) فكل لفظة في هاتين الجملتين حضر فيها حرف الحاء ، كما استدعى المثل « والحسن أحمر » ، وأخيرًا هذا التوازن الشديد في طول الجمل وتوقيعها المرتفع ، فأنت ترى إذًا بجلاء أن حضور المبالغة في بيانه استدعى خصوصياته البلاغية التي يكثر من استخدامها ، فجانس ووافق في ذات الوقت بين فواصله، واستحضر الغريب، وأورد الأمثال، واستعان بالخيال(فشبههما تشبيهًا مؤكدًا في جعلهما أنفس حليِّ الزمان ، كما أن تهنئته للزمان ما هي إلا استعارة مكنية تشخيصية) . كل ذلك في سطرين فقط من بيانه !!!

ثم يعتذر أبو العلاء عن هذه التهنئة لأن التهنئة إذا جاءت من غير نظير عدت من المحاظير ، وهنا تبدأ أنفاس المبالغة بالارتفاع إلى حد ما ، فيصوغ أبو العلاء قصتين بمثابة مثلين يتحقق له من خلالهما المبالغة في رفع شأنهما والحط من شأنه هو في المقابل ، حيث يجعل نفسه في الأولى بمثابة فأرٍ تجرأ على تهنئة أسد ، وفي الثانية عصفور تجرأ على تهنئة « عظيم من جوارح الطير » ، وفي كلا المثلين يُسْقَطُ بالمجترىء أسوأُ عقاب .

وإنما عرضت لهذا لأنه مظهر من المظاهر التي تتخذها المبالغة في الثناء عليهما في هذه الرسالة فرأيت أن ألفت إليه .

ويختم أبو العلاء هذا الاعتذار عن التهنئة بمبالغة صريحة في الحط من شأنه

هي موضع الدرس حيث يقول[1] : « وأمَّا أقْراني فـأولئك حَمَلَةُ عصِيّ ، يَجْلِسـون بالمكان القَصِيّ [2]، فـإن أَخْطَـأْتُ ذَلِك فَقِرْنِي ضُـلُّ بن ضُـلٍّ أو هـيُّ بيّ [3] ، وكلاهما ليس بِشَـيْ » . ويريد أبو العـلاء هـنا أن يقـول بأن نظـراؤه الذين يجـوز له تهنئـتـهم ليسوا ولاة ولا وزراء ، إنما هم (حملة عصـي) ، أناس يشاركونه أحد محبسيه ، ومجلسـهم من القوم مجلس قصي ، وإن أخطـأ فـي انتسـابه إليـهم فـهو لا يعدو أن يكون نظير « ضـل بن ضل » ، أو « هـي بي » ، وكلاهمـا مثل للذليل المجـهول . وأبو العلاء لا يترك هذه الدلالة ليضطلع بها المثل وحده ، بل يؤكدها بقوله «وكلاهما ليس بشي» ، وكأن هـذا هــو مدار المعنى ، ومع ما تلمسه في هذا من المبالغة لما لأبي العلاء من قدر ومكانة شغلت أهل زمانه وأكثرت من حساده ، إلا أنه يقول لك هنا إنه ليس بشي ، وأنه في الناس ضل بن ضل = فهل يقف خلف هذا رغبة ملحة من أبي العلاء في توثيق صلته بالعامة ، وبالطبقة المسحوقة وانتمائه لها ، ونفيه التام لانتمائه للسَّامة ؟ !

وهنا نستطيع أن نقول بأن بيان أبي العلاء يتخاطب ويستدعي بعضه بعضاً، فهذا عينه ما لمسناه في رسالة المنيح عندما قال[4] : « لنقلني من آلي العـامـة إلى عالي السـامـة » وقلنا حـينها[5] بأنه صـاغ كلامه صياغة المتشكك المستبعد لهذا التحول والنقل ، ورأينا هذا الإصرار من قبله في استخدامه لكلمة « آلي » رغم أن معناه يتم بغيرها ، ولكن الحق الذي غفلنا عنه أن « آلي » هي معناه ، فـهؤلاء العـامة هـم آله وأهله وخـاصته . وليس من البعـيد أن يكون مـراد أبي العـلاء وهو بالطبع لا يجهل قدر نفسه وقدر أهل العلم وهو منهم – أن يكون مراده هو الانحياز إلى هذه الطبقة ، واللفت إليها بالمبالغة في تعميق هذه الفروق بين طبقة العامة وطبقة السياسيين والولاة . أبو العلاء يجلي هذا ، ويضع اليد عليه ويلفت إلى خطر

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٧٦ .

(٢) حملة عصي : يقصد بهم المكفوفين فاقدي البصر ، القصي : البعيد .

(٣) ابن بي : الذليل المجهول وكذلك ابن هي ، وضل بن ضل : من لا يُعرف ولا يعرف أباه، وكلها أمثال.

(٤) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٦ .

(٥) انظر فصل : مواقع الجناس في رسائل أبي العلاء ، من هذه الرسالة ، ص

في حياة الأمة ، وهذا الخطر متمثل في وجود هذه الفجوة بين طبقاتها .

ويرجح هذا الذي نفترضه ونقول أنه غير بعيد - أنه يضرب المثل لنفسه من حيث هو واحد من العامة بما يفيد افتقاد الأهلية لحماية الأمة وإعمارها ، ولا تنس أن أبا العلاء عايش جيلاً يواجه صراعًا صليبيًا شرسًا ، فهو يذكر الفأر ، وإذا كانت عامة الأمة حالهم يشبه حال الفئران فكيف يدفعون عن كيانها ، ويذكر ضل ابن ضل ، ومثل هذا الضل لا يُدفع به في وجه عدو ، وهكذا فإذا ما استقصيت ما رمز به للعامة تجده كله يكاد يكون لا شيء ، ثم تجد طبقة الولاة والوزراء والساسة هم الممثلون للقوة والمنعة ، فهم الأسد ، وهم حاشيته من السباع ، وهم الجوارح من الطير . ومعنى هذا أن قوة الأمة مودعة فيهم ، وهم قلة قليلة ، وشريحة محدودة ، لا تنهض في مواجهة جحافل الصليبيين التي كانت تدق طبول الحرب على أبواب الأمـــة !!

فلم يعودنا أبو العلاء على أن نأخذ بيانه أخذًا سطحيًا قريبًا ، وإنما هو رجل يضمر مراده دائمًا في غيب اللغة السحيق .

ثم يتلو هذا الإفراط في التواضع إفراط في الثناء، ويتخذ هنا شكله الثاني الذي ظهر عليه في هذه الرسالة من استحضار لرجالات العرب، وتشبيه الوزير وضيفه بهم في نفس يمتد ويطول . ثم وأخيرًا يظهر الشكل الثالث لمبالغاته في الثناء في هذه الرسالة ، حيث يأخذ شكلاً قصصيًا عجيبًا ليس كالأول في كونه إلى عالم المثل وقصص الحيوان أقرب ، وإنما هو شكل خاص تخرج معه الأشياء عن طبائعها ، وسوف ندرس نموذجًا واحدًا منه .

وذلك أنه يبدو أن حليف الجلالة هذا أو (ضيف الأستاذ) قد قام برحلة إلى بلاد الروم في وساطة من نوع ما ، يرى د. إحسان عباس أنها لتأمين الطريق وافتكاك الأسرى[(١)] ، ويمتدح أبو العلاء هذه السفارة حتى يتخيل أنه لعظم شأنها قد تحدث المعجزات في الأرض تسهيلاً لها، فتنفلق له لجة البحر حتى يصل سريعًا، أو تجري سفينته على اليبس، أو تحملها الرياح بدلاً من الماء ، إلى غير ذلك من الأمور الخارقة التي لا يُحْسن خلقها وصنعها إلا خيال أوتي قوة رَوَّضَها صاحبها

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٧١/١ .

على هذا الاختراع وهذا الوصف ، وهكذا كان خيال أبي العلاء، الذي اعتاد كسر حواجز المبالغة المألوفة، والانتقال بهذا الفن البياني إلى آفاق جديدة !!

وهذه الصورة ليست محط الدرس هنا إنما الصورة التي تخيرتها والتي سوف أسلط عليها الضوء هي صورة تلمست فيها دور الواشي الذي قد ينبئنا بحقيقة هذا الثناء، وذلك أن أبا العلاء بعد كل ما سبق أنطق جبال الروم نفسها، وجعلها تتمنى أن تتحول رياضها وثمارها ديباجًا يَقْدُمُ به هذا الرجل إلى شبل الدولة[1] ، بل وتتمنى هذه الجبال أن تتحول حبات الثلج المتساقط عليها إلى نقود من الفضة ليفرقها شبل الدولة على المحتاجين من العرب . تأمل هذه الصورة في بيانه وبلسانه[2]: «ويَجُوز أَنْ يُنْطِقَ اللّهُ الأَوَّلُ جِبَالَ الرُّومِ فتقولَ عندَ الرُّشْدِ المروم، ليت ما تُنْبِتُ بلادُنَا من الرِّياض ، وما اكْتَسَى به الشَّجَر المُثْمِرُ أو الغِيَاض ، يصيرُ كُلُّه من دِيبَاجٍ ، يَقْدُمُ بِه هذا السيِّدُ من حَضْرَةِ المَلِكِ ذي التَّاج[3] ، هديةً للسلطان المكرَّمِ شبلِ الدولة -أعزَّ اللّه نصره- يُفَرِّقُهُ في أَفْنَاءِ سُبَيْعَة[4] ، ويَأْخُذ به على القَوْم البَيْعَة ، وليت ما يسقُط علينا في الأشْهَبَيْن[5] ، يصيرُ في الأَقْضِيَةِ من اللُّجين فَيُحملُ إلى تلْكَ الحَضْرَة ليفضَّهُ السلطانُ الأشْرَف على الأوْلِيَاء ، ويكونَ سببَ سعادةِ الأَشْقياء » .

فأنت كما ترى هنا ضربًا من المبالغة عجيبًا، وهو لا يقف عند الصورة ذاتها بل يتعداها في امتداد هذه الصورة، وتوالي أجزائها، والتي هي بدورها امتداد لتحليل أبي العلاء -كما أسلفنا- لفكرة الخير الحاصل من هذه السفارة على الأمة، أو مفعولها في الأرض، حيث امتدت هذه الصورة في ثمانية وعشرين سطرًا، كلها في وصف المعجزات التي يمكن أن تحدث لتسهيل سفارته، وذكرٍ لنطق الحيتان في البحار، ونطق جبال الروم، بل ونطق الدرب الموصل من الشام إلى بلاد الروم، وكلها

---

(١) كان حاكمًا لحلب منذ ٤٢٠ - ٤٢٩ هـ .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ٧٩ .

(٣) ذي التاج : يقصد به ملك الروم .

(٤) سبيعة : قبيلة ، وأفناء القبيلة : الأخلاط منها، أي أنها تتألف من قبائل شتى يجمعها الانتماء لمكان أو حلف أو ما أشبه .

(٥) الأشهبان : عامان أبيضان ليس فيهما خضرة من النبات ، وما يسقط فيهما هو الثلج .

تبتهل -بعد إنطاقه لها- إلى الله ، وتدعوه أن يتحقق فيها أمور وأمور ، من شأنها إسعاد هذه الأمة ، وإنجاح هذه السفارة وتيسيرها .

وهذه هي المبالغة التي عنيتها بهذا المبحث ، وهي المبالغة في تحليل الأفكار وامتداد نفسه في ذلك ، وهي حاضرة في الكثير من رسائله على اختلاف المساحة النصية التي تشغلها من بيانه . وهذا الذي مضى في ظاهره ثناءٌ على هذا الرجل وما قدمه للأمة ولشبل الدولة بسفارته . ولو عدنا لتأمل النص السابق لمحاولة استكناه ما وراءه، فإنا نجد أولاً، أن أبا العلاء قد حاول أن يتخلص من الإحالة والغلو بوضع مبالغاته السابقة في إطار التشكك باستخدامه هنا لكلمة (يجوز)، وإسناد الفعل إلى الذات الإلهية ؛ لأن كل شيء في حق الله وفي قدرته سبحانه جائز التحقق ، وقد حرص على ذلك أيضًا فيما سبق هذا من صور، فكان يسبقها بقوله « ولو جاز أن يحدث كذا ... »، أو « لا يمنع في القدرة أن يحدث كذا ... »، أضف إلى ذلك أنك تلمس حرصه الشديد على لغته، وعلى توازن الجمل، وعلى الجناس، كالذي تراه بين (الرياض ، والغياض) وهو جناس لاحق ، وكذلك الذي بين (سبيعة ، والبيعة) فهو جناس ناقص ، كما تجده راعى توافق السجع في (ديباج ، وذي التاج) ، و (الأشهبين ، واللجين) ، و (الأولياء ، والأشقياء) ، وهذا كله يدخل في تأكيد ما قلناه سابقًا من اهتمامه بلغته واحتشاده عند مبالغته .

والآن دعنا نَتَنَصَّتُ لسماع تلك الوشاية التي حدثتك عنها في بداية هذا الجزء -إن استطعنا- فأبو العلاء هنا وإن كان يرجو مثل هذه الجرايات من بلاد الروم ، إلا أنها في نهاية الأمر مجرد أمنية من الجبال ، لا تعدو كونها كذلك ، أمنية مبنية على جواز إنطاق الحق لها ، فإن أنطقها تمنت .

فهل يريد أبو العلاء من وراء ذلك أن يقول لنا بأن كل ما ينتظره الناس من الساسة لا يعدو نطاق الأماني والأحلام ؟ !

ثم تأمل قوله بعد ذلك في حديثه عن الديباج« فيصرفه في أفناء سبيعة، ويأخذ به على القوم البيعة »، ألا تشم في جعله من تفريقه الديباج الذي أتى هبة من بلاد الروم على قبائل العرب سببًا في أخذ البيعة منهم رائحة السخرية ولو من بعيد ؟ !

أم أنه يريد أن يقول بأنه لا يستمر في الولاية إلا من يتواطأ مع الروم ؟

ثم إن في نسبة هذا الخير لجبال الروم وبلاد الروم تلك التي لا ينتظر منها المسلمون سوى الغزو تلو الغزو – خاصة في زمانه – ما فيه ، ولا ننسى وصف أبي العلاء لأهل المعرة في أكثر من موضع بأنه يقض مضجعهم خوف الروم .

ألا تجد في هذا بالذات ما يجعلنا نعيد النظر في حقيقة الثناء في رسائله ، وأنه ليس تملقًا كما ظن البعض[1] ، فهل سخريته هنا كانت بالسفارة ذاتها وأي خير قد تعود به على الأمة ؟ ! فما الذي يُنتظر من الروم ؟ ! إن ما ينتظرمنهم – إن كان ينتظر منهم خيراً فعلاً – هو أشبه بالأساطير والمستحيلات . هو أشبه في البعد بأن تنطق الجبال وتبتهل ، أو تنشق البحار لغير الكليم ، أو تخطر الأسماك كقطعان الربرب[2] .

وينبغي مع هذا ألا نغفل أن أبا العلاء هنا يمارس نهج البيان المحبب إليه ، ذلك النهج الذي يشق بـه للعربية الشريفة نهراً في غير أرضها ؛ لأن نطق الجبال وإجراء روح الإنسان ولغته وفكره فيها ليس بعيداً عن إنطاق الحيوان الممثل كثيراً في أدب أبي العلاء، كالصاهل والشاحج وغير ذلك ، وما يشبهه مما يُعد به أدب أبي العلاء في جملته أدبًا غريبًا ، ليس في فنون البلاغة وخصوصياتها التي ندرسها فحسب، وإنما في سكب هذا البيان الرائع في رأس البغل، وإجراء أصوات العربية الشريفة على جحفلة الفرس . وليس خلق الأمنيات في جبال الروم بعيداً عن خلق الطموح والأمل والرغبة في تجاوز حدود الإلف الذي كان يجري في رأس البغل . لا شك أن أدب أبي العلاء يتصل بعضه ببعض، وأن تصوير طبقة العامة ووضعها في الدرك الأسفل وانحياز أبي العلاء لها، ليس بعيداً عن احتجاجات البغل على هذا البون الشاسع بين طبقة عمومته وهم الحمير، وطبقة خؤولته وهم الخيل !!

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الثناء في رسالته هذه قد أخرجته مبالغات أبي العلاء عن حقيقته – ما تراه في آخر الرسالة من أمور ، أولها قوله مواصلاً اعتذاره عن جرأته بتهنئة الوزير وضيفه [3]: « وقد كنتُ عزمتُ على الإمْسَاك حتى أشَار

(١) منه ما ذكره كامل الكيلاني في شرحه لرسالة الهناء لأبي العلاء المعري ، رسالة الهناء للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م ، ص٨ .

(٢) الربرب : قطيع بقر الوحش .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٨٠ – ٨١ .

بالقَوْلِ وليُّهما أبو فلان ، وهو ممن يُوْثَقُ بعقلِه ودينِه ، ولم يُغَطِّ البَادِيَ بِسَدِينه[١] ، فإن كنتُ أسأتُ الأدبَ في المكاتبةِ فهو في الغلط شريكٌ ، وربَّ ساكنٍ لا يُحْتَملُ فيه التَّحريك ، وقد أسأتُ الأدَبَ ثلاثًا، والتَثْلِيثُ مذهبُ المسيحية، فإن أتيتُ بالتَرْبِيعِ فما أَجْدَرَني ببلوغِ التَّسْبيع ، وقد أتبعتُ هذا الإطْنَابَ بتبيينِ ألفاظٍ فيه ليكونَ الهَذَيَانُ كاملاً ، والمرضُ لفصولِه شَامِلاً .. » .

فهو يعتذر هنا بأن هناك شخص قد أشار عليه بها (التهنئة) ، وهو ممن يوثق بعقله ودينه ، وبالتالي بنصيحته ، فإن أخطأ أبو العلاء فيها فهو في الخطأ مشارك كونه أشار بها عليه. وظاهر من قوله:« ورب ساكن لا يحتمل فيه التحريك »، وهو مثل علائي على ما أرجح – أن الساكن هو أبو العلاء ، فما الذي يقصده من وراء ذلك ؟ هل هو بالفعل اعتذار ؟ أم أن فيه نفسًا من التحذير عن استثارته ؟ فهو كالبركان الساكن الذي من الخطر بمكان تحريكه ، وكأنه يقول من الأفضل ألا تنطقني لذوي السلطان ؛ فإن نطقي لهم لن يكون فيه مسرتهم وهو القال :

فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة

ثم إن ما يتلو هذا ينبيء عما افترضناه من سخرية مستترة خلف هذا الثناء حيث يقول : « وقد أسأت الأدب ثلاثًا، والتثليث مذهب المسيحية، فإن أتيت بالتربيع فما أجدرني ببلوغ التسبيع » ، فجعل عذره للرجلين يكمن في كون أخطائه قد بلغت ثلاثة أخطاء ، فإن تجاوزها بهذا الخطأ (وهو التجرؤ على مكاتبتهما) فقد بلغت الأربعة، فلا عليه أن يضيف إليها ما يبلّغها سبعة !! جاعلاً من كونها على هذه العدة دون غيرها فقط عذره المقبول ؛ لأن الثلاثة مذهب المسيحية ، وهو دين الرجلين كما ألمح لذلك في مفتتح الرسالة ، والتسبيع مذهب الفاطمية ، الدولة التي يدين لها الرجلان بالولاء !! وهو وإن كان عذرًا طريفًا إلا أنه يخفي من الاستخفاف والسخرية بهاتين العقيدتين وبمن يدين بهما ما يخفي ، بل ويظهر أيضًا في كونه لا يصل إلى التثليث إلا بالخطأ ، وكذلك التسبيع !! وأبو العلاء إذا ما أراد أن يُلبس عليك الأمور أتى بهذين الرقمين في بيانه ، حيث أننا لا نعلم ما هي الأخطاء الثلاثة

(١) السدين : ثوب من الكتان ، أي أنه لا يخفي شيئًا ويبدي غيره .

التي أساء بها الأدب ، وهـو يبدي رغبتـه في أن يربيها . من ذلك قوله بشأن محبسه من رسالة أخرى سوف نتعرض لها بالدرس[1] « فغدوت حلس ربع كالميت بعد ثلاث أو سبع » . ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق جعله كل ما ورد في الرسالة –وهي كما قلنا من قبل قد خلصت تقريبًا للثناء عليهما– ضربًا من الهذيان والمرض ، فهو يصرح بسخريته ، وإن كان ظاهر كلامه التواضع المبالغ فيه لقيمة أدبه وبيانه ، فيجعلهما بمنزلة الهذيان !!

وقس على هذا ما لم نذكره من نماذج مبالغاته في الثناء الذي امتد في أغلب هذه الرسالة .

وقد حاولت كما رأيت أن ألتمس نقدًا سياسيًا خلف هذه المبالغات ، ونقدًا اجتماعيًا تراه سافرًا بعض السفور – عندما أنطق الجبال – في تصويره لأفناء سبيعة وهم بحاجة للديباج والدراهم، وفي كلام يتلوه جعلهم بحاجة للغذاء أيضًا[2]: « ويَبْتَهل الدَّرب الضَّيق إلى الله .. أن يزيدَه القَادرُ من اتِّسَاعٍ ... وتكون الأَحْجَارُ الخَشِنَةُ كأنَّها زِفُّ نَعَام ، والأَكَمَةُ خُوانًا وُضِعَ للطَّعَامِ ، يُصيب ما طَلَب منه السَّاغِبُ، وهو مريحٌ أو لاغب[3]». فأي عوز هذا الذي يجعلهم ينتظرون غذاءهم وكساءهم ليأتيهم من بلاد الروم ؟ ! فهل يمكن أن يكون هذا خاليًا من السخرية ؟ ولماذا الجبال ؟ ! وأي شيءٍ فيها ؟ ولماذا لا يكون غذاؤهم من أرضهم الخصبة، وفيها أرض السواد التي ملأت الدنيا خيرًا ؟ ولماذا حجارة الروم ودروبهم ؟ !!

* * *

وربما كانت مبالغات أبي العلاء بابًا للنقد الأدبي وليس فقط الاجتماعي أو السياسي ، وقد تكون في نفس الوقت بابًا يدلف منه أبو العلاء لتفريعاته التي تلهيك عن غرض الرسالة ، والحق أن هذه التفريعات أو هذا ما يغلب على ظني ، هي لب الرسالة ، وغاية في ذاتها أحيانًا ، ومثال ذلك ما أنت واجده في رسالة الجن للنكتي

---

(١) انظر فصل : نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها ، من هذه الرسالة ، ص ٢٣١ .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٧٩ – ٨٠ .

(٣) زف النعام : ريشه ، الساغب : الجائع ، لاغب : متعب .

البصري ، وهي رسالة تحضر فيها المبالغة العلائية بمختلف صورها وأفانينها ، حتى أنه لم يكد يخلو موضوع من الموضوعات التي طرقها أبو العلاء فيها من نفس المبالغة ، وهي تتوزع بين مدح للقصائد التي بعث بها الرجل لأبي العلاء وموهبته فيها ، وعتاب لأنه أخطأ في اسمه وكنيته ، وذكر لفوائد الغربة ، ووصف لمشاق الرحلة ، وهو يتناولها في مئة وإحدى عشرة صفحة ، حيث يحلل كل موضوع منها تحليلاً بالغًا ، ويمتد نفسه فيها طويــلاً ، فهي ثاني رسائل أبي العلاء طـولاً ، التي هي على الترتيب (رسالته في عزاء خالــه ، ثم رسالــة الجـن ، ثم رسالة المنيح ، ثم رسالة الإغريض) .

ولطولها فإنني سأكتفي باستقراء بعض أجزاء الرسالة فقط،حتى أوضح كيف كانت المبالغة منفذًا لتفريعات أبي العلاء ولعرض آرائه النقدية . ويبدأ أبو العلاء هذه الرسالة بالترحيب بكتاب الشيخ(المرسل إليه)، والثناء من ثم على ما بعثه من نثير ونظيم، ثم يأخذ في مدح بيان الرجل ويشبهه تارة بجرير، وتارة بالفرزدق حتى يخلص لقوله[1] : « فَلَيت شعْري من يَقُولُ المنظومَ في خَاطِرِه ؟ ! أَجِنيٌّ مَرَدَ [2]؟ أم مَلَكٌ بالعبَادَة تَفَرَّدَ ؟ قَدْ حِرْتُ في ذَلِك ، خَلَدُهُ مَأْهُولٌ بالقُرْآنِ فَلاَ يَسْلُكُ عِفْرِيتٌ [3] في صَدْرِه ، والملائِكَةُ لا تَنْطِقُ بمثل شِعْرِه » .

فهذه النفحة العلائية هي بداية موضوع يطول، يتحدث فيه أبو العلاء عن الجن وعلاقتهم بالشعراء، متخذًا من هذه البداية ومن هذا التساؤل ذريعة ليدلف إلى هذا الموضوع الذي طالما تحدث فيه الناس، مدليًا برأيه ولكن بخفاء،ناسجًا قصةً خيالية، متكأً على بعض الأخبار الأدبية، منميًا لها . فهذه الحيرة في كون الملكة التي تقف خلف هذا الشعر العظيم ملائكية المصدر أم هي من وحي الجن ؛ لأنها لا يمكن أن تكون بشرية – هي مبالغة أبي العلاء التي امتد بها نفس الحديث في هذا المجال، فتراه يقول بعد تساؤله السابق[4] : « ولا نعلمُ أحدًا روى شعرًا عن الملائكةِ ، فأمَّا الجنُّ فقد وردَ عنها ما يعلمُهُ ، منه أنَّ كثيرًا من أصحابِ الحديثِ رَوَوْا أن الجنَّ

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٢) مرد : بمعنى عتا .

(٣) عفريت : العفريت رئيس الجن الخبيث المنكر الداهية .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٦٥ .

نَاحَتْ على عُمَرَ بن الخَطَّابِ ... » .

هكذا يسلسل أبو العلاء المعارف الأدبية أدبًا وبيانًا راقيًا، فينتقل من هذا مستعرضًا بعض ما روي عن الجن، أو عن الشعراء في ذكرهم، وبعض الأخبار التي تؤيد تلبس الجن بالشعراء .

ثم أورد قصة لا ندري ما إذا كانت وليدة مخيلة أبي العلاء أم أنها بالفعل من الأخبار الأدبية، وهي عن جني ابن دريد ، العالم اللغوي الشهير ، ولا يستبعد أبو العلاء أن يكون جني ابن دريد هذا هو عينه الجني الذي علق بصاحبه النكتي؛ لأنه يذكِّره بابن دريد – رغم ما بينهما من زمن متطاول – وتبريره لذلك بأن أعمار الجن طويلة « حتى إن الواحد منهم يكون قد لقي نوحًا ويلقى النبي صلى الله عليه وسلم » ، وأي مبالغة هذه ؟ ! يقول في هذا الجزء من كلامه[1] : « فَإِن كانَ الشاعرُ منهم (أي من الجن) ينتقلُ من رَجُلٍ إلى رَجُلٍ، فيجوزُ أن يكونَ قد انتقلَ إليه أَدَامَ اللّهُ عـزَّه صَاحِبُ النَّابِغَةِ أو الكِنْدِيِّ[2] ، فـمـا ذَلِكَ بِبَدِيعٍ ولا بَدِيٍّ[3] ، وقـد مَرَّ في أَسْفَارِه بالمَوْصِل(موطن جني دريد كما في الرواية التي ذكرها أبو العلاء) وأغلب ظني أن أبا زَاجِيَةَ (اسم جني ابن دريد) عَلِقَ به ، ورَغِبَ في صحبتِهِ ، لأنه ذَكَّره بِصَاحِبِهِ الأَزْدي » .

وهذا في حقيقته امتداد للنزعة الخيالية في الأدب العربي ، والخيال العربي متأثر بالفيافي والمفازات والخرائب ، وما يمكن أن يوجد فيها من جن وغيلان .

وأبو العلاء يستغل هذا المخزون المعرفي ويعرضه بطريقته الخاصة ، وهو في هذا الجزء يفترض بأن جني النابغة أو الكندي قد تلبَّس بصاحبه النكتي، فهو بهذا يفترض في شعره الذي بعثه إليه أن يكون بنفس جودة شعر النابغة صيرفي الشعر العربي، أو بجودة شعر امريء القيس ، ملك شعراء العرب قاطبة ؛ ذلك أنه افترض كون مصدر شعره وشعرهما واحد ، فقد صدرا عن نفس العفريت من الجن ، فهو يجعله بنفس المنزلة ، وفي تسوية شعره بشعر هؤلاء الفحول مبالغة أي مبالغة بله

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٧١.

(٢) النابغة : هو النابغة الذبياني ، الكندي : امرؤ القيس .

(٣) بدي : أي عجيب .

ما فيها من هذه الصورة الخيالية المجاوزة للواقع ، التي يبقى فيها الجني متلبثًا بعد وفاة صاحبه ، باحثًا عن آخر قُرابة خمسة قرون من الزمان أو أكثر ، حتى يقع على النكتي . وهذه من مبالغات أبي العلاء التي يدرجها أثناء تحليله لأفكاره ، الذي هو في حد ذاته مبالغة ممتدة !!

والعجيب أن أبا العلاء هنا ينزل بصاحبه من علياء الكندي والنابغة ليعود فيشبه ملكته وشعره بشعر ابن دريد العالم اللغوي .

وقد رأينا هذا النزول بالمعنى المبالغ فيه من قبل – وقد وجدنا له هناك توجيهًا ما – وسوف نراه في نموذج آخر فيما سنعرض له فيما بعد . فهل هذا نوع من التقاء خصوصيات أبي العلاء بخصوصيات المتنبي ؟ خاصة أن المبالغة حاضرة في شعر المتنبي كل الحضور – كما هي في بيان المعري – يقول ابن رشيق[1] : « فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوًا ، وأبعدهم فيه همةً ، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتًا واحدًا ... » ، وقد ذكر أن ذلك في سوس طبعه بقوله [2]:« ... على أن في قول أبي الطيب بعض الملاحة، والمخالفة لطبعه في حب الإفراط، وقلة المبالاة فيه ... » وهو ينعى عليه كما أسلفنا أسلوبه الذي هو شبيه بأسلوب أبي العلاء فيما مضى، عندما يكون بين مبالغتيه بون شديد ، وبعدٌ ما ، فمن ذلك أنه نقد قوله[3] :

« كأني دحوت الأرض من خبرتي بها   كأني بنى الاسكندرالسد من عزمي

فشبه نفسه بالخالق – تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ، ثم انحط إلى الاسكندر، وربما أفسد أبو الطيب إغراقه هكذا، ونقص منه بما يظنه إصلاحًا له» .

وليقيننا أن خصوصيات اللسان أو البيان هي في حقيقة أمرها خصوصيات نفس وفكر ، لذا لا أرى أنني تجاوزت عندما قرنت خصوصيات المتنبي في شعره بخصوصيات أبي العلاء في نثره ، فهي في النهاية خصوصيات فكر المتنبي وخصوصيات فكر أبي العلاء ، فهل نستطيع أن نقول بأن الذي بين أبي العلاء وتراث المتنبي هو تجاوب فكري أكثر من كونه تعصبًا أدبيًا ؟ ! أو أن نقول بأن

(١) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة ، ٦٣/٢ .
(٢) السابق ، ٦٥/٢ .
(٣) السابق ، ٦٣/٢ .

الرجلين تجمعهما الرغبة في البحث عن الكمال ، ودقة ورهافة الحس التي لا تمكنهم إلا من تصور المعاني دومًا في نهاياتها ؟ !

ومن ثم الجسارة على مثل هذا التصوير ، والخروج بها عن حدود العقل إلى الإحالة المفرطة ؟ ! ربما !!!

ولكن ينبغي ألا نغفل أمرًا بين المبالغة في كلام أبي الطيب والمبالغة في كلام أبي العلاء ، وهو أن أبا الطيب يبلغ الذروة في المبالغة إذا ذكر نفسه وتكلم عنها ، والمبالغة في كلام أبي العلاء ليست مبالغات في أوصاف نفسه إلا إذا راعينا الضد، لأن أبا العلاء يبالغ في تصغير نفسه مبالغة شديدة ، وأبو الطيب يبالغ في تعظيم نفسه مبالغة شديدة !!

والحق أننا مع ما نجده بين بعض مبالغات أبي العلاء من بون إلا أنها لا تكون فجة كتلك التي لدى المتنبي ، فمن السهل أن نجد لها توجيهًا ما –وهذا لا يمنع التقاء الرجلين في هذه الخصوصية–فمثلاً فيما سبق نجد أن ذكره لشيطان الكندي والنابغة كان معترضًا بين إيراده لقصة أبي زاجية وابن دريد ، وافتراض كون أبي زاجية قد اتصل بالنكتي في مروره على الموصل ، وكأن هذا من أبي العلاء معاودة لفكرته السابقة ليس إلا ، أضف إلى ذلك أنه بنى مبالغته الأولى على قوله : « **فيجوز** أن يكون قد انتقل إليه ... صاحب النابغة أو الكندي » ، بينما بنى الثانية على قوله : « **وأغلب ظني** أن أبا زاجية علق به ... » ، فارتفع اليقين لديه مع المبالغة الثانية كما ترى ، وهذا ربما يُعادِل كفتي المبالغة في كلٍ ، أو كأن الثانية نَقْضٌ أو عَوْدٌ عما جاء في الأولى ، وكأنه حديث نفسٍ ترجح وتخمن ، فتضع الجواب تلو الجواب ، والافتراض تلو الافتراض ، فيجوز في التصور أن تعود عن أحد افتراضاتها لتُغَلِّبَ عليه غيره، وهذا بسياق أبي العلاء أشبه؛ لأنه افتتحه بتساؤل عن حقيقة أو مصدر ملكته الشعرية ، ثم أجرى كلامه كله مجرى من هو جاهدٌ في البحث عن إجابة لهذا التساؤل .

وإذا صح هذا ، فإنه يدعو لإعادة النظر في كل ثناء أبي العلاء على بيان النكتي الذي يمتد بطول الرسالة تقريبًا ، فهو في الجزء التالي لهذا الجزء يفضل بيانه على بيان كل الشعراء تقريبًا قدماء ومحدثين ، بقدرته على تجاوز كل ما وقعوا فيه من عيوب الوزن والقافية ، بما فيهم فحول الشعراء ، وعلى رأسهم النابغة

والكندي . بينما نجده هنا يغلب الظن بأنه في مرتبة ابن دريد الشعرية على أن يكون في مرتبة النابغة والكندي . فهل نتلمس في انصباب مديحه في هذا الجزء على أوزان شعره فقط دون غيرها ما يؤيد هذا ؟! وأنه بشعر لغوي أشبه لا بشعر الفحول ، فيكون ثناء أبي العلاء هنا ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب .

ولنتأمل نسق هـذا الجزء في عجالـة ، حيث يفتتحه بتساؤل كما افتتح سابقه يقول[1] : « وأَنَا أُقَسِّمُ الأمورَ في كيفيةِ نظامهِ للأَوْزَان ، أَيَعْرُضُ أفانين القَرِيض على ضُرُوبِ الأعاريض[2] ، أم يقُولُها بغريزةٍ غير مُؤْتَشِبَةِ النَّجيزَة [3] ، فإن كَانَ يبني البيتَ كما بناه أهـلُ الجاهليَّة بِطِبَاعٍ [4]، لا يعـرفُ مكانَ تَوْجِيهٍ يُذكَرُ ولا إشْبَاع[5] ، فكيف نَافَى العِيَّ ، ولم يَكُفّ السُّبَاعي[6] وقد كَفَّتْه فحولُ الشعراء ؟ ! » وهو يريد أن يقول : كيف بنى شعره فيما يخص الأوزان (انظر الأوزان فقط)، أمعتمداً على طبع في ذلك أم على دراية ؟ !

وهذا التساؤل يعني شدة التعجب بقدراته حتى حَارَ فيها ، فهذا بداية نفس المبالغة هنا ، ثم يعقب بأن هذا التساؤل إنما كان ، لأنه لو كان بناه على طبع كطبع الجاهليين فكيف نافى كل العيوب وقد وقعوا فيها وهم من هم ؟ !

وتأمل هذا التساؤل الذي ظاهره مبالغة شديدة لتفضيله بذلك عليهم، وبهذه المبالغة يدلف أبو العلاء إلى موضوع امتد ، وامتداده مبالغة علائية في التحليل قلما تجد لها نظيراً، وقد بلغ به خمساً وثلاثين صفحة من رسالته، يستعرض فيها عيوب القافية وعيوب الأوزان ومن وقع فيها من السابقين المبرزين ، ناصاً على أبياتهم،

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٧٢ – ٣٧٣ .

(٢) الأوزان : أوزان الشعر ، وأفانين القريض : أي أنواع الشعر ، والأعاريض : جمع عروض وهو اسم للجزء الأخير من الشطر الأول .

(٣) غير مؤتشبة النجيزة : أي غير مختلطة الطبيعة .

(٤) الطباع : هي السجية التي جبل عليها الإنسان .

(٥) التوجيه : حركة الحرف الذي قبل الروي المقيد، الإشباع : حركة ما بين ألف التأسيس وحرف الروي.

(٦) العي : العجز ، والسباعي من أجزاء العروض المركبة من سبعة أحرف نحو مفاعيلن ، وكفه حذف النون فيصير مفاعيل .

ذاكرًا لها بشكل ينبيء عن فليٍّ للشعر العربي في كل عصوره من الجاهلية وحتى زمانه، ومعرفة عميقة به وبأسراره، يعرض ذلك في سياق شبيه بالجزء الأول من الرسالة إلا أنه هناك يعرض احتمالات وينسج قصصًا ، وهنا يتناول العيوب عيبًا عيبًا فيقول : كيف ترك هذا العيب وقد وقع فيه فلان في قوله ، وفلان في قوله ، وهما من هما ، ثم ينتقل إلى عيب آخر وهكذا .

من ذلك ما تراه في حديثه عن القبض(1) بعد حديثه عن الكف الآنف الذكر (2): « فكيف نافى العي ولم يكف السباعي وقد كفته فحول الشعراء ، أليس أكثرُ الرواةِ يُنشدُ قولَ امرىءِ القيسِ على الكفِّ :

أَلاَ رُبَّ يومٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ ولا سِيَّما يَوْمٌ بِدَارَةَ جُلْجِـلِ

... وقولُ حاتمٍ الطائيِّ :

إِذَا رَحَلاَ لم يَجِدَا بيتَ ليلـةٍ ولَمْ يَلْبَسَـا إلاَّ بِجَادًا وخَيْعَلاً

... وهَبْهُ اجتنبَ الكفَّ ولم تبعثْهُ إليه الشِّيمةُ المركبةُ كما اجتنبَه كثيرٌ من المتقدمين فلم يُوجدْ في أشعارهم(هذا هو الفلي الذي أخبرتك عنه)، فكيفَ سَلِمَ من القَبْضِ الذي هو للكفِّ مُعَاقِبٌ إن ذلك لَحِسٌ ثَاقِبٌ ، قَلَّ ما تسلَمُ قصيدةٌ جاهليةٌ بنيتْ على الطويل من أن يستعملَ فيها قبضُ السُّبَاعي (وهذا أيضًا منه ينبؤنا عن معرفة دقيقة بمواطن العيب في الشعر الجاهلي، وطول تأمل له حتى تسنى له أن يصدر مثل هذه الأحكام) ، أمَّا امرؤُ القيسِ فكثيرُ الاستعمالِ له ، وأمَّا النَّابغةُ وزهيرٌ وأعشَى قيسٍ فيستعملونَ ذلكِ دون استعمالِ الملكِ الضِّلِّيلِ (ويبدو أن أباالعلاء قد تعرف على خصوصيات الشعراء حتى مع أوزانهم ، ولم يتوقف عند هذا الحد بل تجاوزه لعمل موازنات إحصائية لتمييز مذاهبهم) ... » .

وأنت ترى ما في هذه الرسالة من معارف أدبية ولغوية سلسلها في بيانه أدبًا راقيًا ، وهذا من خصوصيات لسانه وفكره ، وهو في استعراضه لهذه العيوب لا يخلو حديثه من تعليقات أحيانًا تنبيء عن رأيه النقدي الخاص في مثل هذه العيوب، أو في روايتها عن بعض الشعراء، أو ربما كان له فيها (الرواية) توجيه خاص

(1) القبض : هو حذف الحرف الخامس الساكن من الجزء .

(2) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٧٤ – ٢٧٦ .

يخرجها عن نطاق العيب إلى غير ذلك من أمور .

تأمل قوله[1] : « ولستُ أحمدُهُ على مُجَانَبَةِ إقْـوَاءٍ أَوْ إكْفَاءٍ [2] ، ولا أعُـدُّ ذلكَ في الغَرِيزَةِ من الوَفَاءِ، لأنّـهُ من عَرَفَ حروفَ المعجَمِ من شعراءِ العَرَبِ والعَجَمِ، وَجَبَ عليهِ أن يَهْجُرَ ذلكَ» فهو بذلك يُنزل من يقع بهما منزلة من لم يعرف حروف المعجم، ولا فضل في نظره في تحاشي الوقوع بهما ، وهـو فـي وسط الرسالـة يجيب على تساؤله الذي افتتح به هذا الجزء فيقول[3] : « وأَحْسَبُه جَمَّـلَ اللّـهُ به قَدْ جَمَعَ بين طَبْعٍ كالبحرِ الخِضَمِّ[4] ، وعلمٍ اكْتَسَبَه جَـمٍّ »، وهـذه الإجابة تصلح أيضًا لأن تكون للسـؤال الأول عن مـصـدر ملكتـه ، ومن هـنا ربما نضـع يدنا على رأيه النقـدي في قضية مصدر الشعر أهو الموهبة أم الإلهام ، ويبدو واللّه أعلم أنه يرى الأول .

وبهذا كانت مبالغات أبي العلاء منفذًا لتفريعاته ، ولعرض آرائه النقدية ، ولكن ليس بطريقة صريحة ومباشرة ، ولكنك تلمسـها وقد صُهِرت في صلب موضوعه، فليست تنبو عنه ، ومن الصعب أحيانًا استخراجها !!

ولا نستطيع أن نضـع عنـوانًا عامـًا للأهـداف التـي تخرج إليهـا مبالغـات أبي العلاء ، أو التي نظن أنها خرجت من أجلها ، فلكل مبالغة سرٌّ دفين لا بد وأن ينقب عنه . فمثلاً قد كنت حريصة فيما مضى أن تكون جميع أمثلة هذا الجزء من موضوعٍ واحد ألا وهو الثناء ، حتى يتضح كيف تتعدد تمتمات مبالغات أبي العلاء وتتنوع رغم وحـدة الموضوع ، ثم إنه لا يمكننا وإن كان ما سبق كله قد خرج إما لسخرية – على ما نرجح – أو نقدٍ ، أيًا كان نوع هذا النقد ، أن نقول بأن ذلك مضطرد في كل ثناء بالغ فيه أبو العلاء ، فالثناء المبالغ فيه حاضر في رسائله لأخواله ، وهو معهم أبعد ما يكون عن السخرية ، ولكن إن كان هناك ما ينبغي أن ألفت إليه ، فهو أن ثناءه معهم لا يمتد امتداده مع غيرهم، ولا يصل إلى حد الإحالة

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٩٦/٢ .

(٢) الإقواء : اختلاف حركات الروي بالرفع والجر ، والإكفاء : أن يخالف الشاعر بين قوافيه فيكون بعضها ميمًا وبعضها نونًا ونحو ذلك .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٤٠٩/٢ .

(٤) الخضم : كثير الماء .

والغلو بل هي مبالغات أقرب للقبول ، وهذا ما يرجح القول بأن الإطالة في المبالغات والإيغال فيها لا يخلو من نَفَسِ السخرية الذي يَتَكَتَّمُ كثيرًا في أدب أبي العلاء .

* * *

وإن كنت فيما أسلفت قد حددت الموضوعات التي تأتي مبالغات أبي العلاء أكثر ما تأتي فيها فإن ذلك لا يعني أنه لا يبالغ في غيرها، فهناك مبالغات له شذت عن هذه المواضيع رغم كثرتها ، كما رأيت من ذلك مثلاً وصفه توديعه للأدب من رسالة غير تامة يقول الناسخ في بدايتها « وكتب في جملة الجواب الذي ذكر السؤال عنه عرام »، وهي رسالة ذات طبيعة خاصة جدًا يكتنفها الغموض ولغتها قدت من معدن الأمثال في الأغلب يقول[1] : « أَلَمْ يَبْلُغْكَ أَدَامَ اللّهُ عِزَّكَ أنني دَفَنْتُ الأدبَ إلى جانب كُلَيْبٍ[2] ، وَعَقَدْتُهُ بأُذُن الضُّبَيْبِ[3]، فأَخَذَ واديَ العُنْصُلَين، واقْتُسِمَ بين مُنْصُلَيْنِ[4] ، وفارقته فراقَ الوَكْرِيِّ الزَّانَ ، والبكْرِيِّ أُخْتَ هِزَّانَ[5] » .

وهو يقصد بكلامه هنا كليب وائل وقصة مقتله والأخذ بثأره في حرب من أطول حروب العرب « حرب البسوس » مليئة بالأمثال ، وكأنه يستحضرها بما فيها من فقد وضياع وتشتيت لقبيلتين من أكبر قبائل العرب، ثم إن كليبًا قُتل غدرًا ، فهل غدر أبو العلاء بأدبه أيضًا ؟ ! لأنه يجعل قبره مجاورًا لقبر هذا الرجل ، أم أنه تخير أعزَّ العرب « أعز من كليب وائل »، ليكون مجاورًا لأدبه في مثواه الأخير ؟ ! وفي دفن أبي العلاء للأدب وهو من هو ، ثم في دفنه له بجانب كليب الذي أصبح رمزًا للفناء والفقد مبالغة . ولكن مبالغة أبي العلاء هنا تظهر أكثر في إلحاحه على هذه الفكرة (وهي توديعه للأدب) ، فالصورة الماضية التي جعل فيها الأدب فقيدًا

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٥٥ – ٣٥٦ .

(٢) يقصد به كليب وائل مضرب المثل « أعز من كليب وائل » .

(٣) الضبيب : تصغير ضب ، الحيوان المعروف .

(٤) العنصلين : واد بين اليمامة والبصرة ، ويقال للرجل إذا ضل أخذ طريق العنصلين ، منصلين : أي سيفين .

(٥) الزان : التخمة لأن ذوات الأوكار لا يحصل لها تخمة أبدًا ، والبكري : نسبة إلى بكر بن نزار ، وهزان : قبيلة من العرب ، ويرى د. عبدالكريم خليفة أنه ربما عنى بذلك الأعشى وأن يكون قد تزوج بزوجة من بني هزان ثم طلقها .

على سبيل الاستعارة المكنية، أو ربما موؤداً في دفنه إياه –لم تكفه ، فيضيف بقوله: « وعقدته بأذن الضبيب ، فأخذ وادي العنصلين ، واقتسم بين منصلين »، والضب مضرب المثل في التيه ، تقول العرب : « أضل من ضب » ، وقد عقد أبو العلاء أدبه في أذنه حتى يتيه معه فلا يجده، ولكن كأن هذا لا يكفي فيلح أبوالعلاء على هذه الصورة، ويختار بنفسه الطريق الذي أخذه هذا الضب، فيقول : « فأخذ وادي العنصلين » ، وهذه الجملة معطوفة على سابقتها بالفاء ، فبمجرد أن عُقد أدب أبي العلاء بأذن الضب أخذ الضب هذا الطريق ، فضب أبي العلاء الحامل لأدبه لا يضل فقط ، وإنما يضل في مضلة في متاهة ، فكثف هكذا معنى الضلال الذي ألمح إليه بالصورة الأولى ، وأظهره بظهور المثل في الجملة الثانية ، ثم يعطف بجملة ثالثة لتحدد المصير المشئوم لهذا الضب المسكين الذي تخيره له أبو العلاء ، حيث يقول : « واقتسم بين منصلين » فكأن أبا العلاء رغم كل ما سبق رأى بأنه بقي هناك أمل في وجود أدبه أو عودته ، ورغم ضآلته أراد القضاء عليه ، برسم هذه النهاية لضبه بأن يقتسم بين سيفين ، وبإمكان سيف واحد أن يقتله ، ولكن نفس المبالغة المسيطر هنا على أبي العلاء جعلها سيفين وليس سيفاً واحداً ، فهو لا يريد له فقط أن يفنى أي فناء بل فناءً قاطعاً للآمال ، وهنا نصل إلى معنى الفناء الذي يعيدنا إلى الجملة الأولى والدفن فيها ، وكانت هذه الجملة في بدايتها وكأنها عَودٌ عن فكرة الدفن التي ابتدأ بها أبوالعلاء كلامه ، ولكن الحق أنها تعود إليها ، وكأنها صورة جديدة للمعنى الأول، فلا كبير فرق بين أن يدفن الأدب،أو أن يموت حامله في مضلة فيتركه ، ولا نرى أيضاً كبير فرق بين قبر كليب المجهول، وطريق العنصلين .

وإن كان المعنى أظهر وأقوى في الثانية كوننا قد عايشنا مراحل هذا الفناء ، ثم يقول أخيراً عاطفاً على ما سبق : « وفارقته فراق الوكري الزان والبكري أخت هزان » ، ففراق أبي العلاء للأدب لا عود بعده ، فهو كفراق الطيور للتخمة ، وكفراق الأعشى لزوجته ، وكأنه طلاق من أبي العلاء للأدب كذاك .

وهنا شيء لافت وهوإلحاح أبي العلاء على تأكيد نسبة هذه الأفعال إلى نفسه، فأنت ترى الفعل الماضي وقد اتصل به ضمير المتكلم في كل جملة (دفنته ، عقدته، فارقته)، فهو حريص كما ترى على أن هذا الفعل كان منه وبإرادته، ثم إنه كان وانقضى ، ثم أنها كانت منه الواحد تلو الآخر ، وهذا جزء من مبالغة أبي العلاء

هنا، والتي تحدوه إليها رغبة ملحة في تحليل هذه الفكرة وتوكيدها وتمكينها من نفس المخاطب، وكأنه قد ضاق ذرعًا بمثل هذه الأسئلة التي يُطالب بالإجابة عليها .

وأبو العلاء يهتم هنا كثيراً بلغته كعادته،كما اهتم بمعناه وألحَّ عليه، فترى بين (كليب ، وضبيب) سجعًا متوازيًا ، وبين (عنصلين ، ومنصلين) جناسًا لاحقًا ، وبين (هزان، والزان) جناسًا ناقصًا ، وتأمل من ثم كيف سبك أبو العلاء كلامه هنا، فهو عبارة عن ثلاث جمل معطوفة إحداها على الأخرى، الأولى تتكون من جملة واحدة « دفنت الأدب إلى جانب كليب » ، والثانية من ثلاث جمل : « وعقدته بأذن الضبيب ، فأخذ وادي العنصلين ، واقتسم بين منصلين » ، والثالثة من جملة واحدة وإن كانت قد امتدت قليلاً بالعطف : « وفارقته فراق الوكري الزان ، والبكري أخت هزان » . فهذه خمس جمل تتآزر لتكون في مجملها المصدر المؤول من أن المصدرية ومعمولها في محل فاعل للفعل (يبلغك) ، وهذه لحمة أسلوبية قوية ، فكل هذه الجمل وكأنها جملة واحدة ، تصب في خدمة معنىً واحد ، وهو تبرؤ أبي العلاء من أن يكون له صلة ما بالأدب بعد .

وهناك أمثلةأخرى لمبالغاته التي أتت خارجة عن نطاق الموضوعات التي ذكرناها في بداية الفصل شبيهة بهذا السالف .

وبصفة عامة فخيال أبي العلاء وتشبيهاته في أي موضوع كانت لا تخلو من نفس للمبالغة يعلو أو يخفت سواءً امتدت هذه التشبيهات أم لم تمتد .

وكثير من مبالغات أبي العلاء تأتي على ذلك الضرب الذي امتدحه ابن رشيق وقال إن المبالغة تحسن معه يقول(١) : « وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بـ : كاد أو ما شاكلها نحو : كأن ، ولو ، ولولا ، وما أشبه ذلك ... » .

وقد رأيت فيما مضى كيف كان أبو العلاء حريصًا على ظهور أداة التشبيه في أغلب تشبيهاته التي بالغ فيها ، أما في استخدامه لـ (لو) وما شابهها، فمثال ذلك ما تراه في نحو قوله من رسالة بعث بها إلى خاله في شأن عجوز كانت تخدمه فاستدعاها (خاله) إلى حلب لظبط منزله، فاعتل أخوها فأرادت الخروج إليه، وقد لحقت أبا العلاء علة فأظهرت (لخاله) أن خروجها إلى أبي العلاء، وأنه محتاج

---

(١) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة ، ٦٤/٢ .

إليها، وفي هذه الرسالة يتنصل أبو العلاء من هذه التهمة التي ألصقتْها به ، وأن يكون قد استدعاها لخدمته ، وأنه بالفعل قد ألمت به علة ، ولكنه كان أغنى عن هذه العجوز التي هي بحاجة إلى من يعينها فهو يقول[1] :« وحياتُهُ الكريمةُ عليَّ لو أنَّ بي حُمَّى زيدِ الخيلِ ، أو غُدَّةُ عامرِ بن الطُّفَيلِ[2] ، لما رأيتُ أن اسْتَصْرِخَ بالشَّوَابِ من ذواتِ البُرينِ[3] ، فكيف بعجوزٍ في الغابرين ؟ ! » وهذه مبالغة وهو يستخدم معها (لو) كما ترى ، وأيضًا يقول منها [4]: « ولو قَدرْتُ لحَمَلْتُ إلى منزلِهِ أمَّ عمروٍ الملك بسمْطَيْها [5]، أو مَارِيَّةَ الغَسَّانيَّةَ بِقِرْطَيْهــا[6] ، ليكُونَا في دارِهِ خَادِمَتَيْنِ، وحَسْبُهُ بِشَرفٍ هاتَيْنِ » .

وسوف نكتفي بشرح هذا المثال من هذه الرسالة وقس عليه سابقه فيما نذكره فيه ، فتأمله ، فأي مبالغة هذه حتى تكون هند ومارية أشهر نساء العرب ، وأكثرهن كبرياءً وأنفةً حتى أصبحتا في ذلك مضرب المثل - خادمتين في بيت خاله ، بله كونهما من الأموات ومن يحي الأموات غير الحق تعالى ، وترى حرص أبي العلاء في بناء كلامه هنا على وجود (لو) وهي حرف امتناع لامتناع ، فلا يخرج كلامه عن حد التمني مهما بلغ في إغراقه ، ولا حجر على الأماني :

* ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل *

ومن ذلك أيضًا قوله من رسالة بعث بها إلى بعض الشعراء وهي على قصرها فيها ثناء وصفة شوق وسلام ، بها جميعًا نفس من المبالغة ، ويبدو أن الرجل قد

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٩٧ .

(٢) زيد الخيل : فارس من فرسان العرب جاء يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصيب بالحمى في المدينة وتوفي ، عامر بن الطفيل : زعيم بني عامر في زمن الرسول ، جاء بزيارة للرسول ولكنه رفض أن يسلم ، وتوفي بمرض شبيه بالمرض الذي يصيب الإبل ، والغدة : كل عقدة في الجلد أطال بها شحم .

(٣) ذوات البرين : أي ذوات الخلخال .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٩٨.

(٥) أم عمرو الملك بسمطيها : يقصد بها هند أم عمرو ملك الحيرة .

(٦) مارية الغسانية هي ابنة أرقم بن ثعلبة الحميري من ملوك اليمن ، كان لها قرطان في كل قرط جوهرة كبيضة الحمامة لم ير مثلها قط، فأهدتها إلى الكعبة، فصار يضرب بهما المثل في التنافس.

بعث لأبي العلاء بشعر فيقول أبو العلاء في ذلك[1] : « والذي بَيْني وبَيْنك ... لا يُخَافُ انْقِرَاضُهُ فيُجَدَّدُ بنِظَامِ القَرِيض، وأَحْسَبُكَ إنِ اسْتَطَعْتَ فَمَاتَحْضُرُ القِيَامَةَ إلا بِأَبْيَاتٍ حِسانٍ ، تَتَقَرَّبُ بِها إلى خَزَنَةِ الجِنَانِ [2]... » .

وهو يبني كلامه هنا على الفعل (حسب) ، وهو من أفعال القلوب التي تفيد الرجحان ، ثم يعقب عليه بقوله (إن استطعت) ، ووضعه كلامه هكذا على معنى الشرط (إن استطعت ذلك) يخرج كلامه عن حد الغلو والإحالة ، بالإضافة إلى أن المبالغة تحسن وتصبح مقبولة مع وجود الفعل (أحسب) كما أسلفنا .

وأبو العلاء هنا يتخيل صاحبه لفرط تعوده تقدمة الشعر بين يدي حاجته أنه لو قدر لقدم به يوم القيامة كشفاعة يتقرب بها إلى خزنة الجنة ليدخلها ، وهذا فيه من المبالغة التي تتاخم حدود السخرية ما لا يخفى ، وكأن وراءه رفض من أبي العلاء لهذا المسلك لدى الشعراء ، وأن يُنزَل بقيمة الأدب والبيان فيقال في كل مناسبة وللتافه من الحاجات ، ويغدو بذلك وسيلة للتكسب ، وهذا لا يبعد عن نهج أبي العلاء في حياته وأدبه الذي تَرَفَّع به عن أن يكون وسيلة يتقرب بها لأحد ، أو يكتسب بها غرضًا دنيويًا .

وفي هذا الخيال ما يذكرنا بأجواء الغفران وابن القارح مع خزنة الجنة ، وكما أن ابن القارح كان يدعي النسك في أواخر حياته ، فإن صاحب أبي العلاء هنا قد رغب في النسك ، يقول في ذلك [3]: « وقد حدَّثني الثِّقةُ أنكَ رَغِبْتَ في النُّسُكِ ، وغَدَوْتَ بحبلِ الثِّقةِ شَدِيد التَّمَسُّكِ ، وأَصبَحْتَ كما قَالَ أعشَى بكر :

فإنَّ أَخَاكِ الَّذي تَعْلَمينا ليالينا إذْ نَحُلُّ الجِفَارَا .. [4]

تَبَدَّلَ بعدَ الصِّبَى حِكْمَةً وقَنَّعَهُ الشَّيْبُ مِنْه خِمَارَا .. [5]» .

ويبدو أن ذلك أيضًا بعد كبر سنه– كما كان حال ابن القارح –وهذا يظهر من

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٢) الجنان : جمع جنة وهي الفردوس ، وخزنتها : أي حراسها .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٣٠ .

(٤) الجفارا : ماء لبني تميم بنجد .

(٥) قنعه : ألبسه القناع ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها .

الأبيات التي استشهد بها، فهل نستطيع أن نقول بأن هذه الرسالة بذرة غفرانية؟ !

لن يتسنى لنا ذلك إلا إذا تمكنا من معرفة تاريخها بالنسبة لرسالة الغفران ، وبصفة عامة ، فإن أفكار أبي العلاء كما أسلفنا ، تتجاذب وتتخاطب ، فتتشابه عند تشابه الظروف التي ترد فيها والأحوال .

* * *

وأبو العلاء يذكر المبالغة في رسائله ، في رسالة الجن التي تحدثنا عنها فيما مضى ، وذلك بعد أن أخذ على النكتي مدحه له بما ليس فيه – كما يرى أبو العلاء– قال[1] : « وقد مَدَحني بما ليسَ فيَّ ولكنَّه في ذلكَ على مَذْهَبِ الخُطَباءِ والشُّعَرَاءِ ، وزَعَمَ صاحبُ المَنْطقِ في كِتَابهِ الثَّاني من الكتبِ الأربعة[2] أن الكَذِبَ ليسَ بقبيحٍ في صِنَاعَةِ الشِّعر والخَطَابة، ولذلك اسْتَجَازَتْ العربُ أن تقولَ فَتُفْرِطَ ، وتُسْرِفَ في الشَّيء فَتُغْرِقَ ، قال الشاعر في وصف السيف :

ترى ضَرَبَاتِهِ أبداً خَطَايَا   إلى أنْ يَسْتَبِينَ له قَتِيلُ

ورغم قوله زعم الذي يوحي بعدم إيمانه بهذا الرأي وكذلك تعبيره عن المبالغة بالكذب، إلا أنه ربما جرى في تسميتها به مجرى العرب فهم يسمون المبالغة كذباً ، فقد روي عن النابغة قوله، وقد سئل من أشعر الناس فقال[3]: « من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه » ، وذلك منهم بالنظر لمطابقتها للواقع ، وأبو العلاء بصدد هذا هنا ، فهو ينكر على صاحبه مبالغته في مدحه ثم يعود ليعتذر له بهذا الزعم ، وربما لو كان هناك رفضٌ ما خفي في هذا الرأي من قبل أبي العلاء ، فهو لذلك النوع منها الذي يخلع على الرجل ما ليس فيه ، والمهم أن ظاهر كلام أبي العلاء على أنها جائزة في عرف النقاد وأنها مذهب الخطباء والشعراء ، وفوق ذلك أنها من طبع

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٤٤٢ – ٤٤٣ .
(٢) يريد به ابن السكيت .
(٣) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة ، ٢/٦٢ .

بيان العرب الذي استساغته أنفسهم ، وكلامه صريح في ذلك ، إلا أننا رغم هذا نجد من نقده لأبيات البحتري ما يوهم رفضه للمبالغة ، واستهجانه إياها ، حيث يقول معلقًا على بيت البحتري :

عجلت إلى فضل الخمار فآثرت　　　عذباته في موضع التقبيل

:[1] « كان في النسخة (فأثرت عذباته) وفي الحاشية (فأرسلت) ، فإذا كان من أثرت فهو من التأثير كأنه يصف مواضع التقبيل بالرقة ، وهذا **إفراط** يؤدي إلى ما ليس بحميد ، ويُخرج المعاني إلى **الإحالة** كما قال القائل :

لــو حملــت خردلــة بكفها　　　أثقلها المحمول أو أمالها

ولا خير في المرأة إذا صارت إلى هذه الحال،وإنما الرواية الصحيحة (فآثرت) من الإيثار ، **والمعنى على ذلك يلطف ويحسن** » .

فأنت تراه قد رفض رواية (أثرت) لأن المعنى سوف يخرج معها إلى **الإحالة** والإفراط ، فهل يعيب أبو العلاء **الإفراط** والمبالغة على غيره أو يرفضها في بيان غيره ويقع فيها في كثير من بيانه ؟ !

والحق أننا لو تأملنا رأيه هنا نجده إنما رفض ما ترتب عليها من إفسادٍ للمعنى « وهذا إفراط يؤدي إلى ما ليس بحميد » ، وكذلك الوضع بالنسبة للبيت الذي استشهد به، وهذا هو السبب الذي عيبت لأجله المبالغة لدى بعض البلاغيين[2] « والمبالغة ربما أحالت المعنى ولبسته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره »، بمعنى أنه لو لم يترتب على المبالغة التي تصل إلى حد الإفراط والغلو إفساد للمعنى، فهي مقبولة ولا ضير منها لدى أبي العلاء .

وهذا إن دل على شيء دل على أن خلف مبالغات أبي العلاء عقلاً قد رازها جيداً، واختارها حين يلطف المعنى معها ويحسن، فلم تكن مجرد عبث يُخرج المعاني عن حدودها دون تصور سليم، وإحساس قوي بمعناه .

(١) عبادة ، السعيد السيد : أبو العلاء الناقد الأدبي ، ص ٢٠٢ .

(٢) القيرواني ، ابن رشيق : العمدة ، ٥٣/٢ .

الصورة الثالثة : المبالغة بالتعبير عن التأبيد :

من صور المبالغة في بيان أبي العلاء اللافتةالتعبير عن الدوام الذي لا ينقطع ، وهـــو من المعاني التي كلف بها أبو العـلاء المعري ، وكلفه هـذا يظهـر في تكراره للمعنى في كثير من رسائله ، وفي محاولة ابتكاره لقوالب بيانية جديدة للتعبير عن هذا الدوام .

وهو في ذلك يُظْهـر عزوفًا تامًا عن تلك القـوالب المشـهورة في التـعـبيـر عنه ، وهذا في حـقـيـقـة الأمـر ديدن أبي العـلاء في بيـانه - بصـفـة عـامـة - العـزوف عن المألوف وصنع الخاص . فقد رأيناه في فصل الأمثال مثلاً يصنع أمثاله الخاصة - كما رجحت - في سياقات بأكملها ، ويعزف عن الطريقة المألوفة في إيراد المثل في أثناء الكلام مؤكدًا وموضحًا ، فيقد كلامه من معدن الأمثال قدًا ، حتى يغدو المثل في بيانه للحيرة بدلاً منه للتوضيح !!

وتـراه فـي فصل الجـناس يصنع مـن الجناس التـام (سواءً منه المماثل ، أو المستـوفي) المشـتـرك اللفظي الخاص به، والذي نقبت عنه قـريحتـه مكتشفتـه من مجاهل اللغة، أو متسقطته من أخبار الأدب ، وبدلاً من أن يكون تجانس اللفظتين لديه لتجانس المعنى ، كان تجانسهما يخفي تضادًا أو مفارقةً من نوعٍ ما !!

وسوف ترى هذا المنزع الأسلوبي هنا متجليًا في هذه الصياغات المبتكرة في التعبير عن الدوام ، وهو في تعبيره عنه قد يسلك المسالك المألوفة مستخدمًا (ما) الظرفية فيكون تعبيرًا عن دوام الإثبات، أو مستخدمًا(حتى)، أو(إلى) وبذا يكون تعبيرًا عن دوام النفي ، وذلك بتعليق معناه على حدوث أمر مستحيل ، فيبدع في صنع تلك المستحيلات إما عن طريق انتظار اجتمـا ع الضدين ، أو خروج بعض الأمور عن طبائعها . أو تراه يعبر عن هذا الدوام عن طريق التصوير فيجعلها في قالب التشبيه، فيكون المشبه به أمرًا من شأنه أن يتضمن معنى الدوام - على الأقل في عرف الناس - كالتشبيه بالكواكب في الدوام مثلاً .

وأغلب نماذج هذا المبحث تظهر في إطار الدعاء ، وقد سبق أن ذكرنا أنه من المعاني التي تظهر فيها مبالغات أبي العلاء بكثرة ، وبعضـها (لا يتـجاوز الخمسة نماذج) أتى في إطار وصف سلامه .

وقد اعتمد أبو العلاء في صناعة هذه القوالب على العلوم الفقهية ، واللغوية، والنحويـة ، وأيضًا على قوانين الطبيعة وعناصرها ، وسنن الكون ، وعلى بعض الممارسات الاجتماعية التي تأخذ صفة الدوام وتبقى بقاء المجتمع الإنساني ، وعلى الأمثال أيضًا .

والحق أننا نتجاوز بمثل هذه التصنيفات، لأن أبا العلاء يمزج بين هذه الفنون التي يستقي منها قوالبه في معنى التأبيد مزجًا يجعلك تشعر أنها فن واحد ، أو أن صنعة أبي العلاء جعلتها فنًا واحداً ، حيث جعلتها تتشارب وتتقارب، فهو عندما يبدأ بالتعبير عن التأبيد غالبًا ما يعطف معنيين على بعضهما، وغالبًا ما يكون الأول منهما من فن والآخر من فن مختلف ، بل ربما تنوعت الأساليب التي يدرج بها المعنى من تشبيه، إلى تعليق للحدوث بـ(ما)الظرفية، أو بـ(حتى)في النص الواحد.

وكلٌ من هذه المعاني أو الفنون أتى في قالب مفرد كما أتى مشتركًا مع غيره، فأنت ترى الطبيعة تجتمع مع الممارسات الاجتماعية، وترى الأخيرة مع العلوم، ثم ترى العلوم مع الطبيعة .. وهكذا ، إلا الأمثال فإنها لم تجتمع إلا مع الطبيعة ولم تجتمع مع غيرها ، وأكثر هذه المعاني شيوعًا هي الطبيعة وما يستقى منها ، ومن هنا لا نستطيع أن ندرس نماذج كل فنٍ بمفردها لأن ذلك كفيل أن يبعدها عن سياقها ، وإنما ستكون دراستنا لها في إطار الرسالة الواحدة ، ولننظر كيف تسنى لأبي العلاء الجمع بينها .

من ذلك ما تجده في الرسالة التي بعث بها إلى أبي عمرو الاستراباذي أحد معارفه ببغداد بشأن استنساخ شرح السيرافي له ، وهي رسالة تتكاثر فيها معاني الدوام ، ويبدؤها بالسلام والدعاء للمرسل إليه بطول البقاء ووصف شوقه إليه ، ثم يقول بأنه قد سُرَّ بخبرسلامة أبي عمرو الوارد في كتابه الذي بعثه إلى أبي العلاء– سرور الراهب بنسكه وعبادته، وسرور العطار بمسكه ، ثم يدعو أن يديم الله هذه السلامة لأبي عمرو حتى يصير سهيل الكوكب المعروف قمرًا ، وحتى يصير شوك العضاة ثمراً يؤكل – وهذا ما لا يكون – وذلك بقوله :(1) « وسُرِرْتُ بخبرِ سلامتهِ سُرورَ الدَّارِيِّينِ أحدُهُما بِنُسْكِه ، والآخَرُ بِمِسْكِه ، أدامَها اللّهُ له حَتَّى يصيرَ

(1) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٩ .

سُهَيْلُ قَمَرًا ، والدُّرُّ في العضاةِ ثَمَرًا » .

ويكون بهذا قد عبر أبو العلاء عن الدوام بتعليق نهاية الدوام على حدوث هذه المستحيلات التي ابتكرها ، وبذلك تكون نهايته نهاية مفتوحة أي أنه دوام أبدي ، وهذا الدوام الذي لا ينتهي هو مبالغة أبي العلاء الماثلة والحاضرة معنا في كل نموذج في هذا المبحث .

وقد اعتمد أبو العلاء في صناعة هذا القالب البياني كما رأينا على عناصر الطبيعة من نجوم وأشجار فقط ، والسؤال هو لماذا اختار أن يكون قالبه هنا من عناصر الطبيعة ؟ !

وهل يقف خلف المعاني التي ينهل منها قوالبه سببٌ ما ، أم أنه يختارها كيفما اتفق لرغبة في التجديد فقط ، دون أن يضبط هذا الاختيار نظام ما ؟ !

والحق أنك ترى عناصر الطبيعة ماثلة في الجزء السابق من هذه الرسالة حيث استمد صوره في هذا الجزء منها ، فقد بدأ رسالته بقوله[(١)] : « سَلاَمٌ كالعَتِيرةِ[(٢)] الهِنْدِيَّةِ ، والرَّوْضَةِ النَّجْدِيَّةِ ، يَتَّصِلُ بِسَحَابٍ غَمْرٍ[(٣)]، إلى الشيخ الفاضلِ أبِي عَمْرٍو» فهو هنا يبعث بسلام كعتيرة المسك الهندية ، وتشبيه السلام بالمسك تشبيه شائع ، ولكنه هنا يبدأ ببعث السلام على غير عادته لأن من عادته أن يختم به رسائله ، ثم يجعل هذا السلام كروضة نجدية ، وهنا يبدأ ظهور عناصر الطبيعة في رسالته، فيتجسم سلام أبي العلاء ليصبح روضة خصبة بمياهها وأشجارها وثمارها في قلب هضبة نجد ذات الطبيعة الصحراوية ، فالروضة في نجد غيرها في العراق أو في الشام ، هي روضة فريدة حيث تتجسد الخصوبة بجوار المحل والجفاف، وبضدها تتميز الأشياء . وهذا كأنه من الإيغال (أعني قوله نجدية)، ثم يضيف: « يتصل بسحاب غمر » ويبدو – والله أعلم – أنها تتصل وليس يتصل ، لأن السلام قد أصبح في الجملة السابقة روضة ، فيكون المعنى على أن هذه الروضة تتصل بسحاب غامر كثير الماء ، وهذا أنسب من قوله (يتصل) العائد على السلام وأوفى للمعنى .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٧ .

(٢) العتيرة : الإناء .

(٣) غمر : كثير الماء .

وهكذا تلاحظ كيف يلح أبو العلاء على فكرته ناشدًا لها الكمال ، هو لم يكتف بجعل سلامه روضة فجعلها نجدية، ثم لم يكتف بذلك فجعلها متصلة بسحاب ، وليس أي سحاب بل سحاب غمر ، فأي روضة تكون ، وأي خصب يكون فيها ، وأي سلام تجسده ؟!! وهذا نفس للمبالغة لا يخفى .

وبذا يكون أبو العلاء قد استخدم عنصرين من عناصر الطبيعة لإهداء سلامه لأبي عمرو ، وكأن في هذا إرهاصة إلى أن الطبيعة سوف تحضر بعناصرها بطريقة أو بأخرى في الرسالة ، وهذا يُظهر لنا أن اختيار أبي العلاء للفن الذي يصنع منه تعبيراته عن الدوام ليس عشوائيًا بل إنه يخضع – وإلم يكن ذلك ظاهرًا دومًا – لأنفاس تمتد في الرسالة ، تدل ولا بد على شيء ما في سريرة نفسه .

ومع ما تراه من هذا الحضور لعناصر الطبيعة في الرسالة الذي ألقى بظلاله على اختيار أبي العلاء لقالبه السابق في الدلالة على التأبيد – أقول رغم ذلك فأنت ترى أول تعبير عن التأبيد في الرسالة الذي يتلو صور السلام السابقة بعيد كل البعد عن حقل الطبيعة ومعانيها حيث يقول(١) : « أطَالَ اللّهُ بَقَاءَه مـا سَكَنَتْ أَلِفٌ، وافْتَقَر إلى جَوَابٍ حَلِفٌ (٢)» .

وهنا يستخدم أبو العلاء قاعدة لغوية وهي سكون الألف ، وهذا باقٍ ما بقي حرف المد هذا في اللغة العربية ، فهو باقٍ بقاء اللغة ذاتها ، وعطف عليها « افتقر إلى جواب حلف » ويقصد به القاعدة النحوية بأنه لا بد للقسم من جواب مذكور أو محذوف ، وربما الذي جعله يختار هذين القالبين اللغويين – كون الكتاب الذي من أجله بعث الرسالة هو كتاب في النحو ، وهو كتاب شرح السيرافي لكتاب سيبويه ، ثم إذا علمنا أن للسيرافي كتابًا في « ألفات الوصل والقطع »(٣) فهل نلمس في قوله ما سكنت ألف إشارة لهذا الكتاب ؟ !!

ربما ، ولكن الذي يعنينا هو أن الكتاب الذي هو بيت القصيد في هذه الرسالة قد ألقى بظلاله على معاني التأبيد الأولى فيها، والتي تخيرها أبو العلاء ليفتتح بها

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٧ .

(٢) الحلف : هو القسم .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٦ .

الرسالة ، ثم يعطف أبو العلاء عليها صياغة أخرى للتأبيد ، ولكنها في قالب التشبيه ، وهنا تعود عناصر الطبيعة للمثول[١] : « وقَرَنَه اللّهُ بِسَعْدٍ دَانٍ ، كَمَا تَقَارَن الفَرْقَدَانِ [٢]» .

والفرقدان نجمان في السماء لا يغربان، ولذلك دعا أبو العلاء أن يقترن السعد بالرجل أبدًا كما يتلازم الفرقدان فلا يفترقان أبداً ، وهذا قريب من القوالب الموروثة في التعبير عن دوام الصحبة يقولون : « أطول صحبة من الفرقدين »[٣] ، وهذا المعنى ماثل في التشبيه ، ولكن أبا العلاء يؤكده ويضع ميسمه:« لا يُرْهَبُ منهما فِرَاقٌ ، مَا تَبِعَ الشُّروقُ إِشْرَاقٌ » ، فيكون بذلك قد شرح معنى التأبيد بصياغة أخرى للتأبيد أيضًا ، وهذه هي المرة الوحيدة في رسائل أبي العلاء التي يشرح فيها معنى التأبيد بصياغة أخرى للتأبيد أيضًا ، فهذه الجملة التي نحن بصددها الآن بمثابة الجملة المفسرة للجملة الأولى ، ولا أدري ما الذي في الأولى يحتاج إلى تفسير ، وإنما هي رغبة أبي العلاء في إحداث الكمال التام للمعنى الذي يتناوله، والإلحاح على فكرته بجملة لا بد وأنها تحمل في أعطافها الجديد ، فهل هي رغبة في استحضار الشروق والإشراق في بيانه ؟ كما فعل سابقًا عندما عبر عن دوام سلامه بأنه يصل شروق الشمس بالغروب ، ثم وإن كانت الجملة الأولى تدل على دوام البقاء بما يكتنفه التشبيه بالنجوم من ذلك ، فالعرب تضرب المثل دومًا في البقاء بالكواكب والنجوم – إلا أن دلالتها الصريحة والظاهرة على دوام الصحبة ، فكانت الجملة الثانية لتدل بالإضافة على دوام الصحبة على دوام البقاء .

ثم يتبع ذلك بوصف شوقه حيث يتجسم هذا الشوق إلى درجة الإحالة مستخدمًا في ذلك أيضًا عناصر الطبيعة يقول [٤]: « فشوقي إليهِ لو تَذَرَّى جَبَلاً أَتْعَبَهُ ، أو سَلَكَ في وَادٍ لَرَعَّبَهُ [٥]» .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٢) السعد : اليمن .

(٣) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢/٢١ .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٤٨ .

(٥) تَذَرَّى : يقال فلان في ذرى فلان أي في ظله ، وتذرى بالحائط أو غيره من البرد والريح أي اكتن ، واستذريت بالشجرة أي استظللت بها وصرت في دفئها ، وقال الأصمعي : الذرى – بالفتح – كل ما استترت به وتذريت الذروة ركبتها وعلوتها، لرعَّبه : يقال رعب السيل الوادي إذا ملأه .

فشوق أبي العلاء يتجسم حتى يبلغ من ضخامته أنه لو استتر بجبل واستظل به فأسند عليه لأتعب ذلك الجبل وأرهقه ، فأي ضخامة هذه !! ثم إنه لو سار في وادٍ لفاض الوادي به ولملأه ، فهذه مفردات من أكبر مفردات الطبيعة وأضخمها تئن من حمل شوق أبي العلاء فما بالك بأبي العلاء حامله !!

وأنت ترى بأن لغة التأبيد عندما حضرت في هذه الرسالة كانت أنفاس المبالغة فيها مرتفعة جداً ، فهل هذا سنن في رسائل أبي العلاء ؟ ! هذا ما سنحاول استبانته من خلال هذا المبحث بإذن الله .

ومن ذلك ما تجده في الرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي طاهر في إحدى أوبات خاله من العراق ، يشكره فيها على ما بعثه إليه من صلة ، يبدو أن أبا العلاء قد كلفه إياها فزاد خاله عليها فضلاً من عنده بالغًا ، فهو يشكره ويعاتبه في ذات الوقت لتكليفه نفسه فوق ما تطيق وعدم اقتصاره على ما طُلب منه ، يقول في مفتتح الرسالة في أثناء وصفه لشوقه داعيًا له بطول البقاء [1]: « ما شَوْقُ عبدِ المُطَّلِبِ إلى النُّمْرِيَّة ، وكُثَيِّرٍ إلى الضَّمْرِيَّة[2] ، بغالبٍ إذا حُصِّلَ شَوْقي المُتَّصِلُ إلى سَيِّدي الشيخِ ، وُقِيَ وَبَقِيَ ، ما عُمِرَ في السُّهولِ رَبْعٌ ، ونَبَتَ في الجِبَالِ الرَّاسِيَةِ نَبْعٌ [3]» .

فشوق أبي العلاء إلى خاله يفوق شوق عبد المطلب إلى أم بنيه ، ويفوق شوق كثير إلى صاحبته عزة . وأنت ترى جذرًا لمعنى الدوام في قوله : « شوقي المتصل »، فهو شوق متصل دون انقطاع حيث جعل الاتصال صفةً لشوقه ، ثم يظهر معنى الدوام الصريح عندما يدعو لخاله بدوام البقاء : « وقي وبقي ما عمر في السهول ربع ، ونبت في الجبال الراسية نبع » ، هكذا يمهد أبو العلاء لمبالغاته فلا تأتي في بيانه فجأة كما يمهد دومًا لأغلب قيمه الأسلوبية التي يحرص عليها ، ولنتأمل الصيغة الأولى في التعبير عن الدوام هنا « ما عُمِر في السهول ربع » ، يُقال الربع

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٦٥.

(٢) ويقصد بالنمرية أم أطفال عبد المطلب : العباس وضرار ، ويقصد بالضمرية عزة التي تغنى بها كُثيِّر في أشعاره حتى عُرف بها ونسب إليها فقيل « كثير عزة » .

(٣) النبع : شجر تتخذ منه القسي ومن أغصانه السهام ، ينبت في قلة الجبل .

المنزل ودار الإقامة ، وربع بالمكان اطمأن، والربع الوطن متى كان وبأي مكان كان ، وبذا يكون دوام بقاء خاله معلقًا على دوام عمارة الأوطان أي على دوام المجتمع الإنساني ، وانظر إلى كلمة « عُمِر » وبناءها للمجهول ، حيث ينصب اهتمامه هنا على الفعل ذاته ، على الإعمار ، وأنت واجدٌ أنفاس الإعمار والبناء في رسالته كونها رسالة تفيض بمعاني الشكر والامتنان لأيادي خاله المتتابعة عليه ، وتفقد أخواله الدائم لأحواله ورعايتهم له إعمارًا لحياته ما بعده إعمار ، وربما كان هذا من رحمة القدر أن يسخر لمثل هذا الإنسان المرهف الحس العاجز النافر « وكل أزب نفور »، أهلاً وخاصةً يولونه صادق الحب والرعاية ، فنرى فكرة الإعمار هذه تلقي بظلالها على ما يلي من صفة لشوقه حيث يقول (١) :« وكيفَ لا يَضْطَرِمُ شَوْقٌ ولَّدَتْهُ القَرَابَةُ، وأَرْضَعَتْه بِلِبَانِها المَوَدَّةُ ، ورَبَّتْه الأَيْدي المُتَتَابِعَةُ » .

وكأنه بكلامه هذا يحكي قصة محبته لأخواله ، هذه المحبة التي تقتضيها القرابة ، وتنميها المودة والإحسان المتتابع . ولكن أبا العلاء يجعلها قصة حياة كائن حي هو وليد القرابة ، ثم حضنته المودة فأرضعته لبانها ، ثم تكفلت به الأيدي المتتابعة ، فأي حميمية ، وأي حنان يتجسد في هذه الصورة !!

وشوق أبي العلاء دائم التجسم والتمثل ، ولكنه لم يأخذ الشكل الشاعر الدافق بالحنان – كما هو حاله في هذه الرسالة – في أي من رسائله الأخرى . وأنت ترى في الصورة السابقة الإعمار والنماء والبناء هو المعنى الماثل وهو بيت القصيد ، حيث أصبح إعمارًا وإنماءً له ، لكائن حي ، وترفقًا به .

فهل يمكننا أن نقول أن هذه المعاني التي يمتح منها أبو العلاء لصناعة قوالبه الخاصة في التعبير عن الدوام ، وإن كانت تبدو في الظاهر غير ذات صلة ببعضها البعض أو بموضوعه ، وإنما هي بحث عن الجديد للتعبير عن الدوام، وكأن الاهتمام منصبٌ على تأكيد هذا المعنى فقط = أقول هل يمكننا أن نقول عنها رغم أن هذه هي الصفة التي يوهمها ظاهر أمرها ، بأنها ربما كانت الإرهاصة المعبرة عن مضمون الرسالة ، أو عن معقد المعنى فيها . والذي هو أحيانًا ضالة في رسائل أبي العلاء لا يمكن إدراكها بالهوينا ؟ !! وأخص هنا بالقول تلك القوالب في التعبير

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٦٥ .

عن التأبيد التي تأتي في مفتتح رسائله .

ثم هل تكون هذه القوالب من نثره بمنزلة مطالع القصائد من الشعر منبئة عن مضمون القصيدة ؟ !! ونعود لنتأمل الصيغة الثانية للتعبير عن الدوام ، فهو يعطف على الجملة السابقة هذه الجملة : « ونبت في الجبال الراسية نبع » ، والنبع شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي، ومن أغصانه تتخذ السهام، يقولون كل القسي إذا ضمت إلى قوس النبع كرمتها قوس النبع لأنها أجمع القسي للأَرْز[1] واللين ، وبذا يكون النبع الشجر وكأنه آلة حرب في حد ذاته !!

وأبو العلاء يستخدم في هذه الجملة عناصر الطبيعة للتعبير عن الدوام، فيعلق البقاء على دوام ظهور هذا الشجر في قلل الجبال ، وبذا يكون هذا المثال من بيانه يجمع بين الطبيعة وظواهر المجتمع البشري ، وكل منهما من فنٍ مختلف ، فهل استطاع أن يوفق بينهما ؟ !!

على مستوى صياغة الجملة فعل، فإن الجملتين متشابهتان في البناء في كون كل منهما جملة فعلية يتلو الفعل فيها جار ومجرور يدل على المكان ، ثم يأتي المفعول به (في الأولى) ونائب الفاعل (في الثانية) نكرة (نبع ، وربع) .

أما على مستوى المعنى فأنت تجد معنى الرسو في قوله (الجبال الراسية) يناسب الاطمئنان في الأرض الذي تكتنفه دلالة الربع ، وقد وفق أبو العلاء في استخدامه للوصف (راسية)، فرغم تضمن الجبال لهذا المعنى وهو من صفاتها اللازمة، إلا أنها أكدت وناسبت معنى الدوام والبقاء الذي صيغ القالب من أجله .

كما أنه طابق بين (السهول ، والجبال)، وكأن هذا الإعمار من قبل الإنسان للأوطان، الذي نجده في الجملة الأولى، يقابله عناصر الهدم وآلة الحرب الماثلة في شجر النبع في الجملة الثانية .

فهذه إذاً وشائج – وإن كان بعضها بعيداً – يمكن تلمسها بين جملتي أبي العلاء اللتين عبر بهما عن الدوام رغم كونهما من حقلين مختلفين ، والحق أن ما وقع في روعي بادءاً ذي بدء أنه ليس بين ربوع الأقوام، وبين ظهور شجر النبع شيء غير توافق الجرس الذي تراه بين (نبع ، وربع) الناشيء عن الجناس اللاحق بينهما .

---

(١) الأرز : أي الشدة .

ومن ثم فهل نطمع في إيجاد علاقة أخرى على مستوىً أعلى، فنقول أن النبع أيضاً يشي بدور أخواله في حياته كما كان الربع يفعل ، فإن كان النبع يتميز بالأرز واللين، فالدور الذي يقوم به أخواله أرز ولين، هو حماية يقابل بها الدهر ولين يحتوي ضعفه وحاجته ، فهل يريد أن يقول أبو العلاء أنهم آلته في مواجهة نوائب الدهر ومصارعة الأيام ، أنهم سهامه وقسيه في مقابلة الحياة ؟ !

ربما كان ذاك ، لأنك تراه يصف خاله بالسهم المصيب بعد ذلك عندما يقول[1]:
« نَضَحَ اللّهُ ظَمَـأي مِنْ لِقَائـه[2] ، وعَضَد الجَمَاعَةَ ببقائه ، فهو نَجْمُ سَارِيها ، وثِمالُ مُقِيمِها[3] ، ومُصيبُ الغَرَضَ من سِهَامِهَا » .

والشاهد في قوله « ومصيب الغرض من سهامها » فأبو العلاء يريد أن يقول بأنه سهمنا الصائب ، فسهام القوم منها ما يصيب ومنها ما يخطيء ، والكلام هنا تشبيه حيث شبهه بالسهم المصيب لغرضه ، ويعضد هذا ما تراه من قوله عنه من رسالة أخرى إلى خاله[4]:« سَهْمِي به الفَائزُ ، وحَظِّي فيه الحَظُّ المُجَاوِزُ »، وذلك بعد أن هنأه بالسلامة من الرسالة التي بعث بها إليه عندما قدم من العراق فأصابته طعنة أضرت به بعض الأضرار ، فَذِكْر أخواله يجعله كما ترى يستحضر السهام والقسي ، فربما كان السهم معادلاً في مخيلة أبي العلاء لأخواله وحمايتهم له ، وإذا صح هذا الذي قلناه فإنه يتحقق لنا أمران ، الأول : قدرة أبي العلاء العجيبة على التوفيق بين معاني التأبيد التي يستقيها من حقول مختلفة ، أو ربما صغنا ذلك صياغة أخرى فنقول أن هناك ولا بد علاقة ما بين معانيه التي يؤلف بينها ويجمعها في تعبيره عن التأبيد، وإن بدت مختلفة فصنعة أبي العلاء الفكرية قد ألفت بينها ولا بد ، والأمر الثاني : اتصال معاني التأبيد في رسالته بمضمونها الخاص الذي يكتنفه الغموض غالبًا، فهي الإرهاصةالأولى المنبئة بأفكار أبي العلاء.

ومما يؤكد هذا الذي ذهبت إليه ما تجده من تعبير عن الدوام في مفتتح رسالة

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٢) نضح : نضح عطشه أي سكنه ، ونضح النخل : سقاها بالسانية .

(٣) ثمال : الثمال هو الغياث الذي يقوم بأمر قومه ، يقال : « فلان ثمال قومه » أي غياث لهم يقوم بأمرهم.

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٦٢.

الجن الآنفة الذكر حيث يدعو للنكتي بطول البقاء بعد أن وصف كتابه ورحب به يقول[1] : « فَمَرْحَبًا بِكِتَابِ الشيخِ -أَطَالَ اللّهُ بَقَاءَه -ما ائْتَلَفَ مُتَحرِّكٌ وسَاكِنٌ ، واختَلَفَتِ الأَزْمِنَةُ والأَمَاكِن ... » .

فهو هنا يجمع في قالبه للتعبير عن التأبيد بين القاعدة اللغوية وبين السنن الكوني ، بين ائتلاف المتحرك والساكن في اللغة والذي يبقى ببقائها ، وبين اختلاف الأزمنة واختلاف الأماكن، وهذا أيضاً باقٍ ببقاء الحياة على هذه الأرض، وهذا سنن كوني لا يختل ولا ينتهي إلا بالنهايــة التي حددها لــه الحق سبحانه ، وهذا الأول : « ما ائتلف متحرك وساكن » يتجاوز بمعناه ، وبتنكير أبي العلاء للفظي (متحرك ، وساكن)، وإطلاقه لكلامه دون تخصيص ، فهما أي متحرك وأي ساكن – يتجاوز حدود القاعدة اللغوية ليشمل كل ما ينطبق عليه هذا الوصف ، فتراه في المحصلة يتشارب ويتقارب مع تاليه « واختلفت الأزمنة والأماكن » ، فالأزمنة والأماكن في نهاية الأمر متحرك وساكن ، فالأزمنة مثال واضح للمتحرك فقد قالوا الزمن غير قارٍ ، يعني لا يسكن في أي لحظة ، فالمستقبل متحرك نحو الحاضر ، والحاضر متحرك نحو الماضي ، والأماكن ساكنة، والشأن فيها أن تكون ساكنة، وإذا وصفت بالحركة من مثل قولنا (سال بهم الوادي) كانت الحركة وصفاً لمن فيه وليس له .

فتدخل بذلك « واختلفت الأزمنة والأماكن » في حيز الأول ، وكأن هذه الثانية تخصيص للمعنى الوارد في الأولى– ولولا الواو العاطفة لقلنا أنها بمنزلة بدل بعض من كل من الأولى – لذلك تراه أتى بالأزمنة والأماكن معرفة ، ولكنها في الأولى تأتلف، وفي الثانية تختلف ، وكلا الأمرين فيهما سنن لا يتوقف ولا يُخْرَج عليه !!

هكذا استطاع أبو العلاء أن يوفق بين هذين المعنيين غاية التوفيق رغم كونهما كما ترى من حقلين مختلفين ، بل إنني أتجاوز ذلك لأقول أنهما وُجِدا في بيانه متقاربين لما بينهما من تقارب في ذهنه وفكره أصلاً .

وهذا هو التعبير الوحيد عن الدوام في الرسالة ، وقد أتى كما ترى في مفتتحها ، فإذا حاولنا استنطاقه وجدناه يشي بكل ما تناوله أبو العلاء من موضوعات في هذه الرسالة ودار حديثه حولها .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٦١ .

وقبل أن نغفل ينبغي أن نلاحظ أن هناك إشارات زمنية ومكانية -إذا جاز لنا القول- منذ بداية الرسالة يقول[1] : « الطرَبُ مُؤْتَابٌ ، والخيَالُ مُنْتَابٌ [2]، والشوقُ في الصُّدُورِ واقعٌ، وإن أَضْحَتِ الديارُ بَلاَقِعَ ، مــا هـذَا الزَّورُ الطَّارِقُ، الذي وَمَضَ كأنه بَارِقٌ ، يذكُرُ أُمَمًا خَالِيةً ، كانت بالأَدَبِ حَالِيةً[3] :

أَنَّى اهْـتَدَيْتَ لِتَسْلِيمٍ على دِمَنٍ بِالْغَمْرِ غيرَّهُنَّ الأَعْصُرُ الأُوَلُ [4]» .

تجد هذه الإشارات في قوله : « وإن أضحت الديار بلاقع »، والديار التي خلت من أهلها تجسيد لقضية اختلاف الأزمنة والأماكن، فهي في زمن سابق كانت آهلة بأهلها، ثم حال الزمان فخلت من الأهل والخلان ، فتحولوا عنها إلى مكان آخر فاختلف المكان، وربما تحولوا عنها إلى باطنها ، وهذا أيضًا من اختلاف الأماكن تجده في قوله « أممًا خالية » ، وهذا هو الوجه الثاني لخلو الديار من أهلها، بأن يصبحوا أممًا ماضية، اختلف مكانهم وزمانهم . ثم يأتي البيت ليقول ذلك أيضًا :

أَنَّى اهْـتَدَيْتَ لِتَسْلِيمٍ على دِمَنٍ بِالْغَمْرِ غَيرَّهُنَّ الأَعْصُرُ الأُوَلُ

فالشاعر يقول أي وحي في ضميرك جعلك تحس أنه مكان الأحبة؟ ! لأنه ليس في المكان ما يدل عليهم ، وأبو العلاء يُسقط ذلك على كتاب صاحبه ، وما أتى فيه من حقائق كانت في غيب مجهول هُدي إليها بطبعه وروحه ، كما هدي الشاعر إلى مواقع أحبائه بحسه لا غير .

وأبو العلاء وإن كان يتحدث هنا عن كتابه، وأنه أتى بما ليس معهود من الأدب والفنون حتى كأنه واقفٌ على طلل دارس استخرج خبئه ومكنونه، أو وقع على كنوز في مفازات الفكر والأدب يتعجب أبو العلاء من استدلاله عليها = أقول وهو وإن كان يتحدث عن هذا فإن قضية اختلاف الزمان والمكان ماثلة هنا مثول هذه الدمن التي غيرهن الأعصر الأول ، و (الأعصر) هنا تنادي (الأزمنة) هناك في قالب التأبيد فكلاهما لفظ عن الزمان مجموع ومعرف . ثم يأتي قوله بعد هذا

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٦١/٢ .

(٢) الطرب : الفرح ، مؤتاب : ملازم كاللباس للجسد ، منتاب : أي مرة بعد أخرى .

(٣) بلاقع : أي خالية ، الزور : الخيال ، الطارق : الآتي ليلاً ، ومض : أي لمع ، خالية : ماضية .

(٤) أنّى : كيف ، الدمن : آثار الديار ، الغمر : المكان .

« فمرحبًا بكتاب الشيخ أطال اللّه بقاءه ما ائتلف متحرك ... » ثم يلي ذلك بقوله[1] : « على أنَّه كَمَا قَالَ اللّهُ جَلَّ اسمُهُ (وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) » والأمة :الحين ، فهذا زمن ومدة ، وأبو العلاء منذ بداية الرسالة يعاتب صديقه على تأخره في مراسلته ، فهناك فترة زمنية طويلة كما يبدو بين إرسال هذا الرجل لرسالته وعهد الصداقة الذي بينه وبين أبي العلاء .

وهذا الذي تراه من حضورٍ للأزمنة والأماكن في مفتتح الرسالة، وإن كان من تهيئة أبي العلاء لمعانيه ؛ إذ أنه سيظهر في قالب التعبير عن الدوام ، إلا أنه دليل على أن هذه الفكرة هي بيت القصيد في الرسالة ، وأنها ملحة على خاطره كل الإلحاح ، فحضرت في بدايتها شديدة التركيز ، ثم انتشرت في تضاعيفها .

ونعود لما كنا فيه من استنطاق لقالبه السالف الذكر في التعبير عن الدوام وعلاقته بمضمون الرسالة ، فإذا استعرضنا موضوعاتها نجدها ثناء على شعر الرجل عن طريقين : الأول التساؤل عن مصدر ملكته الشعرية أجنيٌّ أم ملائكي ؟ والثاني استعراض عيوب الشعر والقافية جميعًا وإثبات خلوصه منها ، ثم عتاب لصاحبه لأنه أخطأ في اسمه ثم في كنيته يطول ، ثم ذكر لفوائد الغربة ، ثم وصف لمشاق الرحلة .

وموضوعاتها هذه إذا حققنا النظر فيها ليست إلا جزءًا من قضية المتحرك والساكن في معناها العام ، شاملة تحرك الأزمنة وسكون الأماكن ، فاختلاف الأزمنة والأماكن هو الغربة التي تحدث عنها أبو العلاء ، وهو الرحلة التي تنقلك من مكان إلى مكان ، والتي تفنن أبو العلاء فيها واصفًا المفازات والحلول والترحال وآلاته ، وهي أيضًا هذا التطاول في العهد الذي جعل صديقه وصاحبه يخطيء في اسمه، ثم لايكتفي بذلك حتى يضيف إليه خطأً في كنيته فيقصرها، مثبتًا أن ذاكرته قد عبثت بها أنامل الزمن فأنسته ما لا يجب نسيانه ، ونسيان الاسم قد يشي بنسيان المودة ، وأبو العلاء في المقابل لا ينسى اسمه ولا كنيته ولا أيام مذاكرته[2] : « فَأَمَّا أَنَا فحفظتُ اسمهُ وكُنيَتَه ونَسَبَهُ ، ولم أَنْسَ أَيَّامَه ولا مُذَاكَرَتَهُ » .

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٦١ – ٣٦٢ .

(٢) السابق ، ٢/٤١٨ .

وهذه مقارنة من قبله تكشف عن بون شديد بين الرجلين ، فإذا تذكرنا أن أباالعلاء في رسالة الهناء « ساكن لا يُحْتمل فيه التحريك » ، فهل نقول بأنه هو الساكن الذي في هذا التعبير عن الدوام « ما ائتلف متحرك وساكن » ؟ !! والساكن بصفة أبي العلاء ومحبسه أشبه ، وهو الذي بلغ إحساسه به - بهذا السكون - حتى جعله مواتًا، فكان ميتًا في أكثر من صورة بيانية ، فإذا كان الأمر كذلك فهل يكون النكتي هو المتحرك ؟ ! وبذا يكون قوله « ما ائتلف متحرك وساكن » إشارة إلى علاقتهما رغم ما بينهما من اختلاف في السجايا والطباع !! فهو يرى بعين الحاضر صداقته بالرجل من قبيل ائتلاف الضدين ، ائتلاف المتحرك والساكن !!

وعلى هذا هل نستطيع أن نرى في بيت الشعر الماضي نفسًا من هذا المعنى، وأن علاقته بأبي العلاء أصبحت دمنًا قد عفت ويصعب التعرف عليها لذهاب ودروس رسومها ، فكأن هذا الكتاب يقوم بدور الواقف على طلل ورسم قد عفا ؟ !

ثم إن ائتلاف المتحرك والساكن يُكَوِّنَ التفعيلات التي يتكون منها البحر الشعري ، فيكون بقوله هذا يرمز للسكنات والحركات المؤتلفات في تكوين بحور الشعر ، وهي في المحصلة مدار حديثه عن شعر النكتي وخلوصه من عيوب الوزن والقافية ، التي استغرق حديثه عنها أطول مساحة نصية في الرسالة .

وهكذا كان التعبير عن التأبيد في مفتتح رسالة أبي العلاء بمثابة خيط المعنى الذي انتظم جُلّ رسالته، حتى غدا صالحًا لأن يكون عنوانًا للرسالة، رسالة المتحرك والساكن .

فرأيت جليًا إذًا أن التعبير عن التأبيد في مفتتح رسائله يكون منبئًا عن مضمونها ومخبرًا عنه أصدق إخبار .

ومما اجتمعت فيه الطبيعة بالعلوم بالممارسات الاجتماعية ما تجده في رسالته التي بعث بها إلى أبي بكر محمد بن أحمدالصابوني البغدادي، وهي رسالة قصيرة يبدؤها بالحمد والصلاة والدعاء للمرسل إليه ووصف شوقه إليه ومن ثم إلى رجل آخر ، ويقول بأنه قصد المرسل إليه في حاجة (ولم ينص عليها)، ويجعل ما شجعه على الوثوق به في تأديتها ضربٌ من الفأل باسم الرجل وكنيته ومكان إقامته . والدلالة على التأبيد في هذه الرسالة تتراوح ما بين الأسلوب المألوف باستخدام (حتى)، وبين التشبيه بأمور تختزن معنى الاستمرار والتأبيد ، ويبدأ بالظهور في

سياق دعائه للمرسل إليه [1]: « وسَلَّمَ اللّهُ الشيخَ سَلاَمَةَ ثُلاَثِيٍّ الخيم، منْ حَذْفٍ يَقَعُ للتَّرْخِيمِ[2] ، وأطَالَ اللّهُ بقاءَه حتى يَصيرَ العَنْبَر خَضَمٌّ ، عَنْبَرًا بِالنَّار يُهْتَضَمُ ، وشَوْقِي إليهِ وإلى الجَمَاعَةِ الذين عَرَفْتهمْ بِمَدِينَةِ السَّلامِ كالنَّسِيمِ لا يَجْمُدُ ، ونَارِ فَارِسَ لَيْسَتْ تَخْمُدُ » .

فهذه أربع تعبيرات عن الدوام متوالية وفي نفس واحد، فأولها من العلوم، وثانيها وثالثها من الطبيعة، ورابعها من بعض الممارسات الاجتماعية، جمع بينها أبو العلاء في سياق واحد بله في رسالة واحدة . فهو يبدأ بهذا التشبيه المبتكر مستخدمًا فيه قاعدة نحوية ، فالقاعدة التي استخدمها أبو العلاء تقول (أن المنادى الثلاثي لا يلحقه الترخيم)، فجعلها أبو العلاء ضربًا من السلامة بمفهومهاالإنساني، حيث يدعو للشيخ بسلامة دائمة دوام سلامة المنادى الثلاثي من الحذف لأنه لا يجوز ترخيمه ، ولا يخفى علينا ما يعطيه هذا التشبيه للقاعدة النحوية من الحياة والمثول، فيتجسد لك الثلاثي وهو آمن من خطر الحذف وانتقاص آخره دون أقرانه، وهكذا لن تطاله يد الأيام وتقتطع جزءًا منه !!

والـذي يعنينا أننا نجد أن هناك مسوغًا ظاهـرًا لمثل هذا التشبيه الطريف، ولاتجاه أبي العلاء في هـذه الرسالـة بالذات إلى استخدام القاعدة النحوية في تعبيره عن الدوام؛ ذلك أن المخاطب أو المرسل إليه كان مؤدِّبًا !!

والصورة المستمدة من القواعد النحوية تستمر في الرسالة وإلم تكن في إطار الدلالة على التأبيد ، ومن هنا نرى أنه غالبًا ما تكون هناك علاقة ما بين القوالب التي يستخدمها أبو العلاء للدلالة على التأبيد، وبين فحوى الرسالة أو طبيعة المرسل إليه ومهنته .

فمثلاً ترى في رسالته للقاضي أبي الطيب طاهر أن معاني التأبيد فيها مستقاة من قواعد فقهية وشرعية يقول من ذلك[3] : « كتَابي أطَالَ اللّهُ بقاءَ سَيِّدي القَاضِي شَافِي العِيِّ، وخَلِيفَةَ الشَّافِعِيِّ، مَا جَازَ خِيَارُ مَجْلِسٍ ، ووَجَبَ حَجْرٌ

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٧٩ - ٢٨٠ .
(٢) الخيم : الطبيعة أو السجية .
(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٧ .

عَلَى مُفْلِسٍ » وكلاهما حكمان قائمان بقيام هذه المعاملات بين الناس ، بل بقيام الشريعة ذاتها .

ونعود لما كنا فيه ، فمعنى الدوام في قوله : « سلم اللّه الشيخ سلامة ثلاثي الخيم من حذف يقع للترخيم » . مختزل بداخل التشبيه ليس ظاهرًا وصريحاً ، مما يجعله بمثابة مهيء لظهور المعنى صريحًا فيما يتلو هذا من كلام ، حيث تراه يدعو له بطول البقاء « حتى يصير العنبر خضم ، غبرًا بالنار يهتضم » .

وهو يريدالعنبر بن عمرو بن تميم، ويلقب بالخضم لكثرةخضمه أي أكله بجميع أسنانه ، والعنبر الذي يهتضم بالنار هو الطيب المعروف، وهو مادة صلبة لا يُعرف لها طيب أو ريح إلا إذا سُحقت أو حرقت، وبذا يكون معنى كلامه أطال اللّه بقاءك حتى يصير ذلك الرجل من بني تميم طيبًا تهتضمه النار، وهذا ما لا يكون . وبهذا يكون أبو العلاء قد توصل إلى معنى التأبيد عن طريق تعليق الفناء على حدوث أمر مستحيل، وهو من قبيل انتظار خروج أمرٍ عن طبيعته ، والذي سوغ لأبي العلاء الربط بين الرجل الجاهلي وهذا النوع من الطيب هو الرابطة اللفظية فقط – كما يبدو لي – فكلاهما يدعى (عنبرًا)، فهما من قبيل المشترك اللفظي الذي يبدع في الكشف عنه أبو العلاء ، فبين اللفظين جناس تام مماثل ، ولم يغفل أبو العلاء أن يحدث ضربًا من التجانس بين (خضم ، يهتضم)، وهو وإن لم يكن جناسًا صرفًا فقد راعى أبو العلاء توافق الكلمتين في الحرفين الأخيرين فحقق بذلك السجع وزيادة، ثم إن الكلمتين متوافقتان في هيئات الحروف الثلاثة الأخيرة ، وهذا يذكرنا برغبة أبي العلاء في إحداث الجناس الثنائي، فإن لم يتسن له ذلك لم يغفل أن يحدث بين الكلمتين قدرًا من التجانس لا تغفله الأذن .

ثم في الجملة الثالثة يصف شوقه إلى أهل بغداد بأنه في استمراره على حاله وعدم خفوت جذوته وحرقته بأنه « كالنسيم لا يجمد، ونار فارس ليست تخمد » ، والنسيم لا يمكن أن يجمد ويتحول إلى يبس ، وهذه أيضًا من المستحيلات التي يستخدمها أبو العلاء للدلالة على التأبيد ، كما أن هذا الشوق يشبه نار فارس في كونها لا تخمد، فأهل فارس من المجوس حريصون كل الحرص على ألا تخمد نارهم، فهم يتعهدونها ويسهرون على استمرارها وبقائها، وكذلك شوقه .

وهو يستمد صوره هنا أولاً من الطبيعة، وثانيًا من بعض الممارسات الخاصة

بالمجتمع الإنساني، وإن كانت تخص فئة معينة وأصحاب عقيدة معينة ، ولا أدري كيف تسنى لأبي العلاء الجمع في صفته لشوقه بين النسيم ونار فارس ؟ وهما وإن كانتا تتفقان في الوصف الذي من أجله شبه شوقه بهما ، وهو الاستمرار ، ورغم أن كل منهما على حدة يصلح لأن يكون صفة للشوق - إلا أن الجمع بينهما غريب ، وإذا علمنا أن علاقة أبي العلاء ببغداد وأهلها فيها نظر ، لأن حديثه عنهم يكتنفه الغموض الذي لا يشي بخير .

كل هذا يجعلنا نقول أن هناك شيئًا ما وراء تشبيهه لشوقه بنار فارس ، فهل يريد أن يقول بأن بقاءه على محبة بغداد ، أو على الرغبة فيها ، هو أشبه ما يكون بعقيدة فاسدة يتعهدها أصحابها - ولا تكاد تنطفيء جذوتها - بأنفسهم ؟ !

ثم إنه بعدما دخلت فارس في دين اللّه ذهبت نار المجوس ، فهل أراد أبو العلاء أن يُذَكِّرُ بهذه المجوسية ؟ !! لأن بغداد كان يسكنها قومٌ ممن أصلهم من الفرس وعراق العجم .

ربما كان ذاك وربما كان غيره .

وقد حاول أبو العلاء التقريب بين هذين التشبيهين المتباعدين في مادتهما بما بين الجملتين من بناء مشترك، تبدأ كل منهما بكلمة معرفة (وإن كانت في الأولى بأل وفي الثانية بالإضافة «النسيم ، نار فارس»)، ثم لفظ يدل على النفي (لا ، ليست) ثم فعل مضارع (يجمد ، تخمد) ، كما جانس بين الفعلين جناسًا لاحقًا .

وكما قلنا آنفًا أن هاتين الصورتين إحداهما اقتبسها أبو العلاء من الطبيعة والأخرى من الممارسات الاجتماعية ، فهذه إذًا أربع تعبيرات عن الدوام اختلفت ما بين تشبيه، وتعبير مألوف بـ(حتى)، وإن كان يحوي معنىً غير مألوفٍ ، وهذا كثير بالنسبة لرسالة قصيرة كهذه، فهذا في حد ذاته مبالغة،عوضًا عن المبالغة الحاضرة في كل تعبير من تلك التعبيرات بالدوام الذي لا ينتهي، وقد مَهَّدَتْ لظهور هذا الدوام المكثف في بيانه إشارات دالة على الزمن في بداية الرسالة، تراها في قوله « الحمدُ لإلهِ السماءِ، من أَوَّلِ نفسٍ إلى آخرِ ذَمَاء » ، فهذا حديث عن مدة ، وهي وإن كانت ذات طرفين ونهاية منصوصٍ عليها، إلا أن في تنكير طرفيها دلالة على عمومها، فإن ذلك يعني أنها تستمر طوال الحياة الدنيا من أول نفس، يعني أي نفس ، إلى آخر ذماء، يعني أي ذماء ، وهذا كما ترى فيه نوع من معنى التأبيد . ثم تأمل الدلالة

على الزمن في الجملة التالية في قوله : « وصلَّى اللّهُ على الكَوْكَبِ الطَّالِعِ بعد الفَتْرَةِ[1] ، والعِتَرةِ المُوفيَةِ على كُلِّ عِتْرَةٍ[2] » .

فهناك إلحاح كما ترى على عنصر الزمن من قبل أبي العلاء، فعبر عن الرسول بالإشارة الزمنية « الكوكب الطالع بعد الفترة » ، ثم تلاها بصورالتأبيد التي ذكرناها، والسؤال هنا هو لماذا اختار أبو العلاء (الفترة) بالذات في هذه الرسالة ليشير بها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؟ !

ومن ثم يواجهنا تساؤل لم أجد له إجابة ، ما الذي تحمله هذه الرسالة في أعطافها؟ ! فبعد ذكره للفترة وما تحمله من معنى الفتور والامتداد بالإضافة لمعناها الزمني الخاص ، تقابلنا (نار فارس) ، عقيدة وثنية ، ثم نرى في آخر الرسالة (سدرة المنتهى) ، حيث ذكَّره بها موقع منزل الرجل[3]: « ومَنْزِلُهُ دَرْبُ السِّدْرَة ، تِلْك في الأَرْضِ سِدْرَةُ نُهَى ، إِذْ في السَّمَاءِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى » !!

وشبيه بهذا في الجمع بين عناصر الطبيعة والعلوم وإخراج الأمور عن طبائعها ، ما تجده في رسالته التي بعث بها إلى الشيخ أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الدولة ، وهو من معارفه ببغداد ، وكان يتولى النظر بدار الكتب ، وهذه الرسالة تكاد تخلص لصفة الشوق حيث يمتد فيها في أطول مساحة نصية يشغلها في رسائل أبي العلاء ، وهذا مثال صارخ على حضور نفس المبالغة في الرسالة ، فضلاً عما تجده في مفتتحها من مبالغات بالتعبير عن التأبيد ، حيث يقول [4]: « أَطَالَ اللّهُ بَقَاءَ سَيِّدي الشَّيْخِ إلى أَنْ تُنْقَلَ عُرَيًّا ، وتَنْطِقُ العَرَبُ بِمُكَبَّرِ الثُّريَّا ، وأَدَام عِزَّه إلى أَنْ يُصْبحَ أَرَابٌ ، وهُوَ بَازٌ في الجَوِّ أو غُرَابٌ » .

وقد بحثت في مادة (ع ر ا)[5] ولم أجد سوى (عَرْوَى)، وهو اسم جبل ،

---

(١) يريد بالكوكب الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والفترة : المدة الفاصلة بين مجيء المسيح ومجيء محمد عليهما السلام ، والتي لم يكن فيها أنبياء .

(٢) العترة : ولد الرجل وعقبه من صلبه ، وقيل : رهطه وعشيرته .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٨١ .

(٤) السابق ، ٢/٢٨٣ .

(٥) ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤م ، ١٥/ ٤٤ – ٥٢ .

وكذلك (عروان) اسم جبل أيضًا ، و (عروى) اسم أكمة ، فربما ذكرها هنا أبو العلاء مُصَغَّرَةً ليجانس كلمة(ثريا)التي سوف يأتي بها في الفاصلة التالية، فلا يبعد أن يكون كذلك لما نعلمه من كلف أبي العلاء بالسجع وتوافق الفواصل ، وعلى هذا يكون معناه: أطال الله بقاءه حتى تُنقل هضبة عروى من مكانها إلى مكان آخر ، وهذا ما لا يكون ، وبذا نصل إلى معنى التأبيد في البقاء وطوله ، وهو هنا يستعين بعناصر الطبيعة . وعدم القدرة على نقل شيء من عناصر الطبيعة الضخمة كالجبال مثلاً – وسيلة من وسائل التعبير عن الدوام مألوفة . ثم يعطف على هذه الجملة بقوله : « وتنطق العرب بمكبر الثريا » ، والثريا هذا العلم على مجموعة الكواكب المعروفة ليس له مكبر من لفظه ، ويستغل أبو العلاء هذه الحقيقة اللغوية في الدلالة على التأبيد ، فإنَّ نُطق العرب بمكبرها مستحيل ، فليس لها مكبر من لفظها ، وبالتالي فإن بقاء الشيخ سوف يدوم بلا نهاية ، وهذه إحالة .

وفي الجملة السابقة جمع أبو العلاء بين الطبيعة والعلوم في جملة واحدة للتعبير عن التأبيد ، ثم يعود إلى عناصر الطبيعة فقط ، محاولاً إخراجها عن طبيعتها وإلباسها أثوابًا جديدة، فهو يدعو له بأن يديم الله عزه حتى « يصبح أَرَاب، وهو باز في الجو أو غراب » ، أي حتى تصبح أرابُ : وهي عين ماءٍ في الصحراء – بازًا في الجو أو غرابًا ، فتتحول هذه العين إلى طائر ، وهذا ما لا يكون ، وبذا فلن يكون لدوام هذا العز نهاية ، وهذه هي مبالغته هنا، وأبو العلاء يعول هنا أيضًا على الرابطة اللفظية ، بما يُذَكِّرنا بما وجدناه سابقًا مع (العنبر خضم) عندما تحول إلى (عنبرًا بالنار يهتضم)، فبين (آراب)، و(غراب) جناس مضارع سوغ جمعه بينهما ، فأي خيال وأي مبالغة حتى يتخيل تلك العين وهي تتحول إلى طير سماوي؟ !! إنها أنفاس أسطورية يضعها أبوالعلاء في رسالته، فتتحرك فيهاالهضاب لتترك أماكنها، وتتحول الجمادات والأماكن إلى كائنات حية !! وهو وإن كان يضعها في إطار المستحيل ، إلا أنه استطاع أن يحضرها بخياله ماثلة أمامك في بيانه .

وأبو العلاء كما رأيت يفتن عندما يستخدم (حتى) في دلالته على التأبيد ؛ لأنه بها يعلق معناه على دوام النفي بصنع هذه المستحيلات التي تبدعها مخيلة أبي العلاء المولدة .

وأنت ترى في كل ما سبق هذه القوالب التي هي صناعة علائية صرِْفة ابتدعها

فابتعد بها عن كل ما هو مألوف من التعبيرات عن الدوام ، ووضع عليها طبعه ووسمه ، ولكن قد يقترب أبو العلاء شيئًا ما من القوالب الموروثة في هذا المجال ، مع بقاء صبغة علائية تميزها عن تلك المألوفة من ذلك قوله من الرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي القاسم جوابًا عن كتابه في أمر الشيخ أبي الحسن بن سنان ، ويبدو أن خاله يوصيه بهذا الرجل خيرًا وأنه يقصده في حاجة معينة ، وأبو العلاء يَعِدُ في هذه الرسالة القصيرة أن يقوم بما يستطيعه في خدمة هذا الرجل، ثم يقول بأن هديته التي يبعثها إلى خاله وجماعته هي سلام علائي يقول في صفته(1):

« والهديةِ المنقولة عَنِّي إلى حضرة سيِّدي أجلَّها اللّهُ ، والجماعَة دَامَتْ لها الحراسَةُ ببقائه ، سَلاَمٌ يُشْرِقُ زَكِيُّه(2) ، ويَتَضَوَّعُ تضوُّعَ المِسْكِ ذَكِيُّه ، كُلَّما أَبْدَى الأُفُقُ شَمْسًا ، وخَلَفَ يومٌ أمْسًا » .

وقد قلنا بأن السلام حقل للمبالغات العلائية سواءً تلك التي تتغير معها حقائق الأشياء، أو تلك التي يعبر بها عن التأبيد ، وهذا السلام يُشرق فضله وخيره ونماؤه ويتخلل المروج والوديان تخلل ضوء الشمس بإشراقها نواحي الأرض ، فسلامه هنا يقرب من أن يكون شمسًا. كما يعبق هذا السلام بأريج المسك أبدًا كلما أبدى الأفق شمسًا وخلف يومٌ أمسًا ، وهنا يظهر معنى التأبيد ، وأقصد بالتأبيد في كل ما قلته مدة الحياة الدنيا ، وقد استقاه أبو العلاء من مظاهر الطبيعة وسنن الكون ، والعرب تكثر من التعبير عن التأبيد بكر الجديدين (الليل ، والنهار) ، فيقولون : « لا أفعله ماكر الجديدان »(3) ، أو « ماكر الملوان »(4) وهما أيضًا الليل والنهار، وأيضًا قولهم: « ما سمرا ابنا سمير »(5) وهما الليل والنهار . كما أن من تعبيراتهم المشهورة في هذا المجال قولهم : « ما ذرَّ شارق » ، والشارق الطالع ، أشرق إذا طلع ، وأشرق إذا أضاء وصفا ، وأشرق إذا دخل في الشروق(6) ، وهم يعنون بذلك الشمس : أي « ما طلعت شمس » ، وهذا الأخير أيضًا من تعبيراتهم المألوفة في هذا المعنى.

---

(1) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٩٢ .

(2) زاكٍ : نامٍ بَيِّن الزكاء ، ورجل زكي : زائد الخير والفضل بَيِّن ، وقد زكا عمله إذا فضل .

(3) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ٢/٢٨٢ .

(4) السابق ، الصفحة نفسها .

(5) نفسه .

(6) نفسه .

فعندما يقول أبو العلاء « كلما أبدى الأفق شمساً »، فهو لا يبعد كثيراً عن هذه التعبيرات المألوفة عن الدوام، ولكنك عند التحقيق تجد أن هذا التعبير المألوف عندما وضع أبو العلاء لسانه عليه صَيَّره غير مألوفًا،فأبو العلاء يبدي قدرة على استخراج غير المألوف من باطن الإلف والعادة ، وما هذا الذي تراه من تعبيرات جمة عن الدوام إلا صور من هذا القبيل ، فكلف أبي العلاء هنا ليس بـ(الشمس) ، وإنما بـ(الأفق) الذي يبدي (الشمس)، بنيت العبارة على ذلك، فأبو العلاء هنا أدار المعنى إدارة أخفى معها هذا المعنى الشائع وهو طلوع الشمس ، فالشمس في القول المألوف « ما طلعت شمس » – فاعلة، وهي هنا مفعول بها ، فكأن الأفق يفاجئك بشمس جديدة كل يوم ، فالذي يعني أباالعلاء هنا هو هذه الدورة، وهذا الأفق الذي يبدي الشمس ويبدي غيرها ، هذا الأفق الذي هو امتداد للنظر ، امتداد للترقب والمجهول الذي ينتظرك في المستقبل ، فالإنسان يرسل نظره في الأفق محاولاً استكناه الغيوب والبحث عن الحقائق ، ربما كان هذا وراء عناية أبي العلاء بالأفق وجعله الفاعل في هذه الصورة الأبدية وتقديمه على المفعول « أنهم يقدمون الذي بيانه أهم ، وهم بشأنه أعنى » ، وهذا الأفق هو الذي يجلِّي لك الشمس ، هو الذي يجلي لك الحقائق ، فكل يوم آتيك لا محالة بجديد ، تجد هذا التعبير يستدعي لأذهاننا قول طرفة :

* ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *

ثم يعطف عليه أبو العلاء بتعبير آخر شبيه به وهو قوله : « وخلف يومٌ أمساً » وهو أيضًا قريب من كر الجديدين ، وقولهم « ما تعاقب الليل والنهار » ، ولكن في تَخَيُّر أبي العلاء لـ(اليوم)، و(الأمس)وراءه ما وراءه ، فهي قضية الحاضر والماضي، (اليوم)الذي هو ملك الإنسان، و(الأمس)الذي قد ضاع منه، ثم تخيره لـ(خلف) دون غيرها ، فخلفه بمعنى جاء بعده خلافةً ، ثم إن في معنى الخلفة العوض يقولون : «أخلف اللّه عليك» أي عوضك مما ذهب منك خلفًا ، كما أن فيها معنى الاستمرار يقولون: « أنبت اللّه الخلفة » وهي النبات بعد النبات والثمر بعد الثمر ، واليوم يتلو الأمس ، وهذا اليوم ما يلبث فيصبح أمسًا دابرًا عندما يتلوه يوم آخر ، وربما لهذا السبب أتى بهما نكرتين، فكلاهما غير باقٍ على حاله وكأنهما مجهولا الحقيقة، فما

يلبث يومٌ ويصبح أمسًا لا يعوض = فمعنى كلمة (خلف) تحمل الأمل ونقيضه، فهي تذكر بأن ذلك الأمس قد انقضى وولى وترك مكانه لغيره لخَلَفه ، كما أنها بما فيها من معنى التعويض تعطي نوعًا من الأمل بأنه وإن كان قد ضاع الأمس وولى فهناك يوم جديد يُرْتقب ، هذا بالإضافة إلى ما تحويه من معنى الاستمرار ، وبذلك فإنه قد تخير هنا كلمة ثرية بدلالتها ، كلمة مناسبة جدًا لمقام كلامه .

والداعي للتأمل أن هذا التعبير الوحيد عن الدوام في رسائل أبي العلاء الذي يستخدم فيه كلمة (يوم)، وفي نفس الوقت هذه هي رسالة من أربع رسائل فقط التي كان كلفًا في مطلعها بتحديد اليوم الذي وصلت فيه، مع تحديد اليوم الذي كتبت فيه، حيث يقول(١): « وفي هَذَا اليومِ وهو السَّابِعُ من الشَّهْرِ الأَصَمِّ(٢) ، أَخَذَ اللّهُ في سعادةِ سيدي على يدِ زَمَنٍ سَفيهٍ (٣)، وجَعَلَ الشُّهُورَ كُلَّها صُمّاً عن اسْتِمَاعِ سُوءٍ فيه ، وَرَدَ كتابُهُ أدامَ اللّهُ عزَّه بتاريخِ عشرٍ بَقِيَن من جُمَادَى الآخرةِ » .

وهذا يعني أن رحلة الكتاب من حلب إلى المعرة سبعة عشر يومًا، وقد رأيت كيف كانت الشهور والأيام والزمن ماثلاً هنا في بداية الرسالة كما رأيته ماثلاً في آخرها في سلامه السابق ، ولم يذكر أبو العلاء تأريخ رسالته سوى في هذه الرسائل ، ففي الرسالة التاسعة والثلاثين من نسخة د. عبد الكريم خليفة، وهي رسالة لم يتضح لمن بعثها أبو العلاء، ولكن يبدو أنه بعثها إلى صديق يستحثه فيها على منادمة عزيز الدولة ، ونراه فيها يبدأ بذكر تاريخ كتابته لرسالته ثم تنساق الشهور والأيام والأزمنة على لسانه، ومع ذلك فإنك لا تجد الزمن يحضر في سلامه، ولكنك تجد نفسًا من هذه الخلافة التي تحمل معها الأمل مع ذِكْرٍ للزمن قبل سلامه، حيث يقول(٤): « إن ضاق الرزق فسوفَ يَتَّسِعِ ، فَوَرَاءَ العامِ المُجْدِبِ عامٌ خصيبٌ ، والوادِي الأَشِبُ(٥) مكانٌ رحيبٌ » .

فهل ذكره للزمن وراءه ما وراءه بحيث يجعل هذه الرسائل فقط هي التي ينص على زمنها وتاريخها ؟ !!

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٩١ .
(٢) الأصم : رجب .
(٣) وهم يذكرون الزمان ويريدون أهله .
(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣/٦٦٤ .
(٥) الأشب : أي ذو الأشجار الملتفة .

المهم أن الظاهر هنا أنه قد تتكشف بعض رسائل أبي العلاء عن تناسب من نوعٍ خاص بين مقدماتها وخواتيمها يشي ببعض أفكاره .

وشبيه بالمثال السابق ولكنه إلى عالم المثل أقرب ما جاء من رسالة بعث بها إلى صديق له يسأله أن ينقصه من ترتيب المكاتبة ، بدأها كعادته بالدعاء وذكر الشوق وصفته معتذرًا عن تأخير جوابه شاكرًا المرسل إليه ؛ لأنه فيما يبدو قد أجابه في معونة طلبها لشخص ما ، وهي رسالة تتكاثر فيها الأمثال تكاثرًا لافتًا ، لذلك فإنك تشم رائحة المثل في صورته هذه التي عبر بها عن التأبيد حيث يقول[١] : « وأَنَا أُهْدِي إلى حَضْرتهما ثناءً مِسْكيًا ، وسَلاَمًا زكيًا ، يَبْقَيَانِ ما رَسَا العَلَمُ ، وأَوْرَقَ السَّلَمُ [٢]» .

وهو وإن كان يستخدم عناصر الطبيعة (العلم ، والسلم) في هذا القالب ، إلا أن التعبير ببقاء الجبال تعبير تشم فيه رائحةالمثل العربي كما أسلفنا – فالعرب تقول: « لا آتيك حتى يزول عَوَارِض » وهو اسم جبل عليه قبر حاتم الطائي[٣] ، وذلك في كلامهم كثير ، وهو التمثل ببقاء الجبال على اختلاف أسمائها .

وشبيه به قوله في بداية رسالته التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد يعزيه فيها في وفاة أخته (أم أبي العلاء)، ويذكر سبب خروجه من بغداد وقراره العزلة ، وهي رسالة تتكاثر فيها الأمثال أيضًا ، وهي أعلى رسائله إيرادًا للمثل؛ لذلك فإنك تجد تعبيراته عن التأبيد فيها مستقاة من عالم المثل حيث يقول في مفتتحها[٤] : « كتابي أَطَالَ اللّهُ بقاءَ سَيِّدي ما طَلَعَ صَبِيرٌ ، ورَسَا ثَبِيرٌ [٥]» .

فأنت ترى (رسو ثبير) مقابلاً لطول بقاء خاله الذي يرجوه ، وهو أسلوب مثلي شبيه بالسابق الذي ذكرناه. ويظهر المثل أكثر وضوحًا في تعبيره عن أن حزنه لفقد والدته دائم، ولن تكون هناك سلوة إلا إذا حدثت المستحيلات فآب عنزي القرظة ، وهذا من المثل ، ويعني به القارظ العنزي، والعرب تقول : « حتى يؤوب المنخل »[٦]

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٥ .

(٢) العلم : الجبل ، السلم : نوع من الشجر .

(٣) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، /

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧٦ .

(٥) صبير : هو السحاب الأبيض ، ثبير : اسم جبل .

(٦) العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، ١/٣٦١ .

للشيء يستبعد حدوثه ، والمنخل هو القارظ العنزي . ثم يعلق حدوث السلوة على رجوع النعمان إلى الحيرة بعد أن خرج منها مودعاً حياة الدعة هائماً على وجهه ، وهذا يقرب من المثل ، وقد صنع منه أبو العلاء مثلاً يقول[1] : « يا سَلْوَةَ الأيَّامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ، مَوْعِدٌ واللّه بَعيدٌ،لا سَلْوَةَ حتَّى يَؤُوبَ عَنَزيٌّ القَرَظَةِ، وَيَرْجِعَ النُّعْمانُ إلى الحِيرَةِ ، ويُبْعَثَ نبيٌّ من مَكَّةَ » . وهذه الأخيرة من المستحيلات التي يصنعها أبو العلاء ، صنعها هنا وساقها مساق الأمثلة السابقة عليها .

وهنا يتضح لنا جلياً كيف تلقي معاني التأبيد بظلالها على الرسالة ، وكيف تصلح خاصة تلك التي تأتي في فواتح الرسائل أن تكون بمثابة مفاتيح لاستقراء الرسائل العلائية . وكيف أيضاً يصبغ أبو العلاء رسائله بصبغة أسلوبية واحدة ، فتكاد تكون كل رسالة عالمًا مستقلاً ذا طبيعة بيانية خاصة !!!

ومن القليل النادر أن تتعدد صورالتعبير عن التأبيد في رسالة واحدة ثم تكون كلها من حقل واحدٍ ، سوى ما رأيناه في الرسالة السابقة حيث كانت كلها من حقل المثل ، وكما أسلفنا فإن الرسالة ذات طبيعة خاصة من حيث لغتها التي قدت من عالم المثل قداً ؛ فناسب ذلك أن تكون كل صور التأبيد فيها من حقل الأمثال ، وكذلك رسالته الهناء التي كانت أيضاً كل صور التأبيد فيها من حقل المثل ، وكان ذلك متناغماً مع استحضار أبي العلاء فيها لرجالات التاريخ ، ومن يضرب بهم المثل في ثنائه على المرسل إليهما وإطالته في ذلك .

ونضيف إليهما هذه الرسالة التي نحن بصدد دراستها الآن ، مما يجعلنا نتساءل هل هناك شيء خاص جعل كل القوالب في هذه الرسالة من حقل بعينه دون غيره ؟ ! فلا بد أن هناك ما يميز طبيعة هذه الرسالة عن غيرها من الرسائل كما كان الشأن مع الرسالتين السابقتين .

وهذه الرسالة هي التي بعث بها إلى خاله يذكر له فيها أمر شرح السيرافي وما جرى فيه من التعب ، يبدؤها بالحمد والصلاة ، وفيهما يظهر معنى التأبيد حيث

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٧٩/١.

يقول[1]:« للّه الحَمْدُ ما أُحْصِيَ خطأً وعَمْدٌ، وصَلَّى اللّهُ على مُحَمَّدٍ ما الْتَأَمَ شَعْبٌ، وعَلاَ كعبًا كعبٌ » .

يقول أبو العلاء «للّه الحمد ما أحصي خطأ وعمد» ، هكذا على التنكير لتفيد العموم ، أي خطأ، وأي عمد، وكل تصرفات البشر هي بين هذين الأمرين، فهذا الحمد من قبله دائم دوام هذه الظاهرة الملازمة للمجتمع الإنساني، وهي الإساءة إما خطأً أو عمدًا، أو بالأحرى دائمٌ دوام الإحصاء لتصرفات الإنسان . ثم تراه يقول:« وصلى اللّه على محمد ما التأم شعب، وعلا كعبًا كعب» والتأم بمعنى اجتمع، والشعب بمعنى القبيلة العظيمة أو الحي العظيم، والعرب تقول (التأم شعبهم) إذا اجتمعوا بعد التفرق، وفي حديث عائشة رضي اللّه عنها وصفت أباها رضي اللّه عنه بقولها: « يرأب شعبها » أي يجمع متفرق أمر الأمة وكلمتها[2] . وهذه أيضًا ظاهرة من ظواهر المجتمع البشري الفرقة والاجتماع متلازمان، كالسعادة والشقاء، والغضب والرضا ، هذه المتقابلات التي لا تزال باقية ما بقي المجتمع الإنساني . وهو حريص هنا أيضًا على التنكير فنحن أمام شعب أي شعب ليؤكد عموم القضية مما يعمق معنى الدوام والبقاء فيها ، وربما كان غرضه بالشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه ، أي يجمعهم ويضمهم[3]، وبذا يكون معناه ما اجتمعت القبائل تحت أبٍ واحد، وهذا أيضًا أمر مستمرٌ باقٍ بقاء المجتمع !!

ثم ترى تعبيره الثالث عن الدوام من حقل الممارسات الاجتماعية أيضًا عندما يقول عاطفًا على ما سبق : « وعلا كعبًا كعب » ، تقول العرب رجل عالي الكعب أي يوصف بالشرف والظفر ، وقال الشاعر :

* لما علا كعبك بي عليت *

أراد لما أعلاني كعبك[4] ، حيث تراه في هذه الصياغة يسند فعل العلو للكعب نفسه وليس لصاحبه مجازًا، وهذا هو الأشبه بصياغة أبي العلاء عندما يقول: «وعلا كعبًا كعب » ، وأنت ترى هـذا الإلحاح على التنكير في كل الصيغ الثلاثة ، فكما

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٣٦ .

(٢) ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم : لسان العرب ، مادة (ش ، ع ، ب) ، ١/٤٩٨ .

(٣) السابق ، ١/٥٠٠ .

(٤) السابق ، مادة (ك ، ع ، ب) ، ١/٧١٨ .

وجدناه في النموذجين السابقين نجده هنا في (كعب)، و (كعب) الأخرى ، وقد جعل أبو العلاء التفاضل بين كعبين علواً ، فجعلك أمام كعبٍ يعلو كعباً ولا بد من آخر يعلوه ، يريك هذا الدنيا وأهلها في تفاضلهم المستمر، واستمرارها في رفع أناس ووضع آخرين، فظاهرة التفاوت والتفاضل بين أبناء المجتمع أو حتى طبقاته من أبرز سمات المجتمع البشري التي لا يكون إلا بها ، فاقتنصها أبو العلاء هنا للتعبير عن الدوام ، مما يجعلنا نتساءل لماذا اختار أبو العلاء إحصاء الخطأ والعمد ، والتآم الشعب ، وعلو الكعب ؟ !

هل التعبير عن الدوام هنا مقصود لذاته ؟! أم أنه وسيلة لاستحضار مثل هذه المعاني ، والمقصود هو التنبيه على دوام مثل هذه الظواهر في المجتمع البشري، وكونها سنناً فيه ؟ !!

والحقيقة أن هذه الرسالة مميزة في بابها كما توقعنا بادءاً ذي بدء ، حيث تنتشر فيها التشبيهات التي تنهل من حالات الناس في المجتمع وهم يعالجون مواقف معينة ، مما يجعلها في ذلك فريدة في رسائل أبي العلاء . وفي هذا إجابة على تساؤلنا عن السبب الذي يقف خلف خلوصها في التعبير عن الدوام لحقلٍ واحد وهو الممارسات الاجتماعية ، ومما يؤيد تساؤلي الأخير (هل التعبير عن الدوام هنا مقصود لذاته أم أنه وسيلة لاستحضار مثل هذه المعاني ؟) انتشار هذا الرصد لمواقف اجتماعية معينة ، حيث تلتقطها خيالات أبي العلاء المصورة وتخلد تلك الحالات واللحظات التي يمر بها الإنسان باختلاف الفئة التي يمثلها ، أو الحرفة التي يمتهنها، أو الحالة التي يُعالجها. أعني أن هذه الرسالة تنتشر فيها التشبيهات بشكل لافت للنظر ، وهي تشبيهات مؤكدة على صورة الفعل مع المفعول المطلق ، وهي ثمان حالات أو تشبيهات يذكرها في معرض وصفه لشوقه ، وتشوفه لأخبار خاله ، وسروره بكتابه ، إلى غير ذلك من المعاني العامة الكثيرة الورود في الرسائل الإخوانية ، ولكن ما يكسبها خصوصية هنا هي هذه التشبيهات التي هي من حقل واحدٍ ، وتحمل صياغةً واحدةً ، ونسقاً واحداً !!

فأولاً شبه تشوفه لأخبار خاله بتشوف راعي أنعام عالج الجدب والمحل سنة بعد سنة، هو وأنعامه يتشوفون لبارقٍ يماني – وخصّ اليماني كونه لا يُخْلِف –

يقول[١] : « وتشوفي لأخباره تشوف راعي أنعام ، أجدب في عامٍ بعد عام ، لبارقٍ يمان ، هَوْلُه مرتقب ممان[٢] »، ثم شبه انتظاره لمقدمه بتاجر قلق ينتظر بشوق وأمل مقدم ذلك الوفد الذي تصلح معه وبه تجارته[٣] : « وانتظاري لقدومه انتظار تاجر مكة وفد الأعاجم » ، وأيضًا شبه نفسه في ذاك بصاحب ماشية ينتظر ظهور النبات بصبر نافذ فعطف قائلاً : « وربَّ الماشية ظهور النبت الناجم » ، ثم يشبه حاجته لنجدته واستغاثته به باستغاثة الغريق بالشاطيء ، والخائف بسيف يدافع عن نفسه به يقول[٤] : « وفزعي إلى نجدته فزع الغرق إلى سِيف دانٍ ، والغرق إلى سَيفٍ ليس بددان [٥]» . ولا تغفل عينك هذا الجناس الثنائي بين (سيف دان ، وسيف ددان) ، فبين (سِيف ، وسَيف) جناس محرف ، وبين (دانٍ ، و ددانٍ) جناس ناقص .

فقد استبان لنا الآن لما كانت صيغ التأبيد رغم تعددها في هذه الرسالة من حقل واحد، وهي بحق بطبيعة تشبيهاتها هذه فريدة بين رسائل أبي العلاء . ويقيني أن خلف هذا من أسرار نفس أبي العلاء الكثير، ولكن قد أعياني الوصول إليها .

والذي نخرج به من هذا المبحث :

أولاً : أنه إذا بُدئت الرسالة بالتعبير عن التأبيد كان هذا دليلاً على أن الرسالة سوف يحضر فيها نفس المبالغة حضوراً لافتًا ، أو سوف تتكاثر فيها صيغ الدلالة على التأبيد ، وربما اجتمع الأمران .

ثانيًا : أن في المعاني التي تخيرها أبو العلاء للدلالة على التأبيد في مطلع الرسالة ما ينبيء عن دخيلتها ، مما يجعلنا نقول بأن هذه المعاني في رسائله بمنزلة مطالع القصائد في الشعر .

ثالثًا : أن صنعة أبي العلاء استطاعت التأليف بين هذه الصيغ رغم اختلاف الحقول التي استقتها منها ، بالإضافة إلى أنها صبغتها بصبغة الرسالة ذاتها ، فلم يكن اختياره لها اعتباطًا ، وإنما خلفه تصورٌ ما ، وإن كنا أحيانًا نجهله .

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٣٠/١ .

(٢) بارق يمان : أي الذي يلمع من جهة اليمن ، ممان : مطاول .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٣١/١ - ٢٣٢ .

(٤) السابق ، ٢٣٢/١ .

(٥) سِيف : شاطيء ، دانٍ : قريب ، الفرق : الخائف ، الددان : الكهام الذي لا يقطع .

الفصل الرابع

مواقع « إنما »

في رسائل أبي العلاء

إن أول ما نلحظه إذا ما تتبعنا مواقع إنما في رسائله أنه لا يستخدمها إلا الاستخدام الذي تجده في أرفع الأساليب وأعلاها .

فهي لم تأت في بيانه قط إلا مع المعاني التي يمهد لها الكلام السابق ويهيء لها أو يتطلبها على حد ما قال الشيخ عبد القاهر[1] : « فإنك إذا تأملت مواقعها وجدتها في الأمر الأكثر قد جاءت لأمر قد وقع العلم بموجبه وبشيء يدل عليه »، وهذا معنى أنها لا تستخدم إلا في الكلام الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكره، أو المنزل هذه المنزلة[2] ، ويقول الشيخ[3] : « واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق » .

وهذا من شأنه أن يدلنا على أن سليقة أبي العلاء كأنها طبعت على سليقة هذه اللغة ؛ لأن هذا الاستعمال لـ (إنما) هو جزء من سليقة اللغة ومن سنن العرب ومجاريها في تصاريف كلماتها ومواقع دلالاتها ، فإذا رأينا أدب الأديب يجري على هذا السنن جرياناً يطرد ولايتخلف، كان ذلك دلالة ظاهرة على أن سليقة هذاالكاتب وطبعه إنما هو طبع مجاري العرب وسليقتها . وهذا الذي لحظناه في استخدامه لها ، إنما هو شهادة له بأصالة الطبع، فقد استخدم(إنما) استخداماً لا كدر فيه.

تأمل معي هذه الرسالة التي وقعت (إنما) في قلبها وقد بعث بها أبو العلاء إلى أبي القاسم المغربي الوزير كجوابٍ عن فصلٍ كتبه إليه يقول فيها[4]: « كُلَّما هَمَّ خَبَرِي بالهُمُود ، وأَشْرَفْتُ على الخُمُود ، نَعَشَنِي اللّهُ بسلامٍ ، يَرِدُ من حَضْرَتِه[5] يجعلُ أَثَري كالرَّوضة الحَزْنِيَّةِ ، والبَارِقَةِ المُزْنِيَّةِ[6] ، ولو كنتُ عن نفسي رَاضياً ، لشَرَّفْتُها بزيارَةِ حَضْرَتِهِ ، ولكنِّي عنها غيرُ راضٍ ، وما أَقْرَبَنِي إلى انْقِرَاضٍ ،

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٥١ .

(٢) يقول الشيخ في ذلك « فإن رأيتها قد دخلت على كلامٍ هو ابتداء إعلام بشيء لم يعلمه السامع، فلأن الدليل عليه حاضر والشيء بحيث يقع العلم به عن كثب » .

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٥٢ .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٢٠ .

(٥) الهمود : الانقطاع ، الخمود : من خمدت النار إذا سكن لهيبها ولم يطفأ جمرها ، نعشني : رفعني وأقامني .

(٦) الحزنية : نسبة إلى الحزن خلاف السهل ، المزنية : السحابة البيضاء ذات المطر .

وإنَّما أنا قضيضُ التِّمْرَاد ، ومُتَخَلِّـفُ المَرَاد [1] ، قد عُدِدْتُ في أناسٍ قيـلَ فيـهم (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)، وإنْ نَعِمْتُ أو شَقِيتُ ، فَدُعَائِي يَتَّصِلُ بحَضْرَتِه ما بقيتُ » .

وهي كما ترى رسالة قصيرة تنضح بإحساس أبي العلاء بأنه قد دخل منطقة الظل وشارف على العدم ، فتراه يفتتحها بهذا المعنى « كلما هم خبري بالهمود ، وأشرفت على الخمود » وهي كما ترى جملة شرط تكونت من جزئين وبنيت بناءً مصقولاً جداً ، فهناك تقارب شديد في طول الجملتين ، وتقارب في حذوهما ، فهما جملتان فعليتان ظهر فيهما الفاعل ثم جار ومجرور متعلق بالفعل، وبين (همود ، وخمود) جناس مضارع ، وقد ذكرنا أن هذا لا يحدث في بيان المبين إلا عندما يكون المعنى وثيق الصلة بنفسه ، فقد قذف بهذا المعنى أول الرسالة على غير عادته في الدعاء والاستفتاح ، وهذا الاعتناء به يدل على أنه من نفسه بمكان ومن الرسالة أيضاً ، فلا نتجاوز إذا قلنا بأنه رأس المعنى فيها ، فهو يريد أن يقول بأن ذكرك لي وأنت رجل عظيم يبعد الهمود والخمود عني لأنك نابه كريم ، فإن ذكرتني نفضت بذلك عني الهمود وحبيتني من نباهتك نباهةً تجعل أثري « كالروضة النجدية ، والبارقة المزنية » ، وهنا يثب أبو العلاء بمعناه وثبة شديدة جداً فينقلنا من تلك البداية التي ترى فيها ناراً شارفت على الأيام إلى روضة حزنية وهي خير الرياض، –وهذه الصورة فيها ريح من قول الحق (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ) – صورة تفاجئك بالخصب والنماء والحياة والزرع والزهر وكل ما توحي به الروضة الغناء الحزنية ، وإنما أضاف البارقة المزنية ليضيف أن هذه الروضة تُمطر فيزيد خصبها ونماؤها.

هكذا تصويره لحاله وحال صاحبه ، وهو كذلك في رسائل كثيرة يتصاغر في إفراط ، ويتعاظم قلمه بصاحبه في إفراط أيضاً ، وكأن هذا وسمٌ من وسمه ، ورفت من رفته !!

ثم يبدأ في الاعتذار عن منادمة الوزير وتبدأ لغته من جديد في التوازن « ولو كنت عن نفسي راضياً لشرفتها بزيارته ، ولكني عنها غير راضٍ ، وما أقربني إلى انقراض » ، وبهذه الجملة « وما أقربني إلى انقراض » يعود أبو العلاء إلى

(١) التمراد : برج صغير للحمام ، وقضيضه : فراخه ، ومتخلف المراد : أي متأخر العنق .

المعنى الأم الذي قذفه في مسامعنا وأمام نواظرنا بادءًا ذي بدء ، ثم بعدها مباشرة تظهر جملة (إنما) موضع الدرس « وإنما أنا قضيض التمراد، ومتخلف المراد » ، وقضيض التمراد هو فرخ الحمام الصغير الذي لا حول له ولا قوة ، أما متأخر التمراد فهو مؤخرة العنق ، وإذا كانت العرب تقول عن الرجل الكريم النابه هو هادية العنق ، فإن أبا العلاء قد أصبح مؤخرته لخمول ذكره ، وهذا داخل في وسم كلامه لأنه جزء من إفراطه في تصاغره ، وإفراطه في تعظيم مخاطبه ، وإن كان في هذا يروغ من تكاليف وواجبات يرفض هو القيام بها .

وهذا الذي يقوله في جملة (إنما) قد هيأ لظهوره أبو العلاء منذ بداية الرسالة ، ثم عاد إليه بقوله « وما أقربني إلى انقراض » ، وما تراه في جملة (إنما) إنما هو صياغة جديدة لهذا المعنى في صورة جديدة ، ووضعه لهذا المعنى في أسلوب القصر أدل دلالة على تمكنه من نفسه وإرادته تمكينه في نفس مخاطبه ، وهو من قصر الموصوف على الصفة .

فأبو العلاء في هذه المرحلة التي أتاه فيها كتاب الوزير ليس إلا قضيض تمراد، ومتخلف مراد ، قد هم خبره بالهمود ، وأشرف على الخمود ، وأوشك على الانقراض، فلا طاقة له على منادمة ، ولم يعد في النفس بقية .

وأنت ترى كيف وقعت (إنما) في هذه الرسالة موقعها وصادفت منها مكانًا مطمئنًا لا قلقًا ولا نابيًا ، وقد مهد لها الكلام السابق وهيأ لها ، ثم إنه في اختياره لـ(إنما) دون غيرها من أدوات القصر يريد أن يقول بأن هذا الأمر من نفسه خبر معلوم ، وحقيقة ظاهرة ، لا يحتاج إذا ساقها أن يقررها ويؤكدها .

ومما هو أقرب مأخذًا من هذا قوله في رسالته السابعة والثلاثين من نسخة د. عبد الكريم خليفة ، ولم يظهر لمن بعثها ، ويبدو أنه قد بعث بها إلى صديق يغريه فيها فيما يبدو بمنادمة السلطان يقول[1] : « والملوكُ مِثْلُ البِحَارِ لا يُوجَدُ لُؤلُؤهَا على السِّيفِ ، وإنَّما يُوصَلُ إليه بمُعَاناةٍ ومُسَانَاةٍ [2] » .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣/٦٥٥ .

(٢) السيف : ساحل البحر ، بمعاناة : أي معالجة ، بمساناة : ساناه بمعنى راضاه وداناه وأحسن معاشرته .

فقوله بأن الملوك تشبه البحار فلا يوجد لؤلؤها على الشواطيء، يفهم منه أن من يرد هذا اللؤلؤ فإنه بحاجة إلى أن يقمس في لجة البحر ويتعب لإيجاده والحصول عليه ، وهو ما تراه مع (إنما) بقوله « يوصل إليه بمعاناة ومساناة » ، فكانت جملة (إنما) هنا مفصحة عن معنى مستكن خلف العبارة السابقة ، وقد مهدت تلك لظهوره مع (إنما) مأنوسًا قريبًا من النفس فلا تجهله ولا تدفعه .

وأشباهه في وضوحه وقرب مأخذه كثير في بيانه ، ولكن الأغلب أن يمتد نفس التهيئة والتوطئة فلا تراها كما كانت في المثال السابق قريبة المأخذ، وإنما أنت بحاجة لتتبع السياق بأكمله من أوله لتعلم بأن المعنى الذي أتت به (إنما) معنىً قد مهد له بهدوء منذ البدء ، أو ربما وجدت الرسالة منذ مفتتحها مهيئة له ، وقد يطول السياق المهيء حتى تأتي جملة (إنما) وهي رأس المعنى، وخلاصة الفكرة، وزبدة القضية، والكلمة الفيصل، والنتيجة النهائية .

وتأمل هذا الموضع لها من رسالته الثانية إلى داعي الدعاة الفاطمي ، التي كان الرجل قداعترض قبلها على ما اصطنعه أبو العلاء في الأولى من سجع مطالبًا إياه بأن يتجنبه في الثانية بقوله[1] : « ثم إن قام من الشيخ حفظه الله نشطة لجواب يكتبه عن هذا التعليق أعفاني فيه عن قصد الأسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فإن ملتمسي فيه المعاني لا الألفاظ » .

فانبرى أبوالعلاء في آخر رسالته الثانية إليه للإجابة عن هذا الطلب فقال[2]: « وفهمتُ ما نهى عنه من اجْتِنَابِ السَّجْعِ ، وقد أدَّبَني بما قال » ثم يسترسل في حديث عن السجع في مقطع من كلامه يبلغ عشرين سطرًا يبدأه بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يُورد كثيرًا في هذه القضية، حيث يعقب على ما قاله آنفًا بقوله : « أَدَبَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حين قَالَ له القائلُ لما ذكرَ الجنينَ : أرأيتَ من لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا صاحَ ولا اسْتَهَلَّ ، أليسَ مثلُ ذلك بَطَلَ ... فقالَ صلى الله عليه : أَسَجْعًا كالجَاهليَّة » ، وكأنه بهذا الأسلوب يقره على رأيه في السجع، إلا أنه يقول بعد ذلك مستدركًا « على أنَّ النَّاسَ في الإسلامِ قد استَحْسَنُوا السَّجْعَاتِ

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٢٣ .

(٢) السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

وكَثُرَت في خُطَبِهم ومُرَاسَلاتِهم»، وهذا من تلاعب أبي العلاء بمخاطبه حيث رسالته هذه ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، رسالة دقيقة المسلك تحتاج إلى شحذ بصيرة وفضل تدبر وتأمل ، كونها تناقش أموراً هي إلى قضايا الفلسفة والكلام أقرب ، فيبدأ حديثه عن السجع هكذا بذكر واقع الحال من استمراء بل استعذاب البيان العربي – حتى بعد الإسلام – للسجع ، ثم يدعم ذلك كله بما ورد منه في القرآن ، هكذا يسير في كلامه دونما احتشاد لمنافحة أو منافرة عن السجع وعن بيانه ، ودونما أن يشعرك بأنه يحاجج في قضية ما ، بل يجعل الكلام ينسال منه وكأنه عفو الخاطر ، ولذلك كانت تلك البداية الموهمة بأنه مُسَلَّمٌ بما قاله داعي الدعاة عن السجع . ولذا ناسب أن يكون أسلوبه القادم في القصر بـ (إنما) دون (ما، وإلا) لأنه لا يريد الاحتجاج والاحتشاد رغم أن المقام مقامهما ، هو يريد أن يسقط فكرته في نفس المخاطب وكأنها أمر مسلم به لا يدافع في صحته ، ثم أنه بهذا الأسلوب ينال من مناقشه الذي أراد أن يُزري على أبي العلاء لكي يستفزه ، ويقول له إن لغتك هي لغة التمويه ولغتي لغة الوضوح « فإن ملتمسي فيه المعاني لا الألفاظ » فكان رد أبي العلاء الأبلغ بأن لغته لغة القرآن والحديث !!

ونعود إلى حديثنا عن موقع (إنما) هنا ، فهو بهذا الاسترسال أخذ يضع لبنات إبطال فكرة أن النهي في الحديث موجه للسجع على الإطلاق بمنتهى الهدوء، بدءًا بوجوده في لغة المسلمين والخطباء ، ثم في هذه القصة التي لا يبعد في تصوري أن يكون أبو العلاء مبتدعها حيث يقول : « ورُوِي أنَّ بَعضَ المُلوكِ قالَ لبعضِ الفُقَهَاءِ : بَلَغَني أنَّك تُحِبُّ السَّجْعَ ، فقالَ : نعم ، وقرأَ عليه آياتٍ من قوله تعالى : (والشَّمْسِ وضُحَاهَا) » .

فهذا ملكٌ وفقيه ، وإجابة مفحمة مخرسة ، وهذا يصب فيما قلناه سابقًا في عدم المجابهة الصريحة بل يلتف حولها ، وهو أبلغ لما فيه من التعريض دون التصريح ، ثم تَتَبَّع الظاهرة بمنتهى الإيجاز في كتاب الله : « والفواصلُ التي جاءتْ في الكتابِ الأشْرَفِ على ضروبٍ، منها ما هو متباعدٌ لايجري مجرى السَّجع، وفيه ما يجري مجرى المَسْجُوعاتِ كقوله تعالى : (والفَجْرِ ، ولَيَالٍ عَشْر ، والشَّفْعِ والوَتْرِ) وكذلك قوله : (ألم ترَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد) » ، مما يجعل القارئ يصل معه هنا إلى أنه ما دام الأمر كذلك فلا بد أن هناك توجيهًا خاصًا

لنهي الرسول عن السجع في الحديث الآنف ، وأن هذا النهي منه عليه السلام لم يكن للسجع على الإطلاق ، ثم يبلغ بهذه الفكرة القمة عندما يجعلها فطرة بقوله : « ولو عَلِمَت الحَمَائِمُ السَّاجِعَةُ أنّ اللّه سبحانَه أو نَبِيَّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم يَكْرَهُ سَجِيعَها على الغُصُون لَخَرِسَتْ عنه وتَبَرَّأَتْ منه ، وكَذَلِك النُّوقُ المَوْصُوفَةُ بأنَّها سَاجِعَاتٌ كما قَالَ مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَة :

* إِذَا حَنَّتِ الأُولى سَجَعْنَ لَهَا مَعًا * » .

فهي صورة لا تخلو من السخرية ، وباطنها الحقيقة التي تقول : أنه من فطرة الإنسان أن يبحث عن الكلام الموقع والمنغم كما هي فطرة موزوعة في الكون ، تراها لدى الحمائم في سجعها ، والنوق في حنينها !!

ثم بعد هذا تأتي جملة (إنما) يقول : « وإنَّما كَرِهَهُ عليه السَّلام لأنَّه قد كَثُرَ في كَلَامِ الكُهَّانِ ، فَنَهى عنه غيرَ مُحَرِّمٍ لَهُ » ، فتراها قد أتت وقد مهد لها الكلام السابق ، فأتت مأنوسة توقعتها النفس وكادت تؤمن بها قبل أن تسمعها ، فهي كالخبر الذي لا يدفعه المخاطب ولا ينكره ومنزلة منزلته ، ومن هنا كان ترك أبي العلاء للتعقيب على الحديث الشريف في حينه ، وإلا لو فعل للزمه أن يستخدم القصر بالنفي والاستثناء لأنه حينها قد نَزَّل نفسه منزلة من انبرى للمحاجة والدفاع، وأخذ في دفع شك يساور نفس من يستمع الحديث ، وبأن الأمر ليس كما يوهم ظاهره بل هو على خلاف ذلك ، وبذا كسب أبو العلاء معركته دون أن يلبس لها لأمة أو يتشح بسيف !!

والحق أن في أسلوبه هذا فضل جمال لم نتعرض له وهو أنه عندما أخذ يتتبع ظهور السجع في البيان الشريف بعد ذكره للحديث، ثم يثبت كونه أمرًا أصيلاً في البيان العربي على هوينا ، ثم عاد ليقول وفي إطار (إنما) بأن الحديث شأنه كذا وكذا = كأنه يقول بأنه ليس للمحتج سوى هذا الحديث ، فوضعه في البدء أمام كل تلك الشواهد والدلائل ، ثم بعد أن أوقع بكلامه الممتد في نفس المخاطب ما أوقع ، فك طلسمه وأبان عن معجمه (الحديث) ، وكأنه أخّر البيان ، وهذا سنن عربي تحدث عنه ابن الجوزي في كتابه المدهش(١) .

(١) الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين بن علي : المدهش ، تحقيق : د. مروان قباني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، ص ٣٩ - ٤٠ .

المهم أنك مع هذا الموقع لـ (إنما) إن أتيت لتبحث في الجملة السابقة لها أو التي قبلها عن شيء يمهد في وضوحٍ لظهور معناها لن تجد ، فقد يوهمك ذلك بأنه يستأنف كلاماً جديداً فأنت لا تستطيع أن تعلم شيئاً حتى تعود إلى بداية المقطع وتسير معه شيئاً فشيئاً ثم تأتي (إنما) في مكانها وموقعها .

وقد تكون الرسالة من مفتتحها مهيئة لظهور (إنما) – كما أسلفنا – ، وتأمل معي الرسالة التي بعث بها إلى أبي الحسن علي بن عبد المنعم بن سنان جواباً عن كتابه في أمر أبي الحسن محمد بن سعيد بن سنان ، فبعد صفة سريعة لشوقه وكتابه يقول[1] : « فَأَمَّا سيِّدي الشَّيخُ أبُو الحَسَن بن عمه – جَمَّل اللَّهُ بِبَقَائه– فليسَ لي به يَدَان ، قد صَارَ صَارِمي مثلُ الدَّدَانِ [2] » .

ويبدو من هذه الرسالة أن المُرسل أراده أن يأخذ على يد ابن عمه في أمرٍ ما كان هذا الأخير قد أفرط فيه وفي تعاطيه ، وكلاهما أبو العلاء والمُرسل يخشيان عليه مغبته .

فيبدأ أبو العلاء حديثه عنه بالجملة السالفة فيقطع كل أمل للرجل في أبي العلاء نفسه في أن يكون له القدرة على التأثير على صاحبهما، وهذا من أبي العلاء يدل أنه لم ينتظر الرسالة ليعالج شأنه بل لقد صار صارمه مثل الددان ، فقد صار سيفه القاطع كهاماً لا يمضي من كثرة محاولاته ، ثم يسترسل أبو العلاء في وصف تمسك هذا الرجل بما يفعله، وفي نفس الوقت في قطع الأمل في أن يكون له عليه تأثير يذكر فيقول في ذلك : « ولَيسَ لي عِنْدَه سَالفُ يَدٍ تُوْجِبُ أن أعْزِمَ فَيَلْتَزِم »، ويعقب على ذلك بقوله : « وقد عَرَّضْتُ له بالنَّصيحةِ وحَرَّضْتُ ، وذَكَرْتُ له فَضْلَ الأجْرِ ، ودعوتُه إلى غَيْرِ الهَجْرِ ، فانْصَرَفْتُ بما قَالَ جلَّ اسمُه (وما دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلا في ضَلَالٍ) خِلْتُني أَهْمِسُ لِنَعَامَةٍ ، وأَطْلُبُ على الهَضَبَةِ مَسِيرَ العَامَّةِ [3] » .

وبهذه الجمل يوصل أبو العلاء مخاطبه إلى اليأس التام منه، ومن قدرته على

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣١٠ – ٣١١ .

(٢) صارمي : سيفي ، الددان : لاغناء عنده والسيف الكهام لا يمضي .

(٣) العامة : هامة الراكب إذا بدا لك في الصحراء ، فأمره معه لا طائل من ورائه كمن يحاول أن يُسمع النعامة – وهي صماء – ومن يحاول أن يرى مسير العامة على الهضبة .

التأثير على الرجل، ثم ترى أبا العلاء لايكتفي بأن ييئس الرجل منه بل وكأنه يبحث عن الخيارات الأخرى التي من شأنها أن تظهر فيتناولها بلسانه يقول : « فَأَمَّا القَاضِي أَبُو جَعْفَرٍ فَهْوَ بِالْعِظَةِ مُخْبِرُ ، غَيرَ أنَّه لا يُجْبِرُ »، فالقاضي لا يتجاوز تأثيره أن يعظ ولكنه لن يستطيع إجباره بحال من الأحوال ، وبذا يكون خيار أبي العلاء وخيار القاضي قد أُسقطا فتظهر جملة (إنما) وقد قطع أبو العلاء كل السبل لإصلاح هذا الرجل والأخذ على يده « وإنَّما تُمَدُّ النُّصْرَةُ بلا قَصْرٍ ، في حَضْرَةِ أَمِيرِنَا أَبِي نَصْرٍ»، وهو يعني أبا نصرٍ الفلاحي الذي كان يتولى منصباً في بلاط عزيز الدولة[1] ، وما دام القاضي يعظ ولا يجبر ، وأبو العلاء ليس له عليه يد تجعله يعزم فيلتزم الآخر ، فلا بد إذاً من رجل تكون له السطوة والسلطة واليد التي تلزم بالطاعة ، فليس إلا أمير يعرفه الاثنان وصاحب سلطان يتجهان إليه ، فكانت جملة (إنما) السابقة .

وهكذا ترى أنك لو لم تتتبع الرسالة منذ بدايتها لما رأيت (إنما) في موقعها الذي أتت عليه ، بل أنت ولا بد مستحضر كل ما سبقها في نفس واحد حتى ترى هذه التهيئة ظاهرة جلية ، وحتى تجد معها جملة (إنما) وقد أعطت الخلاصة والخاتمة والحل لكل القضية ، والذي كاد أبو العلاء أن يفصح عنه قبل أن تأتيك ، فوقعت بذلك من نفسك موقعاً مأنوساً .

ثم إن هناك سبيل آخر للنظر في تهيئة أبي العلاء لـ (إنما) هنا وهو أنه وإن كانت جملة (إنما) معطوفة بالواو، إلا أنها في حقيقة معناها وكأنها من باب شبه كمال الاتصال، حيث تجد هذا التساؤل قد لاح لك وللمخاطب عند وصول أبي العلاء إليها ، وما العمل إذاً ؟ ! وإذا لم تكن أنت قادراً ، ولا القاضي قادراً، فمن يعيننا عليه وينصره على نفسه ؟ !

وإن كان الأسلوب في الجملة مغايراً لأسلوب شبه كمال الاتصال ، لأن الواو تقتضي المغايرة ، وكأن ما بعدها كلام غير الذي قبلها والواو تجمع بينهما ، إلا إنه عند التحقيق تراه كأنه إجابة عن تساؤل هاج في نفس المخاطب وأشباهه كثير في كلام العرب من ذلك ما تراه في قول شمس بن الحارث :

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣١١/٢ .

« أَتَوْا نَارِي فقُلْتُ مَنُونَ أَنْتُم   فقالُوا الجِنُّ قلت عِمُوا ظَلَامـا

فقُلْتُ إلى الطَّعـامِ فقال مِنْهُـم   زعيمٌ نَحْسُدُ الإنْسَ الطَّعَـامـا

لقــد فُضِّلْتُـمُ بالأَكْـــلِ فينَا   ولكـن ذَاكَ يُعْقِبُكُــــم سِقَـاما

فدخول الفاء على قوله (فقلت ... فقالوا ... فقلت ...) يجعل الكلام مرتبًا بعضه على بعض وليس متولدًا بعضه عن بعض كما لو كان بدون »[1] الفاء ، ومن هنا يسلك المهيء لـ (إنما) في بيان أبي العلاء مسلكًا آخر، فتأتي(إنما) مأنوسة ليس فقط لأن الكلام قد مهد لها بل لأنه تطلبها ، فتأتي والنفس منتظرة لمعناها متشوفة له .

وأنت تلمح مثل هذا التساؤل في كثير من مواقعها في رسائله، ويكون أكثر ما يكون صراحةً في هذا البناء الذي جاء عليه قرابة اثنا عشر موقعًا من مواقع (إنما) في رسائله موضع الدرس ، حيث تراها تأخذ هذا الحذو الواحد تقريبًا « إنما فعلت ذاك لذا » ، وكأنه يفترض تساؤلاً من نوعٍ ما فيفصح عن السبب والعلة فيما انتهجه أو فعله ، وجميعها أتت بالواو كحال الشاهد السابق في كونه في معناه فقط من شبه كمال الاتصال، وإلم يكن كذلك على الحقيقة في الأسلوب، ما عدا شاهد واحد فقط كان على إسقاطها ، فالتساؤل معه ظاهر صراحة لكونه من شبه كمال الاتصال فعلاً ، وهو ما قاله في ختام رسالته للنكتي البصري رسالة الجن ، فبعد أن اعتذر عن الإطالة قال[2] : « إنما أَجَبْتُهُ بِنَثِيرٍ دُونَ نَظِيمٍ لأنِّي مُنْذُ سَنَوَاتٍ قد أَعْرَضْتُ عن تِلْكَ الهَنَوَاتِ [3] » .

وكأن رسالته بكل ما كتبه فيها وحَبَّرَة من شأنها أن تثير في نفس مخاطبه تساؤلاً يقول: قد بعثت لك نثرًا ونظمًا، فلما أعرضت عن الثاني واكتفيت بالأول ؟ !! فكانت هذه الجملة بمثابة الإجابة على هذا التساؤل الذي من شأنه أن يحوك في

---

(١) أبو موسى ، محمد : دلالات التراكيب – دراسة بلاغية ، ص ٢١٨ .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٤٧١ .

(٣) الهنوات : الأشياء . ويريد بذلك قوله الشعر لأنه أعرض عنه في بداية عزلته .

نفس مخاطبه ، فأبو العلاء قد قصر نفسه في بداية محبسه على النثر دون الشعر تنزهًا وعفةً وورعًا حتى فتح اللّه عليه باللزوميات التي ارتأى فيها أنه قد تجاوز ما من شأنه أن يترك الشعر لأجله ، فجعلها في التفكر والتدبر في آيات الكون وتمجيد اللّه سبحانه فالقصر هنا قصر إضافي لأن المنفي خاص « دون نظيم » وتحقيقي لخلوه من الإدعاء .

وفيما عدا هذا الموقع كانت جميعها بالواو ، ومن أطرف مواقعها على هذا النحو ذلك الذي ورد في رسالته إلى أبي بكر محمد بن أحمد الصابوني ، وهي رسالة على قصرها تنتشر بها القوالب الدالة على التأبيد ، وينشر فيها أبو العلاء صورًا اقتبسها من النحو وقواعده ، يقول في نهايتها[1] : « وقد عَرَضْتُ إلى الشَّيْخِ حَاجَةً جعلتهُ فيها عِمَادَ المَضُوفَةِ ، لا العِمَادَ عند أَهْلِ الكُوفَةِ » .

وقد ورد في النص (جعلتها) ولكن الكلام لا يستقيم إلا إذا كانت (جعلته)، لأن الضمير فيها عائد على الشيخ لا على الحاجة ، والمضوفة الأمر الذي يُحذر منه ويخاف ، فهو عماد الشدائد يُلتجأ إليه ، أما عماد أهل الكوفة فهو الضمير المنفصل وبالأخص الميم في الضمائر المثناة ، وهذا من الجناس التام الذي يبدع أبو العلاء في الكشف عنه . يقول أبو العلاء بعد هذا : « وإنَّما حَمَلَني أنْ أَخُصَّهُ بِهَا دونَ سَائِر من عرَفْتُ أنَّ ... » وكأن أبا العلاء عندما ذكر بأنه قد عرض إليه في حاجة جعله فيها العماد الذي تشد به الأمور العظائم = كأنه إذ ذاك أثار في نفس المخاطب تساؤلاً يقول : لماذا هو دون غيره تتوجه إليه بحاجتك ؟ ! أو هل هو أهل لمثل هذا التَخَيُّر والاعتماد ؟ ! فكانت جملة (إنما) مفصحة عن السبب ، فقد افترض أبو العلاء في نفسه أنه مسئول أو توقع مثل هذا التساؤل ، وإن كانت الجملة قد بدئت بواو فأصبحت بذلك منزلة الكلام المستقل عن الأول، وكأنه يستأنف معنىً جديداً ، وهذا يدل على فضل حفاوة بمعناه .

ثم إن السبب الذي وضعه في إطار (إنما) سبب غريب وطريف كان بالفعل يحتاج إلى (إنما) لتكسبه ثوبًا من الإيناس، حيث لا يعدو كونه تفاؤلاً باسم الرجل وكنيته ولقبه، فيقول بذلك أبو العلاء بأن هذا التفاؤل سببٌ كافٍ ومقنع وغير مدافع

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٨١.

فـي أن يحملني علـى الاعتماد علـى الرجل فـي الشأن العظيم الخطير ، يقول[1] : « وإنَّمـا حَمَلَني أَنْ أَخُصَّه بِهَا دُونَ سَـائِرِ مَن عَرَفْتُ ، أنَّ اسـمَـهُ أَدَامَ اللّهُ عِـزَّه كـاسْمِ نَبِيٍّ بالشَّـفَاعَـةِ حَقِيقٌ ، والكُنْيَةُ كُنْيَـةُ الصِّـدِّيق [2] ، والصَّابُونيّ هِجَاؤُه صَابَ ونيٍّ ، صَابَ من صَوْبِ المَطَر، والوَنِيُّ اللُّؤْلُؤْ في شِعْرِ ابن حَجَرْ[3]، والغَيْثُ يُحْمَدُ وإنَّمـا أَنْبَتَ زَهْرًا ، فَكَيْفَ إذَا أَمْطَرَ جَوْهَرًا ، ومنزِلُهُ دَرْبُ السِّـدْرَة ، تلك في الأرْضِ سِدْرَةُ نُهى ، إذ في السَّمَاء سِدْرَةُ المُنْتَهَى[4]، بمُرَبَّعَةِ الزَّيَّاتِين[5]، فَبَخٍ بَخٍ (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ)

وأكثر ما يلفت النظر ويستحق التأمل هو هذا الامتداد لجملة (إنما) ، فلا يتم المقصور عليه (وهو الفاعل) إلا بتمام الرسالة وتمام هذا الجزء منها ، الذي يمتد كما رأيت ليشمل أربع جمل اثنتان منها تمتد بدورها حتى تأخذ هذه الجمل حيزًا نصيًا مقداره سبعة أسطر، فهذه الجمل الأربعة كلها داخلة في المصدر المؤول الذي هو في محل رفع الفاعل (المقصور عليه) لحملني (الفعل المقصور) .

وهذا الذي رأيت من عيافة الألفاظ والحروف - إن جاز لي تسميته بذلك - سمت من سمت لسان أبي العلاء لا يفتأ يقابلك في رسائله موضع الدرس ، إما يجريه متشائمًا أو متفائلاً .

وشبيه به في بابه قوله من رسالة الجن الآنفة الذكر ، حيث يقول فيها بعد أن عاتب أبا الحسين النكتي البصري على قصره لكنيته بقوله[6] : « فَكَيْفَ اسْتَجَازَ أن يَقْصِرَ كُنْيَةَ صَدِيقِه ، أَمَّا السِّمَةَ فَغَيَّرَهَا ، وأَمَّا الكُنْيَةَ فَقَصَرَهَا ، فإِنَّا لِلّه وإنَّا إليه رَاجِعُون ... ، لَوْ كَانَ اسْتَعْمَلَ ضَرُورَةً غير تِلْكَ لقُبِلَتْ حُجَّتُهُ ، ولكنَّه أَلْغَى الضَّرُورَاتِ بِأَسْرِهَا ، ورَفَضَ العُيُوبَ فَلَمْ يَسْتَعْمِلْهَا » .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٢٨١.

(٢) لأن اسم الرجل - محمد بن أبي بكر الصابوني .

(٣) ابن حجر : هو أوس بن حجر .

(٤) السدرة : شجرة النبق واحدتها سدرة وجمعها سدرات ، وسدرة المنتهى ، قال ابن الأثير : سدرة المنتهى في أقصى الجنة إليها ينتهي علم الأولين والآخرين ولا يتعداها .

(٥) مربعة الزياتين : منطقة تجار الزيت ببغداد .

(٦) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٤٢٩ - ٤٣٠ .

يقول بعد هذا : « وإنَّما تَغَوَّثْتُ[1] من ذلك لأنِّي قَصيرُ الهِمَّة ، قَصيرُ اليَد، مَقْصُورُ النَّظَرِ، أي مَكْفُوفٌ [2]، مَقْصُورٌ في البَيْتِ ، أي لاَزِمٌ لَهُ ، فَكَأَنِّي مَحْبُوسٌ فيه . فَمَا كَفَانِي ذَلِكَ مع قِصَرِ الجِسْمِ حتَّى يُضَافَ إليهِ قِصَرُ الاسْمِ » .

فأنت تراه يحذو نفس الحذو الذي أشرنا إليه « إنما فعلت ذاك لذا » ، فهنا تأتي (إنما) وكأنها إجابة عن تساؤل قدره أبو العلاء في نفس المخاطب ، وكأنه ينتظره أن يقول : ما الذي يجعلك تعلق كل هذه الأهمية على قصره لكنيتك ؟ أو ما الذي آذاك من ذاك ؟ وبهذا يتطلب الكلام السابق التالي، فتكون جملة (إنما) هنا منبئة عن معنى أثاره الكلام السابق عليها .

ورغم أن الإجابة المتوقعة هي دلالة هذا على نسيان صاحبه له ولعهد صداقتهما وما بينهما من ود ، إلا أن أبا العلاء يضع في نطاق (إنما) هنا أسبابًا بعيدةً كل البعد عن التوقع ، وإن كان بعضها منه معلومًا معروفًا خبرًا لا ينكره المخاطب ولا يدفعه كقصر الجسم ، والقَصْر في المنزل ، وقَصْر النظر ، إلا أنها إذا ما عُدَّت سببًا لمعتبته كانت من الغرابة بمكانٍ لا يخفى ، لأنها أتت على خلاف ما تتوقعه النفس وتنتظره في مثل هذا المقام .

لذا ترى أبا العلاء يؤنس مثل هذه المعاني الغريبة فيضعها في نطاق (إنما) ليوهم المخاطب بأن كونها العلة في عتبه على صديقه أمرًا معلومًا، وحقيقة ظاهرة لا مراء فيها، ولا تحتاج منه إلى فضل توكيدٍ وتقرير ، وهذا ما يدعونا إلى تأمل هذا المعنى الذي يحاول أبو العلاء أن يستأنسه ويجعله في نفس قارئه حقيقةً لا تدافع، فزبدة القول هنا أنه قصر السبب في معتبته على أمرٍ واحد لا يتجاوزه إلى غيره، وهو أنه قد اجتمعت به أنواعٌ من القصر فلا يريد أن يضاف إليها قصر الاسم أيضًا . وأنواع القصر هذه تلخص صورة لأبي العلاء يرسمها هو لنفسه ، وبقصر الاسم يجتمع فيه ستة أنواع من القصر ، ربما لم يبالغ أبو العلاء فيها إلا في قصر الهمة فلا يكاد عاقل أن يسلم له بذلك ، فلماذا يريد أبو العلاء أن يجعل هذه

(١) تغوثت : أي استعذت بالله .

(٢) مكفوف : أي أعمى .

الصورة عنه أمرًا لا يدافع عند المخاطب ، وأن يقررها في خلده ؟ ! هل هو ضرب من تواضع أبي العلاء المعهود ومبالغته في هضم نفسه ؟ ! أم أنها سخرية ؟ أم مجرد دعابة من صديق لصديق ؟ !

وقبل أن نخوض في هذا نريد أن نتأمل جملة (إنما) وبناءها، فجملة (إنما) هنا تطول بتعدد الخبر : « وإنما تغوثت من ذلك لأني قصير الهمة ، قصير اليد ، مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأني محبوسٌ فيه » ، ثم يعطف عليها هذه الجملة بالفاء « فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم » .

وهنا تنتهي جملة(إنما) بما عُطف عليها ولكن معناها يمتد أربع صفحات[1]، حيث وإن كان ظاهر الكلام أنه قطع واستأنف معنىً جديدًا عندما قال : « لو كُنْتُ أَطْوَلَ مِنْ ظِلِّ الرُّمْحِ ، لَصِرْتُ أَقْصَرَ من سَالِفَةِ الذُّبَابِ ، وقَدْ كِدْتُ أَمْصَحُ فِي الأَرْضِ كَمَا تَمْصَحُ الظِّلاَلُ [2] » ، إلا أنه في حقيقة الأمر كل ما يلي شرح وبيان وتفصيل لكيف يمكن أن يتأذى أبو العلاء بهذا القصر ، موضحًا ذلك في أكثر من صورة مختلفة، حيث تَقَلَّبَ في أكثر من صورة ، منها أولاً ، أنه لو كان من أطول الأسماء وهو مصدر الفعل السداسي لكفاه هذا القصر لأن يصل إلى العدم ويختفي[3] « فَحُذِفَ مِنِّي لِكُلِّ صِنْفٍ من هَذَا القَصْرِ حَرْفٌ لم يَبْقَ مِنِّي شَيءٌ » .

ثم يسترسل عارضًا هذه الفكرة على الأسباب في العروض فيستحيل سببًا يتعرض للزحاف والعلل ، ثم يعرضها على الأسماء وترخيمها . وهذا الذي قلناه أدل دليل على أن معناها معنىً أثار بداخله شجونًا وحرك كوامنًا فاستفزه حتى أكده بالقصر ، وساقه بالطريقة التي رأيت ، وجعله سببًا لما لا تتصور حتى يلفتك إليه، واحتفل له فمطل معناه ما شاء له أن يفعل ، وأخذ يتنقل بين أكثر من صورة تختلط بها مفردات العلوم بشخصه وشخصه بمفردات العلوم ، فهل كان يرمي بهذا إلى

---

(١) من ص ٤٣٠ إلى ص ٤٣٣ .

(٢) ظل الرمح : مثل يضرب لشدة الطول لأن العرب تزعم أن ظل الرمح أطول ظل ، سالفة الذباب : صفحة عنقه ، ويضرب مثلاً لشدة القصر ، وأمصح : بمعنى انقص وأقصر . ويريد : كدت أقصر كما يقصر خيال الجسم بواسطة ارتفاع الشمس حتى إذا وصلت الهاجرة لم يعد يُرى .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٤٣١/٢ .

ممازجة العلوم لذات نفسه حتى أنه ليستمرئ استحالته إلى شيءٍ منها ؟ !

ربما كان سبباً بعيداً ولكنه وارد مع مرامٍ غامضة كمرامي أبي العلاء ، وما ينبغي أن ألفت إليه هنا ولا أغفله ، أن هذا المزج بين الفكرة الأدبية والفكرة العلمية يعد ملمحاً علائياً بارزاً لا يفتأ يظهر في أكثر من معرض من كلامه في رسائله موضع الدرس ، حيث يجمع بين الخيال المحض والفكر العلمي المحض ، وهذه الرسالة بكل ما جاء فيها من علوم وأخبار ونقد قد عُرِضت بهذه الطريقة التي هي مزيج أدبي علمي ، فهي مثال حي لهذا النهج العلائي ، وقد تناولنا جزءاً منها بالدرس في فصل المبالغة .

ونعود لما كنا فيه ، فربما تكون تلك الأمور التي عددها أبو العلاء في إطار (إنما) ، ليست من باب السخرية كما يوهم ظاهر أمرها، وإنما هي أوجاعه الحقيقية يضعها نصب أعيننا ، وقد يعيننا هذا على فهم الرجل وإحساسه بهذا العجز وهذه المعيقات ، فهو يضع أيدينا على جوانب النقص التي يستشعرها ، فربما كان ذلك من الأسباب التي تدعوه لأن يغرب ويبعد في خطاب الناس حتى يكون أطول منهم قامة « مع قصر الجسم » منه، وحتى يغطي بقوة عقله وقوة فكره على ما كان يستشعره من ضعف ، وحتى يتغلب على زمانته ويسمو عليها ببيانه وأسلوبه الغريب وطرائقه التي تَحيَّر الناس فيها !!

وربما أراد أن يقول لنا بأن عوامل الإحباط التي تصيب الإنسان يستطيع أن يتغلب عليها بهمته ، فيكون إنساناً نداً وهو قصير اليد ، وقصير القامة ، ومقصور النظر، ومقصور في البيت !!

هو يريد أن يقول لصاحبه : لو كنت أطول الناس اسماً لكان ما بي من عجز كفيل أن يطوي هذا الاسم ، فكيف وأنا لست كذلك ؟ ! وكيف استطلت أن أضع لي اسماً رغم هذه الستة المحبطات ؟ !

وكأني بأبي العلاء يقول : إنني ربما احتملت كل أوجاعي لكني لن أضيف إليها قصر الاسم فاسمي تطاول فطال على الجميع ولن يقصره أحد !!

وهذا النص شديد الخصوبة وكلما زدته نظراً زادك فكراً !!

وكثيراً ما تقع جملة (إنما) كجملة مؤكدة للكلام السابق لأنها تكون في

سياق النفي، وقد وقعت كذلك في أربعة عشر موضعًا ، وهذا النفي قد يكون نفيًا صريحًا أو غير صريح عن طريق الاستفهام الإنكاري ، فمن الأول مثلاً ما تراه في نحو قوله من رسالته التي بعثها إلى خاله مطلعه من بغداد، حيث وصف حنينه وشوقه إليه بأنه شوق يفوق شوق الحمائم والشوارف ، ثم أخذ يحتج لفكرته هذه حتى تظهر (إنما) في نهاية هذا الاحتجاج يقول[1] : « لَيْسَ أُمُّ الفَصِيلِ مِنْ ذَوَاتِ التَّحْصِيلِ[2] ، إِنَّمَا هِيَ حَنِينٌ بَعْدَهُ سُلُو ، واشْتِغَالُ لُبٍّ ثُمَّ خُلُو » .

فهذه جملة منفية أتت بعدها جملة (إنما) على الفصل ، دلالة أنها جملة مؤكدة لما سبقها فإنما تُضمن الكلام معنى النفي بعد الإثبات[3] ، فإذا ما أتت بعد النفي كانت بمثابة توكيد له ، فالجملة الأولى تنفي أن تكون الشارف من ذوات التحصيل ومعناها من ذوات العقل ؛ لأن العقل هو أداة التحصيل ، ووراء هذا معنى أنها لا تتذكر إذا نسيت لأن التذكر عمل العقل ، وأنها أيضًا تفرط في الحنين إذا دهمها الفقد لأن التصبر عند مداهمة الفقد إنما هو عمل العقل .

وبهذا تكون الجملة التالية : « إنما هي حنين بعده سلو ، واشتغال لب ثم خلو» بيان لمعنى متضمن في الجملة الأولى، وهو من لوازمه الخفية، وهذا عمق الدلالة في هذا البيان العريق ، لذلك نرى أبا العلاء قد تخير هنا أن يكون المسند هو المصدر بدلاً من أن يكون الفعل فيقول « تحن وبعده تسلو » وإنما قال « هي حنين » ، وكأنها حين تصاب في فصيلها تستحيل حنينًا محضًا خالصًا لا يخالطه تصبر ، وهذا ما جعلها رمزًا للحنين فشبه بها وبحنينها من شبه ، ولكن هذا الحنين المحض يستحيل بعد ذلك إلى سلوٌ محضٍ أيضًا !!

وقد استخدم أبو العلاء نفس الأسلوب بأن يأتي بـ (إنما) في سياق النفي ومع نفس المعنى تقريبًا في رسالة الإغريض للوزير المغربي عندما بعث إليه بمختصر إصلاح المنطق ، وهذا يلفت إلى أن أبا العلاء كان كلفًا بهذه الحقيقة وإظهارها، واستخراج هذه المعاني الغير مألوفة من باطن الإلف والعادة ، فقد سلك الناس منذ الزمن الأول مسلك تشبيه حنين الإنسان بحنين الحمائم أو بحنين الإبل،

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٨٧ .

(٢) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، التحصيل : التمييز .

(٣) أبو موسى ، محمد : دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية ، ص ١٦٢ .

وهــو هـنا يسـتخـرج مـغمـزًا في هذا التشبيه ، ويقـول بأن المشبه أولى بأن يكون مشبهًا به ، لأن حنين الإنسان أقوى من حنين ذوات الحنين .

وهذا من مـلامح بيـانه وسـمت فكره ولسـانه ، فـهـو يراجع مـا اسـتـقـر وثبت ليستخرج منه ما يدعو إلى النظر في استقراره وثباته ، ونحن لا ندعي أنه يُخَطِّـيءُ من ذكر الإبل في سياق الحنين ، لأنه لا يشك في أن حنينها حنين مـحض عريق ، ولكنه يقول هـو حنين وإن طغى حتى تصـيـر الناقة به حنينًا مـحضًا إلا أن عمـره قصير ، وليس كحنين الإنسان الذي تجدده الذكرى .

وربما هذا أيضًا مـا يدعوه لأن يستخدم في أسلوبه النسـق العام أولاً، فيشبـه بها، ثم يكون حاله حال من تنبه إلى حقيقة فاستدرك، ولو تأملت معي بداية السياق الذي ظهرت فيه (إنما) في الشـاهد السـالف ، تجد أنه بدأ كلامه فيه وهو مشبه لحنينه وشوقه بشوق الحمائم والشوارف يقول[١] : « وشَـوْقِي إلى مُشَـاهَدَته شَـوْقُ اليَفَنِ إلى الشَّبَابِ ، والشَّـارِفِ إلى السِّقَابِ[٢]» ، ثم عاد ليفضله عليه بقوله : « ولو أُوْسِقَتْهُ الحَمَـائِلُ أَضْعَفَهَـا عن الذَّميلِ[٣]، أو طُوِّقَتْهُ الحَـمَـائِمُ لأَغَصَّـهَـا بـالـهَديلِ[٤]»، أي لو حملت شوقه الإبل لأضعفها عن السير لثقله ، ولو طوقت به الحمائم لأغصها فلم تستطع أن تسجع ، فشوقه لا يدخل في طوق الحمائم ولا الحمائل ، وهنا يبدأ التفضيل ، فيـأخذ من ثم في الاحتجـاج لفكرته هذه فبعد أن جعل هذا التفضـيل خاصًا بشوقه هو الذي لا تستطيعه الحمـائم عمم القضية فقـال : « وكيف تَزِيدُ الحَـمَامَـةُ الخَطْبَاءُ ، عَلَـى الحَـامَّـةِ الخُطَبَـاءِ[٥] »، ونفس هـذا النسق يقــابلك فـي رسالة الإغريض فبعد أن شبه شوقه بشوق الحمـائم تشبيهًا ضمنيًا[٦] « مـا حَامِلَةُ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ... بأَشْوَقَ إلى هَدِيلِها مِنْ عَبْدِهِ إلـى مُنَاسَمَةِ أَنْبَائِه[٧] » أخذ يقول :

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٨٥ - ١٨٧ .

(٢) اليفن : الشيخ الكبير ، الشارف : الناقة المسنة والسقاب أولادها .

(٣) أوسقته : حملته ، الحمائل : الإبل ، الذميل : المسير .

(٤) أغصها : أي يجعلها تغص ، الهديل : صوت الحمام ونواحه .

(٥) الخطباء : التي لونها مشرب حمرة في صفرة ، الحامَّة : أهل الرجل وخاصته ، الخطباء : جمع خطيب ، ويرمز بها للإنسان هنا وبلاغته بإزاء سجع الحمائم .

(٦) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢١٣ - ٢١٦ .

(٧) هديلها : ذكرها ، مناسمة : مقاربة ، أي كأنه وجد نسيمها .

« ولَيْسَ الأَشْـوَاقُ لِذَوَاتِ الأَطْوَاقِ ، ولا عند السَّـاجِعَـةِ عَـبْرَةٌ مُتَراجِعَة ، إنَّمـا رَأَتِ الشَّـرْطَيْنِ قَبْلَ البُطَيْنِ ، والرِّشَـاءَ بعدَ العِشَـاءِ (١) ، فَحَكَتْ صَوْتَ الماءِ فـي الخَرِيرِ ، وأَتَتْ بِرَاءٍ دَائِمَـةِ التَّكْرِيرِ » .

وكـأنه يشـيـر بذلك إلى أن الشـأن فـقط شـأن غـريزة أودعـهـا الحق في هذه الكائنات، حيث جعل أبو العلاء هتافها هنا مجرد استجابة لبعض مظاهر الطبيعة ، بل هو في حد ذاته محاكاة منها لخرير الماء !!

وأنت ترى هذا التسليم ثم النقض جليًا عندما قال بادءًا ذي بدء أثناء تشبيهه لشوقه بشوق الحمائم « فقد مَـادَ لِشَـجْوِهَـا العُودُ ، وفَقِيدُهَـا لا يَعُـودُ ، تَنْدُبُ هَـدِيلاً فَـاتَ ، وأُتِيـحَ لَهُ بَعْضُ الآفَـاتِ(٢) » ، فـهنا يسلم بفكرة الهديل المفقود(٣) ، وسياقه وحديثه ولغته تقطر حزنًا لحزنها وشجنها ، ولكن اسمعه فيما بعد قوله الماضي لنقض فكرته حيث يقول : « فَقَـالَ جَاهِـلٌ فَقَدَتْ حَمِيمًا ، وَثَكِلَتْ وَلَدًا قَدِيمًا »، فتراه قد نسب القائل بذلك إلى الجهل وسفَه الرأي« وهَيْهَـاتَ يا باكيةُ أَصْبَحْتِ فَصَدَحْتِ(٤)، وأَمْسَيْتِ فَتَنَاسَيْتِ »، ثم يعقب على هذا بقوله : « لا هَمَـامَ لا هَمَـامِ(٥) ، مَـا رَأَيْتُ أَعْجَبَ من هَـاتِفِ الحَمَـامِ، سَلِـمَ فَنَـاحَ وصَمَتَ فَهْوَ مَكْسُورُ الجَنَـاحِ، وإنَّمَا الشَّـوْقُ لِمَنْ يَذْكُرُ في كُلِّ ، حِينٍ ولا يُذْهِـلُهُ مُضِيُّ السِّـنِينِ » .

فيضعك أمام حنين آخر غريب عجيب ، لأنه ليس حنين الموجوع وإنما هو حنين من سلم فناح ، كـأنه حنين السـلامـة من الآفـات ، كـأنـه حنين الطرب فـهـو أشـبـه بالغناء الذي تبعثه في النفس أحوال المسرة بالسـلامة والارتيـاح ، وكأنه يقول بأن حنين الحـمـائم هـو حنين السـلامـة، وحنين الإنسان هو حنين التوق والشـوق الملازم للنفس مـلازمـة حيةً لا يبليها مضـي السـنين ، وهـذه هـي الفكرة التي يلـح عليها أبو العلاء ، وهو بهذا التحليل يستخرج فكرًا جديدًا مما ألفه الناس وغفلوا عن ما

(١) الشرطان : من منازل القمر وهما يطلعان في نيسان، وهما من الكواكب الشامية ، وكذلك البطين ، والرشاء : من منازل القمر أيضًا، وهو من الكواكب اليمانية .

(٢) ماد : اهتزَّ ، لشجوها : لحزنها ، هديلاً : ذكرًا ، أتيح : قُدِّر ، الآفات : المصائب .

(٣) « العرب تزعم أن الهديل فرخ هلك في الزمان الأول فلا تزال الحمائم يبكينه شجوًا وحزنًا » ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ٩٢٥/٣ .

(٤) هيهات : اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُد ، صدحت : صدح الطائر وغيره إذا رفع صوته .

(٥) لاهمام : يقال لاهمام أي لا هُمَّ بذلك ، يذهله : ينسيه .

في باطنه فالحمام ينوح إذا سلم ، ويسكت وهو مكسور الجناح ، فكيف يكون نواح السليم نواحًا ؟ !!

وظهور الواو هنا « وإنما الشوق ... »، يعني أن أبا العلاء بنى كلامه هنا بناء من يستأنف خبرًا جديدًا، ولم يعتبرها بمثابة جملة مؤكدة لما قبلها ، رغم أن الشأن فيها إذا أتت بعد نفيٍ أن تكون مؤكدة لما قبلها ، ويعود السبب في ذلك إلى أنه في هذا السياق - كما رأيت عندما استعرضنا جزءًا منه - قد أشبع الفكرة وأتى برؤيته الخاصة وتفسيره لهذا السجع ولحنين الحمائم وأسبابه ، وقام بوصفه وصفًا مفصلاً فلم يعد معناه بحاجة للتوكيد ، لذا انصرفت نفسه عن أن يُسقط الواو فأظهرها ، وجعل كلامه منزل منزلة من يستأنف خبرًا جديدًا مستقلاً عن الأول حتى تتشوف النفس إلى سماعه فيقول : وأنا الآن أبدؤك فأعلمك لمن يكون الحنين الحقيقي ، فالحنين لمن يدكر كل حين ولا يذهله مضي السنين .

وهكذا كنَّى عن الإنسان فلم يذكره صراحة والذاكرة أخص خصوصياته ، وكأن القضية هنا ليست قضية تفضيل لحنين الإنسان على حنين الكائنات الأخرى كما كان الشأن في المثال الأول ، وإنما هي بحث عن حقيقة الحنين ، ومتى يكون الحنين حنينًا ؟ !!

وهذا الذي رأيت منه طبيعة عقل وفكر أكثر من كونها طبيعة لسان ، فهذا هو عقل أبي العلاء ، العقل الذي يراجع أكثر مما يحصل ، ويخالف أكثر مما يوافق ، ويعترض أكثر مما يؤيد ، فأبو العلاء يهز المسلمات ليؤكد لنا صوابها أو ليوضح لنا ما فيها من مغامز وهنَّات ، فيستخدم مجسه الفكري في أمثال هذه الأشياء ليدلي فيها بدلوه ويقول فيها قولاً آخر ، فطوق الحمائم مثلاً الذي يعد لها من الزينة ، واصطلح الناس على ذلك ، يجعله أبو العلاء في هذا السياق طوقًا من الظلمة «وطوق الذهب خير من طوق الغيهب [1]»، وفي مقام آخر يجعله « من حداد الحزينة» يقول في نهاية رسالة المنيح[2] : « واللّهُ استَجِيــرُ مِنْ كَلِمَةٍ كَطَوْقِ العِكْرِمَةِ [3]،

---

(١) الغيهب : الظلمة ، وهو يقول هذا في معرض مقارنته بين الإنسان والحمائم ، فطوق الذهب يقصد به حلي البشر يقابلها بطوق الحمامة الذي جعله من الظلمة وفضل طوق الإنسان عليه .

(٢) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) العكرمة : الحمامة .

يُحْسَبُ لَهَا من الزِّينَةِ ، وكَأَنَّه من حِدَادِ الحَزِينَةِ » .

فهذه نفرة علائية من الظاهر الحسي الخادع إلى ما في باطنه من معنىً لا يخالف ما في ظاهره فحسب وإنما يناقضه ويضاده ، فإذا رأى الناس طوق الحمامة من زينتها ومسرتها فإن أبا العلاء لا يرضى بهذا الذي درج عليه أمر الناس ، وإنما تراه يتولج إلى ما وراء هذا الظاهر ويستقري تاريخ الحمامة ، ويهديه نظره وطبعه واللحظة النفسية التي يعالج فيها كتابة الرسالة على أن يرى أن هذا ليس طوق زينة وإنما هو شعار حزن وفقد ، وهكذا يقرأ أبو العلاء الأشياء قراءة أخرى خاصة به ، ويستخرج منها ما هو به أشبه .

وأشباه هذا من رسائله موضع الدرس كثير ، ولكنك مع المثالين السابقين تجد بالإضافة إلى هذه الرغبة العلائية في تعرية الحقائق وتمييزها ، كلفًا بفكرة الحنين ذاتها ، تجد ذلك ظاهرًا في اجتماع مؤكدين على الجملة الأولى « إنما هي حنين بعده سلو ، واشتغال لب ثم خلو » ، كون الجملة ذاتها توكيد بالإضافة إلى التوكيد الذي يحمله معنى القصر فيها ، ثم في الجملة الثانية « وإنما الشوق لمن يدكر في كل حين ، ولا يذهله مضي السنين »، فهذا القطع والاستئناف يدل على مزيد حفاوة بالمعنى بالإضافة إلى معنى القصر الذي فيها ، وفي هذا الاحتفال بفكرته ما يدعو للتأمل، فهو عندما يقول:« وإنما الشوق لمن يدكر كل حين، ولا يذهله مضي السنين»، يقصر فكرة الحنين على من يحن فلا يسلو فلا يعتبر ما دون ذلك حنينًا ، وهذا قصر إفراد إدعائي وليس حقيقيًا ، فالإنسان يسلو وينسى ويذهله مضي السنين ، فهل في هذا انتقاد من أبي العلاء للبشر كيف ينسون أوداءهم وأحبابهم ؟ ! وأن من شأن الحنين الحقيقي الدوام ، وإلا لما ارتقى لأن يكون حنينًا إنسانيًا ، ولشابه حينها حنين الدواب والطيور ، فهو لا يتجاوز كونه مجرد استجابة لغريزة وُضعت فيها ، فلا فضل لها في حنينها ، ولا معتبة عليها في سلوها ، أمّا لو كانت من ذوي العقل والتمييز لما نست أبدًا ولا أذهلها مضي السنين ، هل هذا ما يريد أن يقوله أبو العلاء ؟ !!

وهذا لا يبعد على من يجعل علاقة الرجل بحنينه وحزنه علاقة صبابة وهوى، فأبو العلاء يستخرج من الحنين حنينًا إلى الحنين ذاته ، وكأن في هذا الألم وهذا

التوق تسلية وتعزية للنفس ، يقول من إحدى رسائله [1]: « وإنِّي لأصْبُو إلى لِقَائِه صَبَابَةَ العُودِ إلى وَطَنِه ، والشَجَنِ إلى شَجَنِه » فجعلها كما ترى صبابة وهوى، وعلاقة دائمة الأواصر لا تنفصم ، بل بها حنين وشوق إلى هذا الشجن ، وربما يبرر هذا تشبيهه لحزنه على والدته بنعيم أهل الجنة عندما يقول مفتتح رسالته إلى خاله مطلعه من بغداد التي منها الشاهد الأول[2] « وحُزْني لِفَقْدِها كنَعِيمِ أَهْلِ الجَنَّةِ كُلَّما نَفِدَ جُدِّدَ » !!

وكأن هذا الاحتفال بفكرته بمثابة وخزٍ خفيٍ لذاته حتى لا تسلو ، خاصة وأنه في هذه الرسالة حديث عهد بفاجعته في أمه ، وكأنه ينبهها بأنه ليس من شيمته النسيان ، وهذا ما كان من أبي العلاء بالفعل فقد ظل يفتقد والدته ويرثيها ويبكي فراقها ويجد ألم هذا الفراق حتى هرم ومات !!

والحق أن النفي السابق لقوله : « وإنما هي حنينٌ بعده سلو ، واشتغال لبٌ ثم خلو » لا يفي بمعنى أبي العلاء فنقول إننا فهمنا معنى إنما منه هو فقط ، فيكون بذلك مهيئًا وممهدًا لمعناها ، بل إنما هنا تكاد تكون قد أتت مثبتة ليس لمعنى الجملة السابقة فحسب بل للسياق كاملاً ، فلو تأملنا السياق السابق لها لوجدناه قد صيغ في قالب من النفي الصريح تارة ، والنفي البليغ بالاستفهام الإنكاري تارة أخرى ، حيث بدأ نفي الفكرة مع الحمائم بقوله : « وكيف تزيد الحمامة الخطباء ، على الحامة الخطباء » ، ويعني بالحامَّة الخُطَبَاء أهل الرجل وخاصته، وكأن في الإشارة إلى الخطابة هنا إشارة إلى ما تميز به الإنسان عن سائر الحيوان ، وهو هذا البيان ، وإذا كان الشأن كذلك فهي إشارة في موضعها ما دامت المفاضلة بين الحنين البشري وحنين الكائنات الأخرى ، وهذا كما ترى استفهام إنكاري يتضمن نفي أن يزيد حنين الحمائم على حنين البشر ، ثم يصرح بعد ذلك بهذا المعنى في التفضيل في جملة مؤكدة للجملة السابقة بقوله : « الرِّيَاشُ أَفْضَلُ مِنَ الرِّيشِ المَكْرِ ، والمَنْزِلُ أَفْضَلُ من الوَكْرِ ، وطَوْقُ الذَّهَبِ خَيْرٌ من طَوْقِ الغَيْهَبِ [3] »، ولا ريب أن في اختيار (الحامة الخُطباء) ووضعها بإزاء (الحمامة الخَطباء) نَفَس من

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٣٢/١ .
(٢) السابق ، ص ١٨٠ .
(٣) الرياش : اللباس الفاخر ، الريش المكر : المصبوع بالمكر أي المغرة ، والغيهب : الظلمة .

أبرز أنفاس أبي العلاء لا ينبغي أن نغفله ، ولا شك أنه ترك آل الفقيد وأولاده وأحبابه ومن يفجعون فيه وغير ذلك من العبارات القريبة والواضحة ومد يده في أغوار اللغة ليخرج لنا (الحامَّة) بدل الأهل ، و(الخُطباء) التي جاءت هنا كأنها مستجلبة لأن الخُطباء كغير الخُطباء في الحزن وعدم السلو ، وإنما فعل ذلك ليضع الجميع من الحمام والأهل في قالب لغوي واحد، وكأنه يمعن في التسوية بينهم من حيث اللفظ اللغوي (الحمام والحامة) ليحدث هذه المفارقة التي يريدها، والتي لا يكفي فيها القول بأن هذا يسلو، وهذا لا يسلو وإنما يوازن بين الريش والرياش، والوكر والمنزل ، وهكذا يشبع خياله المعنى ، ويقلبه ويأتي على ما فيه .

وبذا يكون حديثه عن الحمائم قد انتهى فينتقل إلى الشوارف بقوله : « وأَيْنَ الشَّارِفُ من اللَّبِيبِ العَارِفِ » . وهذا استفهام إنكاري كما ترى، وهو أخو السابق الذي افتتح به التفضيل على الحمائم، وذلك لأن المعنى واحد ، وأبو العلاء بهذا ومثله خير من يحقق قول أبي الفتح في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ، والصيغ من الألفاظ ، وتحمل هذه الجملة إشارة صريحة لموضع التميز الآخر للإنسان على الحيوان وهو العقل والتمييز «اللبيب العارف»، فإن كان قد أشار في الأولى للبيان فهو الآن يشير إلى العقل والتمييز ، ثم يأتي النفي « لَيْسَ أُمُّ الفَصِيلِ من ذَوَاتِ التَّحْصِيلِ »، وهي هكذا بمثابة جملة مؤكدة لسالفتها التي أتت أيضاً منفية ، ثم تكون جملة (إنما) توكيداً بعد توكيد « إنما هي حنين بعده سلو ، واشتغال لب ثم خلو » ، وهكذا يظهر معناه جلياً ، فهذه ثلاث جمل منفية أتت في نهايتها (إنما) ، وأنا أرى والله أعلم أن هذا القصر لا يريد به الشوارف فقط ، بل هو ينسحب على الحمائم لأن أبا العلاء قد جعلهما قضية واحدة منذ البدء ، وإن عمد في حديثه عنها لهذا التقسيم ، فإن كان النفي هنا هو المهيء لمعنى (إنما) ، فقد طال فلم يكن قريب المنال ، وهذا كما قلنا من بيان أبي العلاء بمكان .

ومما هو من هذا الباب ولكنه لم يسبق بنفي صريح، وإنما باستفهام إنكاري قوله من الرسالة الثالثة التي بعثها لأحد أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يدعى الحسين بن عنبسة، يقول منها بعد أن تحدث عن توالي كتب الرجل إليه

محملة بالهدايا [1]: « وهَلْ جَرَىَ على غَرِيبِ شَاكِلَةٍ ، أو سَارَ في دَارِسٍ مَحَجَّةٍ[2]،إنَّما اتَّبَع طريقًا لأُسْرَتِهِ كَقَرَاالثُّعْبَانِ ، وبَارِيٍّ الصَّنَّاعِ[3]».

فـ(إنما) هنا مؤكدة للمعنى السابق عليها، لأن ما يحمله الاستفهام الإنكاري من معنى النفي بمثابة مهيء للفكرة التي أتت (إنما) تحملها ، بل قل إنها الوجه الآخر لها فكانت توكيداً لها ، فعندما يقول : « وهل جرى على غريب شاكلة ... » إنكاراً فكأنه يقول لسامعه : ارجع إلى نفسك واسألها هل جرى على غريب شاكلة أو سار في دارس محجة ، فإنك ولا بد قائل حينها بأنه لم يجر على غريب شاكلة ، فهذا هو المعنى منفيًا ولكنه أبلغ ، لأن المتحدث هنا كأنه ينتزع اعترافًا بمعناه من قبل المخاطب فهو أوكد لمعنى النفي ، أضف إلى ذلك ما في الاستفهام من إثارة للنفس وإيقاظ لها لمعنى الطلب الكامن فيه .

وتقع (إنما) في رسائل أبي العلاء موضع الآنفة الدرس في حيز الشرط ، وجاء ذلك في ستة مواضع ، من ذلك قوله من الرسالة الآنفة ، وهي رسالة آهلة بالأمثال وبها موقعين لـ (إنما) أحدهما درسناه فيما سلف والآخر كان في حيز الشرط ، وذلك حيث يقول بعد وصفه لشوقه في مستهل رسالته[4] : « وإنْ عَقَقْتُ نَفْسي بِتَرْكِ الـمُكَاتَبَةِ عُقُوقَ الضَّبِّ وَلَدَهُ[5] ، والسَّارِقِ يَدَهُ ، فَإنَّما ذَلِكَ لِهَمٍّ وَاغِلٍ ، وخَطْبٍ شَاغِلٍ[6]، وتَوَخِّيًا للتَّخْفِيفِ ، وتَنَكُّبًا عنِ التَّكْلِيفِ ..[7] » .

وكما ترى فإن جملة (إنما) واقعة في جواب الشرط « إن عققت .. » ، وبذا تكون (إنما) في هذا الأسلوب ونحوه ليس الذي قبلها مهيءً لمعناها كما جرت العادة بذلك في كلام المبين ، وإنما كأن الذي قبلها – كونه جملة شرط – متطلب لها

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٤٣ .

(٢) غريب شاكلة : أي طريقة ، دارس محجة : المحجة جادة الطريق ، ويريد أنه ما جرى على طريقة غريبة ولا سلك في طريق دارس أي ممحي أثره .

(٣) قرا الثعبان : ظاهره ، والباري : الحصير المنسوج ، والصناع : الحاذق في الصنعة وذلك كناية عن استقامته وحسن طريقته كأجداده .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٣٠ – ١٣١ .

(٥) الضب يُضرب به المثل في العقوق ، فقيل « أعق من ضب » .

(٦) واغل : داخل ، والخطب : الشأن صغر أم عظم .

(٧) توخيًا : طلبًا ، تنكبًا : تجنبًا .

مشوق لمجيئها ولا يتم إلا بها فهي جوابه ، وقد ارتقى أبو العلاء في هذا السياق بحدة التشويق عندما جاء بعقوق من أغرب أنواع العقوق وأبعدها عن التصور وهو عقوق لذات النفس ، من هنا كان حرص أبي العلاء على ألا يفصل بين الفعل والمفعول به (عققت نفسي) بفاصل ، ولم يتقدم على المفعول به المتعلق بـ(ترك المكاتبة) ، لأن هذا هو رأس المعنى ، وأنه كان منه عقوقًا لذات نفسه قبل أن يكون عقوقًا لغيره ، فالإفصاح بأن هذا العقوق هو ترك المكاتبة لا بد وأن يتأخر ليحدث اتصال الفعل بالمفعول هذا القدر من الغرابة ، وقد ناسب ذلك أن تكون أداة الشرط(إنْ) التي هي للأمر النادر، فعقوق النفس لجزء منها، لعضو من أعضائها، ولفلذة من فلذات كبدها – لأن الضب يأكل أبناءه – عقوق عجيب، فكأن الكتابة بذا جزء من أجزاء نفسه . فجملة الشرط هنا بكل ما فيها من غرابة شوقتنا لمعرفة العلة والسبب في هذا العقوق العجيب ، فكان هذا التشويق بمثابة التهيئة والتوطئة لما دخلت عليه (إنما) ؛ لأن الشأن أن يكون السبب غريبًا بالغًا في الغرابة فآنسه بوضعه في حيز (إنما) حتى نتقبل هذا البعيد الغريب، ويقع من أنفسنا موقع الشيء المأنوس ، لأن السبب الذي يجعل الإنسان يقدم على هذه الغرائب والمنكرات ليس سببًا عاديًا ، كما أنه ما من شيء يقنع أن يعق الإنسان ولده ونفسه؛ لذا كان موقع (إنما) هنا موقعًا مصيبًا غاية الإصابة يهيءلتقبل هذا السبب ولإيهام أنه مما لا يدفعه المخاطب ولا ينكره ، فعذره بذلك أصبح عذرًا مقبولاً .

ومما ينبغي أن ألفت إليه هو هذا الطول لجملة الشرط التي وقعت فيها (إنما) هذا الموقع ، وسبب هذا الطول هو تدقيق أبي العلاء في تحليل المعنى ، وأصل معناه هو (وإن عققت نفسي بترك المكاتبة فإن ذلك لخطب شاغل) ، ثم أراد تفظيع هذا العقوق وبيان حجم الجريرة فيه، فاستخرج من عققت مصدر العقوق وبذلك أكده ، ثم شبه عقوقًا بعقوق ، واختار مشبهًا به فيه من الشراسة والوحشية ما تقشعر منه الأبدان ، وهو عقوق الضب ولده بأكله ، وعقوق الإنسان يده ببترها . ولله در شيخ المعرة فلديه قدرة عجيبة على استخراج الصور التي تستفز النفس وتملؤها بالوحشة والحيرة معًا ، فجريمة الضب البشعة لم تكن عن بغضاء لولده وإنما عن مزيد محبة أفضت إلى هذه الجريمة التي لا تجد في الأبوة والبنوة أبشع منها ، فكم من عقوق للأبناء جرى به بيان الناس ولكن هذا عقوق آخر عجيب وغريب !!

فلم تكن المسألة عند أبي العلاء معنىً بسيطًا يُعبر عنه بقولنا (إن عققت نفسي بترك المكاتبة فإن ذلك لخطب شاغل)، وليس هذا بشيء إذا تركنا متعلقات فعل الشرط هذه لأنها هي مصاب المعنى ومعانه !!

ومما وقع في حيز الشرط ما تراه في رسالته الثانية لداعي الدعاة الفاطمي السابقة الذكر حيث يقول فيها[١] : « ومَنْ اسْتَرْشَدَ بمثلِ العبدِ الضَّعيفِ العَاجزِ فإنَّما مَثَلُهُ مَثَلُ من طَلَبَ في القَتَادَةِ [٢] ثَمَر النَّخْلَة ، وإنَّمَا حَمَلَ سائِلَهُ على ذلك حُسْنُ الظَّنِّ الذي هو دَلِيلٌ على كَرَمِ الطَّبْعِ وشَرَفِ النَّفْسِ وطَهَارَةِ المَوْلِدِ وخَالِصِ الخِيمِ ، ومن استرشد بسيدنا الرئيس الأجَلِّ المؤيد في الدين ... كَانَ كَطَالِبِ الذَّهبِ من مَعْدِنِهِ في النَّيلِ وَمُشْبِهِهِ » .

فرسالة الداعي إليه تقول في ظاهرها « إن الداعي جاء يطلب الهدى ممن نصب نفسه لمداواة مرضى العقول والأديان »[٣] وهو يقصد بذلك بيت أبي العلاء الذي يقول فيه :

غدوت مريض الدين والعقل فالقني لتعلم أنبـــاء الأمـــور الصحائح

والشاهد الذي بين أيدينا ردٌ من أبي العلاء على هذا الاسترشاد من قبل داعي الدعاة الفاطمي به ، فإنَّ من يسترشد بمثل أبي العلاء الذي لا يعدو كونه عبدًا ضعيفًا عاجزًا عن الإجابة ، كمن يطلب من القتادة بلحًا ورطبًا سفهًا وحمقًا .

وكما ترى فإن (إنما) هنا واقعة في جواب الشرط (من استرشد ...) ، وهذا يعني أن المعنى السابق لها لم يكن مهيئًا لظهورها بل متطلبًا لها لا يتم بدونها كما أسلفنا ، خاصة أن الفكرة التي يتحدث عنها أبو العلاء هنا (وهي الاسترشاد به) لب القضية التي بنى عليها داعي الدعاة رسالته في ظاهر أمرها ، فأي تشويق تحمله حتى تصل إلى جوابها، وهو الإفصاح عن منزلة وصفة من يسترشد بأبي العلاء ويطلب نصحه !!

وأبو العلاء عندما يقول أنك في استرشادك بي كمن يحاول أو يطلب بلحًا لدى

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٣١ .

(٢) القتادة : مفرد القتاد وهو شجر له شوك أمثال الإبر وله وريقة غبراء وثمرة تنبت معها غبراء كأنها عجمة النوى .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٨٦ .

القتادة ذات الشوك ، على ما في ظاهر كلامه هذا من التواضع والمبالغة فيه ، والتي هي من سمت لسانه وفكره = فيه ما فيه من نسبة الرجل إلى الجهل وعدم الفطنة ، كما أن فيه شوباً من التحذير لا يخفى ، وكأني به يقول : عندما يكون غرضك يا هذا مني بلحًا فلن تجني إلا شوكًا، وأنك لن تأتي من غايتك من مراسلتي بطائل ، وعندما يستحيل أبو العلاء إلى قتادة ربما استحضرت نفسه المثل العربي القائل في صعوبة الأمر الذي يحاول الوصول إليه « من دون ذلك خرط القتاد » ، فهو قتادة لن يكون من السهولة بمكان معالجتها .

ويلاحظ أن ما قبل (إنما) هنا موجبٌ لضد ما بعدها، فإن استرشاد داعي الدعاة برجل يعني أنه على مستوى رفيع من البصيرة والفهم ، وما بعد (إنما) ينفي ذلك نفيًا قاطعًا ويستخدم المثل والتشبيه فيوسع دلالة الجواب ويفتحها ، فليس أبو العلاء غير مؤهل لأن يرشد فحسب، وإنما هو يمثل مفاجأة لمن يسترشد به، كمفاجأة من رأى شبحًا فظنه نخلة مثمرة يأوي إلى ظلها ويأكل من ثمرها، ثم يفاجأ بها قتادة لا ثمر بها ولا ظل وإنما شوك وإيذاء !!

وترى في ذلك هروبًا من خدمة الشيعة وقد حاولوا اجتذابه إليهم ، وكان يمرق منهم بمثل هذا الأسلوب لأنه يرفض مذهبهم .

ولا يخفى أن هناك فرق كبير بين خصوبة الجملة السابقة « فإن عققت نفسي ... » وخصوبة هذه الجملة ، فإنما هنا وقعت في الشرط ولم يمتد فعل الشرط هذا الامتداد المفزع الذي هناك .

ثم إن في وصفه لذاته بهذه الصفات العبد والضعيف والعاجز، وكأنما يلخص بذلك عقيدته وموقفه من تلك المسائل التي أثارها الرجل في حديثه مع أبي العلاء، فهو يعترف بالعبودية والضعف ، وكذلك العجز ، وربما يدخل في ذلك عجز عقله عن حل تلك المسائل التي يدعوه للخوض فيها، وقد اتعبت من قبل الفلاسفة والمتكلمين ، وربما كان فيها تعريض بأن هذه الأمور لا يحلها عبد من العبيد وإنما خالقهم ؛ لأن هذه الصفات تتوارد بالعادة إلى الذهن عند استشعار عظمة الخالق ، وعندما يراد اللفت إلى كونه الملتجأ ، والإشارة إلى قلة الحيلة أمام تدبيره !!

الفصل الخامس

نمو المعاني

وتكوينات الجمل وعلاقاتها

إن قراءة رسائل أبي العلاء قراءة مدققة ترينا عقله وهو يلابس أفكاره ويقلبها ويمدها ، وترينا الجهات التي تمتد فيها هذه الأفكار ، وكيف تكون كالفروع التي تمتد في جهات دون جهات ، وهذه الخصوصية التي هي معالجة الأفكار من جهة بسطها وقبضها. ونفث المعاني في بعض جهاتها دون بعض، من أبرز الخصوصيات الدالة على ذات الكاتب ، وعلى مذهبه ، وعلى طبعه ، وعلى تفرده ، وتحليل الأفكار لا يكون إلا بتحليل اللغة الدالة عليها ، لذا كان الشأن في هذا الفصل أن نحلل تكوينات جمله وطريقته في التصرف في معانيه في ذات الوقت ، وقد اتخذت من رسالته التي بعثها إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة أنموذجًا لهذا الدرس .

وأنا أضع بين يديك معناه بادءًا ذي بدء، حتى ترى كيف توسل إليه ؟ وكيف عبّر عنه ؟ ، وحتى ترى هذا البون بين ما استصفيناه من معناه ولغته المعبرة عنه!! وكيف نما المعنى بين يديه ؟ وكيف اتجه غير الوجهة التي تظن ؟ وكيف ملك عليك عنصر المفاجأة ؟ وكيف ألبسه الرجل من رداء نفسه وروحه وفكره ما ألبسه ؟ .

وأنت تجد أن جملة المعنى ومحصوله في هذه الرسالة : اعتذارٌ عن المنادمة بمحبسه وعلته ، أي بمحبسيه ، ثم إظهارٌ للتواضع في المنزلة الأدبية والعلمية ، وأنه على الجملة ليس أهلاً لهذه المنادمة !!

وأضع الآن لغته هو ولسانه هو بين يديك وأمام عينيك يقول(1) : « لَوْ أَهْدَيْتُ إلى حَضْرَةِ سَيِّدي الرَّبيعَ يُزْهَي بأَحْسَنِ زَهْرِه،والبَحْرَ يَتَبَاهَى بالنَّفيسِ من جَوْهَرِه، لَكَانَ عِنْدي أنِّي قــد قَصَّرْتُ واخْتَصَرتُ ، فكيفَ بِي ولا أَقْدِرَ أَنْ أُهْدِيَ زَهْرَةً ، ولا أَنْتَزِعُ صَدَفةً ، فَدَعِ الجَوْهَرَة ، والرَّائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَه(2) ، فأمَّا العَبْدُ إذا كَذِبَ سَيِّدَه فَبَعِدَ ولا سَعِدَ ، والذَّاهِلُ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ أَمْسَهُ، والجَاهِلُ من لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، ولِنَفْسِي الخَائِنةِ أَقُولُ: أعْيَيْتِنِي بأُشُـرٍ فكيفَ بِدُرْدُرٍ (3)،أعيت رياضَةُ الهَرِمِ(4)، واعتصارُ الماءِ

---

(1) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٢١ - ٣٤٥ .

(2) الرائد : الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكانًا ينزلون فيه . والعبارة مثل يضرب للنصيح غير المتهم لمن تنصح له .

(3) الأشر : تحزيز الأسنان ، الدردر : مغارز أسنان الصبي قبل نباتها . والعبارة مثل بمعنى لم تقبلي الأدب وأنت شابة ذات أشر في أسنانك فكيف الآن وقد أسننت .

(4) أي معالجة الكبير تريده على غير خلقه شديدة .

من الجَمْـرِ الـمُضْطَرِمِ ، إن كَذَبْتُ فَعَنِ الخَيْرِ أَعْذَبْـتُ[1] ، مـا اعْتَزَلْتُ حتَّى جَدَدْتُ وهَزَلْتُ، فَوَجَدْتُنِي لا أَصْلُحُ لِجِدّ ولا هَزْلٍ ، فعندها رَضِيتُ بالأَزْلِ [2]، ما حَمَامةٌ ذاتُ طَوْقٍ يُضْرَبُ بها الـمَثَلُ في الشَّوقِ، كانت في وَكْرٍ مَصُونٍ بين الشَّجَرِ والغُصُونِ، تَـأْلَفُ منْ أَبْنَـاءِ جِنْسِها رِيدًا ، فَيَتَراسَلاَنِ تَغْرِيدًا [3]، مَسْكَنُها نَعْمَان الأَرَاكِ ، تَأْمَنُ به غَوَائِلَ الأَشْـرَاكِ [4]، وتَمُرُّ في بُكْرَتِهـا بالبيتِ الحَرَامِ ، لا تَفْرَقُ لمكانِ صَائدٍ ولا رَامٍ ، فَغَرَّهَـا القَدَرُ ، إِذْ لَمْ يَنْفَعِ الحَذَرُ ، فَخَرَجَتْ من الأَرْضِ الـمُحَرَّمَـةِ ، فَأَصْبَحَتْ وهي جِدُّ مُغْرَمَـةٍ [5]، صَادَها وَلِيدٌ في الحِلِّ ، ما حَفِظَ لَها من إِلٍّ[6] ، وأَوْدَعَها سِجْنًا للطَّيْرِ ، ومَنَعَهـا من كُلِّ مَيْرٍ ، فَإِذَا رَأَتِ من خَصَاصِ القَفَصِ بَوَاكِرَ الحَمَامِ ، ظَلَّتْ تُمَارِسُ جُرَعَ الحِمامِ[7] ، تَسْـأَلُ بِطَرْفِـهـا أَخَـاهـا ، مـا فَعَلَ بَعْدَهـا فَرْخَـاهـا ، فَيَقُولُ أَصْبَحا ضَـائِعَيْنِ ، قَدْ سَتَرَهُما الوَرَقُ عن كُلِّ عَيْنٍ :

فُرَيْخَـانِ يَنْضَـاعَانِ في الفَجْرِ كُلَّما ... أَحَسَّا دَوِيَّ الرِّيحِ أو صَوْتَ نَاعِبِ[8]

بأَشْوَقَ إلى الـمَعيشَةِ النَّضْرَةِ ، منِّي إلى تلك الحَضْرَةِ ، ولَكِنْ صَنَعَ الزَّمَنُ مَـا هـوَ صَـانِعٌ ، واعْتَرَضَ دُونَ الخَيْرِ مَانِعٌ ، حَـالَ الـغَصَصُ دُونَ القَصَصِ ، والجَرِيضُ دُونَ القَرِيضِ [9]، الـمَوْرِدُ نَميرٌ أَزْرَقُ ، ولكنَّ الـمُدْنَفَ بالشَّـرَابِ يَشْرَقُ[10] :

(١) أعذبت : كففت عنه وتركته .

(٢) الأزل : الضيق والشدة .

(٣) الريد : بمعنى الترب وهو المساوي في العمر ، ويتراسلان : أي يرسل كل واحد منهما إلى الآخر ، والتغريد : من غرد الطائر إذا رفع صوته بغنائه وطرب به .

(٤) نعمان : اسم وادٍ ، والأراك : شجر السواك ، الغوائل : الدواهي ، والأشراك : شباك الصياد .

(٥) المحرمة : أي التي لا يحل الصيد فيها ، مغرمة : مولعة بتربها إلى النهاية .

(٦) الحل : ما جاوز الحرم من أرض مكة ، إل : عهد .

(٧) مير : أي طعام ، خصاص : أي خلل ، بواكر الحمام : أي التي تمر غدوة ، تمارس : تقاسي ، الجرع : جمع جرعة وهي البلعة من الماء استعارها لشرب كأس الحمام أي الموت .

(٨) انضاع الفرخ : بسط جناحيه لأمه لتزقه ، ودوي الريح : صوته ، الناعب : الغراب .

(٩) الغصص : من غص الرجل بالماء والطعام إذا اعترض في حلقه شيء منه منعه من التنفس ، القصص: البيان ، والجريض : الغصص ، القريض : الشعر ، وكلا العبارتين مثل يضرب للأمر يعوق دونه عائق .

(١٠) المورد : موضع الماء ، النمير : الزكي ، المدنف : المريض المشرف على الموت ، ويشرق : يغص . وقوله هنا يقرب من قول المتنبي :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًا به الماء الزلالا

لَمَّا رَأَى لُبَدَ النُّسُورَ تَطَايَرَتْ رَفَعَ القَوَادِمَ كالفَقِيرِ الأَعْزَلِ[1]

انْهَضْ لُبَدُ ، هَيْهَات صَدَّكَ الأَبَدُ[2] ، ولَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذي وَرَدَ فيه كِتَابُه المُشْتَمِلُ من حُسْنِ الظَّنِّ بِوَلِيِّه على ما لا يَسْتَوْجِبُهُ ، عَكَفَتْ عَلَيَّ الغِرْبَانُ مُبَشِّرَات، مُثَلِّثَات للنَّعِيبِ ومُعَشِّرات ، لو أَنِسَ إليَّ ابنُ دَأْيَةَ ، لم أُخْلِه إن رَغِبَ في الحُلِيِّ من حِجْلٍ في الرِّجْلِ[3]، أو تَقْلِيدٍ يَقَعُ بالجيد ، ولضَمَّخْتُ جَنَاحَه مِسْكًا وعَنْبَرًا، ولَكَسَوتُه وَشْيًا وحَبَرًا[4] ، على أنه يَخْتَالُ من لَوْنِ الشَّبِيبَةِ في أَجْمَلِ سَبِيبَةٍ[5]، يا غُرَابُ لغَيْرِكَ بَعْدَها التُّرَابُ ، إنْ قَضَى اللهُ نَبَذْتُ لَكَ ما تُؤْثِرُ من الطَّعَامِ ،إتَاوَةً في كُلِّ يومٍ لا في كلِّ عَامٍ، كأنَّ كِتَابَهُ الشَّرِيفَ قَسيمَةٌ من الطِّيبِ، تَضَوَّعُ بالأَنَابِ القَطِيبِ[6] ، فكأنَّما طَرَقَني منه رَوْضَةٌ نَجْدِيَّةٌ ، سَقَتْهَا الأَنْوَاءُ الأَسَدِيَّةُ ، فَعَمَدَ ثَرَاهَا، وأَرِجَتْ رَيَّاهَا ، وأَبْدَى بَهَارُهَا للأَبْصَارِ[7]، كدَنَانِيرَ ضُرِبَتْ قِصَارٍ ، وازْدَانَتْ من الشَّقِيقِ بمُشْبِهِ العَقِيقِ، ولَعِبَ فيها المَاءُ، فهي أَرْضٌ وكأَنَّها سَمَاءُ ، لها من النَّجْمِ نُجُومٌ ، ومن طَلِّ الشَّجَرِ دَمْعٌ مَسْجُومٌ[8]، وقدْ سَأَلْتُ من وَرَدَ إليه،أن يُؤْنِسَني بتَرْكِه لديَّ، كي أَسْتَمْتِعَ في نَاجِرٍ بمُشَاكِلِ خَبِيَّةِ الحَاجِرِ[9] ، ولأكُونَ جَلِيسَ الرَّوْضَةِ إن لم يَرَ لهَا مَنْظَرًا مُبْهِجًا ، سَافَ منها عَرْفًا مُتَأَرِّجًا[10] ، وإن العَامَّةَ عَهِدَتْنِي في صَدْرِ العُمُرِ أَسْتَصْحِبُ شيئًا من أسَاطِيرِ الأوَّلين فقالت عَالِمٌ، والنَّاطِقُ بذلك هو الظَّالِمُ،

---

(١) لبد : هو آخر نسور لقمان السبعة ، القوادم : عشر ريشات من مقدم الجناح وهي كبار الريش ، الأعزل : الخالي من السلاح .

(٢) من المثل القائل : « طال الأبد على لبد » .

(٣) ابن دأية : كنية الغراب ، لم أخله : أي لم أتركه خالياً إن أحب ما يتزين به من مصوغ المعدنيان ، الحجل : الخلخال .

(٤) ضمخت : لطخت ، وشيًا : ثوبًا منقشًا ، الحبر : ضرب من الأكسية .

(٥) السبيبة : خصلة من الشعر ، والمراد بذلك ريشه .

(٦) القسيمة : سلة صغيرة مغشاة بجلد تكون عند العطارين ، الأناب : المسك .

(٧) عمد ثراها : أي بلله المطر ، أرجت رياها : فاحت منها رائحة طيبة ، البهار : نبات زهره أصفر ذو رائحة طيبة .

(٨) العقيق : خرز أحمر ، النجم : نبات لا ساق له ، الطل : الندى ، مسجوم : سائل .

(٩) ناجر : شهر رجب أو شهر صفر وكل شهر من أشهر الصيف ، مشاكل : موافق ، الحاجر : الذي يستر الشيء ويمنع الناس عنه .

(١٠) ساف : شم ، عرفًا : ريحًا طيبًا .

ورأتْني مُضْطَرًا إلى القَناعَة فقالت زَاهدٌ ، وأنا في طَلَبِ الدُّنْيَا جَاهدٌ ، وزَادَ تَقَوُّلُ القَوْمِ عليَّ، حتى خَشيتُ أنْ أَكُونَ أَحَدَ الجُهَّالِ الَّذينَ وَرَدَ فيهِمُ الحَديثُ المَأثُورُ ، إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ ، ولَكِن يَقْبِضُ العِلْمَ بمَوْتِ العُلَماءِ، حَتَّى إذا لم يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً فَسُئلُوا فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا ، فَغَدَوتُ حِلْسَ رَبْعٍ، كالمَيْتِ بَعْدَ ثَلاثٍ أو سَبْعٍ[1]، وحَدَثَتْ عِلَّةٌ كَنَّتني عَنْها في المُسْتَمَعِ ، وعَاقَتْ عَنِ الحُضُورِ في الجُمَعِ ، وفي الكِتَابِ الكَريمِ (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ من يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللَّه)، وإِنَّما ذَكَرْتُ ذَلكَ لِيَنْتَهِي إلى حَضْرَةِ السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ أَنِّي تَخَلَّفْتُ عن خِدْمَتِه بِمَرَضٍ مَنَعَ من أَدَاءِ المُفْتَرَضِ . وإِنَّ الذِّكْرَ لَيَطيرُ للرَّجُلِ وغَيْرُهُ الخَطيرُ ، كَمْ من شَجَرَةٍ شَاكَةٍ ظِلُّها لَيْسَ بِرَحْبٍ ، وثَمَرُهَا غَيْرُ عَذْبٍ، اسْمُها السَّمُرَةُ، وكُنْيَتُهَا أُمُّ غَيْلانَ ، تُذْكَرُ في آفَاقِ البِلادِ ، وغَيْرُهَا من أَشْجَارِ الثِّمَارِ ، إن ذُكِرَ نُكِّرَ، والإرْمَاءُ[2] لا تُوجِبُهُ للشَّيءِ الأَسْمَاءُ ، رُبَّ أَسْوَدَ كَريهِ الرَّائحَةِ يُسَمَّى كَافُوراً أو عَنْبَراً، وقَبيحِ الصُّورَةِ من البَشَرِ يُدْعَى هِلالاً أو قَمَراً وكيف يَتَأَدَّى العِلْمُ إليَّ ، وأَنَا رَجُلٌ ضَرِيرٌ[3]، وكَفَى من شَرٍّ سَمَاعُهُ، ونَشَأتُ في بَلَدٍ لا عَالِمَ فيه، وإنَّما تَشَبَّثُ النَّامِيَةُ بالجَوَازِعِ[4] ، ولَمْ أَكُنْ صَاحِبَ ثَرْوَةٍ ، فَكَيْفَ الحِدَاءُ بِغَيْرِ بَعيرٍ، والإنْبَاضُ مع فَقْدِ التَّوْتِيرِ[5]. فَإِنْ بَلَغَ سَيِّدي الشَّيْخَ أن سَارِيَ اللَّيلِ قَبَضَ على سُهَيْلٍ[6]، وأَنَّ الأَرْضَ أَنْبَتَتْ وَشْيًا وحَرِيراً ، والسَّحَابَ أَمْطَرَ مُدَامًا وعَبِيراً ، فَهْوَ أَعْلَمُ بِرَدِّه عَلَى المُبْطِلين ، حَسْبُ الأَرْضِ أن تَعْنُوَ بِخُلَّةٍ وحَمْضٍ[7] ، وعَادَةُ

---

(١) الحلس : الذي يلزم مكانه فلا يبرحه ، يقولون : كن حلس بيتك أي الزمه ، وهو استخدام مجازي للفظة ، كونها تعني مسحًا يبسط في البيت وتجلل به الدابة .

(٢) الإرماء : الزيادة .

(٣) يتأدى : يصل ، ضرير : ذاهب البصر .

(٤) تشبث : تعلق ، النامية : قضيب الكرم ، الجوازع : أخشاب توضع في العريش عرضًا وتطرح عليها قضبان الكرم .

(٥) الحداء : سوق الإبل والغناء لها ، الإنباض : جذب وتر القوس وتركه ليرن ، التوتير : شد وتر القوس. والعبارة الأولى من المثل « كالحادي وليس له بعير » .

(٦) سهيل : النجم المعروف .

(٧) تعنو : تظهر ، خلة وحمض : الخلة ما فيه حلاوة من النبات والحمض ما ملح ومرَّ منه .

السَّحَابِ المُرْتَفِعِ في السَّمَاءِ أن يَأْتِيَ بريَّ الظَّمَاءِ ، والدُّلْجَةُ بَلَغَتْ إلى البُلْجَةِ[١] . لهفي على فَوَاتِ هذه المَنْزِلَةِ ، ومن لِلْوَرْقَاءِ بِكَوْكَبِ الخَرْقَاءِ[٢] ، والرَّاقِد عِنْدَ الفَرْقَدِ أن يُضْحِيَ مُجَاوِرَ الفَرْقَدِ[٣]، من لا يَصْلُحُ لِمُجَالَسَةِ النُّظَرَاءِ ، فكيفَ يُنْتَدَبُ لِلقَاءِ السَّادَاتِ الكُبَرَاءِ :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لو نَادَيْتَ حَيّاً ولكِن لا حَيَاةَ لمن تُنَادي

هل آمَلُ مِنَ اللّه ثَوَابًا ، وإنّما أنَا كَقَتْلَى بَدْرٍ أَسْمَعُ ولا أَمْلِكُ جَوَابًا؛ ولمِثْلِ هذه الرُّتْبَةِ سَهِرَ من أَهْلِ العِلْمِ السَّاهِرُونَ ، أَعْرَضَ النَّوْفَلُ وغَابَ العَائِمُ[٤] ، وأَوْمَضَ البَارِقُ فأَيْنَ الشَّائِمُ، إنَّ الحَيَّ خَلُوفُ[٥]،(يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا) والسَّيِّدُ عَزِيزُ الدَّوْلَة أعزَّ اللّهُ نَصْرَهُ يُعِينُ الكَسِيرَ بالجَبْرِ، فكيفَ يَأْمُرُ بإخْرَاجِ مَيْتٍ من قَبْرٍ، ولو كُنْتُ بَارِئًا مِنْ هذه العِلَّة لخَشِيتُ أَنْ أَصِحَّ فَأَفْتَضِحَ، لأنِّي ما أَنْصفْتُ إذ وُصِفْتُ، والسَّيِّدُ عَزِيزُ الدَّوْلَةِ لَيْسَ كَغَيْرِه من المُلُوك والسَّادَات ، لأنَّهُ يُوصَفُ بِفَارِسٍ من جهاتٍ ، فَهُو فَارِسٌ للأَقْرَانِ من فَرْسِ الأَسَدِ ، فَارِسٌ على الجَوَادِ العَتَدِ ، فَارِسٌ من فَرَاسَةِ الأَلْمَعِيِّ ، سَالِمٌ من الخَطَلِ والعِيِّ[٦] ، والإنْسَانُ يَسْتَحيي من نَظِيره ، فكيفَ من سَيِّدِ العَصْرِ وأَميره . يا فَضْحَةَ فَتَاةٍ قيلَ إنَّها بَيْضَاءُ ، كَأَنَّها من النَّعْمَة ما تَضَمَّنَتْهُ الإضَاءُ[٧] ، حَلِيمَةٌ رَزَانٌ ، تَزِينُ المَجْلِسَ ولا تُزَانُ ، حَوْرَاءُ غَيْدَاءُ[٨] ، فَلَمَّا كَانَ الهِدَاءُ، وُجِدَتْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، فَإِذَا بَيَاضُهَا سَوَادٌ رَائِعٌ[٩]،

---

(١) الدلجة : السير من أول الليل ، بلغت : أوصلت ، البلجة : الضوء في آخر الليل .

(٢) الورقاء : الناقة التي لا تصلح للسير والعمل ، الكوكب : الفِطْر (وهو نبات معروف) ، الخرقاء : الأرض الواسعة .

(٣) الفرقد : الأول : ولد البقرة الوحشية ، والثاني : نجم قريب من القطب الشمالي يُهتدى به .

(٤) أعرض : ظهر ، النوفل : البحر ، العائم : السابح على وجه الماء .

(٥) أومض : لمع ، الشائم : الذي ينظر البرق أين يمطر، الحي : منزلة القوم ، خلوف : خالي من الرجال.

(٦) العتد : الشديد التام الخلق ، الألمعي : الذكي المتوقد الفؤاد ، وفراسته : استدلاله بالأمور الظاهرية على الخفية ، الخطل : الخفة والحمق والفحش في الكلام ، والعي : عدم القدرة على النطق .

(٧) الإضاء : الأجمة من الصفصاف الهندي .

(٨) رزان : وقورٌ في مجلسها ، لا تُزان : أي لا تحتاج إلى الزينة لأنها غنية عنها بجمالها ، الحوراء : التي اشتد سواد سواد عينها واشتد بياض بياضها مع استدارة حدقتهما ورقة الجفنين ، والغيداء : المائلة العنق اللينة الأعطاف .

(٩) رائع : مفزع .

والنِّعْمَةُ جَفَاءٌ[1] في الجَسَدِ شَائِعٌ ، والحَوَرُ زَرَقٌ مُتَبَايِنٌ ، والغَيَدُ وَقَصٌ شَائِنٌ[2] ، وإذا هِيَ سَفِيهَةٌ رَوَادٌ ، لا يَشْعَفُ بِوُدِّهَا الفُؤَادُ[3] ، والمَثَلُ السَّائِرُ أَنْ تَسْمَعَ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ من أَنْ تَرَاهُ . ولَسْتُ أَرْضَى لِحَضْرَةِ مَوْلاَيَ الشَّيْخِ بِتَحِيَّةِ نُصَيْبٍ[4]، لأَنَّهُ رَضِيَ بِعَشْرِ تَحِيَّاتٍ في الصَّبَاحِ ، وعَشْرٍ عِنْدَ الرَّوَاحِ[5] ، وَوَلِيُّهُ يَحْمِلُ إلى حَضْرَتِه الجَلِيلَةِ تحِيَّةَ شَاكِرٍ طَرُوبٍ ، تَصِلُ شُرُوقَ الشَّمْسِ بالغُرُوبِ ، وتَكُرُّ مع طُلُوعِ الشَّفَقِ ، إلى حِينِ تَمَزُّقِ ثِيَابِ الغَسَقِ[6] ، كُلَّمَا اجْتَازَتْ بالصَّعِيدِ الأَعْفَرِ جَعَلَتْهُ كَالْهِنْدِيِّ الأَذْفَرِ .. [7] » .

وبعد فإنك إن تأملت حركة فكره في هذه الرسالة فستجد كأنك في موجٍ يقذفك يمنة ليأخذك يسرة ، ثم يهوي بك في قاعه ليعود فيرتفع بك من جديد ، فأي حركة دافقة دافعة تلك التي يبعثها أبو العلاء في أفكاره ومعانيه ؟ !!

ونرجح أن السبب فيما رأيت ووجدت أن الرجل لا يسير مع معانيه سيراً مطمئناً هادئاً ، وإنما يدور معناه في حلقات ، لذا فقد قمت بتقسيم الرسالة حسب دوران المعنى فيها إلى واحدٍ وعشرين قسماً، ينتقل فيها أبو العلاء من معنىً إلى آخر - حتى يتسنى لنا دراسة حركة معانيه فنتأمل نشوء الفكرة لديه وتكوينات جمله معاً بإذن الله .

وهذا أول قسم من الرسالة وهو مفتتحها حيث يقول فيه : « لَوْ أَهْدَيْتُ إلى حَضْرَةِ سَيِّدي الرَّبِيعَ يُزْهَي بِأَحْسَنِ زَهْرِه ، والبَحْرَ يَتَبَاهَى بالنَّفِيسِ من جَوْهَرِه، لَكَانَ عِنْدي أَنِّي قَدْ قَصَّرْتُ واخْتَصَرْتُ ، فكيفَ بِي ولا أَقْدِرُ أَنْ أُهْدِيَ زَهْرَةً ، ولا أَنْتَزِعُ صَدَفَةً ، فَدَعِ الجَوْهَرَةَ » .

---

(١) جفاء : غلظ في الجثة .

(٢) وقص : قصر في العنق ، شائن : معيب .

(٣) رواد : أي طوافة في بيوت جاراتها ، لا يشعف بحبها : أي لا يحبها الفؤاد مطلقاً .

(٤) نصيب : أحد عشاق العرب المشهورين .

(٥) الرواح : المساء .

(٦) الشفق : الحمرة من الغروب إلى العشاء ، الغسق : الظلمة .

(٧) الصعيد : التراب ، والأعفر : ما لونه العفرة ، وهي بياض في حمرة ، الهندي : المسك الذي يجلب من الهند ، الأذفر : الجيد للغاية .

وأرجو أن تكون معاني المفردات هذه بين يدي القارئ وأنا أدرس هذا الفصل حتى لا ألجأ إلى إعادتها .

يتحدث أبو العلاء هنا عن الهدية التي من شأنه أن يبعث بها للمرسل إليه (الشيخ) ، فيضعك أول ما يضعك أمام « لو » ، التي هي حرف امتناع لامتناع ، ثم يعقبها بـ « أهديت » ، فتعلم أن هديته من الاستحالة بمكان ، ثم يفصح عن طبيعة هذه الهدية « الربيع يزهي بأحسن زهره » ، حيث يبعث في الربيع الروح ليأتي به يخطر ويختال بكل جماله إلى الشيخ هديةً ، ثم لا يكتفي أبو العلاء بهذه الهدية فيردفها « والبحر يتباهى بالنفيس من جوهره » ، فهو لا يريد أن يهديه الربيع يختال فقط ، بل والبحر يتباهى أيضًا ، وكأنه يريد أن يجمع له البسيطة برًا وبحرًا بكل خيراتها (زهرًا، وجوهرًا) هدية خالصة . ثم يكون جواب الشرط قوله : «لكان عندي أني قد قصرت واختصرت » فيرى نفسه بعد تلك الهدية مقصرًا مختصرًا ، فأي منزلة يحتلها هذا الشيخ من نفس أبي العلاء ؟ ! ، ثم هل يتوقف أبو العلاء بمعناه هنا ؟! المعنى هنا اكتمل، ولكن أبا العلاء يفتح بقوله:«قد قصرت واختصرت» بابًا جديدًا للمعنى يدلف منه ، حيث يقول:« فكيف بي ولا أقدر أن أهدي زهرة ، ولا أنتزع صدفة، فدع الجوهرة » ، فالاستفهام هنا خرج للتعجب ، والفاء الداخلة عليه تضفي قدرًا من التعجب على كلامه السابق، وكأنها تربط تعجبًا بآخر(١) ، فهو رغم عظم هديته يراها اقتصارًا واختصارًا في كلامه الأول ، فأي تقصير إذًا يكون تقصير أبي العلاء إذا كان عاجزًا عن أن ينتزع زهرة، أو صدفة، بله ربيعًا وبحرًا؟!!! إذًا فالذي حدا بأبي العلاء بأن يأتي بهذه الجملة هو رغبته في أن يبلغ بفكرة التقصير هذه الغاية، وهذا طبع أبي العلاء وهذا ميسمه، حيث لا يرضى من المعاني إلا البالغ الغاية ، فمبالغاته في التحليل تفتح آفاقًا للمعنى في رسائله فتمطل كلامه وتمده ، فقد بالغ في فكرة التقصير كما رأيت كما بالغ من قبل في هديته ، وهذا المطل والمد يسفر عن ترابط محكم في جمله وامتداد لها أيضًا فتطول بدورها .

تأمل القسم السابق فهو عبارة عن جملة شرط طالت بتعدد المفعول (الربيع ، البحر)، وتبع كل مفعول جملة حال الأولى « يزهى بأحسن زهره »، والثانية« يتباهى بالنفيس من جوهره » ، ثم تبع جملة الشرط جملة الجواب « لكان عندي أني قد قصرت واختصرت» وترتب عليها جملة أخرى ارتبطت بها بالفاء « فكيف بي...»،

(١) أبو موسى ، محمد : قراءة في الأدب القديم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م ، ص١٢٩ .

والتي طالت بدورها بجملتي حال ، الأولى « ولا أقدر أن أهدي زهرة » ، والثانية تكونت هي بدورها من جملتين « ولا انتزع صدفة فدع الجوهرة » . فأنت أمام بناء من الجمل محكم يأخذ بعضه بأعناق بعض ، فالقسم من كلامه أشبه بجملة واحدة.

ولو دققت النظر في القسم السابق لوجدت أن الرجل رغم أن ظاهر معناه وكونه في مفتتح الرسالة يغريك بأن تراه نوعًا من المبالغة في الثناء على الشيخ ، وضربًا مبتكرًا من التحية له = أقول رغم ذلك إلا أنه يحمل بداخله تصريحًا بالعجز، عجز أبي العلاء المتناهي المبالغ فيه أيضًا ، حيث بنى كلامه على كونه لا يقدر: «فكيف بي ولا أقدر ...» ؟ فهي الكلمة الأم في هذه الجملة ، بل في هذا القسم ، فقد عكست الفاء ظلال معناها على الكلام السابق كما أسلفنا ، وهكذا يقذف أبوالعلاء منذ البدء بتمتمات تنبئنا عن المعنى الأم والمعنى الذي عليه المدار في رسالته ، ألا وهو عجزه ، عجزه عن المنادمة بسبب من محبسه الذي هو عجز ، وبسبب من علته التي هي أيضًا ضربٌ من العجز . فهذه إذًا الحلقة الأولى من حلقات معنى أبي العلاء ظاهرها الثناء ، وباطنها إقرار بالعجز ، وتأملها جيداً فمن هنا تبدأ أنفاس هضم النفس في الرسالة ، والتي ترى لها حفيفًا خافتًا ثم يظهر ظهورًا جليًا فيما بعد .

أما القسم التالي من كلامه والذي ابتدأه بواو هي من قبيل عطف معنىً على معنى فيقول فيه : « والرَّائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، فأمَّا العَبْدُ إذا كَذَبَ سَيِّدَه فَبَعدَ ولا سَعدَ ، والذَّاهِلُ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ أَمْسَهُ، والجَاهِلُ من لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، ولنَفْسِي الخَائنَةِ أَقُولُ : أعْيَيْتِنِي بأُشُرٍ فكيفَ بِدُرْدُرٍ ، أعييت رياضَةُ الهَرِمِ، واعتصارُ الماءِ مِنَ الجَمْرِ المُضْطَرِم » .

وهذه القفزة من الحديث عن العجز عن الإهداء إلى الحديث عن الرائد الذي لا يكذب أهله ، وتوالي سيل الأمثال ، والجمل المساقة مساقها من ثم = يجعل القارئ في حيرة من أمره ، فأي معنىً يريد أبو العلاء ؟ !! وما شأن هذا بذاك ليعطفه عليه ؟ !

ودعنا نحاول سبر هذه القفزة ، وهذه الانتقالة ، وأنا أنبهك أن هذا الغموض ، وهذا الالتباس ، كان من مقصد أبي العلاء بمكان . وسوف نوضح ذلك في حينه بإذن الله .

فمنذ أن قال « والرائد لا يكذب أهله » على طريقته في قذف الأمثال دون أن يتقدم عليها ما يسبقها ويمهد لها كما هي في كلام المترسلين وأهل البيان ، حيث تكون مؤكدة مبينة لما قبلها = أقول منذ أن قال ذلك تعلم بأنه بصدد أن يدفع عن نفسه تهمة ما، فما هي هذه التهمة ؟ ، هل هي كذب فعلاً؟ أم أنها من قبيل المجاز، وأن الغرض أنه بمنزلة من لا يتوقع منه هذا الخطأ الذي يدفعه عن نفسه ؟ ! وهل ما يدفع عنه صفة الكذب هنا هو إقراره السابق بالعجز ؟ ! وهو إقرار خفي وإن ظهر ، فلم يكن كلامه نصاً في العجز عن المنادمة وإنما عن الإهداء ، وكأننا بأبي العلاء هنا يقدم من بيانه معنىً على معنىً لم يصرح به بعد ، فهو لم يقل حتى هذه اللحظة « عذراً عن المنادمة لعجزي » ؟ !!

ثم تراه يعقب على هذه الجملة وعلى هذا المعنى بقوله « فأما العبد إذا كذب سيده فبعد ولا سعد » ، فلماذا عقب بمثل هذا المعنى على قوله السابق « والرائد لا يكذب أهله » ؟ ! ، والحق أن هذه الجملة كأنها استدراك على سابقتها، وكأنه رأى منزلته من الرجل ليست منزلة الرائد من أهله ، وإنما هي منزلة العبد من سيده .

ومما يرجح هذا المعنى أنك تجد بها شوباً من قوله « فكيف بي ولا أقدر أن أهدي زهرة »، حيث كان وهو بصدد أن يهدي الربيع والبحر مقصراً، ثم عاد ليقول بأنه لا يستطيع حتى أن يهدي زهرة أو صدفة بله ربيعاً وبحراً ، وهنا ترى نفس الحذو في المعنى لا في البناء ، أي إذا كان الرائد بمثابة من لا يكذب فما بالك بالعبد !!

ثم يعطف على جملة « الرائد لا يكذب أهله » وما عطف عليها جملتين، وكأنهما بنات رحم واحدٍ معنىً ومبنىً، ساقهما مساق المثل وألبسهما رداءه« والذاهل من لم يذكر أمسه، والجاهل من لا يعرف نفسه » ، فنحن نتنقل في قسم صب في قالب من المثل في أغلبه ، عطفت جمله بعضها على بعض فكأننا أمام جملة واحدة ، حيث جملة « أعييتني بأشر فكيف بدردر » هي جملة مقول القول ، والجملة التالية لها «أعيت رياضة الهرم » وما عطف عليها « واعتصار الماء من الجمر المضطرم » بمثابة توكيد لجملة مقول القول لجملة « ولنفسي الخائنة أقول » ، التي هي بدورها مع سوابقها معطوفة على جملة « والرائد لا يكذب أهله » .

انظر وتأمل هذا البناء ، ولا تنسى أن هذا القسم بكل جمله معطوفٌ على

القسم الأول بالواو ، والمعطوف والمعطوف عليه بمنزلة الشيء الواحد ، فنحن وحتى نهاية هذا القسم نتعاطى مع معنى أبي العلاء وكلامه وكأنه جملة واحدة لا يحسن السكوت عليها إلا بتمامها .

وأعود لما كنت فيه من سبر معناه في هذا القسم العجيب ، وكنا قد توقفنا عند قوله « والذاهل من لم يذكر أمسه، والجاهل من لا يعرف نفسه» ، ومن السياق الذي يدل بأن المقام مقام نفي، فكأني بأبي العلاء يقول هنا: فأنا لست ذاهلاً فأمسي مني على ذكر، وأنا لست جاهلاً بنفسي وإنما أخبرها جيداً ، وهذا ما دام معطوفاً على قضية الرائد والعبد ونفي الكذب عنهما فإنه إذاً من قضية اعتذاره بمكان ، فما الذي كان في أمسه يسوغ له هذا الاعتذار؟! وما الذي يعرفه من نفسه حتى يسوغ له ذلك أيضاً ؟ !

هكذا ينسج أبو العلاء كلامه لتظل تتدسس في ثناياه باحثًا عن معناه فقط وما تكاد ، بله أن تبحث عن الغمغمات الخفية التي يسترها عنك ، فنعلم يقينًا بأن هذا الغموض من غرضه بمكان، وهذا طبعه وطبع بيانه في رسائله موضع الدرس ، ألاّ تسلم قيادها لك من أول قراءة بل أنت بحاجة للتمعن والتدبر كيما تصل للفهم ، سواءً كان هذا الغموض غموضاً سافراً متحدياً كما هو حاله في سياقته للأمثال في نحو هذا ومثله، أو كان أقل من ذلك رتبة فيما يصطنعه من غريب لفظ، وخيال، وجناس ، وسجع ، ولغة تغريك بها وبالتنقيب فيها وحولها !!

ثم يعطف على هاتين الجملتين جملة يخاطب بها نفسه على التجريد ، مما يعني أننا ربما نكون قد اقتربنا إلى الجملة الأم في هذا القسم ؛ ذلك أن التجريد لا يكون إلا في المعاني التي لها شأن ، وما دام أبو العلاء قد ميزه عن كل ما سبق فهو من نفسه ومن معناه بمكان ، فقد عاد هنا عن مخاطبة الشيخ إلى مخاطبة نفسه ، وكأنه يقول بأن ما سبق من احتجاج لك وهذه لي : « ولنفسي الخائنة أقول : أعييتني بأشر فكيف بدردر ، أعيت رياضة الهرم ، واعتصار الماء من الجمر المضطرم » .

فترى هذا الخطاب للنفس الذي لم يكتف فيه أبو العلاء بمثل واحد ، بل أردفه بآخر بنفس المعنى تقريباً ، ثم بثالث مؤكداً لهما في معناه، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذا المعقد من كلامه ذا شأن، فقد كلف به أبوالعلاء كلفًا خاصاً فكثف معناه

وألح عليه،وهو في ذلك ينبئنا بأننا معه قد وضعنا أيدينا على معنىً مهم من الرسالة نفسها ألا وهو (صعُوبة معالجة نفسه فيما تُرَاد عليه) ، ومن هنا ترى أيضًا بأن رغبة أبي العلاء في الإلحاح على معناه ، وتثبيته في نفس المخاطب من الأسباب الداعية لمطل كلامه ، وامتداد نفسه فيه ، ولتنامي المعنى بين يديه .

وقبل أن ننفض أيدينا من هذا القسم أدعوك إلى تأمل الجملة الأخيرة التي خُتم بها « واعتصار الماء من الجمر المضطرم »، فتجدها وكأنها عودٌ بالخطاب إلى الشيخ لا النفس، ذلك أنك تجد المعنى معها يرتدي حلة جديدة ، فلم تعد ترى أمامك صاحبة دردر ، أو هَرِمًا يُسام على ما لا يريد ، وإنما أنت بإزاء « جمر مضطرم »، تسمع في هذا حفيف تيئيسٍ به شوب من اعتداد ، وكأن أبا العلاء يتكشف هنا عن إحساسه الحقيقي بنفسه التي لا تراه إلا وهو يبالغ في توهينها ، فهي هنا « جمر مضطرم » ، وهذا الارتقاء بالمعنى يمهد لأنفاس القسم التالي الذي لن تجد فيه رائدًا وأهله ، وعبدًا وسيده ، وجاهلاً وغافلاً ، وهرمًا وصاحبة دردر ، بل تجد به لغة حاسمة متقطعة عازمة على ما تريد ، وهذا مما سماه الباقلاني « تأليف المختلف »، يكشف عن قدرة صاحب البيان واقتداره على تسور معانيه وتمكنه منها .

ثم ننتقل إلى القسم الثالث ، ولا تغفل أننا تركنا الثاني وليس بين أيدينا إلا الوهم ومحاولة معرفة الطريق، ولا ندري ما معنى الرجل ؟ وعن أي كذب كان يتحدث؟ وما شأن نفسه حتى يخاطبها هذا الخطاب ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تركها في نفس المخاطب ، يقول في هذا القسم : « إن كَذَبْتُ ، فَعَنِ الخَيْرِ أَعْذَبْتُ ، ما اعْتَزَلْتُ ، حتَّى جَدَدْتُ وهَزَلْتُ، فَوَجَدْتُني لا أَصْلُحُ لِجِدّ ولا هَزْلٍ ، فعندها رَضِيتُ بالأَزْلِ » .

وهكذا يعيدك أبو العلاء لقضية الكذب بعد أن أبعدك عنها ، فتراه يتعامل مع فكرة الكذب بهذا الحسم ، فقد وضعها في إطار الشرط بـ (إنْ) بالذات التي هي للأمر النادر ، وهي هنا تضع المعنى موضع الفرض والتقدير كقوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين)[1] على سبيل الفرض، فيكون المعنى على أنه لو وقع منه هذا الأمر، فهو لا يعدل عن الصدق فقط بكذبه هذا، بل يعدل به عن أبواب

---

(١) سورة الزخرف ، آية ٨١ .

الخير كلها ، ويكف عنها ويدعها . ثم يقطع أبو العلاء ويستأنف وهو هنا استئنافٌ بياني فقد صرخ التساؤل في ضمائرنا (ما الكذب الذي تنفيه عن نفسك ؟ !) فتكون الإجابة« ما اعتزلت حتى جددت وهزلت »، وبها يروي أبو العلاء ظمأ النفوس ويشفي بعد طول انتظار ، وهنا فقط تجد كلامًا صريحًا لأبي العلاء عن العزلة والمحبس، ثم لاتراه من بعد بهذاالجلاء في باقي الرسالة، بل يعود للركود والغموض والكناية ، وهكذا وبربطه إياه بالكذب نستطيع أن نطمئن نوعًا ما لما سبق من تفسيرات وضعناها بشأن القسم السابق من معناه ، وكونه يعود على قضية عجزه عن المنادمة ، وأن نطمئن أيضًا إلى أن أبا العلاء يؤخر مفاتيح بيانه ، حتى ينهك عقل مخاطبه ، ويقدم من معناه ما حقه التأخير ، ويؤخر ما حقه التقديم ، ثم يجعل ذلك كله من بيانه في حاق موضعه !!

ثم تأمل كيف سار المعنى ، حيث يبدأ رحلته مع معانيه في الحلقة الأولى بالإقرار بالعجز ، (والذي هو من المحبس والعزلة بمكان)، ثم يعود عنه ليدفع عن نفسه صفة الكذب ، ثم ينساق في حديث منها بسبيل ، ثم يعود إليها في جزء من أقصر أجزاء المعنى في رسالته، حيث ظهرت العزلة صريحة في طريقة خاطفة لا تكثيف ولا إطالة فيها ، أو نسج صور أو مجازات حولها ، بل كلام واضح صريح جدًا في معناه ، وكله أشبه بالطرقات لتوقيعه العالي وقصر جمله ، فالمعنى هنا له شأن خاص ، لذا اختلفت لغة أبي العلاء معه ، وكأنه زفرات نفس لا تطيق أن تقف طويلاً عنده ، فعند هذا المعنى لا يستوقفك أبو العلاء ليُلح ويُغرب ويُبعد ، بل يمر عليه مرورًا سريعًا كمن يمر على مقبرة مفزعة لا يريد أن يتريث بها !!

وإذا ما تأملت تكوين الجمل في هذا القسم، وجدتها وقد تغازرت وتكاثرت رغم قصره ، ووجدتها أيضًا لحمة واحدة، فيبدأ بجملة شرط وجواب « إن كذبت فعن الخير أعذبت»، تتصل بها جملة « ما اعتزلت»، التي من تمامها جملة «حتى جددت»، ثم عطفت عليها جملة« وهزلت »، ثم عطف على جملة «حتى جددت» جملة «فوجدتني لا أصلح لجد ولا هزل»، ثم عطفت على هذه الأخيرة جملة « فعندها رضيت بالأزل»، وانظر إلى الفائين في قوله « فوجدتني لا أصلح ... »، وفي « فعندها رضيت » لترى تتابع المعاني وبناء بعضها على بعض . وقد عدل أبو العلاء عن نفس الحذو في هذه الأخيرة فقال : « فعندها رضيت »، ولو سار على حذو سابقتها لقال« فرضيت »،

وكأنه بقوله : فعندها ، ورغم استخدامه للفاء = كأن هنا استبطاء من أبي العلاء لهذا الاعتزال ، ويؤكد هذا ما وصف به أبو العلاء قرار العزلة بأنه كان[1] « غذيُّ الحِقَبِ المُتَقَادِمَةِ ، وسَلِيلُ الفِكْرِ الطَّوِيلِ » من رسالته إلى أهل المعرة مطلعه من بغداد عند اتخاذه لهذا القرار . وهذا منه يكشف عن دقته في التعامل مع المعنى، وأنه رغم الإيجاز الذي يصطنعه في هذا القسم قد يمطل شيئًا ما حرصًا على معناه ، من ذلك أنه كان بإمكانه في جملة « فوجدتني لا أصلح لجد ولا هزل » أن يقول عوضًا عن ذلك « فوجدتني لا أصلح لهما » ، فيعيد الضمير على الجملة السابقة « حتى جددت وهزلت » ، ولكن أبا العلاء يريد أن يؤكد عدم صلاحه لهما، فيضعهما أمام عينيك ويبرزهما ويكررهما مؤكدًا ، وقد قالوا إن الكناية والتعريض لا تعملان في النفوس عمل الإفصاح والتكشيف، ثم إن في إخراج كلامه على هذه الصورة إضافة لمعناه لم تكن لتتحقق له لو لم يفعل ، ذلك أنه لم يجر صفتي الجد والهزل على شيء، فلم يقل مثلاً لا أصلح لحال جد ولا لحال هزل، أو ساعات جد وساعات هزل، وإنما أطلق الجد والهزل « والصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراة على شيء، كان الذي تعلق بها من النفي عامًا في كل ما يجوز أن تكون لـه تلك الصفة »[2]، وهذا ما يريده أبو العلاء فهو لا يصلح لجد أي جد، ولا يصلح لهزلٍ أي هزل، وبه يبلغ بمعناه الغاية، وأنه لا أمل في استصلاحه وإخراجه من عزلته !!

وهناك أمر أريد أن ألفت إليه وهو تعبيره التالي في هذا القسم عن العزلة، فقد وصفها بـ « الأَزْل » أي الضيق والشدة ، وتأمل كيف كرر جرس الزاي في هذا القسم ، مما يدل أن كلمة « اعتزلت » هي الكلمة الأم والتي عليها المدار ، وكأنه يؤكد تكرار جرسها بهذه الطريقةالشديدة الحاسمة متجسدة في صوت الزاي «اعتزلت ، هزلت ، هزل ، الأزل » ، ولم يكرر الزاي فقط بل اللام أيضًا ، وتاء الفاعل التي يلفتنا بها إلى أن هذه حياته وشأنه الذي لا ينازعه على البت فيه أحد .

والمعنى في القسم السابق لو تأملت لا ينفي الكذب عن كونه معتزلاً راغبًا في الحياة بمفرده ، وإنما ينفي أن يكون هناك طماعة في أن يدع هذه العزلة ، تأمل : « إن كذبت فعن الخير أعذبت ، ما اعتزلت حتى جددت وهزلت » ، إذًا ما يريد أن

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢١٩/١ .

(٢) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٢٨٧ .

يثبته هنا بنفي الكذب عنه ليس أمر العزلة في حد ذاته ، وإنما عجزه عن أن يعود عن هذا الأمر . وهذا ما يفسر الاحتشاد بسياق الأمثال السابق ، وكأن محصلة كل ما سبق تفضي لا محالة إلى قرارٍ أزلي بالعزلة ، فهو رائد لا يكذب أهله فيما عزمه، وتذكره لأمسه ، ومعرفته بنفسه ، وكونها نفس عصية شموس، أمور تجعل العزلة أمرًا مفروغًا منه ولا رجعة عنه !!

وننتقل إلى القسم الرابع من هذه الرسالة ، حيث يقطع أبو العلاء ويستأنف كما قطع واستأنف في بداية الثالث ، والقطع والاستئناف من المواطن المثيرة والتي تطوي وراءها شيئًا حرك بيان صاحب البيان وأراد بهذا القطع أن ينبئنا بما وجده في نفسه من معنى ، يقول أبو العلاء فيه : « ما حَمَامةٌ ذاتُ طَوْقٍ ، يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الشَّوقِ ، كانت في وَكْرٍ مَصُونٍ، بين الشَّجَرِ والغُصُونِ، تَألَفُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِها رِيداً، فَيَتَراسَلانِ تَغْرِيداً، مَسْكَنُها نَعَمَانَ الأَرَاكِ، تَأْمَنُ به غَوَائِلَ الأَشْرَاكِ، وَتَمُرُّ في بُكْرَتِها بالبيتِ الحَرَامِ ، لا تَفْرَقُ لمكانِ صَائِدٍ ولا رَامٍ ، فَغَرَّهَا القَدَرُ، إِذْ لَمْ يَنْفَعِ الحَذَرُ ، فَخَرَجَتْ من الأَرْضِ المُحَرَّمَةِ ، فَأَصْبَحَتْ وهي جِدُّ مُغْرَمَةٍ، صَادَها وَلِيدٌ في الحِلِّ، ما حَفظَ لَها من إِلٍّ ، وأَوْدَعَها سِجْنًا للطَّيْرِ، ومَنَعَها من كُلِّ مَيْرٍ، فَإِذَا رَأَت من خَصَاصِ القَفَصِ بَوَاكِرَ الحَمَامِ ، ظَلَّتْ تُمَارِسُ جُرَعَ الحِمَامِ ، تَسْأَلُ بِطَرْفِها أَخَاها، ما فَعَلَ بَعْدَها فَرْخَاها ، فَيَقُولُ : أَصْبَحا ضَائِعَيْنِ، قَدْ سَتَرَهُما الوَرَقُ عن كُلِّ عَيْنٍ :

فُرَيْخَانِ يَنْضَاعَانِ في الفَجْرِ كُلَّما أَحَسَّا دَوِيَّ الرِّيحِ أو صَوْتَ نَاعِبِ

بِأَشْوَقَ إلى المَعِيشَةِ النَّضْرَةِ ، مِنِّي إلى تلك الحَضْرَةِ » .

وأبو العلاء في هذا القسم يصف شوق حمامة كما ترى، ليفضل في النهاية شوقه إلى الشيخ على شوق الحمامة ، وهذا البناء من التشبيه الضمني شائع في الشعر، وليس شائعًا في النثر شيوعه في الشعر ، ولكن أبا العلاء يحضره إلى ميدان النثر، ويلح عليه، وكأنه يريد أن ينقل أساليب الشعر إلى النثر، وأن يضع في النثر بدائل للشعر ، فقد عزفت نفسه في بداية قراره العزلة عن الشعر تورعًا يقول في ذلك من رسالة الجن(١) : « إِنَّمَا أَجَبْتُهُ بِنَثِيرٍ دُونَ نَظِيمٍ ، لأَنِّي مُنْذُ سَنَوَاتٍ قَدْ أَعْرَضْتُ عن تِلْكَ الهَنَوَاتِ » .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٤٧١ .

ونحن نريد أن نرى كيف تعامل عقل أبي العلاء مع فكرة شوق الحمامة ؟ وكيف نمَّى المعنى في هذه الصورة ؟ ومن أي المداخل والجهات ؟

وقصة الحمامة هنا تُظهر براعة أبي العلاء في حبك القصة وفي سوقها وفي بنائها ، وقد أصاب أبو العلاء في وصف النعمة التي كانت فيها هذه الحمامة لأنها ذات طوق ، وهو في الأدب العربي تعبير عن زينة الحمامة ، وقد أشار أبو العلاء نفسه لهذا في رسالته لخاله يعزيه فيها في خاله الآخر يقول(١) : « ولَمْ يَخْلُد عليه السلام (يقصد نوح عليه السلام) وقَدْ أَتَاهُ النَّبَأُ مِنْ فَوْق ، ودَعَا فِيمَا رُوِيَ لِلْقُمْرِيَّةِ فَحَلَيْتِ بِالطَّوْق »، فالطوق حلية كما ترى . وقد فُهِم من قوله « ما حمامة » ما أتى بعدها مما وصفها به وهو أنها « ذات طوق » فلماذا أتى بهذا الوصف ؟ !

لا بد وأن أباالعلاء يريد أن يلفت إلى أمر خاص بمثل هذا الإلحاح على معناه، فهل يريد بهذا أن يستحضر ما قاله الشعراء في حنين « المطوقة » ؟ فالحمامة رمزٌ من الرموز القديمة جداً في ذكر الأشواق والحنين والوفاء والألفة .

والقصة هنا مدارها الحنين، ويسعى أبوالعلاء ليجعلها مشبعةً به، وذات الطوق بهذا المسمى رمز للحنين لأن الزينة المفهومة من « ذات الطوق » باب من أبواب الصبوة ووجه من وجوه النعمة التي تكتمل بها العافية والشباب والحنين ، ثم يأتي بعد هذا جملة صفة للحمامة « يضرب بها المثل في الشوق »، وهنا يصرح بأنها مضرب المثل في الشوق ، فهو بذا يصرح بما ألمح إليه في قوله « ذات طوق »، وأتى بالفعل المضارع هنا ليدل على تجدد هذا المعنى فيها، وكأن حنينها أيضاً متجدد لا ينفد ، وعندما يأتي الحنين ممن يضرب بهم المثل في الحنين فأي شوق وأي حنين حينها يكون !! ، وهذا ما كان يرمي إليه أبو العلاء بإلحاحه على هذه الفكرة ، ثم بعد ذلك تأتي الجملة الثانية « كانت في وكر مصون بين الشجر والغصون » كلمة (كانت) تذهب بنا إلى ماضي تلك الحمامة وأيامها الخاليات ، وتنقلنا إلى الإحساس ببداية قصة وأن لها شأناً عظيماً ، قطع أبو العلاء الكلام بهذا الفعل الموغل في الزمن الغابر ليحكي لنا خبرها ويفصل لنا قصتها، وإنما أراد بيان النعمة التي كانت ترفل فيها هذه المطوقة، وقد كان في قوله « وكر مصون » ما فيه الكفاية ، إذ

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٤٩٨/٣ .

من الأغلب أن يكون وكر الحمائم بين الأشجار ، ولكن أبا العلاء يريد أن يحضر لك الصورة أمامك ، ويضعها بين عينيك صورة النعمة التي كانت فيها تلك المطوقة ، وكأن عناصر الصورة كلها خلصت لصون هذا الوكر ، ويؤكد لك الإحساس بأنه ينقلك إلى جو القصة أنه ومع هذه الجملة يبدأ نفس الحكاية، وتبدأ الجمل الفعلية في الظهور فيقول:« تآلف من أبناء جنسها ريداً »، وكان بإمكانه أن يقول (تآلف ريداً) فلماذا قال (من أبناء جنسها)؟ فنحن نعلم من كلمة (ريد) أنه من أبناء جنسها لا محالة، ثم في تقديمه لشبه الجملة « من أبناء جنسها » على المفعول به وهو (ريداً) ما يقتضي أهميتها ، وقد أفاد أبو العلاء من هذه الجملة أمرين ، أولهما : تكثيف معنى الألفة ، فهو من أبناء جنسها ، فيشعرك بأنها تَـأْلف من يناسبها وتناسبه، وهذا مزيد ألفة، وأنه قبل أن تتولد بينها وبين هذا الريد ألفة المحبة كانت هناك وشيجة الجنس ورابطة الأخوة ، ثانيهما : ما تُشعر به الكلمة من الإشارة إلى أنها على درجة عالية من التنعم حتى كأنها تتخير من بينهم ، أي أنهم كثر ولكنها انتقت منهم صفواً ، وهذا مزيد من إضفاء معنى الغبطة الذي يريد أن يضفيه على ذات الطوق هذه .

ثم يرتب على هذه الجملة التي هي وصفية جملة يقول فيها « فيتراسلان تغريداً »، فيدقق في تصوير مشاعر الألفة والعبارة عنها ، وهنا فقط يظهر عنصر الصوت في هذه الصورة ، وهو عنصر من لغة أبي العلاء وفكره بمكان إذا ما تعرض لوصف حنين الحمائم ، وهو عنصر أصيل في رمزيتها للحنين ، ولكنه يكتفي بهذا الظهور له فقط في هذه الصورة التي بين أيدينا !!

ثم يعقب بجملة أخرى وصفية أيضاً« مسكنها نعمان الأراك »، يصفها بدورها بجملة أخرى « تأمن به غوائل الأشراك » والحال وصف في المعنى ، يقول ابن مالك «والحال وصف فضلة منتصب»، وأبوالعلاء كما ترى في هذاالمفصل يراوح بين الجمل الاسمية والفعلية، فينقلك من الحركة والتجدد في معنى إلى الثبات في آخر . وأبو العلاء عند قوله « فيتراسلان تغريداً » يفرغ من الحديث عن نعمة الحمامة ، ثم تراه يعود من جديد للحديث عن منزلها « مسكنها نعمان الأراك » الذي ترك الحديث عنه بعد قوله « كانت في وكر مصون، بين الشجر والغصون »، وأخذ في الحديث عن صاحبها، وألفتها، ووجدها الذي تشاطره إياه ، ثم بعد ذا يعود في هاتين الجملتين

كما ترى ليصف مسكنها من جديد ، ولكن بطريقة أخرى ، وهذه الطريقة وهذا المهيع ظاهر في بيان أبي العلاء ، سواء مع معانيه الجزئية كما هو الشأن الآن ، أو مع معانيه الرئيسة ، فتراه يبدأ المعنى ثم يدعه ، ليدخل في غيره ، ثم يعود لما تركه ، ثم ربما عاد لما عاد عنه ، وهكذا ، تأمل فقد وصف نعمتها وسرورها ، وغبطتها ، بما فيه الكفاية ، في خمس جمل ، فأنت تنتظر التالي بعد ذاك، ما الذي أصابها بعد ؟ ! ولكن أبا العلاء يعود ليلح على هذه النعمة ، ولكن من زاوية أخرى، وهي الأمن فقد أسكنها وادي نعمان ، والسؤال : لماذا تخير وادي نعمان ؟ هل لأنه من أودية الشعر في أرض هذيل ؟ ! فقد كان الشعراء عندما يتحدثون عن سواك الصاحبة يذكرون أنه من وادي نعمان . وزد على ذلك أن هديتهم لها أيضاً سواكًا من وادي نعمان ، فكأن لهذا الوادي ارتباطًا بالشعر فهي لا تسكن أي أرض ، بل أرض كفيلة بأن تثير الحنين والشجن وكوامن الشعر ، أرض جالت بأفنائها أنفاس الشعراء !!

ثم لقربه من البيت الحرام، فهو وادٍ آمنٌ إذًا ، لذا وصفه بقوله « تأمن به غوائل الأشراك » ، وتأمل كيف قال « غوائل » ، وكان بإمكانه أن يقول « الأشراك » فحسب، وكأن أنفاس السياق بدأت تتهيأ لضربة القدر الآزفة التي أعدها أبو العلاء لها . فما هذا الذي تراه من إلحاح على رسم صورة الرغد الذي تنعم فيه إلا ليهيء بذلك للبلوى التي سيرعبها بها . ثم لا يكتفي أبو العلاء بهذا فيضيف جملتين أخريين ، لتأكيد هذا النعيم ، وهذه الحرمة التي تتنعم بها في مسكنها ، حيث يصف رحلتها منه ، يقول في الأولى : « تمر في بكرتها بالبيت الحرام »، وكأن أباالعلاء شعر أن هناك تمتمات خفية خلف المسكن لم يتم رسمه لها ،فهي وإن كانت تسكن « نعمان الأراك » إلا أنها طائر تطير فتبعد، فهل كل سماء تحلق بها آمنة ؟! لذا يصف أبو العلاء طريق سيرها ويريكه آمنًا كل الأمن ، وهنا ومع هذه الجملة تظهرالواو بعد أن بُني الكلام السابق كله على القطع، وكأنه بهذا العدول عن النسق يلفتك إلى أن هذه الجملة من قصته بمكان، حيث يبلغ بمعناه أقصاه، يبلغ بأمنها ورغد عيشها أقصاه، فهي تمر في بكرتها بالبيت الحرام، فأي أمن وأي دعة وأي حرمة ؟ ! ، ثم تكون الجملة الثانية بمثابة التمهيد للانتقال للشطر الآخر من صورته الذي يحمل ضربة القدر الوشيكة ، يقول فيها «لا تفرق لمكان صائد ولا رامٍ»،

وهي وإن كانت هنا « لا تفرق » إلا أن الصائد والرام قد ظهرا في الصورة التي كنت تسمع بها (التغريد ، والوكر المصون ، ونعمان الأراك ، والبيت الحرام) ، وهذا من «تأليف المختلف » الذي برع فيه أبو العلاء كما ترى ، لأن الجملة التالية والمترتبة على هذه دون مهلة بالفاء تحمل في طياتها المفاجأة، وهي قوله « فغرها القدر » . تأمل موقع الفاء من كلامه ، وكأنه يختصر بها عقيدة فكرية فلسفية تقول بأن النعيم لا يدوم ، وأنه ما يلبث إذا بلغ الغاية أن يتحول إلى نقيضه في هذه الحياة ، وكأننا نسمع أنفاس قوله :

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسطًا   فعند التناهي يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهي أهلة   ويدركها النقصان وهي كوامل

أرأيت هذا اللمح السريع (عند التناهي يقصر) ، مباشرة دون تسويف أو إعطاء مهلة، فهو بعد أن ارتقى بمعناه حتى أبلغها الغاية في الأمن في جملة « وتمر في بكرتها بالبيت الحرام » أسقطها في قبضة القدر ، وهنا ضربة القدر التي كانت تلح عليها مثل هذه الصور غالبًا في الشعر العربي، كونها تفعل فعلها في الحنين الذي هو الهدف من الصورة . ثم يتبعها بجملة تحمل نوعًا من الحسرة « إذ لم ينفع الحذر »، ثم يقول بعد ذلك « فخرجت من الأرض المحرمة » ، وقد ترتب على غرة القدر فلا مهلة ، غرها القدر فخرجت مباشرة ، خرجت من مظنة الأمن ، خرجت من الأرض المحرمة « فأصبحت وهي جد مغرمة » ، وهذه الجملة تلي خروجها الآنف مباشرة، فقد ترتب على ذلك الخروج معاناتها، يقول بعد ذلك « صادها وليد في الحل » ، وهذه بمثابة بيان لسابقتها لذلك أتت بالقطع ، ولو لاحظت أن أباالعلاء هنا أجمل معناه ثم فَصَّل ، فقال « فأصبحت وهي جد مغرمة » ، فرغم كونه كان يصف ما حدث لها إلا أنه أراد استباق الأحداث حتى يضعك أمام النتيجة التي هي صلب الصورة ، أنها « أصبحت وهي جد مغرمة » ، وهذا أدعى لحنينها الأمر الذي تخلص الصورة لأجله كما أسلفنا ، فأنت ترى أن أبا العلاء لم يكن يتعاطى مع معناه تعاطيًا نمطيًا ، ولا يسير وفق خط أفقي ، بل هو يحلل عندما تظن ألا مظنة للتحليل ، ويُضيف عندما تظن ألا زيادة ، ويستبق الأحداث عندما تظنه يسير سيرًا وئيدًا ، ويضن عليك بمعناه فيؤخره ما شاء ، ويقدم لك ما هو كفيل بأن يجعلك تلهث وراء لغته ، عندما تظنه بصدد الإفصاح والتصريح !!!

ثم بعد ذلك يأخذ أبو العلاء في بيان الشيء الذي جعلها جد مغرمة، فجعلها بعد ذلك النعيم بين يدي وليد لا يحفظ لها من إل ، وعبر عن هذا بجملتين بقوله : « صادها وليدٌ في الحل ، ما حفظ لها من إل »، ثم عطف على الأولى منهما بقوله : « وأودعها سجنًا للطير » . هكذا يفصل أبو العلاء الأحداث المأساوية لهذه الحمامة المسكينة، التي لاتنسى أنها معادل لأبي العلاء في حنينه وشوقه ولكنه وحتى اللحظة لم يفصح عن هذا ، بل جعلك أمام حمامة ثم استدرجك إلى قصتها وما يزال ، وانظر كيف عبر في هذه الجملة عن القفص الذي أُودعته الحمامة بقوله « سجنًا للطير » ، حيث جعله سجنًا، وكان بإمكانه أن يكتفي بهذا الوصف له، ولكنه أضاف « للطير » ، ليضع السجن بجوار الطير ، والأول رمز الحُبْسة ، والثاني رمز الحرية والانطلاق ، ليضعك أمام هذه المفارقة ، وكأنه يريدك أن تتساءل كيف يكون سجنٌ وطير ؟ !! بالإضافة إلى ما تبعثه كلمة سجن من إضفاء الوحشية على تصرفات هذا الوليد ، الذي يكفي كونه وليداً لتتصور منه الأعاجيب !!!

ثم يعقب على ذلك بأمر آخر فهي ليست مسجونة فحسب ، فهو لا يكتفي بأن يجعلها مسجونة فقط، وإنما يضيف إلى ذاك أنها مُنعت كل مير وكل طعام «ومنعها من كل مير»، هكذا يتدسس أبو العلاء في جوانب صورته ينشد لها الغاية والكمال في التعبير عن معناه ، يريد أن يمعن في محنتها كما أمعن وبالغ في نعمتها ، فإلحاحه على فكرته لتبلغ الغاية من أهم مفاتيح إنمائه لمعانيه ، ومطله لكلامه كما ترى ، لذا تراه جعلها في يد وليد . ورغم معرفتنا بما يحمله لفظ الوليد في صورة ذات الطوق في الشعر العربي من رمز ، إلا أنه يلح على أن يلفت لهذا المعنى ويصرح به، فيقول بأنه لا يحفظ لها من إل، ثم جعلها في سجن ، ثم جعلها في ذلك السجن ممنوعة من الطعام والشراب ، فأي محنة تقاسيها هذه الحمامة ؟ !!

وتسأل من ثم : هل يكتفي أبو العلاء بهذه المحنة ؟ ، وهنا المعنى قد بلغ غاية جديرة بأن تغري بالكف ، ولكن أبا العلاء لا يكتفي فيفتح من صورة السجن السالفة، من قوله « فأودعها سجنًا » بابًا جديداً للمعنى يدلف منه لصورة أخرى، صورة سجينة تراقب هبات الحرية يرفل بها غيرها من الحمائم ، فكأن أبا العلاء يقول الجملة لا لينهي بها المعنى ولكن ليفتح بها معنىً جديداً في نفس المعنى ، وهذا من خصوصيات بيانه في هذه الرسائل فاعرفه، فهو لا يميل للحديث الذي يطوي به

الفكرة التي يتحدث عنها ، وسوف تلحظ هذا في مقدار المساحة النصية التي وهبها لشطر الجملة هذا ، فهذه الصورة بكل امتدادها في النهاية ليست إلا شطرًا من جملة لم تتم بعد ، وهي الجملة البادئة بقوله « ما حمامة ... » والتي لا تنتهي إلا عند قوله في نهاية هذا القسم « بأشوق إلى المعيشة النضرة » .

ونعود لما كنا فيه ، يقول أبو العلاء « فإذا رأت من خصاص القفص بواكر الحمام ، ظلت تمارس جرع الحمام » ، فأبو العلاء يصور حمامته هنا متأملة رفاقها يتمتعون بحريتهم من خصاص ذلك القفص ، وكان بإمكانه أن يقول إذا رأت بواكر الحمام فيُعْلم بأن ذلك من موضعها في القفص، ولكنه يمطل معناه فيظهر منه ما من شأن غيره أن يغفله، فيريك منظرحمامته متطلعة من خصاص القفص، فهو أولاً بذاك يحضر كلمة القفص والتي تعيدك إلى سابقتها « سجنًا للطير » ، ثم إن كلمة (خصاص) تريك هذا الضيق والضنك حتى في الرؤية، فحتى هذه الرؤية هي من خلال الخصاص، فهي رؤية غير مكتملة فلا هي التي تروي صداها، ولا هي التي ترحمها من معالجة هذا الحنين . ولا تنسى بأن من يحدثك هنا عن السجن، وعن القفص، وعن خصاصه هو رهين المحبسين ، فلا غرو أن يتكشف عن مثل هذا الإحساس المرهف بالمعني ويضع يده على المواضع النابضة فيه بالأسى والشجى ، فعندما رثا مالك بن الريب نفسه كانت مرثيته من أجمل المراثي، فَمَنْ أحقُّ وأقدر على رثاء النفس من صاحبها؟ !! وعندما يصف أبو العلاء معاناة سجين، فمن يكون أقدر على الوصف !!، ثم لا تنسى بأنها مثال لأبي العلاء في حنينه، وهو هنا بصدد الاعتذار بمحبسه وعزلته ، ولم يفارق الحديث عن عزلته إلا للتو في القسم السابق لهذا ، حيث قال « ما اعتزلت ... »، ثم أعقب بهذا الذي نحن فيه بقوله « ما حمامة ذات طوق ... » ، فكرر حذو الكلام .

واعلم بأن مثل هذه الصور تحمل من غمغمات الروح والنفس التي تبدعها الكثير مما من شأنه أن يشي ويشي ، لذا فإن إطالة أبي العلاء لمعناه هنا، وليس فقط إطالته بل تخيره للتعبيرعن شوقه صورة الحمامة دون غيرها= أصبح له تفسير نستطيع أن نطمئن إليه ، فعندما يجعل أبو العلاء من حمامته حبيسة لا تستطيع الفكاك ، كما هو حبيس لا يستطيع الخروج=يضع الشيخ أمام معاناته وجهًا لوجه ، وينقله معه ليورثه إحساسه بها شيئًا فشيئًا ، ولذا كانت تلك المبالغة في النعمة

ليكون لهذا الشقاء وقعه الذي لا يبرح النفس. ثم إن في هذه الصورة تسلية للرجل، وهو ليس ممن يبوح بمعاناته صراحة، وإنما لديه من الكبرياء ورقة الحس ما يمنعه ويعوقه ، فتراه يتوسل إلى ذلك برسم مثل هذه الصورة التي يُحَمِّلُها أشجان نفسه، ويمطلها، ويتدسس فيها تدسس العليم ببواطنها ، الخبير المعالج لخفاياها !! .

وهذا لا يعني بأنه قد أثقل بها كاهل رسالته ، أو أنه يمطل ما لا يستحق أن يمطل، بل هي من رسالته في حاق موضعها ، فمن يعتذر عن لقاء سلطان من شأنه أن يُظهر بأن هذا الاعتذار ليس زهداً في المنادمة ، فكان بذا هذا الشوق الذي بالغ في وصفه من رسالته ومن غرضه بمكان !!

ولا يخفى عليك بأنه جعل هذا الحدث في نطاق جملة شرطية ، وهذا الذي وصفت منها جملة الشرط ، أما الجواب فتأمله « ظلت تمارس جرع الحمام »، لقد تخير لها فعلاً من أفعال الدوام والاستمرار « ظلت » ، وعبر عن حسرتها وتولهها بقوله « تمارس جرع الحمام » ، فتراه تخير الفعل « تمارس » وما فيه من المفاعلة والمعالجة ، وما يحمله هذا الفعل من معنى معالجة الأمر الشديد يقال : تمارسوا في الحرب أي تضاربوا ، ويُقال : فلان ذو مراس أي ذو جلد وقوة ، ومن كلامهم : داهية مرمريس أي قوية . وهذه الجملة مهما وصفت لك من معناها فلن أوفيها حقها فتأملها ، فهو لم يقل حنَّت ، أو اشتاقت ، أو سجعت ، أو أي فعل يدل على شجاها الذي تعالجه ، وإنما قال « تمارس جرع الحمام » ،فدل على معناه بلازمه ، كما أنه صورها لك وكأس الموت المترعة في فمها تتجرعها ، فأي شجن ، وأي حنين بلغ به أبو العلاء الغاية !!!

وبعد، فإن حمامة أبي العلاء لم تصل بعد إلى درجة الحنين التي توازي حنينه، فيضيف إلى شجنها شجن الأم ، يقول « تسأل بطرفها أخاها ، ما فعل بعدها فرخاها » ، وهنا أمران في هذه الجملة الأول: أنه جعلها قد حُرِمَت حتى الصوت، فجعلها تسأل بطرفها ، بينما جعل أخالها في الجملة التالية ناطقًا وقائلاً ومجيباً، فيضع عجزها بإزاء قدرته « فيقول : أصبحا ضائعين ، قد سترهما الورق عن كل عين » . ولا أدري لماذا يُصرُّ أبو العلاء على خرس هذه الصورة ، فلا ترى فيها الأصوات التي يكون كلفًا بتحليلها وتسميتها في باقي الصور المماثلة من رسائله ، فلا ترى الصوت إلا في قوله « فيتراسلان تغريداً »، رغم أن سجع الحمائم من أبرز

معالم الحنين في صورتها بل هو العنصر الأساس .

والأمر الثاني : أن أبا العلاء جعلها أمًا لفرخين قد ضُيِّعا ، فلاحظ نفس التضييع الذي يذكرك بصورة الطلا في رسالته لخاله مطلعه من بغداد ، والتي كان يخبره فيها بقراره العزلة، فجعل الطلا هناك قد ضُيِّع بسبب من تفريط الوحشية حيث [1]« هَكَعَتْ في الهَجِيرِ ، فَدَرَجَ الطِّفْلُ ، وَهُوَ لأَبِي جَعْدَةَ نَصِيبٌ وكِفْلٌ ، فَلَمَّا قَضَتِ الرُّقَادَ ، نَظَرَتْ فَإِذَا بَقِيَّةُ أَجْلاَدٍ ، فَهِيَ بَيْنَ وَلَهٍ وعَلَهٍ » . فترى التفريط ماثلاً، فكأن العزلة وقرارها تستدعي في نفس أبي العلاء هذا المعنى (التفريط في حق النفس أو من هو بمنزلة النفس) .

والقطع في جملة « ما فعل بعدها فرخاها » من باب شبه كمال الاتصال، فهي مرتبطة بسابقتها بهذا التساؤل المقدر: ماذا تقول ؟ ! وسابقتها من أول قوله « فإذا رأت من خصاص القفص » معطوفة على جملة « وأودعها سجنًا للطير » بالفاء ، وجملة « فيقول : ...» معطوفة على جملة « تسأل بطرفها أخاها » بالفاء أيضًا، وجملة « أصبحا ضائعين» -جملة مقول القول- يدخل في حيزها جملة الحال « قد سترهما الورق عن كل عين » . فأنت في هذاالقسم أمام كلامٍ يأخذ بعضه بأعناق بعض؛ لأنك مع كل ما مضى كنت أمام جمل كلها تابعة ، ومرتبطة ، ومتممة لاسم ما النافية « ما حمامة ذات طوق ... »، قد اعترضت كلها بينها وبين خبرها الآتي المتصل بالباء الزائدة، وما يتلوه شبه جمل متعلقة به « بأشوق إلى المعيشةالنضرة مني إلى تلك الحضرة » . يقول أبو العلاء « إلى المعيشة النضرة » وهي تفهم من قوله « بأشوق »، وذلك أن أبا العلاء يريد أن ينقلك من كل هذا الشجن ومرارته إلى « تلك الحضرة »، فأرادك أن تستعيد صورة النعمة التي بالغ في تصويرها في البدء ، وهي معيشتها النضرة التي تتوق إليها . وهذا أيضًا من «تأليف المختلف»، فبمثل هذا الجار والمجرور استطاع أن ينقلك أبو العلاء من مرارة السجن وخصاصه، وممراسة جرع الحمام إلى « تلك الحضرة ». وهكذا أنت معه تنتقل من معنى إلى آخر ، ثم يعيدك إلى ما نقلك عنه من جديد ، لا ليقيم بل ليخطو إلى ما هو منه بسبيل ، كما هو شأنه هنا ، وربما أقام وأطال كما سنرى في الآتي

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٨٧ – ١٨٨ .

من هذه الرسالة الجليلة التي كلما زدتها نظراً زادتك حسنًا وفكرًا :

تزيد على طول التأمل بهجــةً　　　كأن العيون الناظرات صياقل

ثم ترى القسم الخامس ، وهو مستدرك على الرابع ، تلك الجملة التي طالت كأطول جملة في هذه الرسالة بما اعترض بين مبتدئها وخبرها ، وكان هذا القسم بكل جمله مستدركًا عليها، فهو إذًا بمثابة جزء منها ! أرأيت كيف يطول نفس كلام أبي العلاء ، ويطول مده لمعانيه ، فلا تستطيع أن تقف برهة لتلتقط أنفاسك ، بل يأخذ بتلابيبك فتسير معه مشوقًا مبهوراً لاهثًا ، وهذا من النمط العالي والباب الأعظم الذي امتدحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله .

والقسم الرابع من كلامه الماضي الذي يقول فيه : « وما حمامة ذات طوق...» هو الجزء المشرق الصريح في الرسالة، والذي تفهم معناه منذ أن تقرأه ، ولكن أبا العلاء بما يستدرك عليه به يعيدك إلى عالم الغموض من جديد، فهو بعد أن أثبت حنينه للرجل، وبالغ ما شاء أن يبالغ في تحليله لحنين هذه المطوقة، ثم فضل شوقه عليها قال : « وَلكِنْ صَنَعَ الزَّمَنُ مَا هوَ صَانِعٌ ، واعْتَرَضَ دُونَ الخَيْرِ مَانِعٌ ، حَالَ الغَصَصُ دُونَ القَصَصِ ، والجَرِيضُ دُونَ القَرِيضِ، المَوْرِدُ نَمِيرٌ أَزْرَقُ، ولكنَّ المُدْنِفَ بالشَّرَابِ يَشْرَقُ :

لَمَّا رَأَى لُبَدَ النُّسُــــورَ تَطَايَرَتْ　　　رَفَعَ القَوَادِمَ كالفَقِيــرِ الأَعْــزَلِ

انْهَضْ لُبَدُ ، هَيْهَاتِ صَدَّكَ الأَبَدُ » .

هو الآن يتحدث عن المحبس عن العزلة ولكن بطريقته الغامضة ، فأنت وقفت الآن على كيفية سير المعنى في رسالة أبي العلاء، أودعنا نقل كيف يُسَيِّرُ أبو العلاء معانيه، فهو يتقدم بها خطوة ليستأخر بها أخرى ، يلمِّح ثم يصرح، ثم يعود ليبهم من جديد ، بدأ بثناء يخفي إقرارًا بالعجز، ثم احتشاد لدفع تهمة لم نفهمها، حتى انتقل إلى القسم الثالث فربطها بقضية العزلة (التي هي من العجز بمكان)، فيظن الظان بأنه سوف يأتي بكل ما لديه في هذا الشأن، ولكنه يعود ليصف شوقه للرجل وهو بهذا العود يخدم قضيته الأم وهي الاعتذار ، فهو لا يرفض المنادمة عزوفًا عنها ولكنه راغبٌ فيها، مشوق إليها كل الشوق « ولكن صنع الزمن ما هو صانع، واعترض دون الخير مانع »، فعود إلى العزلة من جديد ولكنه هناك مُفصح « ما اعتزلت »، وهنا مُبهم(مانع ، وغصص ، وجريض). وهذا ما يكشف لنا كيف نلهى

مع هذه الرسائل عن أهداف الرجل ومعانيه، فربما قرأناهاالمرة، والأخرى، والأخرى ما شاء لك أن تقول أخرى، ونحن لم ندرك كنهها ، فأبو العلاء لا يسير مع معانيه سيراً منطقيًا متسلسلاً ، بل يضعك أمام حلقات من المعنى يترك إحداها وقد ترك في نفسك وفي نفسه منها الكثير، لينتقل إلى أخرى تفضي به من جديد للتي تركها، فيعطيها ولا يشبعها أيضًا ، ثم ربما عاد إليها مرة أخرى ، وهكذا .

وأريد أن أتجاوز هذا القسم لأننا درسنا مشابهًا له وهو القسم الثاني«والرائد لا يكذب أهله ...»، وقبل أن أتركه أشير بإيجاز إلى عناصر دلالية ذات ثراء لا يجوز إهماله ، من ذلك امتداد المعنى وتنوعه وغرابته وفظاعته، الذي تراه في إبهام اسم الموصول في قوله « ما هو صانع »، المعنى هنا لا نهاية له لأنه جمع آلام شيخ المعرة وأوجاعه ، ثم إنه أعاد هذا الإشباع، وكأن هذه الكلمة الحية لم تف بما وجد أبو العلاء فقال « دون الخير مانع »، وأودع في تنكير كلمة (مانع) هذه كل ما أودع من إبهام الموصول قبلها ، وزاد لأنه ما أعادها إلا ليزيدها .

ثم إن كل هذا لم يف ، وإنما رجع أبو العلاء إلى كلام قديم عريق قيل في أحرج اللحظات وأشقّها ، وهي لحظات مواجهة الموت فقال « حال الغصص دون القصص، والجريض دون القريض » ، فهذا لسان أبي العلاء يتغلغل في الزمن القديم العتيق، ويسوق بيانًا من بيانه عتيقًا عريقًا، معبراً عن أشق حال هي حاله !!

ثم ترك هذه اللحظة النفسية البالغة التوتر ولاطف داعيه إلى المنادمة فقال هذه الجملة التي فيها ومض من الإشراق والبهجة « المورد نمير أزرق » ، ولكنه ما يزال مدنفًا مشارفًا على الموت « ولكن المدنف بالشراب يشرق » !!

وننتقل إلى ما بعد هذا القسم وهو القسم السادس من كلامه الذي يقول فيه :

« ولَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي وَرَدَ فيه كِتَابُه المُشْتَمِلُ من حُسْنِ الظَّنِّ بِوَلِيِّه على ما لا يَسْتَوْجِبُهُ ، عَكَفَتْ عَلَيَّ الغِرْبَانُ مُبَشِّرَاتٍ، مُثَلِّثَاتٍ للنَّعِيبِ ومُعَشِّراتٍ » .

هنا يستأنف أبو العلاء معنىً جديداً، وهو الحديث عن الكتاب المبعوث إليه، والذي يتضمن بالطبع الاستدعاء للمنادمة، وتأمل قوله « المشتمل من حسن الظن بوليه على ما لا يستوجبه » ، وسوف تجد أن أبا العلاء يفتتح معانيه بجمل تشمل إيماضات تدل على ما سوف يفيض فيه فيما بعد ، وكأنه يجمل معانيه أولاً ثم

يفصّل، وأنا أقول كأنه ؛ لأنه لا يجملها على الحقيقة ، هو يضع ما يشير فقط مجرد إشارة لما سوف يمده ، ويمطله ، وينشره فيما بعد ، لأنه لم يجعل الجملة السالفة رأس المعنى ، بل جعلها بمثابة وصف للكتاب الذي بنى عبارته عليه ، وعلى مجيئه ، وما ترتب على ذلك المجيء ، فهو رأس المعنى في هذه الجملة ، أما حسن الظن هذا الذي أشار إليه أبو العلاء مجرد إشارة عابرة ، فهو ما سوف يتعرض له بالنقض فيما بعد .

ولأننا بإزاء جملة شرطية فهذا الذي مضى جملة الشرط، تليها جملة الجواب، وهي أغرب من أن تخطر ببال، وكأن تلك البداية البسيطة الصريحة من أبي العلاء نوع من الإناخة والراحة لعقول مخاطبيه ، ليفجأها بجواب عجيب « عكفت عليَّ الغربان مبشرات ، مثلثات للنعيب ومعشرات » ، وهل تبشر الغربان ؟ ! .

ثم يجعل التبشير بماذا ؟ ، بكتاب من قال فيه من قبل بأنه لو أهداه الربيع والبحر لعد نفسه مقصراً !!

ولنا أن نتساءل: كيف يتحول الغراب فــي فكره ورسائله إلــى زاف بشرى؟! فشبيهه تجده في قوله من رسالته لخازن دار العلم ببغداد ، وهو يُظْهِرُ ترقبه، وتشوفه لأخباره[1] « كُلَّمَا قَالَ الغُرَابُ غَاقْ ، قُلْتُ وَارِدٌ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ » . فهل هذا من كلفه بإخراج الأمور عن طبائعها ؟ وكأنه يقول : أن هذا الكتاب أدهش الأشياء وأخرجها عن طبائعها ، فخلعت الغربان ما عرف عنها من النذير بالبَين –حتى أنهم قالوا : غراب البين – وصارت مبشرات !!

أم أنه يستر سخرية خفية بالكتاب وصاحبه؟! أم تراه عنى بالغربان من يغريه بالمنادمة من بني البشر ؟ فجعل أصواتهم لكراهتها في نفسه نعيباً . وكأن ذلك منه ليلفت إلى عظم خبر الاستدعاء على نفسه ، وأنه يخافه ويخشاه ؛ لأنه لا يريد أن يرفض ، وهو مضطر للرفض ، فأراد أن يجمع معنيي بشرى الكتاب ، وشؤم ما فيه ، فقال « عكفت عليَّ الغربان مبشرات » .

أم أراد أن يقول أن طلب مثلي للمنادمة، وورود كتاب صاحب السلطان العظيم إليه، هو من الغرابة بمكان كبير ؟ ! ثم رمز لهذه الغرابة التي سكت عنها بذكر

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٠٤ .

بشارة الغربان ، ربما .

وأنا أجده بسخرية أبي العلاء أشبه ، ولفظه يحتمل كل ما قلناه .

وينتهي بهذه الجملة هذا القسم، وكأن أباالعلاء يريد أن يتركك مع هذا المعنى، فلا يحله ولا يصل به غيره، حتى يظل ما أوقعه في نفسك باقيًا فيها ، لينتقل بك إلى ما هو أغرب وما ليس منه بسبيل إلا أنه حديث جديد عن الغربان، وكأن هذا استدعى ذاك، وكأننا أمام نوع من الاستطراد؛ لأن الحق أنه ليس استطراداً بل من معناه بمكان، حيث يعود هنا للاعتذار ولكن بطريقة غير مباشرة، وكأنه يقول أن ابن داية لا يمكن أن يأنس بي فكيف بالناس ؟ بله منهم في مكانة عزيز الدولة !!، وهنا في هذا القسم يظهر بجلاء هضمه لنفسه ، بعد أن كان في الماضي خافتًا هامسًا، وهذا من عجيب لغة الرجل، فهناك دومًا حفيف خفي لمعانيه الجديدة خلف معانيه الجلية ، ثم هناك نوع من التمهيد لكل ذا، فمثلاً قوله « لا أقدر » في القسم الأول تجده صارخًا في القسم الخامس بكل ما جاء فيه من أمثال، ثم يتجسد في مختتم القسم في قوله :

« لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل

انهض لبد ، هيهات صدك الأبد » ، فالعجز الذي كان مستترًا في القسم الأول، كان في قوله هذا سافرًا كل السفور ، فترى حدة معانيه تتصاعد وتتنامى حتى تصل الغاية ، وحديثي هنا عن تنامي المعنى بأنه مضطرد ، أما انتقالاته بين معانيه فهي أشبه بالقفزات على غير وتيرة مفهومة . يقول في هذا القسم : « لو أَنِسَ إِلَيَّ ابنُ دَأْيَةَ، لم أُخْلِه إن رَغِبَ في الحُلِيِّ من حِجْلٍ في الرِّجْلِ، أو تَقْلِيدٍ يَقَعُ بِالْجِيدِ، ولضَمَّخْتُ جَنَاحَه مِسْكًا وعَنْبَرًا، ولَكَسَوتُه وَشْيًا وحَبَرًا ، على أنه يَخْتَالُ من لَوْنِ الشَّبِيبَةِ ، في أَجْمَلِ سَبِيبَةٍ ، يا غُرَابُ لغَيْرِكَ بَعْدَها التُّرَابُ ، إنْ قَضَى اللّهُ نَبَذْتُ لَكَ ما تُؤْثِرُ من الطَّعَامِ ، إِتَاوَةً في كُلِّ يومٍ لا في كلِّ عَامٍ » .

وأبو العلاء كما أسلفنا يضعك أمام صورة عجيبة، حيث تجده في هذا القسم وهو يغري الغراب بمنادمته ومجالسته، ويحتشد لذلك أيما احتشاد، فهل هي معادل لما يطلبه منه الوزير، أم أنها كما يبدو ظاهرها نوع من الاعتذار اللبق، والمبالغة الصارخة في التواضع تهربًا من المنادمة ؟ !

وهو يبنيها كما بنى مفتتح الرسالة على الشرط بـ (لو) ، يقول هناك « لو

أهديت إلى سيدي الشيخ »، وهنا « لو أنس إلى ابن دأية»، وكأنه يريدك أن تحضره في ذهنك وأنت تعالج هذا القسم من كلامه ، وقد كان جواب جملة الشرط هذه ثلاث جمل، الأولى : « لم أخله إن رغب في الحلي من حجل في الرجل، أو تقليد يقع بالجيد » ، وجملة : « ولضمخت جناحه مسكًا وعنبرًا » ، والثالثة : « ولكسوته وشيًا وحبرًا » ، وفي كل ما سبق هبات أبي العلاء أقرب إلى عالم الإنس منها إلى عالم الطير، فهو سوف يهديه إن رغب في الحلي، ثم مطل معناه فلم يكتف إلا أن ينص على نوع ذلك الحلي، ويجعله حليتين لا حلية واحدة، في الرجل حجل، وفي الجيد تقليد ، ثم رأى أبو العلاء بأن هذه المكرمة لا تكفي فأضاف بأنه سوف يمنحه طيبًا يضمخ به جناحه، وأكد ذلك بلام التوكيد ، وكأن نفس أبي العلاء المغرمة بالمبالغة والإغراب، ورسم الصور الخيالية الغريبة والعجيبة – تغرم هنا بالمبالغة في الإكرام،فيضيف بأنه سوف يكسوه وشيًا وحبرًا .هكذا عندما تعالج مخيلة أبي العلاء خاطرًا ما، أو صورة ما لا تدعها حتى تضع عليها ميسمه، هذا الإلحاح على فكرته، وهذه الحفاوة بها، والوصول بها إلى أقصى الطوق ، هذا هو ميسم أبي العلاء .

وهذا الغراب مع منائح أبي العلاء أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، حيث يُخلع على الكائنات رغبات الإنس في المال والثراء، وكأن أبا العلاء لمس هذا الخاطر فعاد عنه إلى نفسه قائلاً « على أنه يختال من لون الشبيبة، في أجمل سبيبة » مستدركًا على كل معانيه السابقة، وهو بذا يريد أن يلفتك إلى حيرته، وأنه قد استخفه الطرب بفكرة منادمة الغراب له، فنسي نفسه فغلبه الفرح على ما يحتاج إليه غراب مثله، فعاد إلى نفسه ليقول بأنه قد حلي من لون الشباب (يعني بذلك سواده الذي هو مضرب الأمثال) بأحسن حلية وغرَّة ، فما حاجته للوشي، والحبر، والعنبر ؟ !!

ثم عاد بالخطاب إلى الغراب،وقد ثاب إليه عقله، فعزم على ما يجب لمثله فقال: « إن قضى اللّه نبذت لك ما توثر من الطعام، إتاوة في كل يومٍ لا في كل عام» (وهي في الرسالة « في كل عام لا في كل عام » ويبدو أن ذلك تصحيف، وهذا الذي كتبت بمعناه أشبه) وما تزال رغبته في المبالغة في إظهار الحفاوة به، بأن جعل مقدار ميره في العام مير يوم فيما إذا قبل دعوة أبي العلاء !!

وخلاصة هذه الصورة العجيبة التي ترى فيها أبا العلاء يستجدي الغراب منادمته، ويستبعد ذلك (فقد استخدم لو ، و إنْ)، ويحتفل لمجرد احتمال تحققها= خلاصتها أن أبا العلاء لا يمكن أن يأنس به الغراب على وحشته ، فما بالك

بعزيز الدولة !!! ، وكأنه بذلك يغري الرجل بالعزوف عن طلبه، ويزهده في منادمته وصحبته . وهذه من مبالغات أبي العلاء كما أسلفنا في الحط من شأنه ، وقد رأينا فيما درسنا له من نماذج في غير هذا الفصل أن الرجل لا يفعل هذا إلا عندما يكون بمظنة التهرب من أمرٍ ما والروغان منه، وأشباهه في رسائله مضطردة .

والسابق كله بمثابة الجملة الواحدة والمعنى الواحد .

ثم يكون القسم الثامن حيث ينتقل فيه للحديث عن الكتاب، أو لنقل يعود فيه للحديث عن الكتاب يقول : « كَأَنَّ كِتَابَهُ الشَّرِيفَ قَسِيمَةٌ من الطِّيبِ ، تَضَوَّعُ بالأَنَابِ القَطِيبِ ، فكأنَّما طَرَقَني منه رَوْضَةٌ نَجْدِيَّةٌ ، سَقَتْهَا الأَنْوَاءُ الأَسَدِيَّةُ ، فَعَمَدَ ثَرَاهَا ، وأرِجَتْ رَيَّاهَا ، وأَبْدَى بَهَارُهَا للأَبْصَارِ ، كدَنَانِيرَ ضُرِبَتْ قِصَارٍ ، وازْدَانَتْ من الشَّقِيقِ بِمُشْبِهِ العَقِيقِ، ولَعِبَ فيها الـمَاءُ، فهي أَرْضٌ وكأَنَّها سَمَاءُ ، لها من النَّجْمِ نُجُومٌ ، ومن طَلِّ الشَّجَرِ دَمْعٌ مَسْجُومٌ » .

ينقلك أبو العلاء إلى الكتاب، وكأن قصة الغراب مجرد خاطر اعترض بين هذا وذاك؛ لأنه لما ذكر في القسم السادس قدوم الكتاب عليه استحضرت نفسه الغرض وراء بعثه، وهو جذر المعنى، والحديث الأم الذي يدندن حوله أبو العلاء ولا يكاد يفصح ، فأتى بقصة الغراب عندما استحضرت نفسه هذا .

وفي هذا القسم يمطل أبو العلاء صفة الكتاب، ويستقصي جمال الروضة التي شبهه بها، فيرسم صورة أكثر من رائعة، ولكننا نتجاوزها لأننا قد أوفينا قدرته على تحليل الصورة في الوصف، وافتتاح معانٍ بداخل معانٍ فيها فيما سبق، خاصة في القسم الرابع الذي وصف به شوق المطوقة ، ولكننا قبل أن ننتقل إلى القسم التالي ، نريد أن ننبه بإيجاز إلى أن الكلام من قوله « كأن كتابه ... » إلى قوله « وقد سألت من ورد إليه » مفتتح القسم التالي=كأنه جملة واحدة، لأنه في مجموعه يدور حول معنى واحد، هو تشبيه الكتاب بالطيب ، فشبه الكتاب بقسيمة من الطيب ، ثم تواترت الجمل في صفتها، فهي (تتضوع بالأناب أي بالمسك)، وهذا تشبيه تفرع منه تشبيه آخر وُلِّد من معناه ، فالقسيمة التي تتضوع، كأنها روضة نجدية، وفي هذا مد للتشبيه ومبالغة ، ثم هذه الروضة سقتها الأنواء فعمد ثراها، وأرج رياها، وبدى بهارها كدنانير، ولعب فيها الماء، ولها من النجم نجوم، ومن طلٍّ الشجر دمع مسجوم .

والملاحظ هنا أن الجملة الفرعية هي التي تتفرع منها الجمل حتى تصير هذه الجملة أمًا لهذه الفروع ، فالجملة الأم هنا هي تشبيه الكتاب بالقسيمة ، ثم وَصَفَ هذه القسيمة بأنها تتضوع ، ثم رتب على هذا التضوع ذكر الروضة ؛ إذًا الجملة الفرعية كما ترى هي تتضوع، وهي الجذر الذي تولدت منه « فكأنما طرقني منه روضة نجدية »، ثم جاءت جملة فرعية تابعة للروضة وهي « سقتها الأنواء الأسدية»، ثم تولدت منها وترتب عليها ست جمل « فعمد ثراها »، و « أرج رياها »، و « أبدى بهارها للأبصار كدنانير ضربت قصار »، و « وازدانت من الشقيق بمشبه العقيق »، و « ولعب فيها الماء ، فهي أرض وكأنها سماء » ، وأخيراً « لها من النجم نجوم ، ومن طلِّ الشجر دمع مسجوم » .

وننتقل الآن إلى القسم التاسع، وهو أقصر من هذا يطالب فيه أبو العلاء ببقاء الكتاب لديه، وكأن الشأن ألا يحدث هذا ، وهذا غريب يقول فيه : « وقَدْ سَأَلْتُ من وَرَدَ إليه ،أن يُؤْنِسَنِي بتَرْكِهِ لـديَّ، كي أَسْتَمْتِعَ في نَاجِرٍ،بمُشَاكِلِ خَبِيَّةِ الحَاجِرِ، ولأكُونَ جَلِيسَ الرَّوْضَةِ إن لم يَرَ لَهَا مَنْظَرًا مُبْهِجًا ، سَافَ منها عَرْفًا مُتَأَرِّجًا » .

وهو هنا يلح على تكرار الإشارة إلى زمانته « إن لم ير لها ... » .

ثم يقابلناالقسم العاشر من كلامه،حيث ينتقل إلى معنىً مهم في هذه الرسالة، وهو الحديث عن منزلته في العلم والأدب، وأن العامة ظنوا به ما لا يستحق ، وهي بمثابة محاولة منه لتقييض أسباب طلب المنادمة وليس فقط الاعتذار عنها، يقول في هذا القسم : « وإن العَامَّةَ عَهِدَتْنِي في صَدْرِ العُمُرِ أَسْتَصْحِبُ شيئًا من أسَاطِيرِ الأوَّلِين، فقالت عَالِمٌ، والنَّاطِقُ بذلك هو الظَّالِمُ، ورَأَتْنِي مُضْطَرًا إلى القَنَاعَةِ فقالت زَاهِدٌ،وأنا في طَلَبِ الدُّنْيَا جَاهِدٌ، وزَادَ تَقَوُّلُ القَوْمِ عليَّ، حتى خَشِيتُ أنْ أَكُونَ أَحَدَ الجُهَّالِ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِم الحَدِيثُ المَأْثُورُ :" إنَّ اللّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ ، ولَكِن يَقْبِضُ العِلْمَ بمَوْتِ العُلَمَاءِ ، حَتَّى إذا لم يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا " » .

وفي هذا القسم ترى معناه الذي ألمح إليه هناك بقوله : « المشتمل من حسن الظن بوليه على ما لا يستوجبه »، لأن النفس هناك قد بُعث بها تساؤل يقول « ولماذا لا يستوجبه وهو من هو ؟ ! » رغم ما أُخِذَتْ به من بشرى الغربان، وعرض المنادمة على ابن دأية !!

ولطول عهدك بهذا تجد نفسك هنا وكأنك أُلقيت في قلب الفكرة مباشرة دون مقدمات، لأنه قطع حديثه عن الكتاب واستأنف فوضعك بإزاء العامة مباشرة: « وإن العامة عهدتني »، فلا تدري وهو يتحدث عن الكتاب ورغبته في استبقائه، ما الذي جعله ينتقل للحديث عن العامة ونظرتهم إليه ؟ !

ولكنك إذا دققت وجدت أن الحديث عن الكتاب يعيده أيضًا إلى الغرض منه، وهو طلب المنادمة، فتتجسد رغبته في الاعتذار ، فعندما تحدث في القسم السادس عن الكتاب ومجيئه أتى في القسم السابع بقصة الغراب ، وهنا عندما تحدث عن الكتاب من جديد وأسرف في الحديث عن أنسه به، بدأ في المقابل في الإسراف في الحديث عن حاله وتواضعها، وتواضع منزلته في العلم والفضل ، فهذا القسم هنا بمثابة قصة الغراب هناك، كلاهما يخدمان معنىً واحدًا وهدفًا واحدًا .

وهكذا ترى معنى أبي العلاء يسير في حلقات، الحلقة فيها لا يُعْرف أيها طرفاها، تدور معها في دوائر من المعاني، التي يضع بين يديك فيها أبو العلاء غرائب عقله ومفاتحه في ذات الوقت .

ويبني أبو العلاء كلامه هنا على التوكيد، وعلى أم الباب في ذلك (إنَّ)، ثم إن في جعلهم « عامة » ما فيه الكفاية في توهين رأيهم واعتقادهم ، وقد امتد نفس هذه الجملة بمفرداتها حيث هي مسند إليه (العامة)، ومسند وهو جملة فعلية فعلها (عهدتني) ، و شبه جملة متعلقة بالفعل (في صدر العمر) ، والجملة الفعلية « استصحب » في محل نصب حال من الضمير في (عهدتني) ، ثم رتب عليها جملة بالفاء « فقالت عالم »، وكأنه يشير بذلك إلى تسرعهم في الحكم عليه، وخفتهم إلى ذلك ، وعدم التريث والتيقن ، وتلمح في هذا شوبًا من النقد لكل ما يجلُّه العامة ، وأبو العلاء لا يكف في شعره ونثره ينتقد هؤلاء الذين هم في نظر العامة (ساسة ، فقهاء ، وعلماء) وهم في حقيقتهم زيف وخواء !!

ثم يعطف أبو العلاء على هذه الجملة –والتي هي قول العامة– بوصفه وحكمه النهائي على هذا الوصف من قبلهم له، يقول في صورة من التأكيد « والناطق بذلك هو الظالم » . وتأمل معي بناءه لهذه الجملة، وكيف بناها على الناطق، وجعله مجرد ناطق، وكأنه نطق لم يخامر الاعتقاد، ثم أَخَّر الوصف ليأهبك له، وحتى يأتيك وقد استبطأته، ولا يبطيء إلا الجليل. ثم لم يكتف إلا بأن يجعله جملة، ويظهرالمسند إليه

« هو »، فبدل أن يقول (ظالم) قال« هو الظالم »وكأنه أصبح معرفة في هذا الظلم ، واستحقاقه له أمر لا مراء فيه . وهذا على ما فيه من إمعان أبي العلاء في التواضع فيه ما فيه من النقد الصريح لأحوال الناس ، ثم إنه لا يخلو من شوب سخرية بهذا العزيز، وتعريض به، حيث يجعله بمثابة من يعول على قول العامة !!

وبعد أن يطيل في تقويض أقوال العامة وجعلها مجرد أقوال، ويزيد تنفيره لمخاطبه بما دعم به قوله من حديث شريف، يجعل نفسه فيه أشبه بالرؤساء الجهال الذين يظهرون في آخر الزمان = أقول بعد هذا يظهر القسم الحادي عشر من معناه والذي يقول فيه « فَغَدَوتُ حِلْسَ رَبْعٍ ، كالمَيْتِ بَعْدَ ثَلاَثٍ أو سَبْعٍ » .

وفي هذا القسم القصير جداً تظهر العزلة والمحبس من جديد، وتأمل بما شبه نفسه في محبسه « كالميت بعد ثلاث أو سبع » ، فهو إذاً يشبه نفسه في عزلته ومحبسه بالميت، وليس بغريب على من حبس نفسه وحرمها من متع الحياة أن يشبهها بالميت ، لأن المحبس قبر على ظهرها، والموت قبر في بطنها .

ولكن أبا العلاء لا يدعك مع هذا الظهور النسبي لأفكاره ومعناه، حتى يضع بين عينيك تعويذة علائية من شأنها أن تحيرك ما شئت أن تحتار، مثل بشرى الغربان الآنفة، حيث يقول « بعد ثلاث أو سبع»، ولا تدري ما غرضه من تحديد هذا العدد، فالمتبادر إلى الذهن وما جرت به العادة أن يعود هذا على الليال « ثلاث ليال أو سبع » ، فهل ذلك منه رمز لسني العزلة التي قضاها في محبسه؟! لأننا لو تأملنا العام الذي اعتزم فيه المحبس، وتاريخ ولاية هذاالرجل[1]،لعلمنا أنها بالفعل قد تكون سبع سنوات مرت عليه في المحبس على الأقل عندما وصله الكتاب ، ولكن الأجدر بأبي العلاء أن يضع رقماً واحداً لأنه يدري حينها كم سنة مرت على عزلته ، فلماذا تخير هذين الرقمين ؟ !! وهل لهما دلالة أخرى في نفسه ؟ !! ، وهذه هي تعويذات أبي العلاء التي يجعلك ترتطم بها وأنت سائر متتبع لمعناه ، كما يفاجئك بغريبه، وأمثاله المتزاحمة، وجناسه، وأفكاره ذاتها، فتحتار ثم تحتار، وتستغرقك الجزئيات، فتلهى تماماً عن غرضه الظاهر فما بالك بالباطن ، هذا هو التحدي لقوى عقلك ،

(١) كان والي الحاكم بأمر الله على حلب من سنة ٤٠٧ – ٤١١هـ ، وفي سنة ٤١١ شق عصا الطاعة على الحاكم ، وقتل ٤١٢هـ ، وقد اعتزل أبو العلاء منذ عام ٤٠٠ هـ حتى توفي عام ٤٤٩ هـ .

فهل أنت قادر على المواصلة ؟ وكأن كل كلمة في بيانه في هذه الرسائل ناطقة بهذا التحدي !!

وجملة « فغدوت حلس ربع ... » معطوفة على قوله « أن العامة ... » ، ومترتبة عليه وعلى ما اتصل به من تفريعات، أي أنها مترتبة على ما اعتقده فيه العامة من اعتقادات فاسدة ، وعلى خشيته أن يصبح بهذا الاعتقاد أحد الرؤساء الجهال الذين أخبر عنهم المصطفى، فاختار العزلة التي عبر عنها بقوله «فغدوت حلس ربع». وهذا من شأنه أن يفصح عن سببٍ جديد من أسباب عزلة أبي العلاء ، ويعضد هذا قوله من إحدى رسائله لداعي الدعاة الفاطمي[1] « وأمَّا اشتهارُ اسمي : فقد شَهِدَ اللّه – جلَّتْ عظمته – أنّي لا أرغبُ فيه ، إذ نفسي لديَّ حُقَّتْ بالتَّسْفيهِ . والذَّمُّ في ذلك لغَيري ، لأنَّه يظنُّ ظُنونًا كاذبةً ، لا تزالُ عن صدقٍ عازِبة » . ومن ذلك أيضًا تسميته لبغداد بعد أوبته منها، حيث كانت تلك العودة إيذانًا ببدء عزلته ، تسميته لها بـ « مجتمع أهل الجدل »، في قوله من رسالته إلى أهل المعرة[2] « فهذه مناجاتي إياهم منصرفي عن العراق، مجتمع أهل الجدل، ومواطن بقية السلف » .

تأمل العبارة ، أهل الجدل جمع « مجتمع »، والسلف الصالح بقايا « بقية » !!

فهذه الحياة الفاسدة التي يُجَل فيها من لا يستحق أن يُجَل ، ويشتهر فيها أهل الجدل لا أهل العلم ، هي ما دعا شيخ المعرة لأن يغدو حلس ربع .

وبذا لا نكون أمام رجل يعتذر عن مكانته المزعومة بقدر ما نكون مع رجل يحكي قصته مع العزلة، وما السبب الداعي لها ؟ ثم لا بد أن يكون هذا السبب قائمًا حتى الآن – لحظة كتابته لرسالته – حتى يكون كافيًا في التيئيس من عودته عن قراره المحبس .

ثم يستأنف من كلامه قسمًا جديداً وهو الثاني عشر ، والواو في مفتتحه من باب عطف المعنى على المعنى يقول: « وحَدَثَتْ علَّةٌ كُنِيَ عَنْها في المُسْتَمَعِ، وعَاقَتْ عَنِ الحُضُورِ في الجُمَعِ ، وفي الكِتَابِ الكَرِيمِ (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ من يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللّهِ) » .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٠٣ .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢١٦ .

هنا يذكر علة أصابته، وأنها عذرٌ كافٍ له عن حضور الجمع، وكأنها أنفاس حكايته السابقة، فيكون كلامه « وإن العامة عهدتني... حتى خشيت... فغدوت حلس ربع ... وحدثت علة ... » ونكون بذا لسنا مع قسم جديد، وإنما نحن في دائرة المعنى نفسه، وإنما اعتبرت « فغدوت... » وكأنها قسمٌ آخر ، وقوله « وحدثت علة...» كذلك، لأن تقسيمي لأجزاء الرسالة كان بالدرجة الأولى على اعتبار الفكرة والمعنى، وليس علاقات الجمل ؛ لأن الفكرة هي التي تصنع الجمل وعلاقاتها ، ومن الممكن اعتبار هذا كله مع تاليه القادم « القسم الثالث عشر » قسمًا واحدًا .

وهو في هذا القسم كما قلنا يتحدث عن علة أصابته، واستبعد أن يُراد بها عماه، لأن العمى ليس علة حادثة في حياة أبي العلاء، وهو يقول « وحدثت علة »، ولا شك أنه يقصد علة حديثة من شأنها أن تلزمه داره في تلك الفترة، ولم أقرأ عنها في الكتب، وربما لم تذكر ، وربما ذكرت ولم أقع عليها .

وأبو العلاء لم يسكت عن هذه العلة سكوتًا تامًا، ولم يبينها بيانًا واضحًا، وإنما جعلها مُغلَّلة في ضباب بيانه، فقال في ذكرها « كني عنها في المستمع » ، ومعنى هذا أنها مما تستوحش النفس سماعها ، فجرى العرف في المستمع: أي في الذي يتحاكى فيه الناس ويتحدثون عنه، ولم تجر عادة أهل البيان بذكرها صريحة، ويقولون هذا مما يُكنَّى عنه ولا يُصرَّح به . وهذا غاية الكشف عند أبي العلاء ، أما معرفة الحقيقة، فهو من غيب بيان هذا المُلْهم العريق!! وبعيد أن نقول أنها العمى، لأن القرآن العظيم صرّح بالعمى في مواضع كثيرة ، وما كنّى عنه ، اللهم إلا أن يكون أبو العلاء أراد أن يضللنا ويبعدنا عن مراده !!

ثم بعد هذا يضع أبو العلاء مفتاح كلامه السابق في إطار (إنما) ، وهذا ما يرجح أن نجعلها كلها وكأنها قسمٌ واحد ، حيث يقول : « وإِنَّما ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِيَنْتَهِي إِلى حَضْرَةِ السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ -أَعَزَّ اللّهُ نَصْرَهُ- أَنِّي تَخَلَّفْتُ عَن خِدْمَتِهِ بِمَرَضٍ ، مَنَعَ من أَدَاءِ المُفْتَرَضِ » .

فهو يصرّح هنا بأنه لم يذكر ما ذكر من شأن علته إلا للاعتذار، ونستطيع أن نسحب ذاك على كل ما مضى من شأنه مع العامة والعزلة، فيكون أيضًا لنفس الغاية اعتذارًا ، ومثل هذه الجمل هي مفاتيح أبي العلاء التي يعطيها إياك حتى تواصل المسير في غابات كلامه .

ثم يواجهك القسم الرابع عشر من كلامه، حيث يعود فيه أبوالعلاء للحديث عن إنكار منزلته في العلم، وكأنه يحتج لذلك بأمثال هي في منزلة الحقائق ، وهكذا نرى أبا العلاء يفتح المعنى فيغريك به، ثم ينتقل إلى غيره، ثم يعود إليه ليفتحه من جديد.

ولاحظ بأن حديثه عن العلة الذي أتى في الجزء السالف من كلامه سوف يعود ليظهر من جديد في بداية القسم التالي لهذا الذي نحن بصدده الآن، فكأنه تحدث متواضعاً عن منزلته، ثم عاد إلى علته ، ثم عاد إلى تواضع منزلته، ثم عاد إلى علته من جديد ، ولكنه أخيراً يجعلها سبباً في تواضع تلك المنزلة ، وهكذا يربط حلقات معانيه ببعض . تأمل معي واصبر على هذا التأمل ، يقول : « وإنَّ الذِّكرَ ليَطِيرُ للرَّجُلِ وغَيْرُهُ الخَطِيرُ. كَمْ من شَجَرَةٍ شَاكَةٍ ظِلُّها لَيْسَ بِرَحْبٍ ، وثَمَرُهَا غَيْرُ عَذْبٍ، اسْمُهَا السَّمُرَةُ، وكُنْيَتُهَا أُمُّ غَيْلاَنَ، تُذْكَرُ في آفَاقَ البِلاَدِ ، وغَيْرُهَا من أَشْجَارِ الثِّمَارِ، إن ذُكِرَ نُكِّرَ. والإرْمَاءُ لا تُوجِبُهُ للشَّيءِ الأَسْمَاءُ. رُبَّ أَسْوَدَ كَرِيهِ الرَّائِحَةِ يُسَمَّى كَافُوراً أو عَنْبَراً ، وقَبِيحِ الصُّورَةِ من البَشَرِ يُدْعَى هِلاَلاً أو قَمَراً » .

وهذا القسم لو تأملت يتكون من معنيين غريبين عُطفا على بعضهما من باب عطف المعنى على المعنى، ثم أُكِّد كل منهما بأمثال هي بمثابة تجسيد لهذه المعاني في الحياة، فتكون الدليل على صدقها . وهذا بناء جديد يقابلنا لأول مرة في هذه الرسالة، مما يعني أن أبا العلاء يقول لقارئه : انتبه إني الآن أنقلك إلى معنىً ذي شأن . رغم أننا قد فهمنا هذا المعنى من قبل (وهو أن شهرته التي خوله إياها العامة لا يستحقها) .

والحق أنه وإن كان هذا ما يخلص له معناه، إلا أنه هنا ومع هذا القسم من كلامه ينقلنا إلى حقيقة تمثل ركيزة أساسية في فلسفة أبي العلاء، تعبر عن ثاقب رؤيته لمجتمعه، ونقده لآراء هذا المجتمع وأحكامه ، وهذا منه عود إلى تحليل كلام العامة بلا ريب، وأن الشأن فيه ألا يكون محققاً ، فكم من ذكر طار لرجل ليس له قدر ، وكم من ذكر سكت الناس عنه لمن له قدر ، وكم طفت على سطح الحياة من جيف ، وكم استقر في قاع الحياة من دُرر ؟!!

هذه هي فلسفة أبي العلاء التي يخلص لها هذا القسم، والتي أخذ في تأكيدها بالمثل ، فهذا المعنى ليس في الناس فحسب، وإنما في الطبيعة أيضاً يقول « كم من شجرة شاكة ظلها ليس برحب ، وثمرها غير عذب ، اسمها السمرة ، وكنيتها

أم غيلان ، تذكر في آفـاق البــلاد ، وغيرها من أشجار الثمار إن ذكر نكر » فكم من شجرة طار ذكرها، وذكرت في الناس وبالاسم الحسن، وهي في الحقيقة ليست حسنة ، ولأن جملة « كم من شجرة ... » جملة مؤكدة تراها فصلت عن سابقتها، ثم يكون قوله « والإرماء لا توجبه للشيء الأسماء » معنىً استخلصه أبو العلاء من الكلام السابق، وهو الخلاصة التي يريدها، وقوله التالي : « رب أسود كريه الرائحة يسمى كافوراً أو عنبراً » مثلٌ جاء به لتأكيد هذا المعنى « الإرماء لا توجبه للشيء الأسماء » . وحذو البناء هنا هو حذو بناء المعنى السابق ، لأنه ذكر معنىً غريباً ، ثم استشهد له بالمثل ، وتراه هنا يستشهد بمثلين لا واحد ، فيتبع هذا بقوله « وقبيح الصورة من البشر يدعى هلالاً أو قمراً » . وبؤرة المعنى وسره كما ترى هو إلحاح أبي العلاء على رفض الحكم على ظواهر الأشياء، واستفساد النظرالسطحي واتباع ما يطير في الناس مــن أحكام ، وضرورة الـرجوع إلــى الحقائق وتمحيصها، والحكم عليها حكماً جديداً مستمداً من النظر في جوهرها، فالذكر الذي يطير قد يطير وهو يحمل خطأً جسيماً ، كما أن اللغة وما تجري به ألسنة الناس لا تغير حقائق الأشياء ، فليس الإرماء -أعني الزيادة- من بنات اللغة ونتاجها ، فقد تنفصل اللغة عن الواقع، ويمتد الكلام في وادٍ ويمتد الواقع في وادٍ آخر، وحينئذٍ تكون اللغة (الأسماء) وسيلة تضليل، ويكون الذكر الطائر وهماً وسراباً !!

ثم نبدأ في قسم جديد من هذه الرسالة وهو الخامس عشر، يبدأ باستفهام إنكاري، يقول : « وكيف يَتَأَدَّى العِلْمُ إليَّ وأَنَا رَجُلٌ ضَرِيرٌ، وكَفَى من شَرٍ سَمَاعُهُ، ونَشَأتُ في بَلَدٍ لاعَالِمَ فيه، وإنَّما تَشَبَّثُ النَّامِيَةُ بالجَوَازِعِ، ولَمْ أَكُنْ صَاحِبَ ثَرْوَةٍ، فَكَيْفَ الحِدَاءُ بِغَيْرِ بَعِيرٍ ، والإنْبَاضُ مع فَقْدِ التَّوْتِير » .

وبهذا يعيدك أبو العلاء إلى قوله في بداية القسم العاشر« وإنَّ العامَّةَ عَهِدَتْنِي ... فَقَالَتْ عَالِمٌ ... » ، فقد قلت بأن القسم يستثير النفس فنتساءل لماذا ألا يستحق أبو العلاء ما خوله إياه العامة من منزلة ؟ !

وهذا القسم كأنه بيان لقوله هناك « والنَّاطِقُ بِذَلِكَ هُوَ الظَّالِمُ »، فهو يتناول نفي العلم عن أبي العلاء ببرهان ودليل ، وكأن نسبته إليه تهمة تُتقى . ودعنا نتأمل جريان هذا المعنى في بيانه ، فقد بنى نفيه لأن يكون صاحب علم في القسم العاشر بأن جعل نسبته إليه حكم عامة، مبني على تسرع، وغفلة، وعدم تثبت كما أسلفنا،

ثم نفاه بطريق غيرمباشر في القسم السابق، معتمداً على فكرة فلسفيةوأن الشهرة ليست دليل الخطورة الحقيقية لصاحبها ، ثم ينتقل من هذا وذاك ليثبت بأن في سبيل وصول العلم إليه موانع وعقبات، ليس من شأن من كانت في سبيله أن يكون صاحب علم أو منزلة ، وهذه الأسباب هي: زمانة العمى، وكونه لم ينشأ في حاضرة من حواضر العلم كبغداد ودمشق، وإنما في معرة النعمان ، وهذا يستدعي إلى أذهاننا كيف وصف نصيبه من الأدب في رسالته الإغريض، عندما وصفه بأمطار سقت البلاد، ولكنه نزل من هذا المطر[1] « ببلدٍ طَسْمٍ، كأثَرِ الوَسْمِ »، يعني المعرة وخلوها من حياة علمية ناشطة ، والثالث من تلك الأسباب هو أنه لم يكن صاحب ثروة حتى يرحل في طلب العلم .

وهذا التعداد من قبله للمعوقات التي تعرض بينه وبين تأدي العلم إليه، يذكرنا بما كان من شأنه في رسالة الجن حينما عدد أنواع القصر التي يشتكي منها، والتي إذا ما أضيف إليها قصر كنيته فربما اختفى اسمه من الوجود ، وقد قلت حينها ربما كان في ذلك لمح علائي إلى أنه استطاع أن يتجاوز كل هذه الأسباب حتى كان له اسمٌ تطاول حتى طال على الجميع .

وهنا ترى وكأنه مع ذات المعنى، فرغم كل تلك المعوقات التي في سبيله، كان أبو العلاء هذا العالم الذي أطبقت شهرته الآفاق، وخطب وده الساسة والوزراء . وهذا المعنى ربما تراه مستتراً خلف هذا التواضع المبالغ فيه، والذي له هدفٌ ظاهر وهو الروغان من المنادمة .

وأريد أن اكتفي من هذا القسم بهذا الذي وصفت لك من معناه وأنتقل إلى القسم التالي، وهو القسم السادس عشر ، وأشير بإيجاز قبل هذا الانتقال إلى هذاالملمح الأسلوبي، فقد بدأ الكلام بإنكاره أن يصل إليه العلم، « فكيف يتأدى العلم إلي » والحال أنني « رجل ضرير »، وأنني « نشأت في بلد لا عالم فيه »، و «لم أكن صاحب ثروة »؟! وهذه الجمل الحالية تؤكد هذا النفي ، ثم يعود إلى هذا النفي وباللغة نفسها، والأداة نفسها التي هي كيف، ومعناها الإنكار، ويضع مكان الجمل الحالية أمثالاً يستحيل معها وقوع الفعل ، فالذي لا بعير له يستحيل أن يحدو إلا إذا كان مجنوناً، والقوس التي ليس فيها وتر يستحيل أن تنبض؛لأن الإنباض صوت

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢٤٨/١ .

الأوتار . ولهذا كانت الفاء في قوله « فكيف الحداء .. » عاطفة عطف ترتيب وتسبب على قوله « وكيف يتأدى العلم .. »، لأنها جملة نابتة من الجملة المعطوفة عليها ، وهذا هو سر الفاء الداخلة على كيف الثانية، ولا يجوز لذا أن تأتي بالواو كما جاءت التي قبلها .

أما القسم السادس عشر فهو قسمٌ عجيب، حيث ينقلك أبو العلاء من غمرة هذه النبرة المتواضعة المتشائمة من أن يكون له نصيب في العلم بسبب من سوء حاله، وسوء حال المعرة ذاتها، وجدبها من العلم وأهله=أقول ينقلك من هذا إلى قفزات خيالية، تأمل ما يقوله الرجل : « فَإِنْ بَلَغَ سيِّدي الشَّيْخَ أن سَارِيَ اللَّيلِ قَبَضَ على سُهَيْلٍ ، وأنَّ الأَرْضَ أَنْبَتَتْ وَشْيًا وحَرِيرًا ، والسَّحَابَ أَمْطَرَ مُدَامًا وعَبِيرًا، فَهْوَ أَعْلَمُ بِرَدِّه عَلَى المُبْطِلين، حَسْبُ الأَرْضِ أن تَعْنُوَ بِخُلَّةٍ وحَمْضٍ، وعَادَةُ السَّحَابِ المُرْتَفِعِ في السَّمَاءِ،أن يَأْتِيَ بِرِيِّ الظِّماءِ، والدُّلْجَةُ بُلِّغَتْ إلى البُلْجَة».

والعطف في بداية هذا القسم من باب عطف معنىً على معنى، فهذا الجزء بكل ما فيه معطوفٌ على سابقه،وإنما كان بالفاء لأنه لوحظ ترتيب معنى على معنى، وليس مطلق جمع معنى إلى معنى، لأنه يعني أن قدرة الشيخ على رد الباطل الذي يقول بأن ساري الليل قبض على سهيل، وأن الأشياء خرجت من معادنها، فالأرض أنبتت حريرًا، والسحاب أمطر عبيرًا = أقول أن قدرة الشيخ على رد هذا الباطل مؤسس على الكلام السابق ومرتب عليه ، وسوف يظهر لك ذلك فيما بعد بإذن اللّه .

وهذا القسم عبارة عن جملة شرطية، تطول جملة الشرط فيها بتعدد المصدر المؤول،الذي هو في محل فاعل لفعل الشرط ، فالشرط هنا فعل واحد (بلغ)، صيَّره تكرار الفاعل ثلاث صور، يضعك أمامها أبوالعلاء، ويبدأ بهذه البداية المؤنسة « فإن بلغ سيدي الشيخ» فتستشرف النفس سماع أخبار تبلغ هذا الشيخ، وبلوغ الأخبار معنىً مألوف متداول، ولكن انظر كيف تأسرك المفاجأة عندما تسمع أي أخبار سوف تبلغ هذا الشيخ، فسوف يبلغه أن ساري الليل استطاع أن يقبض على سهيل النجم ، وأن الأرض أنبتت الوشي والحرير ، وأن السماء أمطرت مدامًا بدل الماء وعبيرًا!!

يقول أبو العلاء إن بلغتك هذه الأخبار غير المعقولة فالجواب هو أنك سوف تردها لأنك أعلم بردها على المبطلين ، يريد أبو العلاء أن يقول إن ورد الشيخ

أباطيل فهو أقدرالناس على ردها ،فانظر كيف عبر عن هذه الفكرة البسيطة العادية، فجعلها عالمًا من الغرابة ومن نسج المستحيلات، فوضع أولاً أمرًا مستحيلاً، رجلاً يمسك على سهيل، ثم لم يكفه فأردفه بصورة الأرض التي تنبت وشيًا، أي ثيابًا موشاة وحريرًا ، ثم لم يكفه فأردفهما بالسحاب الذي يمطر خمرًا وعبيرًا . والثاني والثالث:« أن الأرض تنبت وشيًا وحريرًا ، والسحاب يمطر مدامًا وعبيرًا » من معدن واحد تقريبًا، وهو تخيل أن هذه الأمور تجود بشيء ليس من طبيعتها، ولذا ترى أبا العلاء لم يكرر (إن) مع الثالثة، وإنما عطف فقط ليدل على هذا القرب، ولكن الأول «أن ساري الليل قبض على سهيل » كان نوعًا من افتراض نتيجة عظيمة لمقدمة بسيطة، وهذا وإن كان يشترك مع ما هو بعده في كونها جميعًا أحاديث غرابة ومستحيلات، إلا أنه من بابٍ من المعاني مختلف، وكأنه يضع الإنسان هنا بإزاء عناصر الطبيعة، فهو لايتوقع من جهده إلابما يتوافق معه، وكذلك عناصرالطبيعة لن تجود إلا بما يناسب طبيعتها، وهذا هوالذي سوغ له جعلهم جميعًا في قرانٍ واحدٍ.

هكذا تنمو معاني أبي العلاء وتثمر،ولها معين لا ينضب من هذاالعقل الطاغي، وتلك المخيلة الوثابة ، وهذه المخيلة من أهم مفاتيح أبي العلاء لإرباء معانيه، إضافة إلى كل ما ذكرناه آنفًا ، فالفكرة البسيطة تقتبس من فيض النفس التي تصوغها غرابة وتميزًا يجعلها شيئًا آخرًا ، وهذا هو ميسم أبي العلاء على أفكاره، فالمعاني التي يتناولها ليست بالضرورة غريبة، فقد يتناول المعنى المألوف المتداول كما ترى، فإذا ما وضع ميسمه عليه أكسبه من ذات نفسه، ومن روحه، صبغة من الغرابة والتميز !!

وجواب شرط هذه الجملة التي طالت محذوف، دل عليه قوله « فهو أعلم برده على المبطلين»، وتقدير الكلام (فإذا بلغ ذلك الشيخ رده فهو أعلم برده)، وكان بإمكان أبي العلاء أن يكف هنا عند هذه الجملة« فهو أعلم برده على المبطلين »، فقد عُلم من سياق كلامه، ومما جرت عليه الحال، بأن هذا الذي سبق من أمور منقوض، ولكنه استمر في هذا المعنى يمطله، وجعل ما نظنه آخر المعنى مفتاح معنى جديد، فقال مؤكدًا المعنى السابق « حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض ، وعادة السحاب المرتفع في السماء أن يأتي بري الظماء ، والدلجة بلغت إلى البلجة »، فأتى بثلاث جمل، في كل واحدة نقض لتلك المستحيلات الثلاث التي افترض بأن الشيخ بُلِّغَهَا .

ولا بد وأن في هذه الإضافة أمر من معناه ومن نفسه لا يُغفل ، ولا بد وأن أباالعلاء ارتأى من المعنى ما لم يكن ليوفيه الوقف، والاعتماد على ما يقر في نفس المخاطب من نفيٍ لكل ما سبق . ولنا أن نقارن بين مجردالنفي للسابق، وبين ما أتى به أبو العلاء رغم كونه معلوماً، فشتان بين أن نقول (الأرض لا تنبت وشيًا وحريرًا)، وبين قول أبي العلاء « حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض»، أي غايتها، وكفايتها، وأقصى ما ترتجيه منها، وما يتوافق وطبيعتها، فلن تأتيك بأكثر من خلة وحمض .

ثم أن نقول:(لن يأتي السحاب بمدام وعبير)، وبين أن يقول هو « وعادة السحاب المرتفع في السماء أن يأتي بري الظماء » ، ولنا هنا أن نتساءل : لماذا وصف السحاب بالمرتفع في السماء، مع أن ذلك معلوم منه مسبقًا ؟! هل يريد أن يقول أنه برغم ارتفاعه في السماء، وهذه المنزلةالتي له، والتي قد توهم بأنه أهل لأن يأتي بما هو أكثر من ذلك = بأنه مع هذا الذي قلت عادته وقصاراه أن يأتي بري الظماء؟! فالأشياء لها وظائف محددة، وسنن مرعية، لا يخرجها عن هذه السنن المرعية أن تكون لها هيأة وهيبة، كهذا السحاب الساري في السماء. وانظر من ثم -إذا صح هذا الاعتقاد منا-كيف يدقق أبوالعلاء في فكرته، ويقتنص تلك الهمهمات التي تحوم حولها، فلا يدعها إلا وقد استوفاها، وأشار إليها في لمح خفي، يطلب لها الاستحكام، وأن تقر قرارها ، وهو في ذاك ينشد لفكرته الكمال . والكمال هذا ما كان يشغل أبا العلاء ، فبلوغ الغاية في كل شيء ينطق به ، هو الذي يغريه بالمبالغة كما أسلفنا ، وهو الذي يغريه بأن يتعمق فكرته ، ويبلغ بمعناها أقصاه .

ثم تأمل ما بين قولنا : (إن ساري الليل لن يقبض على سهيل) وقوله هو «الدلجة بلغت إلى البلجة »، أي قصارى ما ينتظره ساري الليل بجهده هو أن يبلغ غايته ووجهته صباحًا .

وكأن المعنى الأم والذي عليه المدار في هذه الجمل ، هو أن يقول أبو العلاء من خلالها : (أن هذا الذي قلته آنفًا ليس من شأن هذه الأمور ، ولا من طبائعها ، وأن قصاراها ، وأبلغ ما يتوقع منها ، هو ما جرت به العادة في شأنها) .

وهذا هو المعنى الذي زاد به كلام أبي العلاء ، بالإضافة إلى توكيده هذه الصور ووضعها أمام عينيك مع ما هو من شأنها ، لينقلك من سماء الخيال التي حلق بك فيها إلى أرض الواقع ، وهذا من معناه بمكان .

وكأني بأبي العلاء هنا يعقد مقابلة بين الحقيقة والوهم ، صورة الوهم الباطلة ماثلة في الساري القابض على سهيل، والسحاب الممطر المدام، والأرض المنبتة الوشي ، وصورة الحقيقة في الثاني الذي نقض به الخيال . فأبو العلاء يضرب بقلمه في هذا الفساد الاجتماعي الذي يتبع الوهم، ويتجاهل الواقع الذي يعيشه .

ولا بد أن يكون معلوماً أن أبا العلاء ينفث آراءه فيما حوله في كل كلام أملاه، وأن هذه الرسالة وإن كانت تدور حول أمر شخصي فهي معبرة عن كثير من آراء أبي العلاء، فلا ينكر عليّ أحد أن أستخرج آراء الرجل منها، وأن أستخرج نقده للحياة ، وللمجتمع ، وللعلماء ، ولغيرهم من الطوائف التي يعرض لها !!

وأبو العلاء بهذه الجمل الأخيرة ينفي بحجة ودليل ، وهذا يشير إلى أنه ليس كلفًا برد ذلك الخبر على المبطلين، وإنما بكيفية هذا الرد وبكيفية نقضه هو أعنى . وكأنه يقدم للشيخ الحجة التي يحاجج بها المبطلين . فنستنتج أن غرض الرجل أن يقول أن هذه المستحيلات بمنزلة أن يُقال : أبو العلاء عالمٌ يستحق شرف المنادمة . ثم إنه وضعها أموراً تجود بما ليس في طبائعها ، وكأن العلم ممن هو مثل أبي العلاء خارج عن طبيعته، ولا يُعقل أن يأتي ممن هو مثله !!

وهذا لو تأملت حقه أن يكون قبل سابقه فيكون قوله « وكيف يتأدى العلم إليّ وأنا رجل ضرير ... » بمثابة ما سوف يرد به الشيخ على المبطلين عندما يدّعون لأبي العلاء أدبًا وعلمًا ، كما كان قوله « حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض ... » ردًا على تلك المستحيلات . وكأنه يقول له عُدْ إذا سمعت ذاك عني إلى ما قلته لك آنفًا ، أو أنه يفترض بأن هذه الحجة معلومة لدى الرجل فيستطيع اصطناعها، أو هو أعلم باصطناعها إذا ما نُسب أبو العلاء عنده وفي حضرته إلى علم أو فضل .

وهذا القسم كما ترى ملتحم الجمل كما هو ملتحم المعنى، فجملةالشرط وجملة « فهو أعلم برده على المبطلين » التي قامت مقام الجواب ، قد اتصلت بهما جملة « حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض » وما عطف عليها (جملتي « وعادة السحاب المرتفع في السماء أن يأتي بري الظماء » و « الدلجة بلغت إلى البلجة ») = كون القطع بينهما من باب كمال الاتصال فهي مباثبة توكيدٍ لها . فما كل ما قاله عن الأرض وانباتها الوشي، والسحاب وامطاره المدام، والساري وقبضه على سهيل، إلا أباطيل سيردها الشيخ، وإذا كان التالي هو رسمٌ لواقع الحال فهو تأكيدٌ لكون

السابق أباطيلاً. فمثلاً بطلان قدرة الأرض على إنبات الوشي يعني أن الأرض تعنو بخلة وحمض فقط ، وهكذا ..

ثم يقطع أبو العلاء ويستـأنف قسماً جديداً « السابع عشر » ولكنه من هذا بسبيل ، وقد قلنا أن القطع والاستئناف بمثابة طرقات من أبي العلاء لتنبيه النفس لما سوف يأتي من معانيه، وهو في هذا القسم يتحسرعلى فوات شرف المنادمة على نفسه يقول : « لهفي على فَوَاتِ هـذه المَنْزِلَـةِ ، ومن للْوَرْقَـاء بِكَوْكَبِ الخَرْقَـاءِ ، والرَّاقد عِنْدَ الفَرْقَدِ أن يُضْحِيَ مُجَاوِرَ الفَرْقَدِ ، من لا يَصْلُحُ لـمُجَالَسَةِ النُّظَرَاءِ ، فكيفَ يُنْتَدَبُ للقَاءِ السَّادَاتِ الكُبَراءِ :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لو نَادَيْتَ حَيّاً ولكِن لا حَيَاةَ لمن تُنَادي

هل آمُلُ مِنَ اللّهِ ثَوَابًا ، وإنَّما أَنَا كَقَتْلَى بَدْرٍ أَسْمَعُ ولا أَمْلِكُ جَوَابًا » .

وكأننا مع هذا القسم ننتقل إلى حديث نفسٍ ، ثم إنك لا تدري أي منزلة هذه التي يحدثك عنها، يقول « هذه »، فيوهمك وكأنه قد سبق لها ذكر في كلامه، فتتحير فتنتظر بيانًا فأي بيان يعطيك؟ « ومن للورقاء بكوكب الخرقاء » هذا هو جواب أبي العلاء لحيرتك، وبيانه لما أبهم من معناه، فترى نفسك مضطراً لأن تخبط معه في غياهب لغته لتحصل على غيوب معانيه، وتجد نفسك أمام جناسات أبي العلاء التي هي جزء من طبعه، تجد نفسك أمام انسجام وتآلف صوتي يوهمك بأنه يطوي آخر معنوي، ولكن تكون المفاجأة إذا نقبت عن معانيها،فوجدت نفسك معها على اختلاف قد يصل إلى حد التناقض . وكأنه بهذه الجملة يجيب نفسه عندما تلهفت على فوات هذه المنزلة بأن يقول لها (لا غرابة في ذلك من للورقاء بكوكب الخرقاء)، فكأن التحسر السابق منه على « هذه المنزلة » أوحى بأنه كان لديه أمل ولكنه فاته ، فكانت هذه الجملة بمثابة تسلية من أبي العلاء لنفسه، وأن هذه المنزلة لم تكن لتكون له في يومٍ من الأيام، فقد جعل نفسه فيها ناقة لا تصلح للمسير (الورقاء)، فكيف لها أن تطمع بفطر الأرض الواسعة (كوكب الخرقاء)؟! فما دامت هذه الناقة لا تصلح للمسير فلن تحصل على كوكب من أرض خرقاء ذات نبات وري، لأنها منقطعة عن السير، وهذا النبات لا يكون لها إلا بما لا تستطيعه .

أرأيت كيف علا بك اللفظ ثم هوى، كونه تخير للفطر هذا الاسم « كوكب »، وأنت تعلم دلالته الشهيرة على أجرام السماء، فأول ما يتبادرإلى الخاطر أنه يتحدث

عن كوكب من كواكب السماء، ثم يعود بك أبو العلاء إلى الأرض لتعرف مراده . ويضيف إلى هذه الصورة التي تجسد البون بين أبي العلاء وهذه المنزلة صورة أخرى أبلغ في معناها، يقول « والراقد عند الفرقد أن يضحي مجاور الفرقد »، أي أنَّى للراقد المجاور لابن البقرة أن يكون مجاوراً للكوكب السماوي المسمى فرقداً؟!! ومن إهدار بيان أبي العلاء أن نقول أنه اختار الفرقد ليجانس فقط، وإنما اختار الراقد عند الفرقد ليشير إلى قصر الهمة، وأنه ليس إلا راعياً هملاً خاملاً لا يرعى وإنما يحرس أطفال البقر، وتجد شيئاً من هذا المعنى في قوله«من لا يصلح لمجالسة النظراء »؛ لأن الراقد عند الفرقد هو راعٍ من الدرجة الثالثة – إن جاز لنا التعبير – وتأمل كلمة (راقد) لتدلك على ما استخرجناه من لفظ أبي العلاء ، فالكلمات في لغة أبي العلاء تنادي نظائرها ، الصوت ينادي الصوت ، والمعنى ينادي المعنى ، (الورقاء) تنادي (الخرقاء)، و(الراقد) تنادي (الفرقد)، و(الفرقد) يحضر (الفرقد) . ذاكرة أبي العلاء معجم حي لألفاظ هذه اللغة ما عُرف منها وشُهر وما غاب وجُهل.

وهذه الجملة معطوفة على سابقتها بالواو، وكلاهما من تمام معنى قوله « لهفي على فوات هذه المنزلة»، ولايخفى عليك أنه ساقهما مساق المثل ليؤكد معنييهما وأنت معهما لا تدري ما هي المنزلة التي يتحدث عنها، ولم يأت البيان الشافي بعد، فتكون الجملة الثالثة افصاح علائي عن هذا الطلسم، وهو أول ذكر صريح للمنادمة في الرسالة بعد قوله « تلك الحضرة »، فقد كان يدندن حولها ولا يصرح ، فصرّح الآن بقوله « من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء »، وأبو العلاء بذلك يذكر المثل ثم يذكرالمعنى الذي ضُرب له المثل. والقطع هنا من باب كمال الاتصال ، فجملة « من لا يصلح ... » بمثابة توكيد لسابقتيها، فحقيقة من لا يصلح لمجالسة النظراء ولا ينتدب للقاء السادة، توكيد لمعنى أن الناقة الهزيلة لا تصل إلى النبات ، وأن الراعي الراقد عند مرابض البقر يحرس صغارها لا يصلح لمجاورة الفرقد . وقد قدم أبو العلاء المعنى المضروب له المثل أولاً في صورة مبهمة وهي قوله «لهفي على فوات هذه المنزلة»، ثم كان المثلان التاليان إبهاماً بعد إبهام، ثم كان الإفصاح بقوله «من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء».

وهذا الذي رأيت منه خصوصية فكر وطبع، أن تبهم ثم تبهم ثم تفصح أمر يتكرر في بيان أبي العلاء من رسائله هذه على أكثر من مستوى، على مستوى

الجمل الجزئية داخل القسم الواحد، وعلى مستوى أقسام حديثه ذاتها ، وقد لا يفصح أبداً !!

ولنا أن نعتبر هذا نوع من التمهيد للفكرة والتهيئة لها ، ولكنه تمهيد يبلغ بالتشويق الغاية؛ لأنه لا يلفت فقط ، وإنما يثير ويستفز ، ويجعل عقلك في حالة من النشاط تخبط في احتمالات تريد الفهم ، وتضرب أخماساً في أسداس . ثم هو يمد زمن هذه الحيرة ، وهذه الحركة الذهنية الباحثة عن الجواب بإلحاحه على معناه الغامض ، الذي هو تهيئة للصريح ، ويقول علماؤنا[1] « ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ومن هنا قالوا إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار » .

فهل نستطيع أن نقول بأن هذا من فرط حفاوته بمعانيه ، وأنه ضنين بها من أن يلقيها هكذا غفلاً دون تمهيد ، وأن يلقيها هكذا صريحة متكشفة تتلقفها القلوب مع العيون في ذات الوقت ؟ !!

وإنما يريد من مخاطبه أن يتكبد حتى يصل إليها ، وأن يعاني حتى يفهم، وربما لا يريد أن يفهمها إلا من هو أهلٌ لها ولفهمها ، وهذا الشح منه بفكرته عجيب يدعو لمزيد تأمل ونظر !!

وبقوله « فكيف ينتدب » في هذه الجملة ، يرتب تعجباً على تعجب آخر ، فإذا كان لا يصلح لمنادمة نظرائه ، فكيف يصلح لمنادمة السادة والرؤساء ؟ ، وهذا يذكرك بشبيهه في مفتتح الرسالة « فكيف بي ولا أقدر أن أهدي زهرة » ، فكلامه يأخذ سمتاً واحداً ، وحذواً واحداً في الرسالة الواحدة !!

وقد قلنا أنه عند هذه الجملة أفصح عن كلامه غاية الإفصاح ، فمن المتوقع أن يقف هنا، ولكنك مع أبي العلاء،ومعانيه، وعقله تجد أنك كلما رأيت الكلام قارب على الانتهاء لم ينته،وكأنه يجدد نفسه، فيبثه أبوالعلاء من روحه نفثات جديدة من شأنها أن تمد المعنى أيما مد . وقد علمت بأن أبا العلاء في هذه الجمل السابقة كان كمن يحدث نفسه، ثم أخذ منذ هذه الجملة ينتقل بالحديث إلى الآخر، فبعد قوله

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ١٣٢ .

الحاسم « من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء » ، وهو الذي يشعرك بأنه لم يعد هناك مطمع لمن يريد دعوة أبي العلاء لترك محبسه ، فترى أبا العلاء يلتقط نفس التيئيس والتعجب هذا ، ويوجهه للفاعل المجهول للفعل «يُنتدب» ، ووجود هذا الفعل المبني للمجهول ينبيء بظهور الآخر في التالي من كلامه ، وهذه من الإيماضات التي يضعها أبو العلاء لتشي بما سيأتي من بيانه ، فكانت معبرًا جيدًا ليقول :

« لقد أسمعت لو ناديت حيًا   ولكن لا حياة لمن تنادي »

وهنا يعيدك أبو العلاء في لمحة فكرية خاطفة للحلقة الحادية عشر من معناه، والتي قال فيها « فغدوت حلس ربع كالميت بعد ثلاث أو سبع » . ثم تأتي جملة أخرى بمثابة جملة مؤكدة، فترى هذا البيت قد فتح معنىً آخر أخذ أبو العلاء ينفث فيه ، وهذه الجملة هي قوله « هل آمل من اللّه ثوابًا » ، والتي من تمامها جملة الحال « وإنما أنا كقتلى بدر أسمع ولا أملك جوابًا » ، فهاتان جملتان بمثابة جملة واحدة مؤكدة للبيت الشعري الذي هو بدوره مؤكد لجملة « من لا يصلح ... فكيف ... » ، وهنا في هذه الجمل يظهر خرس أبي العلاء وعجزه حتى عن النطق، الذي يذكرنا بخرس الحمامة في صورته السابقة . فأي لحمة فكرية هذه التي نجدها بين معانيه ؟ !!

وهو هنا ليس ميت – وهذه هي الإضافة التي أتت بها الجملة الأخيرة – إنما هو حي ميت ، يسمع ولكنه لا يستطيع الإجابة عاجز عنها . وبعد نهاية هذا القسم يعود أبو العلاء للحديث عن هذه المنزلة –التي أصبحت الآن من الجلاء بمكان– في القسم الثامن عشر يقول : « ولِمثْلِ هذه الرُّتْبَة سَهِرَ من أَهْلِ العِلْمِ السَّاهِرُونَ ، أَعْرَضَ النَّوْفَلُ وغَابَ العَائِمُ ، وأَوْمَضَ البَارِقُ فأَيْنَ الشَّائِمُ ، إِنَّ الحَيَّ خَلُوفُ (يا لَيْتَني كُنْتُ مَعَهُم فأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا) » .

وقبل أن أتجاوز هذاالجزء أشير إلى أن هذا معنى جديد من الرسالة، وقد بني على الاستئناف بالواو ، ويقرر أبو العلاء فيه بواسطة لغة من الأمثال معنى أنه فاته خيركثير بفوات هذه المنزلة، ويبالغ في إظهار تحسره عليها ، وقد رأينا أبا العلاء لا يبالغ في معنىً شبيه بهذا إلا ووراء الأكمه ما وراءها . وهذا لا يخلو من مغمز لأهل العلم لأنهم سهروا لهذه الرتبة ولم يسهروا لتحقيق حقائق العلم، ولم يستهدفوا

بجهدهم واجتهادهم خدمته، ولم يتطلعوا إلى شرف أهله عند الله، وأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

فالعلماء الحقيقيون هم الذين يقضون حق الله، وهم المجاهدون على ثغور هذه الأمة الفكرية، والمرابط على الثغر حسبه أن يكون مرابطاً !!

وننتقل إلى القسم التالي حيث نجد أول ظهور للسيد عزيز الدولة، فقد كان من قبل يتحدث للشيخ الذي هو بلا ريب أبو نصر الفلاحي الذي كُلِّف باستدعائه، فلم يسبق هذا التصريح إلا إشارات موجزة تجدها في قوله « تلك الحضرة » ، وفي قوله « السادات الكبراء » ، فهو داخل في معيتهم بلا ريب ، يقول: « والسَّيِّدُ عَزِيزُ الدَّوْلَة–أعَزَّ اللّهُ نَصْرَهُ– يُعِينُ الكَسِيرَ بالجَبْرِ، فكيفَ يَأْمُرُ بإخْرَاجِ مَيْتٍ من قَبْرٍ ، ولو كُنْتُ بَرِيئًا مِنْ هذه العلَّة لخَشِيتُ أَنْ أَصِحَّ فَأَفْتَضِحَ، لأَنِّي مـا أُنْصِفْتُ إذ وُصِفْتُ. والسَّيِّدُ عَزِيزُ الدَّوْلَة لَيْسَ كَغَيْرِه من الملُوك والسَّادَات ، لأَنَّهُ يُوصَفُ بِفَارِسٍ من جهات ، فَهُو فَارِسٌ للأَقْرَانِ من فَرَسِ الأَسَد ، فَارِسٌ على الجَوَادِ العَتَد ، فَارِسٌ من فَرَاسَةَ الأَلْمعَيِّ، سَالِمٌ من الخَطَلِ والعِيِّ ، والإنْسَانُ يَسْتَحِيي من نَظِيره ، فكيفَ من سَيِّدِ العَصْرِ وأميرِه » .

يبدأ هذا القسم كما ترى بجملة خبرية يتخير لها فعلاً مضارعًا يقع خبرًا عن السيد عزيز الدولة، ليدل على أن هذا الأمر من الرجل أمر متجدد مستمر في تجدده « يعين الكسير بالجبر »، رغم أن الشأن في مثل معناه أن يخبر عنه فيقول : والسيد عزيز الدولة ممن شأنه إعانة الكسير بالجبر أو ما شابه هذا ، وغرضه من قوله « يعين » أن يحضرالفعل أمام عينيك،وكأنه يعينه الآن حال الخطاب، حتى يكون تعجبه التالي أوقع في النفس، لأنه إذا كان ذلك منه أمرًا معتادًا فربما تغيرت الطباع، ومن شأن الإنسان أن يخلف عاداته أحيانًا ، ولكن عندما جعل هذا الفعل مستمرًا حادثًا وكأنه يعالجه أمامك الآن، كان لتعجبه في الجملة التالية أثره ووقعه يقول : « فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر » ، وأبو العلاء يصف عزيز الدولة بأنه رجل في قلبه رحمة تعطف على ذوي الزمانات، فهو يعين الكسير ويجبره ويأخذ بيده وهذه رحمة، ثم هو يقسو كل القسوة ليس حين يُخرج ميتًا من قبره، وإنما حين يأمر بإخراج ميت من قبره . وأبوالعلاء هنا يعني أن محبسه قبره، وأنه ليس حيًا في محبس، وإنما هو ميت في قبر. وأبو العلاء بهذا لم يترك خاطرًا حول معنى الاعتذار إلا جاء به .

والفاء في هذه الجملة « فكيف يأمر » تفيد ترتيب التعجب والإنكار على هذه السجية الرحيمة (يعين الكسير بالجبر). وتأمل تكرار هذه الصيغة (الاستفهام الإنكاري بكلمة كيف) في هذه الرسالة، مما يدلك على أن العجبية والتعجب من معناها بمكان ، فهل هو عجب من استدعائهم إياه رغم معرفتهم قرار عزلته ؟ ! ربما كان ذاك وربما كان غيره .

ويمكن أن يقال بأن هذا التعجب من إخراج ميت من قبر كان حقه أن يأتي بعد قوله « وإنما أنا كقتلى بدر أسمع ولا أملك جواباً ». فقد ألحّ في نهاية هذا القسم على تشبيه نفسه بالميت ، وقد قلنا بأنه بدأت أنفاس كلامه تتجه للآخر « لقد أسمعت لو ناديت حياً » والجواب على هذا أن الرجل عاد لفكرته التي أفلتها للتو، وهي ضياع الرتبة، وكأنها قد أبقت بقية في نفسه، فعاد يصفها من جانب آخر، وهو أنها خير يتهافت الناس عليه، وهو يَعرِض على أبي العلاء فلا يكون له منه مجيبٌ . ويلح على ذلك بمجموعة من الأمثال التي هي صور من شأنها أن تثبت هذه الحسرة . وقد قلنا بأنه يغمز بذلك من يتطلع من أهل العلم إلى مجالسة الكبراء ، ثم يعود فيكمل فكرة إخراج الميت . وهذا مما وصفنا من شأنه من قبل بأنه يهم بأن يخطو الخطوة ، ثم يعود عنها لما كان فيه ، ثم يعود إليها من جديد .

وبعد هذه الجملة القصيرة التي يعاتب فيها عزيز الدولة عتاباً صريحاً على استدعائه للمنادمة، ولكنه لا يخلو من لياقة كونه جعل نفسه غير أهلٍ لها ، يتركها لجملة هي أيضاً موازية لها في القِصَر يقول « ولو كنت باريئاً من هذه العلة لخشيت أن أصح فأفتضح ، لأني ما أنصفت إذ وصفت » ، وتأمل كيف تقصر الجمل عندما يكون حديث أبي العلاء فيها صريحاً عن شيء ما من أمهات أفكاره في هذه الرسالة ، وكأنه يتعجل ترك الفكرة الصريحة ، ويشيح عنها ، ولا يكاد يطيل فيها ، وليس كتلك التي تمتح من خياله ، وصوب عقله الغامض، فإنه يمطلها ما حسن له ذلك . والذي تراه هنا في هذه الجملة – وهي تصلح في استقلالها أن تكون قسماً مستقلاً من معناه–أنها من قبيل استقصاء أبي العلاء للفكرة التي يتعاطاها، فحتى لو برىء من علته التي تحول بينه وبين المنادمة، والتي من أجلها جاء بكل الصور الماضية، وآخرها الميت في قبر= فإنه ليس بأهل لها. وهي أيضاً أمرٌ لا طاقة له به. وهو هنا وإن كان يجيب على هذا الاحتمال بكل اعتذار له في الرسالة بالمحبس،

والعلة، وتواضع المنزلة وغيرها ، إلا أنه يعود قريباً إلى قوله « أعرض النوفل وغاب العائم ...»،لأن في هذا القسم إحساس بالتوق مع العجز المانع ، فكأنه خشي من أن يتبادر إلى الذهن أنه إذا ذهبت هذه المعوقات فأنت أقدر الناس وأرغبهم فيها (الرتبة ، المنزلة، المنادمة). وحتى وإن كان هذا ضرباً من الاحتمالات البعيدة المستحيلة، فإن من شأن أبي العلاء أن يقوضه، ولكنه في الوقت الحالي يكتفي بأن يعبر عن ذلك بأنه لو حدث فسوف يفتضح لأنه ما أنصف إذ وصف. وقوله« لأني ما أنصفت إذ وصفت » يستدعي القسم الذي قال فيه « وإن العامة عهدتني ... فقالت عالم، والناطق بذلك هو الظالم ...»، بل يختصره بكل ما فيه اختصاراً بالغًا وافيًا !! وهذا من ضمٍّ ما نشره سابقًا . وعند هذه الجملة الموجزة جداً يتوقف أبو العلاء عن إتمام فكرته هذه لينقلك إلى معنىً آخر، ما يلبث ويتركه ليعود ويشبع هذه الفكرة أيما إشباع . وبذا تراها تفتح باباً للمعنى لا تستعجله ، وإنما تُرجئه . وهي وإن كان قد سبق من معناها ما أنبأنا به أبو العلاء مفصَّلاً بأنه لم يُنصف إذ وُصف، فيتصور بأن هذا من شأنه أن يقلل من توق النفوس لهذا البيان المُرجأ= إلا أن الحق بأن ما تقدم عليها من قول أبي العلاء من شأنه أن يبلغ بهذا التوق الغاية، حيث قال « فافتضح » ، ففي كل ما مضى لم يصل أبو العلاء بمعناه إلى أن حقيقته إذا ما قورنت بما يوصف به قد تبلغ به حد الافتضاح !!

والجملة المعترضة هنا، ولك أن تقول القسم من المعنى لأنه أيضاً مستقل في معناه - أقول القسم المعترض هنا بين رأس الفكرة وبيانها هو قوله « والسيد عزيزالدولة كغيره ...»، وهو ثناء مباشر وصريح من قبل أبي العلاء على عزيزالدولة، يختمه بقوله « والإنسان يستحيي من نظيره، فكيف من سيد العصر وأميره »، وقد نبهنا من قبل إلى توالي هذه الصيغة في كلامه، أن يُقدم جملة، ثم يرتب عليها بالفاء استفهاماً خرج للتعجب بكيف . وبهذهً الجملة ينهي هذه الحلقة من معناه بما كاد أن ينهي به قسماً سابقًا وهو قوله « من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء » ، فكأنه يستدعيه بكل ما قاله فيه ، ويفصح عما أضمره هناك . وهذا مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن معانيه تدور في حلقات لا تتكشف أطرافها إلا بمراجعة طويلة .

ثم تراه يقول في القسم التالي من معناه: « يا فَضْحَةَ فَتَاةٍ قِيلَ إنَّها بَيْضَاءُ ،

كَأَنَّهـا من النِّعْمَـةِ مـا تَضَمَّنَتْهُ الإِضَـاءُ ، حَلِيمَةٌ رَزَانٌ ، تَزِينُ الـمَجْلِسَ ولا تُزَانُ ، حَـوْرَاءُ غَيْدَاءُ. فَلَمَّـا كَانَ الهِدَاءُ، وُجِدَتْ عَلَى خِلاَفِ ذَلِكَ، فَإِذَا بَيَـاضُهَا سَوَادٌ رَائِعٌ، والنِّعْمَـةُ جَفَاءٌ فـي الجَسَدِ شَـائِعٌ ، والحَوَرُ زَرَقٌ مُتَبَايِنٌ ، والغَيَدُ وَقَصٌ شَـائِنٌ ، وإِذا هِـيَ سَفِيهَةٌ رَوَادٌ ، لا يَشْعَفُ بِوُدِّهَـا الفُؤَادُ. والـمَثَلُ السَّـائِرُ أَنْ تَسْمَـعَ بِالـمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ من أَنْ تَرَاهُ » .

وأبو العلاء ينقلك هنا من ذلك الثناء الصريح للسيد عزيز الدولة إلى صورة عجيبة، هي إذا ما قلبتها وجدتها معادلاً ينشئه أبو العلاء لنفسه، يقول بادءًا بحرف النداء فيعمل على تنبيه السامع، ويضعك أول ما يضعك أمام كلمة « فضحة » لتستعيد بها أنفاس قوله السابق « فأفتضح »، وليُقر في نفسك النتيجة التي سوف يؤول إليها حال الفتاة ، وكأنه هنا يستبق الأحداث كما استبقها مع الحمامة، ويعطيك النتيجة قبل البدء في القصة، فلماذا يفعل ذلك ؟ ! أولاً : ليدل على أنها الكلمة الأم هنا، وهي المعنى الذي عليه المدار . ثانيًا : ليستثيرالسامع أكثر، وكأن النداء لا يفي بغرضه في التنبيه، فالفضيحة المترتبة على قولٍ ما أمر من شأن النفوس أن تتلهف إلى سماعه، وسماع الخبر فيه. وهو رغم أنه يضعك أمام الفضيحة بدءًا إلا أنه يسترسل بعد ذلك في الصورة المشرقة التي حُسبت عليها لا ما اتضح أنها عليه ، ليجعل عقل المخاطب يسمع كل جملة تصف جمالها فيرى أمامه الفضيحة متجسدة في كونها على خلاف ذلك، وهـذا بلفظه ما سوف يقوله أبو العلاء بعد انتهائه من سرد ما قيل عنها . وقد وُصفت بجملة طويلة تعددت فيها أخبار (إنَّ) وتنوعت، فالخبر الأول مفرد « بيضاء » ، والخبر الثاني قوله « كأنها من النعمة ما تضمنته الإضاء »، ثم خبر ثالث « حليمة رزان »، وهذا خبر مفرد، ثم خبر جملة فعلية ترتبط بها جملة حالية « تزين المجلس ولا تزان »، ثم مفرد « حوراء غيداء » . وبهذا تتم جملة « إنها بيضاء ... » التي هي مقول القول . ثم تأتي جملة مترتبة عليها « فلما كان الهداء، وجدت على خلاف ذلك »، ثم جملة مفسرة لهذه تبدأ بقوله « فإذا بياضها سواد رائع »، وهذه الفاء هـي الواقعة بين التفسير والـمُفسَّر . و (إذا) هذه للمفاجأة، وقد دخلت على الجملة الاسمية « بياضها سواد رائع »، وعطف على هذه الجملة الاسمية ثلاث جمل بعدها دخلت في حيز المفاجأة ، ثم لما انتقل إلى الأخلاق كرر حرف المفاجأة ، ثم ختم هذا بالمثل « أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » .

والترتيب بالفاء في قوله « فلما كان الهداء ... » لا يعطي مهلة، وكأنه يترتب على القول مباشرة الهداء . وأبو العلاء يريد أن يلفت إلى أن المفاجأة التي تحويها هذه الجملة إنما هي مترتبة على القول ، وهذا هو لُب القصة، والذي يُذَكِّر بفضيحة أبي العلاء المترتبة على أن يصح « لخشيت أن أصح فافتضح ». وكان بإمكان أبي العلاء أن يكف عند قوله « وجدت على خلاف ذلك »، فقد اكتملت الصورة هنا، ولكن هذه الجملة منه كانت كفيلة بأن تفتح بابًا للمعنى لم يشأ أبو العلاء أن يُعَوِّلَ فيه على ما يرد في ذهن المخاطب ، وإنما أراد أن يقوم هو بتحبير صورة هذه الفتاة التي هي خلاف ذلك ، وأن يضع فضيحتها بكل تفاصيلها صارخة أمام عينيك، فتعيشها كما عاشها هذا الزوج المسكين . وهذا من جنس قوله السابق « فهو أعلم برده على المبطلين »، وكان يمكن أن ينتهي المعنى عنده ولكنه أضاف إليه « حسب الأرض أن تعنو بخلة وحمض ... » ، والفرق أنه هناك قطع ، وهنا رتب بالفاء والمفاجأة ؛ لأن المقام مقامها ، وهذا لا يكدر تقارب الطريق ، وتشاكل المهيع .

وقد بدأ هذا الجزء بـ (إذا) الفجائية ليهيء النفس لما سيأتي بعدها من شناعة سوف يجعل هذه الفتاة عليها ، وعن أي شيء تكشف حديث الناس عن جمالها، ورقتها، ورزانتها:« فإذا بياضها سوادٌ رائع » . وكان بإمكان أبي العلاء أن يقول:فإذا هي سوداء، ويعدد صفاتها التي هي خلاف الأول، ولكنه كان حريصًا على أن يحضر الصفات التي قيلت فيها بإزاء ما وُجدت عليه « بياضها سواد»، وبضدها تتميز الأشياء . وهذا أوقع في النفس، وأكمل للصورة، فبنى باقي الصفات على نفس الحذو، على صورة مبتدأ يجسد الصفةالتي قيلت فيها، وخبره التي وجدت عليها« ... النعمة جفاء ... والحور زرق ... والغيد وقص »، وهذه أربع جمل معطوفة على بعضها البعض، وكأنها جملة واحدة داخلة في حيز (إذا) الفجائية « فإذا بياضها سواد رائع ، والنعمة جفاء في الجسد شائع ، والحور زرق متباين، والغيد وقص شائن». ثم يعطف عليها جملة تعود لتظهر معها(إذا) الفجائية، وكأن أباالعلاء يقول لك بأن المعنى هنا غير كل ما سبق، وأن هذه طامَّة إذا ما وزنت بما قبلها من صفات رجحت بها، حتى كانت لوحدها بمثابة مفاجأة جديدة توازي السابقات جميعًا، فأعيدت معها (إذا)لذلك « وإذا هي سفيهة رواد، لا يشعف بودها الفؤاد»، والصفة هي سفاهتها الموجبة لكراهتها، وهي نقيض الصفتين التي ينبغي أن يتحلى بهما نديم سلطان، ألا وهما الحكمة والعلم، مع الظرف الذي يجعله محببًا إلى

النفوس قريبًا من القلوب . وهذا يفسر ظهور (إذا) معها من جديد .

وهذه القصة تفيد توكيد معنى مخالفة ما يُقال للواقع، فقد يقال كلام يُغري بالشيء، وحقيقة الشيء ليست مغرية، وإنما هي مفزعة، وهذا هو الذي يقوله أبوالعلاء ، أنه يصور حالته ، وأن ما قيل عنه يُخالف الواقع ، وكأنه يرجع بالتفسير والتحليل لقوله « والناطق بذلك هو الظالم » . وهذه القصة توضع بإزاء :

١ - الذكر الذي يطير وغير صاحبه هو الخطير .

٢ - والشجرة التي تسمى سمرة ، وليس ظلها رحبًا ، ولا ثمرها عذبًا .

٣ - والأسود كريه الرائحة الذي يسمى كافورًا .

٤ - والرجل القبيح الصورة الذي يسمى قمرًا .

٥ - وساري الليل الذي قيل بأنه قبض على سهيل .

٦ - والسحاب الذي قالوا بأنه يمطر مدامًا ، وهو يمطر ماءً .

٧ - والأرض التي قالوا أنها تنبت وشيًا ، وهي تنبت خلة وحمض .

وهذا هو الذي قامت عليه الرسالة ، وهو المحور الذي تدور حوله .

ثم أخيرًا يجعل خاتمة هذا القسم مثلاً يصلح لأن يكون خاتمة لرسالته كلها حيث يختتم به معانيه أيما ختم، وهو القائل« أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » .

ثم يكون القسم الأخير من الرسالة تحية يبعثها للشيخ : « وَلَسْتُ أَرْضَى لِحَضْرَةِ مَوْلَايَ الشَّيْخِ بِتَحِيَّةٍ نُصَيْبٍ ، لأَنَّهُ رَضِيَ بِعَشْرِ تَحِيَّاتٍ فِي الصَّبَاحِ ، وَعَشْرٍ عِنْدَ الرَّوَاحِ ، وَوَلِيُّهُ يَحْمِلُ إلى حَضْرَتِه الجَلِيلَةِ تَحِيَّةَ شَاكِرٍ طَرُوبٍ ، تَصِلُ شُرُوقَ الشَّمْسِ بِالغُرُوبِ ، وتَكُرُّ مع طُلُوعِ الشَّفَقِ ، إلى حِينِ تَمَزُّقِ ثِيَابِ الغَسَقِ ، كُلَّمَا اجْتَازَتْ بِالصَّعِيدِ الأَعْفَرِ جَعَلَتْهُ كَالْهِنْدِيِّ الأَذْفَرِ » .

وقد رأيت في كل ما سبق كيف تشابكت جمل أبي العلاء ، وكيف كان للشرط فيها عمله الذي لا يغفل ، وكيف نادى بعضها البعض داخل القسم الواحد ، وكيف ينادي القسم الآخر ويرتبط به . وكأن أبا العلاء يصنع غابة من اللغة ليسكن بها أفكاره ، وإن كانت هذه الأفكار الشأن فيها أن تكون مألوفة كالذي نحن فيه الآن ، فالموضوع وهو الاعتذار، وإظهار تواضع المنزلة، كل هذا من الأفكار المطروحة ، التي يعرفها العربي والعجمي كما قال الجاحظ . ولكن أبا العلاء أدخلها في بيانه، وألقى عليها طبعه، وكأنه يقول لنا إن الأفكار مهما كانت شائعة فإن صاحب الطبع قادر على أن يجعلها حاملة أدق طباعه، وأخفى وسائله، فيكسبها شوبَ نفسه وسريرتها، ويلبسها ما يشاء من غموض، وعمق، وفن، وخيال . يجعلك أمام

مستحيلات ، يجعلك أمام أرض تنبت الوشي، وسحاب يمطر المدام ، وغربان تبشر، وأخرى تُدعى للمنادمة فتتأبى ، وأمام عروس افتضحت ليلة الهداء ، بعد أن بولغ في وصفها ، فوجدت على النقيض ، وأمام حمامة مطوقة حلل شجنها كما حلل نعمتها ، فنسيت معه ومع صورته أن كلامه لم يتم ، وأنك فقط تسبح مع هذه الصورة بين مبتدأ لم يلحم بخبره بعد !!

هذا إذا ما أضفت إليه تصرفه العجيب في معانيها ذاتها، وحركة ذهنه بين هذه المعاني، وتلك القفزات التي أحدثها في معناه ، فكأنه يخطو الخطوة ثم يعود عنها، وكأن معانيه حلقات اتصلت بحلقات . وأنت ما لم تدرك هذه القفزات والعود عنها، استسلمت وانقدت للتفصيلات، والمعاني الجزئية، والأخيلة العلائية، والتنميق من جناس، وموسيقى، وتوقيع، وأمثال متتالية، لا تدري ما الذي جعلها في قران واحد، بله أن تكون في موضع جملة واحدة . هذه الأفخاخ التي يضعها بين عينيك، وفي درب فهمك، فتلهيك عن مراده، فلا تعد تعلم ماذا يريد؟! أو حتى ماذا يقول؟! حتى تعود وتتحقق، وتبحث، وتتأمل . فتكون ثمرة الفهم بعد أن يكون الرجل قد أعطاك من اللغة، وخباياها، وغريبها، وأمثالها، ووهبك من سحرها الكثير . فالقربان الذي ينبغي أن تقدّمه لتفهم لغة أبي العلاء هو العلم بجماليات هذه اللغة الغائبة !!

ثم لنا أن نتساءل هل هذه الحركة منه في معانيه من قبيل الاستطراد؟! ولكن كل ما انتقل إليه أبو العلاء في هذه الرسالة جزء لا يتجزأ من معناه الأم ، وهو الاعتذار !! فهل هو إيهام استطراد؟! ولكنه لا يشبهه ، وإن كان فيه شوب منه ، فأنت هنا مع ضرب آخر فيه من طبيعة عقل الرجل الكثير ، فهو لا ينتقل إلى فكرة أخرى من معناه بسبيل ، إنما هو يُفَجِرٍ معانٍ في خبيء هذه الفكرة ، وليس ذاك فحسب بل هو يخطر بين أفكاره ، ويتحول من هذه لتلك ليعود ، ثم يفجر أخرى فينتقل إليها ، ومنها بين سوابقها .

ونضيف إلى كل ما سبق قدرته العجيبة على مطل معانيه ، وانباتها ، واستنباتها. وإذا أردت أن تقف على ذلك فتأمل هذا ، فقد كانَ من الممكن أن تكون الرسالة على هذا الشكل إذا ما جردناها إلى معانيها الأصلية « سيدي إنه ليس بإمكاني لما علمت من شأن محبسي أن أفارق داري ، رغم كوني بالغ الشوق إلى حضرتكم ، ولكن محبسي هذا كان لعلة لازمة تسقط الفرض الواجب ، ثم إن ما بلغكم عني من أمور من شأنها أن ترغبكم في صقبي واستصفائي ، فإنها قد بولغ

فيها ، وأعطيت فوق حقي وقدري ، فأنا لا أستحق شرف هذه المنادمة » .

فعد إلى الرسالة وانظر أي مطل وطول حدث بها !! وهذا يعود إلى أنه كلما هم المعنى بالانتهاء نفث فيه أبو العلاء من روحه ، وطبعه ، فبعث فيه ما يمده ويمطله . وهو في هذا بين ثلاثة أمور على الأغلب : إما أن تراه محللاً مستقصياً لشوارد فكرته وجوانبها ، أو ملحًا عليها إلحاحًا يريد به أن يرسخ لها ويبلغ بها الغاية ، أو تراه قد عَبَر بها معبراً إلى آخر ليس منها ، وإن كان عقله قد استطاع أن يجعله من لحمتها ، فتجد من خياله مسوغًا ومبرراً لهذا الانتقال .

وهذا الذي ذكرت وما سبق إن كان منه سجية طبع فهي تشير أولاً : بأننا -كما أسلفنا- لسنا أمام عقل نمطي . وأيضًا أننا أمام عقل قوي يملك زمام لغته فيجول خلال أفكاره جولة فارس جسور قادر على أن يفعل ما يشاء ، وأن يكسر كل القيود . ثم أننا أمام نفس حساسة مرهفة الحس لفرط شفافيتها لا تصف لك دقائق معانيها إلا في نهاياتها ، فتعبر عنها تعبيراً يبلغ بها الغاية ، فترى منه ذلك التحليل ، والتدقيق ، والإلحاح ، والمبالغة . ثم أنت أمام نفس ذات كبرياء يمنعها من أن تلقي معانيها غفلاً متكشفة يلتقطها كل من سنحت له ، وأن تعبر عن معاناتها تعبيراً ساذجًا بسيطًا .

وأخيراً أنت أمام رجل يحب أن يسخر ، ويعبث ، وأن ينحرف عن الجادة ليحرفك عنها بدورك ، وأمام كاتب يحرص على أن يُودع سر نفسه فيما يكتب ، وربما كان من سر نفسه ألا نعرف سر نفسه .

ومن سر نفسه هذا النقد اللاذع لهذه المفارقة الشاسعة بين الواقع وما يقال، وأن اللغة في أفواه الناس كأنها انخلعت عن واقع حياتهم ، وصارت تعبيراً عن خيالاتهم ، حتى وصفت الأشياء بما يضاد طباعها ، وطُيِّر ذكر الخاملين ، وأُهمل أهل الجادة . ووصفت اللغة عالمًا مسحوراً ، وعاش الناس في أوهام ، وانحرفوا عن مخاطبة الواقع ، وحوار الصدق ، والوفاء بما يقتضيه العقل والمنطق .

وكأن أبا العلاء من خلال الرسالة يدعو إلى ضرورة تغيير الخطاب اللغوي، وضرورة ربطه بالصدق والحق ، وضرورة أن تعايش اللغة الواقع ، وأن تسمى الأشياء بأسمائها .

الفصل السادس

حذو البناء في المعاني والأساليب

غايتنا في هذا الفصل أن نبين هل كانت رسائل أبي العلاء تأخذ في ترتيب معانيها ومضامينها سمتًا واحدًا أو متقاربًا ؟ أم أن كل رسالة كأنها سمت بنفسه وطريق برأسه ؟ ، ثم نبين ما جرى عليه كلامه في كثير منه من اتخاذ حذو واحد ، وطريق واحد في بناء المعاني ، وبناء الجمل .

وقبل الخوض في هذا أُصَنِّفُ رسائل أبي العلاء على حسب مقاصدها ؛ حتى يتهيأ لنا أن ننظر في الرسائل ذات الموضوع الواحد، ونبين ما بينها من تقارب أو تباعد في ترتيب معانيها ، وهل كان لها نظام يشملها مع وحدة موضوعها أم لا ؟

فمن مراجعتنا لرسائل أبي العلاء الإخوانية نراها تصنف على هذا الوجه :

أولاً : رسائل للمعارف والأصدقاء :

وهي (الرسالة التي بعث بها إلى رجل قيل إن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري ، والرسالة التي بعث بها إلى رجل كانت له عند رجل مئة وأربعة وستون درهمًا ونصف سأله أن يشتري بها فرسًا ، والرسالة التي بعث بها إلى أهل معرة النعمان مقدمه من بغداد ولم يصل إليهم، ورسالته إلى بعض العلوية ، ورسالته إلى أبي عمرو الاستراباذي في أمر شرح السيرافي ، ورسالته إلى أبي بكر الصابوني ، ورسالته إلى أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الدولة ، ورسالته إلى أبي منصور خازن دار العلم ببغداد ، ورسالته إلى أبي الحسن عبد المنعم بن سنان جوابًا عن كتابه في أمر أبي الحسن محمد بن سعيد بن سنان ، ورسالته لأبي منصور محمد بن سختكين ، ورسالته إلى بعض الشعراء ، وكتابه إلى القاضي أبي الطيب طاهر ، وكلامه من جملة الجواب الذي ذكر السؤال عنه عُرام ، ورسالته لأبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري ، ورسالته ردًا على رقعة كتبها رجل في حال عدل من عدول القاضي ترك الشهادة واستعفى منها ، ورسالة تهنئة بمولود ، ورسالته جوابًا عن كتاب لأبي الحسن محمد بن سعيد بن سنان لما جاءه كتابه في أمر كليلة ودمنة وما تقدم به السلطان من اختصار أمثاله ، ورسالته إلى قاضٍ صديق ، والرسالة التي بعث بها إلى أبي القاسم جعفر بن أبي العود ، والرسائل الرابعة والثلاثون ، والخامسة والثلاثون ، والسابعة والثلاثون ، والثامنة والثلاثون ، والتاسعة والثلاثون ، والثانية والأربعون من نسخة عبد الكريم خليفة ولا نعلم لمن بعثها ..) .

ثانياً : رسائل لذوي السلطان :

وهي (رسالة المنيح للوزير أبي القاسم المغربي ، ورسالة الإغريض له أيضاً عندما بعث لأبي العلاء بمختصره لإصلاح المنطق ، والرسالة التي بعث بها إلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يعرف بالحسين بن عنبسة بن عبدالله ، والرسالة التي بعث بها إليه لينقصه في ترتيب المكاتبة ، ورسالته إلى أبي القاسم المغربي جواباً عن فصل كتبه إليه ، والرسالة التي بعث بها إلى أبي نصر الفلاحي لما استدناه للأمير عزيز الدولة ، والرسالة التي يتوسط بها لمحبوس يريد إطلاق سراحه ، ويبدو أنها لقاضٍ أو صاحب سلطة ، وهي الرسالة الثانية والثلاثون من نسخة عبد الكريم خليفة ، والرقعة التي كتبها إلى قاضٍ ، والرقعة التي بعث بها إلى الشيخ الفاضل أبي الحسن بن سنان ، ورسالته إلى رجل قائم بأمر الديوان ، ورسالته لأحد أولياء السلطان عنايةً برجل يُدعى منير بن الحسن ، ورسالته في الشفاعة للأخرسين ، ورسالة الهناء التي بعث بها تهنئة لأحد أولياء السلطان بقدوم ضيفه حليف الجلالة ، ورسالتيه للمؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي ، والرسالة الثانية والأربعون من نسخة عبد الكريم خليفة ولا نعلم لمن بعثها، ويبدو أنها لصاحب سلطة ..) .

ثالثاً : رسائل لذوي الأرحام :

وهي (الرسالة التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد ، والرسالة التي بعث بها إلى خاله وهو ببغداد يذكر له أمر شرح السيرافي وما جرى فيه من التعب ، والرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي طاهر وكان قدم من العراق فأصابته طعنة أضرت به بعض الأضرار، والرسالة التي بعث بها إليه في بعض أوباته من العراق ، والرسالة التي بعث بها إليه وقد بلغه أنه قد عزم على المسير إلى الفسطاط على غير طريق معرة النعمان ، والرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي القاسم جواباً عن كتابه في أمر الشيخ أبي الحسن محمد بن سعيد بن سنان ، والرسالة التي بعث بها إلى خاله في شأن عجوز كانت تخدمه ، والرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي القاسم يعزيه في أخيه أبي بكر وكان قد توفي بدمشق ..) .

وهذا ترتيبها على حسب الكثرة ، لأن كثرتها عندنا من الأهمية بمكان لأنها جزء واسع من موضوع الدرس .

وقد ألحقت برسائله لمعارفه وأصدقائه الرسالة التي بعث بها إلى أبي الحسن عبد المنعم بن سنان ، والرسالة التي بعث بها إلى أبي الحسن محمد بن سعيد بن سنان ، وكلاهما من ذوي السلطان ، ولكن أبا العلاء يخاطبهما فيهما بصفتهما صديقين ، ويجيب الأول على حاجة طلبها منه ، والثاني على كتاب بعثه إليه ، بالإضافة إلى الرسالة التي بعث بها إلى قاضٍ صديق ، والرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي الطيب طاهر ، وكلاهما قاضٍ كما ترى ، ولكنه يخاطبهما بصفتهما صديقين ويرد على كتبهما إليه .

وقد حاولت أن أتلمس ترتيب أبي العلاء لمعانيه في هذه الرسائل، فلم أجد له نظامًا واحدًا يشملها في الترتيب ، وهي غالبًا ما تفتتح إما بالحديث عن الشوق، أو الحمد والصلاة، أو الدعاء للمرسل إليه، على اختلاف بين هذه الثلاثة في الترتيب، وقد تظهر مجتمعة في مفتتح الرسالة، وقد يقتصر على بعضها أو ربما أحدها، فتراه مثلاً بدأ بالحمد، ثم ثنى بالدعاء للمرسل إليه، ثم أعقبهما بصفة شوقه في رسالته لأبي بكر الصابوني ، وتراه يبدأ بالدعاء ، ثم يثني بالحمد والصلاة رسالته لخاله مطلعه من بغداد ، وتراه يبدأ بالحمد والصلاة، ثم الشوق والتشوف للأخبار في رسالته لخاله وهو ببغداد يذكر له أمر شرح السيرافي وما جرى فيه من التعب ، ويبدأ بالشوق، ثم يثني بالدعاء للمرسل إليه في رسالته إلى أبي منصور خازن دار العلم ببغداد، وله في تصرفه في هذه المعاني الثلاث صورٌ شتى لا يكاد يتكرر الترتيب منها إلا المرة أو المرتين على الأغلب .

وقد يعرض أبو العلاء صفحًا عن هذه المعاني، ويفتتح رسائله بمعانٍ أخرى. وقد كان هذا الذي أشرت إليه من ترتيب فيما قبل هو السمت الغالب على رسائله لذوي أرحامه وهم أخواله ، فلم يأت منها مخالفًا لهذا الحذو غير باديءٍ بهذه المعاني سوى رسالة واحدة فقط، وهي الرسالة التي بعث بها إلى خاله أبي طاهر بن سبيكة وكان قدم من العراق فأصابته طعنة في بنانه أضرت به بعض الأضرار، فلم تبدأ بتلك المعاني ، وشُغل أبو العلاء في مفتتحها بالحديث عن سلامة خاله وسروره بها .

ثم ترى هذا السمت غالبًا أيضًا على رسائله لمعارفه وأصدقائه ، فلم يترك هذا الحذو إلا في سبع رسائل من أصل ستة وعشرين رسالة ، وهي (الرسالة التي

بعث بها إلى رجل قيل إن الأسد أكله بعد أن غدر به المكاري ، والرسالة التي بعث بها إلى بعض العلوية ، والرسالة التي بعث بها جواباً عن رقعة كتبها رجل في حال عدل من عدول القاضي ترك الشهادة واستعفى منها ، والرسالة التي بعث بها إلى قاض صديق، والرسائل التاسعة والعشرون ، والثامنة والثلاثون ، والثانية والأربعون من نسخة عبد الكريم خليفة ولا نعلم لمن بعثها) .

ثم ترى أغلب ما شذ عن هذا الحذو يظهر في رسائله لذوي السلطان في إحدى عشرة رسالة منها؛ لذا سوف أذكر هنا ما أتى منها على هذا الحذو فقط وهي (كتابه الذي بعث به إلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يدعى بالحسين بن عنبسة ، كتابه إليه لينقصه في ترتيب المكاتبة، رسالة الإغريض للوزير أبي القاسم المغربي ، رسالته لأحد أولياء السلطان عنايةً برجل اسمه منير بن الحسن ، رسالته الثانية لداعي الدعاة الفاطمي) .

وقد نضيف إلى ذلك الترتيب الذي يتبعه في مفتتح رسائله أمرًا آخرًا ، وهو أنه كثيرًا إذا ما وصف شوقه أتبعه بدعاء بالاجتماع ، وفيما عدا هذا فأنت لا تجد لترتيبه لمعانيه في رسائله الإخوانية المختلفة حذوًا واحدًا أو سمتًا يجمعها ، ولكي تقف على ذلك بنفسك تأمل الرسالتين الثالثة والرابعة من نسخة عبد الكريم خليفة، وهما لنفس الرجل ، وتقريبًا في ذات الموضوع ، ورغم ذاك تراه لم يتبع في ترتيبه لمعانيه فيهما حذوًا واحدًا غير ما جرى عليه في مقدمتهما بالافتتاح بالدعاء ، ثم الحمد والصلاة ، ثم صفة الشوق . فالرسالة الثالثة هي التي بعث بها إلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يُعرف بالحسين بن عنبسة بن عبدالله ، والرابعة يبدو أنها له أيضًا ، وفي ذات الموضوع متشكرًا ، حيث يبدو منها أن شفاعته فيه قد أجيبت[1] ، يقول في الرابعة « ولم أكتب في أمر أبي فلان إلا متشكرًا ، ثم ثنيت باسترفاد المعونة مذكرًا » ، وهذا ما فعله في الثالثة .

وهو يبدأ رسالته الثالثة بالدعاء للمرسل إليه كما أسلفنا ، ثم وفي عجالة يشكر ، ويعتذر عن التقصير ، ويثني بالحمد والصلاة ، ثم يصف شوقه ويشبهه بشوق حمامة ، ثم اعتذار عن التقصير في المكاتبة ، ثم عود لصفة الشوق ، ثم ثناء

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٢٧/١ .

على الرجل ، ثم عود لوصف الشوق ، والتلهف على سماع الأخبار ، وما هو من الشوق بسبيل ، ثم عودٌ للثناء ، وهو هنا ثناء عام خالص لأن الأول قد مزج بذكره للشوق ، ثم ثناء خاص على صنيعته ، ثم وصف لكتب الرجل إليه ، ثم عود للثناء مازجاً ذلك بوصف صنيعته وأثرها الجميل في أهل صاحبه ، ثم بيان منزلة هذا الصاحب الذي يشفع له من نفسه ، ثم عود للاعتذار عن التقصير به تصريح بالعجز ، ثم أخيراً الطلب والشفاعة ممزوجًا بها الثناء .

أما في رسالته الرابعة فهو يبدأ كهذه بالدعاء بطول البقاء ، ثم يعقبها بوصف سريعٍ لوده ، ثم حمد وصلاة، ثم صفة شوق لا تطول ، ثم وصف لكتابه لا يطول أيضًا، ثم الحديث عن فرحه بخبر سلامته ، ثم حديث غامض عن تأخير الجواب (لأنه يضعه في قالب من الأمثال) ويبدو أنه من قبيل الاعتذار ، ثم ثناء ، ثم ثناء ممزوج بشكر وتعداد لصنائعه ، ثم مطالبة بإجرائه على قدره في المكاتبة تطول وفيها قدر من التواضع مقرون بثناء ، ثم السلام .

فأنت كما ترى من استعراضنا لمعاني الرسالتين ، فإنه وإن كانت معانيهما تشترك، وتتحد أحيانًا في طريقة تأتيه لها=إلا أنه رغم ذاك لا يجمعها حذو واحد في الترتيب ، أعني نظامًا واحداً ومذهبًا واحداً ، وكذلك الحال مع بقية الرسائل فلو استعرضنا معانيه في رسالته الثلاثين التي بعث بها إلى خاله يعزيه بخاله الآخر لوجدت أن الترتيب مضى فيها على غير هذا النظام ، حيث يبدؤها بالثناء ثم ذكر الشوق ، ثم دعاء لخاله، ثم محاولة تسلية وتذكير بأن الموت سنة هذه الحياة ، ثم وصفٌ للدنيا، ثم عود لحقيقة كون الموت سنة هذه الحياة فيدور بها ، بهذه الحقيقة على الأنبياء بدءًا بآدم عليه السلام ، ثم الملوك الذين بادوا عربًا وفرسًا ، ثم الكرام من الناس ، ثم الكائنات من سباع ووحوش وغيرها حتى الحشرات والأفاعي ، ثم يدع هذا ويبدأ في دعاء لخاله المتوفى بالأجر والمثوبة متمنيًا كونه في الجنة ، ثم يتحدث عن خاله المُعزَّى ، ثم دعاء له ، ثم اعتذار عن تأخير كتابه ، ثم عود للدعاء لخاله ، وهو ختام رسالته .

ولو استعرضنا باقي رسائله لوجدت الترتيب في بناء معانيها ماضيًا على غير هذا الحذو وهذا النظام ، ولا يكاد يجمعها سوى ما ذكرته لك آنفًا من ترتيب معانيه

في مفتتح الرسالة . وهذا إذا دققت النظر يرجع إلى قوة نحيزة وعقل أبي العلاء؛ لأنه كأنه جعل كل رسالة من رسائله خلقًا مغايرًا ، وشخصية مغايرة ، فهو رجل يحب أن يعطي عطاءً متنوعًا ، وهذا سمت العقل الرائع ، ينوع في عطائه ، ولا يأخذ سمتًا واحدًا ، وأخذ السمت الواحد ربما كان يكون فيه ضرب من الاسترواح، وضرب من الإلف ، والاعتياد ، والعقل اليقظ قلما يركن إلى المألوف المعتاد . ونحن إذ نقول هذا لا بد وأن نلفت إلى أن الشأن هنا غير الشأن في اتخاذ الحذو الواحد في بناء الأساليب البيانية ، فالسمت الواحد في ترتيب المعاني غير السمت الواحد في بناء الأساليب ؛ لأن السمت في ترتيب المعاني إلف واعتياد وركون إليهما ، أما سمت البناء فهو حركة عقل ؛ لأنك عندما تصنع الجملة الثانية على حذو الأولى لا بد وأن تفكر في ترتيبها ، وألفاظها ، وأن تتخير المعنى ، واللفظ ، والاشتقاق ، حتى تأتي على نفس الحذو . لذلك ترى أن أبا العلاء يميل غالبًا إلى أن يجعل في بيانه أنماطًا متشابهة في الأسلوب ، فبناؤه لأسلوبه يداخله ضرب من تثقيف النغم، وصقل الكلام ، حتى ترى الجملتين المتتاليتين وقد بنيتا على طريقة واحدة في اختيار الكلمات ، وفي أوزانها في أحيانٍ كثيرة ، بل قد يتجاوز ذلك إلى التوافق في حركات إعرابها . وهذا التشابه في طريقة البناء هو ما نطلق عليه الحذو الواحد ، أو السمت الواحد ، ونريد به أن يكون الكلام ذا شكل واحدٍ في البناء ، وهذا مما أشار إليه الشيخ عبد القاهر(١) . فتجد جمل أبي العلاء تتقارب وتتشابه مما يجعلها تأخذ سمتًا واحدًا ، أو سمتًا قريبًا ، وهذا هو قسيم درسنا لحذو ترتيب المعاني في هذا الفصل .

وقد كان هذا السمت ظاهرًا في رسائل كثيرة مما درسناه في الفصول السابقة ، ولكننا درسنا النصوص هناك لغاية غير هذه ، من أجل أن نتبين الأمثال، أو طريقته في الجناس أو غير ذلك ، فلم نعنى لموضوع السمت ، ولم نشر إليه إشارة واضحة . وسوف نحاول في هذا الفصل استعراض بعض نماذجه ، ودراستها ، وإن كان بعضها قد دُرس من قبل في مباحث أخرى .

فمن ذلك مثلاً ما تراه في رسالته التي بعث بها إلى أحد أولياء السلطان

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٤٦٨ .

يشفع في صديق له يُدعى الحسين بن عنبسة الآنفـة الـذكر ، يقول في مفتتحها[1] «كِتَابي أَطَالَ اللّهُ بَقَاءَ سَيِّدي الأُسْتَاذ، مالِكًا خَزَائِمَ[2] الأُمُورِ، وَاطِئًا أَعْنَاقَ الدُّهُورِ ».

فالذي بين « مالكًا خزائم الأمور »، وقوله « واطئًا أعناق الدهور » من تشابه في البناء، هو الحذو الذي نتحدث عنه، حيث تبدآن بحالٍ هي اسم فاعل ، يليها مفعول به مضاف، ثم كلمة مضافة إليه معرفة بأل .

ومن ذلك أيضًا قوله منها يصف شوقه، ويشبهه بشوق حمامة ويفضله عليه[3] « ما ذَاتُ طَوْقٍ لا تَنْزَعُهُ ... بِأَشْوَقَ إلى هَدِيلِها[4] مِنِّي إلى مُشَاهَدَتِهِ ، ولا أَسَفَ على خَلِيلِها مِنْ قَلْبِي على فَائِتِ خِدْمَتِهِ » حيث تبدآن بأفعل التفضيل (أشوق ، آسف)، يليه شبه جملة (إلى هديلها ، على خليلها)،ثم شبه جملة أخرى تبدأ بمن (مني ، من قلبي)، ثم جار ومجرور آخرين (إلى مشاهدته ، على فائت خدمته). وترى هنا لمحًا من الاختلاف بينهما في كونه بدلاً من الضمير في الأولى أتى باسم ظاهر في الثانية (مني ، من قلبي) ، وأنه أتى أيضًا بعد حرف الجر الأخير بكلمة في الأولى، وكلمتين في الثانية (إلى مشاهدته ، على فائت خدمته) .

ومن ذلك أيضًا قوله منها في سياق حديثه عن معرفة الرجل له، واشتهاره بها، وعدم قدرته على كتمانها[5] « وكَيْفَ يَسْتَسِرُّ من قَادَ البَازِلَ[6] ، ويَسْتَتِرُ من طَوَى المَنازِلَ [7] » .

وقد تشابه حذو الجملتين هنا حيث يبدأهما بالفعل المضارع ، يليه اسم موصول (من)، ثم فعل ماضٍ ، ثم مفعول به معرف بالألف واللام . وأنت ترى ما بين (يستسر ، ويستتر) من جناس لاحق وتقارب وزن السجعتين، واتفاقهما في ثلاثة أحرف (البازل ، والمنازل)، وهذا يُضاف إلى ما بين الجملتين من تشابه في

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٢٨ .

(٢) خزائم : جمع خزامة، وهي حلقة من الشعر تجعل في وترة أنف البعير يشد فيها الزمام ، استعارها هنا للأمور .

(٣) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٢٩ – ١٣٠ .

(٤) هديلها : ذكرها .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٣٦.

(٦) يستسر : أي يختفي ، البازل : من بزل نابه من الإبل . وهو من المثل (أشهر ممن قاد الجمل) .

(٧) طوى المنازل : أي قطعها .

الحذو . وقد تتوالى أجزاء الجمل والجمل في كلامه كل اثنتين منها تشترك في حذو واحد، من ذلك مثلاً قوله من هذه الرسالة يعلل إطالته في الثناء على الرجل[1]: « وغيرُ مَلومٍ من عَشِقَ الثَّناءَ ، لأنَّه أحْسَنُ حَبِيبٍ مَزُورٍ ، وأبْقَى مُنْفِسٍ مَذْخُورٍ [2]، وأوْفَاكَ مُثْنٍ مَا أَسْدَيتَ ، وجَزَاكَ مُعْتَرِفُ الذي أوْلَيْتَ [3] » .

فقوله « أحسن حبيب مزور » وقوله « أبقى منفس مذخور » حذو واحد ، فكلاهما بدأ بأفعل التفضيل ، ثم مضاف إليه نكرة، ثم صفة على وزن مفعول . ثم ترى جملتي « أوفاك مثن ما أسديت »، و « جزاك معترف الذي أوليت » لهما نفس السمت، إلا أنه قد عدل أن يكرر الاسم الموصول فيهما فجعله في الأولى (ما)، وفي الثانية (الذي) ليكسر من رتابة النغم .

وشبيه به في سياق تكثر فيه قوالب صغيرة متشابهة لها حذو واحد، ثم تليها جمل كاملة ذات حذو واحد، ثم عودٌ لتلك القوالب المتشابهة، وكأنها استرواح من الحذو الواحد الكامل بين الجمل، ثم عودٌ إليه من جديد .. تأمل هذا النص من هذه الرسالة والذي يصف فيه منزلة الرجل –الذي يشفع له– من نفسه[4] « فَأَنَا أَطَالَ اللَّهُ بقَاءَ سَيِّدي وهذَا الرَّجُلَ فَرْعَا سَمُرَةٍ [5]، وقَضِيبا أَرَاكَةٍ، وطَائِرَا وَكْرٍ، وأَلِفَا وَادٍ، (ثم يظهر الحذو الواحد على مستوى الجملة الكاملة) تَنْصُرُنَا الغَمَامَةُ الوَاحِدَةُ ، وتُضِيءُ لنا اللَّمْعَةُ الفَارِدَةُ [6]، بل نَزِيدُ عَلَى هذا التَّمْثِيلِ فَنَكُونُ (وهنا يعود إلى القوالب الصغيرة المتشابهة) بَنَانَيْ يَدٍ ، ورِيشَتَيْ جَنَاحٍ ، وشُعْبَتَيْ غُصْنٍ ، (ثم تظهر جملتين ذات حذو واحد) إِذَا أَمَالَهُ النَّسِيمُ مِلْتُ ، وإن اعْتَدَلَ له اعْتَدَلْتُ ، (ثم عودٌ إلى الحذو الواحد على مستوى أجزاءٍ من الجملة ، ولكنه في هذا أظهر من تلك التي في بداية هذا المقطع) فلساني يَنْطِقُ عن ضَمِيره نُطْقَ المِزْمَارِ عن فَمِ القَاصِبَةِ[7] ، والأوْتَارِ عن أَنَامِلِ الضَّارِبَةِ » .

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٤٤ .

(٢) منفس : ثمين ، مذخور : مخبأ لوقت الحاجة .

(٣) أوفاك : من أوفى فلان حقه أي أعطاه إياه وافيًا ، والمثني : المادح ، وأسديت : أحسنت ، والجزاء : المكافأة ، وهي مقابلة نعمة بنعمة ، المعترف : المقر بالشيء ، وأوليت : أي ما صنعت من المعروف .

(٤) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٤٥ .

(٥) السمرة : شجرة العضاة .

(٦) تنصرنا : أي تعمنا بوجودها ، والفاردة : أي المنفردة .

(٧) القاصبة : النافخة في قصب المزمار للترنم بصوته .

ونحن لا ندعي أننا بهذا قد أتينا على كل ما ظهر في الرسالة من حذو واحد في البناء ، ولكن تخيرنا من ذلك ما فيه دلالة على ما تركناه . ولو حاولنا تلمسه في رسالة أخرى كالمنيح فسوف تجد له أمثلة كثيرة تخيرنا بعضاً منها من ذلك قوله واصفًا كتاب الرجل إلى أهل المعرة [1]« أُجِلَّ عن التَّقْبِيلِ فَظِلاَلُهُ الـمُقَبَّلَة ، ونُزِّهَ أن يُبْتَذَلَ فَنُسَخُهُ الـمُبْتَذَلَة » .

فتراه قد بدأهما بفعل ماضٍ مبني للمجهول ، يتلوه جار ومجرور في الأولى، وأن ومعمولها في الثانية . ثم يعطف بالفاء كلمة اتصل بها ضمير الغيبة العائد على الكتاب ، ثم يتبعها بخبر ، والخبر وصف في المعنى على وزن اسم المفعول . تأمل هذا التشابه في البناء هنا ، وما نتج عنه من تشابه في المعنى هو مراد أبي العلاء، فالجملة التي بعد الفاء في الموضعين جملة معرفة الطرفين، تفيد معنى الاختصاص، والمعنى بذلك واحد في الموضعين ؛ لأنه أراد في الأولى أن الظلال هي المقبلة لا هو ؛ لأنه أجل عن التقبيل ، وفي الثانية أن النسخ هي المبتذلة لا هو ؛ لأنه نزه عن أن يبتذل ، والجملتان تخلصان للدلالة على هذا الإجلال الذي عومل به كتاب الوزير .

فهذا التشابه في البناء في أدب شيخ المعرة إنما هو راجع إلى أمر معنوي وليس صقلاً للنغم فحسب، وإن كان صقل النغم فيه ظاهرًا ، وهذا الأمر المعنوي هو الإشارة إلى تشابه المعاني ، لأن التشابه في سبك الكلام ورصفه ، إنما هو من التشابه في معانيه ، وهو داخل في الباب الجليل الذي فتحه أبو الفتح بن جني، وأهمل أهل الأدب النظر فيه ، وهو ما سماه أبو الفتح « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » ، وإن كان أبو الفتح عنى بالتصاقب في مباني الكلمات المفردة ، فإن هذا التصاقب ولا شك ينسحب على التراكيب لأن أصول الدلالات في هذه اللغة متشابهة جدًا .

وتأمل قوله منها أيضًا يصف بلاغة أهل المعرة بإزاء بلاغة الوزير[2] « فَوَجَد في وَطَنِهِ أَشْبَاحَ أَوْزَانٍ تُتَخَيَّلُ ، وأَنْقَاءَ أَذْهَانٍ تَتَهَيَّلُ [3] » وشبيه به قوله أيضًا

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٣ .

(٢) السابق ، ص ١٦١ .

(٣) أنقاء : جمع نقا وهو كثيب الرمل ، تتهيل : تهيل من هنا ومن هنا، وهو هنا يشبه انتاج أهل ==

يصف بلاغة الوزير في شعره[1]« إنْ تَغَزَّلَ فَحَنِينُ العُودِ، أو تَجَزَّلَ[2] فَهَدِيرُ الرُّعُودِ»، وهنا كما ترى لم يتوقف التشاكل بين العبارتين على البناء فقط ، بل تجاوزه لتكون كل كلمة في الأولى موافقة في وزنها الكلمة التي تقابلها في الثانية ، وتكاد تقابلها في المعنى أيضًا .

وشبيه بهما أيضًا قوله من نفس الرسالة[3] « وإِنْ كَانَ في وَانِيَةِ آدَابِنَا بقِـيَّةُ إِرْقَالٍ ، وَلآنِيـةِ أَفْهَامِنَا خَفِيَّةُ صِقَالٍ [4] » ، فترى كيف يتجاوز التشاكل هنا التشابه في التركيب والبناء ، ليكون تشاكلاً في الأوزان كسابقَيْه ، وقد يبلغ في بعضها إلى أن يكون جناسًا لاحقًا بين (وانية ، وآنية)، وفي البعض الآخر إلى شيء يقرب من الجناس وليس هو (إرقال ، وصقال / وخفية ، وبقية) .

وهذا الذي تراه سنن علائي يبثه في تضاعيف رسائله كلها . وليس في هاتين الرسالتين فقط ، وقد يعلو حتى يصبح بمنزلة هذا الأخير ، وقد يهبط فيكون تشابهًا في بناء بعض أجزاء الجملة مع اتفاق السجعة ، وقد يكون بين بين ، مثل الأمثلة السابقة لهذه الثلاث الأخيرة ، فيجمع مع التشابه في التركيب تشابهًا في بعض الأوزان دون بعض وهكذا ..

فيقول مثلاً من الرسالة التي بعث بها لأبي منصور محمد بن سختكين متحدثًا عن بغداد[5] : « لأَنَّ غَابِرَ العِلْمِ بِهـا غَرِيضٌ[6] ، وصَحِيحَ الأَدَبِ فـي سِوَاهَا مَرِيضٌ »، ويقول منها أيضًا[7] : « لَوْ كَانَ قَلَمُهُ حَاتِمًا فـي الجُودِ لأَمْسَـكَ ، أو عَمْرًا

= المعرة وعقولهم بالشيء الذي يتوسم ولا حقيقة محددة له ، كما كان شأن ما ألقاه سحرة فرعون ، إذ أن هذه الصورة تأتي في سياق تشبيه قصائد ابن المغربي بعصا موسى التي سوف تلقف ما يأفكون (أشباحًا ، وأنقاء) .

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ١٦١/١ .

(٢) تجزل : أي اختار الأسلوب الجزل .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاءالمعري ، ١٦٢/١ .

(٤) الوانية : المبطئة من التعب ، إرقال : ضرب من السير ، الآنية : جمع إناء وهو الوعاء ، وهو يُشَبِّه آدابهم بالمبطئة من الدواب ، وأفهامهم بالأواني التي طال عليها الزمان ، ويتساءل هل تبقى لهم أمل في مسير، أو صقال ، وإن كان ذلك فسوف ينتفعون بالوزير وبلاغته .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٢٦/٢ .

(٦) غابر : أي باقي ، غريض : طري .

(٧) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٣٢٧/٢ .

في الشَّجَاعَةِ لَمَلَّ مما فَتَكَ (١) » .

ومن ذلك قوله من الرسالة التي بعث بها إلى صديق له يسأله أن ينقصه في ترتيب المكاتبة(٢) « فَـإِذَا أُعْطِيَـتِ القَوْسُ بَارِيهَـا ، والخَيْلُ فَوَارِسَـهَا ، والقَنَاةُ مُصَرِّفَهَا(٣) ، دَحَضَتْ قَدَمُ البَاطِلِ بِثَبَاتِ الحَقِّ ، وزَالَـتْ حَنَادِسُ المَيْنِ بِإِشْرَاقِ شُمُوسِ الصِّدْقِ (٤)».

وقوله من رسالته التي بعث بها جوابًا لأبي الحسن محمد بن سنان لما جاءه كتابه في أمر كليلة ودمنة ، وما تقدم به السلطان من اختصار أمثاله(٥) : « وعَجِبْتُ مِن أَلْفَاظِه التي لَيْسَتْ مَسْجُوعَةً سَجْعَ الجَاهِلِيَّة ، ولا مَنْثُورَةً نَثْرَ كَلِمِ العَامَّةِ ، بل هي مَنْظُومَةٌ نَظْمَ اللُّؤْلُؤِ البَحْرِيِّ ، مُتَضَوِّعَةٌ تَضَوُّعَ نَسِيمِ الرَّوْضِ السَّحْرِيِّ » وأشباهه كثير .

وكل هذا يحدث توازنًا صوتيًا واضحًا في أسلوب أبي العلاء ولغته لا تغفله الأذن ، وهذا التوازن النغمي الصوتي والبياني الذي يتكشف عنه أسلوب أبي العلاء مرجعه إلى شاعريته ، ورغبته في خلق نغم في اللغة ، لغة النثر . فنحن نعلم أن أباالعلاء بدأ حياته شاعرًا كبيرًا ، وكتب سقط الزند ، ثم بعد ذلك وبسبب مما عقد العزم عليه من محبس ، آلى على نفسه في بداية الأمر ألا يقول شعرًا تورعًا ، فكان النثر بالنسبة إليه هو البديل المشروع للشعر ، وقد أشرنا إلى ذلك في أكثر من مناسبة ، لذلك ترى أبا العلاء يُدخل في الكتابة عناصر شعرية كثيرة منها اعتماده على الخيال ، وتناوله لموضوعات تُعورف أنها شعرية ، وهذا النغم الذي لا تفتأ تلتقطه من حنايا لغته في رسائله الإخوانية .

ثم إن هذا النغم لا يتوقف عندما ينشأ عن التشابه في حذو البناء ، تأمل قوله وهو يشبه شوقه بشوق حمامة من رسالته التي بعث بها إلى أحد أولياء السلطان

---

(١) حاتم : هو حاتم الطائي مضرب المثل في الكرم ، عمرًا : هو عمرو بن معدي كرب الزبيدي المشهور بالشجاعة .

(٢) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٥٦/١ – ١٥٧ .

(٣) باريها : ناحتها ، مصرفها : مقومها .. بمعنى إذا أوكل الأمر إلى أهله .

(٤) دحضت : زلقت ، حنادس : الظلام ، المين : الكذب .

(٥) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٦٤٤/٣ .

يشفع في صديق له يدعى الحسين بن عنبسة الأنفة الذكر، حيث يقول في صفة الحمامة[1] « جَاءَ الوَسْمِيُّ لَهَا فَأَرَنَّتْ ، وَبَكَتْ شَجْوَهَا لا تَغَنَّتْ[2] ، عَالِيةً نُؤَابَةَ فَنَنٍ غَضٍ [3]، فَهِيَ لا فِي السَّمَاءِ ولا في الأَرْضِ » .

هذا التوقيع الذي تلمسه في عبارته السابقة أساسه تساوي الجملتين في الطول؛ لأن النغم يتولد من المناسبات في المقادير، فهنا القضية ليست قضية تشابه بين تكوين الجملتين، إنما تقارب في الزمن الصوتي للجملتين، فهذا التقارب يحدث نغمًا متشابهًا، وما يزيد النغم هنا هو تكرار أبي العلاء لبعض العناصر الصوتية، أو الضمائر، أو بعض حروف التعدية، بالإضافة إلى السجع ، فتكرار هذا الضمير الممدود (لها ، شجوها) في الجملتين الأوليين أكسبهما مزيدَ نغم، بالإضافة إلى السجعة (أرنَّت ، تغنَّت)، وهذه النون المشددة وما فيها من غنة يحبس بعضها هذا التشديد، وتطلق بعضها تلك الحركة . ثم ترى تمام هذه الجملة والجملة التي تليها – أعني الحال في كلمة « عالية » وما عطف عليها – وقد تكرر فيهما حرف الفاء «فَنَنٍ ، فهي ، في السماء ، في الأرض » ، فأكسبهما النغم الذي ترى بالإضافة كذلك للسجعة (غض ، أرض) . وتساوي مقاطع كلامه في المقادير الزمنية وما ينشأ عن ذلك من نغم ورنين قيمة أساسية في بيان أبي العلاء ، هي أغلب على بيانه وأظهر من اتباع الحذو الواحد ، الذي يتعاوره في الرسالة الواحدة الظهور والخفوت ، وقد لا يظهر في بعض الرسائل .

ونحن لا ندعي أنه لا يوجد اختلاف في مقادير الجملتين ذات النغم الواحد، ولكن ما ندعيه هو ألا اختلاف يصدم الأذن فتجفو منه؛ لأن الأذن قد انطبع فيها مقدار صوتي للجملة الأولى، فتأتي الجملة الثانية بمقدار قريب منه، فتألف الأذن هذه النغمة . من ذلك تتمة قوله الماضي عن صفة الحمامة « تُكَرِّرُ القِيلَ ، وتَنْطِقُ الخَفِيفَ والثَّقِيلَ »، فلها نغم لا تغفله الأذن ، رغم عدم التساوي التام بينهما في المقدار ، وقد أردف النغم هنا نغم تكرار حرف القاف (القيل ، تنطق ، الثقيل) بالإضافة إلى توافق السجعتين توافقًا يتحول إلى جناس ناقص (القيل ، الثقيل).

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٢٩ – ١٣٠ .

(٢) الوسمي : مطر الربيع الأول ، أرنت : صاحت ، شجوها : همها وحزنها .

(٣) نؤابة : ذؤابة الشيء أعلاه ، الفنن الغض : الطري .

ودعنا نتأمل تكراره لهذه العناصر الصوتية، وما وراءه من مغزى غير قضية النغم ، إذ يكاد يتحول بدوره إلى خصوصية علائية وسمت دال في بيانه عليه . فتلك الفاءات الكثيرة مثلاً في قوله « عاليةً ذؤابة فنن غض ، فهي لا في السماء ولا في الأرض » تؤكد الفنن في هذه الجملة، وهو العنصر الذي ترتكز عليه الصورة فيها ، لأنه مقام ومستقر الحمامة الوادعة الآمنة قبل أن تفجعها النوب ، وكأن أباالعلاء يريد أن يعقد أسماعنا وعيوننا على هذا الفنن ، فقد رأينا الحرف الذي يتكرر جرسه في كلام صاحب البيان يرتبط بكلمة هي الأم في كلامه ومعناه ، وكأنه بتكراره له يشيع جرس هذه الكلمة الأم ومعناها في حنايا كلامه ، وفي نفس مخاطبه . لذلك فأنت في كل ما يلي من شواهد سوف ترى تكراره لعناصر صوتية تضيف إلى وظيفتها النغمية هذا المعنى الجليل ، حيث هي غالبًا ما تكون متصلة بالكلمة الأم في جملته التي يعقد كلامه عليها .

وأنت أينما يممت في بيان الرجل صادفتك هذه اللغة المنغمة الموقعة ، من ذلك مثلاً قوله من المنيح يصف توديع أبي القاسم للمعرة[1] « فَظَعَنَ وأَرَجُهُ مُقيم[2] ، وارْتَحَلَ وللثَّنَاءِ تَخْييم » ، وقد كرر هذا العنصر (أر) في قوله (أرجه ، وارتحل)، بالإضافة للسجع . وتأمل قوله منها أيضًا[3]« غَرَسَت السُّرورَ في سَرِيرَتي ، وعَلَّمَتِ النَّفَاسَةَ نَفْسِي [4] » ، ثم قوله « إلى أَنْ أُمْسِي خَبِيَّ الرَّامِسِ[5] ، ونَجِيَّ هِنْدِ الأحَامِسِ[6] » ، وتأمل حضور جرس السين في كل ما سبق ، ولا تغفل أن هذا كله متوالٍ في كلامه . وكذلك قوله من نفس المقطع « حتَّى عَاتَبْتُ الضَّمِيرَ ، والتَفَتُّ إلى السِّرِّ الخَمِير[7]» تأمل مواقع التاء والحاء التي هي أخت العين « حتى عاتبت » ،

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٤ .

(٢) ظعن : سار ، أرجه : ريحه الطيبة .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧٤ .

(٤) سريرتي : أي داخلي ، النفاسة : عزة النفس .

(٥) الرامس : من رمس الشيء إذا دفنه ، أي إلى أن أمسي مستورًا في قبري .

(٦) يُقال : لقي فلان هند الأحامس إذا مات ، والنجي : الذي يناجى بالقول ، أي يراجع فيه على قرب مكانه ، أي إلى أن أصبح مُحدَّث المنية .

(٧) الخمير : المستور .

ومن العـرب من يقـول «عتّى» وهـو يريد« حـتّى » ، وعليـه قـراءة (عـتى عين)لقـوله تعالى: (حَتَّىٰ حِينٍ) .

وفي كل ما سبق ترى أبا العلاء لا يكتفي بالتوافق في المقدار الزمني للجملتين فقط بل يضيف إليه التكرار الذي وصفت ، والسجع الذي قد يتجاوز كونه سجعًا ليكون جناسًا أو قريبًا منه .

فتأمل ما يحدثه تكرار حرف العين وإشاعة جرسه في قوله التالي[1] : « فَيَعْلَمَ أَنَّ الـرُّوْعَ ، وجَوَانِحَ الـضُّلُوعِ ، مُفْعَمَةٌ لـه بـالإعْظَامِ ، مُتْرَعَةٌ بِمَحَبَّتِه إتْرَاعَ الجَامِ[2]» فـهذه أربـع صـور من صـور الكلام بنغمٍ يكاد يكون واحـدًا ، لم يتكرر فيـها حـرف العين فقط ، بل الميم أيضًا ، ثم الواو والراء .

ومن ذلك أيضًا قوله من الإغريض[3] « شَنَفًا لدُرِّ النُّحُورِ ، وعُيـونِ الحُورِ[4] ، وشَعَفًا بِدَرٍّ بَكِيٍّ ، وعَـيْنٍ مِثْلِ الـرَّكـيِّ [5]» فكل فـقـرة تناغي تاليتـهـا ، وكل فقـرتين تناغي الفقرتين التاليتين عليـهما ، وقد زادهمـا نغمًا بالإضافة إلى تكرار العناصـر الصـوتيـة (ب ، ر ، ن ، ع) كـون الكلمـتين الأوليين في كل منهمـا مـتـجـانسـتين جناسًا لاحـقًا (شـنـفًا ، وشـعـفًا) ، وبينهـمـا طبـاق أيضًا ، بـالإضـافـة للجناس الناقص بين (النحـور ، والحـور) ، واللاحـق بين (بكـي ، ركي) ، وهـذا صـنعـة علائية ظاهرة .

وهذا الذي رأيت في النمـاذج الأخـيرة هو من تـصرف أبي العـلاء في أنغـامـه التي يحدثها في لغتـه ، وله في ذلك طرق لا تكاد تحـصى . وهـذا الرنـين وهـذا النغم سواءً كان صادرًا عن الحذو الواحد في البناء ، أو عن توافق مقدار الزمن الصوتي للجملتين يكون وراءه مزيد من الحس المتوفز بالمعنى المعبر عنه بهذه اللغة ، فالرنين

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٧٦ .

(٢) الروع : خلد الإنسان ، يُقال وقع ذلك في روعي أي في خلدي ، جوانح الضلوع : ما يلي الصدر من الأضلاع ، مفعمة ومترعة بمعنى مملوءة ، الجام : الكأس .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢٢٧ .

(٤) الشنف : البغض ، والحور : جمع حوراء ، والحور سعة العين وعظم المقلة ، وقيل شدة بياض بياضـها وشدة سواد سوادها .

(٥) الدر : اللبن ، البكي : القليل ، الركي : البئر وتشبه بها عين البعير إذا غارت لطول السفر .

الذي في اللفظ عند الكاتب الصادق ، هو تصوير لرنين المعنى في نفسه ، فأنت ترى مثلاً هذا التشابه في النغم غالبًا ما يطالعك في صفة الحمائم في نثره ، حيث تعلو درجة الإحساس بالمعنى ، معنى الحنين والشجن ، الذي يكون أبو العلاء بصدد تصويره ، وقد لاحظنا هذا في المثال السابق « جاء الوسمي لها فأرنت... »، ومن ذلك أيضًا قوله في صفة حمامة في رسالته الإغريض[1] « تُسْمِعُهُ غيرَ مَفْهُومٍ ، لا بالرَّمَلِ [2]ولا بالمَزْمُومِ ، كأن سَجِيعَهَا قَرِيضٌ ، ومُرَاسِلَهَا الغَرِيضُ [3]، فقد مَادَ لِشَجْوِهَا العُودُ ، وفقيدُهَا لا يعودُ ، تَنْدُبُ هَدِيلاً فَاتَ ، وأُتِيحَ له بَعْضُ الآفَاتِ[4] » .

فهذا المقطع كله لغةٌ منغمةٌ موقعة ناتجة عن توافق في المقدار الصوتي ، يدعمه تكرار بعض الحروف والسجعات ، وكأنه لما ذكر الغريض ذكر الغناء وأجراه في كلامه !!

ثم يطالعك الحذو الواحد بقوله : « بِأَشْوَقَ إلى هَدِيلِها من عَبْدِهِ إلى مُنَاسَمَةِ أَنْبَائِهِ ، ولاَ أَوْجَدَ على إِلْفِها مِنْهُ عَلَى زِيارَةِ فِنَائِه [5]» ، ثم تعود اللغة المنغمة الموقعة الناتجة عن تقارب المقدار من جديد ، ومنها قوله « لا هَمَامِ لا هَمَامِ[6] ، ما رأيتُ أَعْجَبَ من هَاتِفِ الحَمَامِ ، سَلِمَ فَنَاحَ ، وصَمَتَ فَهْوَ مَكْسُورُ الجَنَاحِ » .

وشبيه به وصفه لحنينه في رسالة بعث بها إلى قاض صديق يشبه حنينه فيها بحنين رجل نجدي[7] « حَلَّ بِتِهَامَةَ في زَمَنِ قَيْظٍ وَبَدِيٍّ[8]، فتذكَّرَ لَمَّا وَقَدَ حَرُّ نَاجِرٍ ، ويَبِسَ نَبْتُ الحَاجِرِ [9]، بَرْدَ مَعَاهِدِهِ بالوَطَنِ ، ومَبَارِكَ إِبِلِهِ بالعَطَنِ » ، وأشباهه في

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٢١٣ .
(٢) الرمل : لحن من ألحان الموسيقى .
(٣) سجيعها : ترنيمها ، قريض : شعر ، غريض : اسم مغنٍ .
(٤) ماد : اهتز ، لشجوها : لحزنها ، هديلاً : ذكرًا ، أتيح : قدر ، الآفات : المصائب .
(٥) مناسمة : أي مقاربة ، أي كأنه وجد نسيمها ، أنبائه : أخباره ، إلفها : عشيرها ، فنائه : ساحته .
(٦) يُقال لا همام أي لا هم بذلك .
(٧) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٣٩ .
(٨) وبدي : الوبد الحر مع سكون الريح .
(٩) ناجر : اسم لكل شهر يقع في صميم الحر ، فهو إما أن يكون شهر رجب ، أو صفر أو غيرهما .

بيانه من رسائله موضع الدرس الكثير .

وإن كان هذا التوافق النغمي استجابة لداعي النفس ، وقوة جيشان المعنى في القلب ، وقوة السيطرة على اللغة ، والغريب ، والبراعة في رياضة الكلام ، فقد كان أيضاً إلى جانب هذا قيمة أسلوبية يُحرص عليها في زمن أبي العلاء ، فلو تأملت جيله والجيل السابق له من الكتّاب والمترسلين لوجدت أن من أصول حسن الكلام عندهم الاهتمام بهذه النواحي النغمية ، فترى ذلك جلياً عند ابن العميد ، وسوف نعرض لهذا بمزيد تفصيل في دراستنا لمذهبه البياني بإذن اللّه ، وكذلك تجده لدى الصابي والصاحب تجد لديهم اهتماماً بالتوقيع ، والتنغيم ، ولكن لكلٍ مهيعه وطريقه ، فمن ذلك قول الصابي يعزي أحد أصدقائه في ثورٍ له[1] « كذلك يجعل اللّه ثور القاضي مركباً من العنبر الشحري ، وماء الورد الجوري (تأمل تكراره لحرف الراء) ، فيصير ثوراً له طوراً ، وجونة عطر له ونوراً » ، وهذا من التوافق في المقدار، ومن الحذو الواحد قوله[2] « ولكن المادح لك مستنفد لك وسعه وقد بخسك ، ومستغرق طوقه وقد نقصك ، فأبلغ ما يأتي به المثني عليك ، ويتوسل إليه المطري لك ، الوقوف في ذلك دون منتهاه ، والإقرار بالعجز دون غايته ومداه » .

ومن تساوي المقدار لدى الصاحب قوله [3] : « وتقريظ يمليه عليه الملوان ، ومدح أنطق فيه بلسان الزمان » ، ويظهر الحذو في إثر ذلك : « حتى إن ذكرهم إذا جرى على لساني اهتزت له نفسي ، وفضلهم إذا جرى على سمعي انفرج له صدري ... وطرأ علي فلان منتسباً إلى جملتهم ، وحبذا الجملة ، ومعتزياً إلى خدمتهم ، ونعمت الخدمة » .

وليس هذا خاصاً بزمن أبي العلاء ، وإنما هو مذهب مألوف في بيان العرب منذ الجاهلية ، وقد جاء في كلام اللّه ، وكلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

ولنا أن نتساءل ، إذا كان التشابه في بناء الجمل طريقاً مسلوكاً في زمن

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق ابراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٢/٩٦٣ .

(٢) السابق ، ٢/٨٠٩ .

(٣) السابق ، ١/١٢٥ .

أبـي العلاء ، وقبل زمن أبي العلاء ، فما هو الشيء الذي به يتميز هذا الطريق في رسائل أبي العلاء ويختلف فيها عن غيره ؟ !

والجواب هو أن هذه الخصوصية التي هي تشابه الحذو تختلف عند أبي العلاء عنها عند غيره ، حين نلاحظ أنها جزء من أسلوبه ، وأنه يضاف إليها طريقته في إحضار اللفظ الغريب ، الذي به يتم التجانس ، أو تتم المقابلة ، أو يتم به السجع ، أو يتم به هذا التوازن ، وهذا التشابه في الحذو . وكذلك تتميز طريقة غيره بالإضافة إلى خصائص أسلوب هذا الغير ، وهذا وجه مما يشترك فيه كلام الناس، ثم يختلف ويتنوع بالإضافة إلى بقية ما يُشَكِّلُ مذهب كل ذي بيان .

تأمل مثلاً قوله من المنيح ، وهو يقول بأنه قد تتأثر قرائح أهل المعرة ببلاغة الوزير فتنتفع ، وهذا غير بعيد [1]« وَقَدْ يُرَى خَيَالُ الجَوْزَاءِ على رِفْعَتِها ، في أَضَاةِ المِعْزَاءِ مع ضَعَتِهَا » .

والتشابه هنا في حذو البناء ، وُسم بميسم أبي العلاء ، فأنت ترى ما بين (الجوزاء، والمعزاء) من تشابه في الوزن واشتراك في ثلاثة أحرف ، ولو تأملت فإن أباالعلاء قد توصل إلى ذلك باستجلابه لكلمة (المعزاء) أي الأرض الصلبة ، فقد أبسَّها على غرابتها بقوله(الجوزاء). وتراه يحضر كلمة(أضاة)الغريبة، وقد حدث له بها تكرار الضاد والتاء مع السجعة (ضعتها) ، والأضاة هي غدير الماء ، ثم ترى فاصلتيه تشتركان في أربعة أحرف (ضعتها ، رفعتها) وهذا من لزوم ما لا يلزم. وعندما يقول منها أيضاً[2] « ومـا هَمَّ ابن دَايَةَ ، بِصَيْدِ الجَدَايَةِ ، فكَيْفَ يَلْتَقِطُ القَارَ بالمِنْقَارِ ، ويَسْتُرُ القِرْوَاحَ بالجَنَاحِ » فأنت تجد هذا التساوي في المقادير الصوتية لهذه الجمل، وهذا النغم الذي أكسبها إياه تكرار بعض الحروف، وجناس أبي العلاء الذي يجلب لك الغريب فيكون قريباً، فيلغز ويحير ، فمن أجل (ابن داية) الغراب أتى بـ(الجداية) بدلاً من أن يقول الظبي ، ثم تراه يأتي بـ(القار) بدلاً من الإبل أو الغنم من أجل (المنقار)، وهذا جناس ناقص والأول كذلك ، ثم تراه يأتي بـ(القرواح) ليدل به على الفضاء من الأرض الخالية من الشجر من أجل (الجناح) .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٦٢/١ .

(٢) السابق ، ١٦٥/١ .

وتأمل قوله يصف المنازل التي يحلها الوزير بعد تركه لها أنها مثل[1] « الكِنَانَة الخَالِيةِ من السِّهَامِ ، والعَنَـانَةِ الجَالِيةِ في الجَهَامِ »، فترى هنا تشابه الحذو، كلمة مجرورة، تتبعها صفة، فجار ومجرور، بالإضافة إلى تشابه الوزن الذي يتحول إلى جناس ، وهذا جناس علائي ثلاثي – إن جاز لنا التعبير – فثلاث كلمات متتاليات تجانس ثلاثًا أُخر على التوالي . وتراه توصل إلى هذا باستجلابه لكلمة (العنانة) بدلاً من السحابة ليجانس بها (الكنانة) جناسًا لاحقًا ، كما استجلب (الجالية) بمعنى الواضحة ليجانس بها (الخالية) جناسًا لاحقًا أيضًا، فترك القريب وأتى بالغريب وإلم يبعد كثيرًا؛ لأن غريبه هنا ليس موغلاً، وكل ذلك من أجل إحداث الجناس، والنغم، وإتمام هذا الحذو الواحد، الذي تراه يخدم معناه ولغته .

فهذا الذي رأيت هو ما يميز هذا الطريق في رسائل أبي العلاء فاختلف به عنه عند غيره .

وإذا كنا نقول بأن التوافق الصوتي النغمي قيمة أسلوبية يحرص عليها الأدباء في زمن أبي العلاء وقبل زمنه ، فإن الدرس البلاغي المواكب لزمن أبي العلاء كذلك كان مهتمًا بهذه القيمة الصوتية ، تجد ذلك لدى الباقلاني، وتجده أيضًا لدى ابن سنان الخفاجي، وسوف نبدأ بابن سنان تلميذ أبي العلاء، وإن كان متأخرًا عن الباقلاني، ثم نعود لنراه لدى الباقلاني بإذن الله .

فإنك تجد ابن سنان في كتابه « سر الفصاحة » يلفت إلى النغم، وقيمته في الكلام في أكثر من مناسبة ، حيث تراه يجعل التوافق النغمي، وجمال وقع الكلمة في الأذن سببًا في فصاحتها، ويعيد ذلك لا للكلمة في حد ذاتها، بل لتواتر مجموعة كلمات مختارة في التأليف يقول[2] : « وهو أن تجد للفظة في السمع حسنًا ومزية على غيرها ، لا من أجل تباعد الحروف فقط، بل لأمر يقع في التأليف، ويعرض في المزاج » أي أن ما يلفت إليه هنا هو النغم الناتج عن التأليف، ثم يفسر لك كيف يكون ناتجًا عن التأليف فيقول[3] : « فإن هذا إنما يكون في التأليف إذا ترادفت الكلمات المختارة ، فيوجد الحسن فيه أكثر، وتزيد طلاوته على ما لا يجمع من تلك

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٣ .

(٢) الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ١٠٧ .

(٣) السابق ، الصفحة نفسها .

الكلمات إلا القليل .. » ، فانظر أي مزية تعود إلى الكلام عقدها ابن سنان بناصية هذا النغم الناتج عن تواتر الكلمات المختارة، ويبدو أنه يقصد بالاختيار هنا ما بينها من تجانسٍ يراعيه المبين في اختياره لها ، تجانس صوتي من شأنه أن ينشيء هذا النغم، وهذا التوقيع، ويجعل لها « في السمع حسنًا ومزية » .

وفي حديثه عن شروط فصاحة الكلام المؤلف يقول[1] : « ومن شروط الفصاحة المناسبة بين اللفظين، وهي على ضربين : مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة، ومناسبة بينهما من طريق المعنى ... أما المناسبة بينهما من طريق الصيغة فلها تأثير في الفصاحة، ومثال ذلك ما رواه أبو الفتح عثمان بن جني ، قال قرأت على أبي الطيب قوله :

وقد صارت الأجفان قرحًا من البكا   وصار بهارًا في الخدود الشقائق

فقلت : قَرْحى ؟ فقال : إنما قلت قرحًا لأن قلت بهارًا . فهذه المناسبة التي تؤثر في الفصاحة » .

فهذا الذي نقله ابن سنان حوار بين عالم يحتكم إلى قوانين اللغة، وشاعر يحتكم إلى أذنه، وحسه، وشاعريته، وإن لم يخرج على تلك القوانين ويخالف اللغة؛ لأنه تحرك في دائرة مرونتها ليحقق هذا الرنين الذي تراه بين (قرحًا ، بهارًا)، وقد كان تعليق ابن سنان على فعل المتنبي مقرًا له، بل وجاعلاً العناية بهذا الجانب من شأن الشعراء والكتّاب الحذّاق يقول[2]:« والشعراء الحذاق والكتاب يعتمدونها »، فليس هذا جائزًا فحسب، وإنما هو طريق يسلكه الكبار من أهل الصناعتين الشعر والنثر. ثم يأتي ابن سنان بأمثلة لهذه المناسبة يظهر فيها الحذو الواحد الذي أشرنا إليه، وإلم ينص عليه صراحةً يقول[3] : « ومن هذا النحو أيضًا قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فناسب بين مها وقنا ، والوحش والخط » .

ولو وقفنا نفحص هذا التناسب الذي استحسنه ابن سنان، وجدناه من محض

---

(١) الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) السابق نفسه .

التلاؤم الصوتي ، وإلم يكن تلاؤمًا صوتيًا تامًا ؛ لأن حروف الكلمتين مختلفتين ، ولكن اعتمد فيهما(مها ، وقنا) على التوافق في الحركات ، وتكرار الألف الممدودة. ثم في (الوحش ، والخط) تراها أيضًا مناسبة صوتية بحتة - فيما عدا تكرار (أل) التعريف - فهي مناسبة في الحركات والسكنات فقط ، وكأن ابن سنان هنا راعى ما تكون عليه اللفظة (الخطّ) حال فك الإدغام ، وهذا من إمعانه في البحث عن التلاؤم الصوتي .

ومن شواهده أيضًا قوله[1] « وكذلك قول أبي عبادة :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعًا   وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فناسب بين أحجم وأقدم ، ومطمعًا ومهربًا ، وعنك وفيك » ، وهذا حذٌ واحدٌ بناءً ووزنًا كما كان سابقه أيضًا من الحذو الواحد. ثم يكون تعليقه أخيرًا على هذا الفن بقوله « وأمثلة هذا أكثر من أن تحصى » . ثم تراه يشير صراحة إلى تساوي المقادير الصوتية للجمل في النثر، وللأبيات في الشعر، كقيمة أساسية يقول[2]« ومن المناسبة أيضًا التناسب في المقدار ، وهذا في الشعر محفوظ بالوزن ، فلا يمكن اختلاف الأبيات، فإن زاحف بعض الأبيات، أو جعل الشعر كله مزاحفًا حتى مال إلى الانكسار، وخرج من باب الشعر في الذوق كان قبيحًا ناقص الطلاوة » فيجعل النثر قسيم الشعر في هذه الخصوصية ، بل وفي تركه للحديث عنها والحديث عن ضوابطها في الشعر في المقابل ما ينبيء أنها في النثر من الظهور والأصالة بمكان لا يحتاج معه إلى تكلف إيضاح ، وربما أيضًا لأن ضوابطها في النثر تتوقف على حس الكاتب، فلا عروض، ولا زحاف، ولا ما شابه ، ثم في جعله الخروج عن هذه الطريقة أمرًا « غير مستحسن لأنه خارج عن أسلوب المنظوم والمنثور » ، فكأن ذاك الذي أشرنا إليه من قبل من أن أبا العلاء يحاول تقريب النثر من الشعر، وأن يوفر في النثر عناصر شعرية = أقول وكأن هذا كان نهجًا يدعو إليه النقاد في ذلك الزمان ، فهذه المقاربة بين الشعر والنثر في التلاؤم الصوتي ، وفي الرنين ، وفي الوحدات اللغوية التي يتوفر بها للنص وحدات زمنية صوتية متقاربة ، تجدها

---

(١) الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ١٠٧ - ١٧١ .

(٢) السابق ، ص ١٩٢ .

هاجساً من هواجس النقد عند ابن سنان تقف وراء رأيه السابق .

وإذا ما انتقلنا إلى الباقلاني، فإنك تجده مثلاً يجعل من وجوه الإعجاز في القرآن[1] (تعادل نظم القرآن في مواقع الآيات القصيرة والطويلة) ، ثم يأتي بأمثلة يظهر في آيات منها حذو متقارب، من ذلك قوله تعالى : (وابْتَغِ فيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ) ، ثم يعلق عليها بقوله [2] : « وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع، نائية المطارح ، قد جعلها النظم البديع أشد تألفًا من الشيء المؤتلف في الأصل ، وأحسن توافقًا من المتطابق في أول الوضع » . ومن هذا النظم هذا الحنو المتقارب الذي أتت عليه جمل هذه الآية « وابتغ فيما آتاك اللّه ... ولا تنس ... » و « أحسن كما أحسن اللّه ... ولا تبغ ... » .

والمراد بناء الكلام على أمر ونهي، ثم أمر ثم نهي، صيغ تتكرر بنظام فيتقارب بها الحذو، ويصير المختلف مؤتلفًا، والنائي المطرح قريب الصوت والنغم، واللّه أعلم.

وأظهر من ذلك أن الباقلاني عَدَّ التلاؤم الصوتي من ضمن وجوه الإعجاز في كتاب اللّه، وقد أفاد هذا الرأي من الرماني حيث جعله الأخير بابًا من أبواب بلاغة القرآن الفائقة[3] ، يقول الباقلاني في ذلك[4] « وأما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف، وهو نقيض التنافر، كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفـــــر وليس قرب قبر حرب قبـــر

... والتلاؤم على ضربين أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رَمَتْنِي وسِتْرُ اللّهِ بيني وبينَها عشيَّةَ آرامِ الكِناسِ رميـــمُ
رميمُ التي قالتْ لجاراتِ بيتها ضَمِنْتُ لكم ألا يزالَ يهيـمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتني رميتُهــا ولكنَّ عَهْدي بالنِّضَالِ قـديمُ

---

(١) الباقلاني ،أبو بكر محمد بن الطيب : إعجاز القرآن ، ص ٢٥٥ - ٢٥٨ .
(٢) السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٣) أبو موسى ، محمد : الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ص ١٤٠ .
(٤) الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب : إعجاز القرآن ، ص ٣٣٩ .

قالوا والتلاؤم في الطبقة العليا القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً من بعض ، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض » .

وهذا التصنيف الذي انتهجه الباقلاني تصنيف الرماني،حيث يرى بأن[1] «المتلائم في الطبقة العليا هو القرآن، وأن الفرق ما بين تلاؤم القرآن وبين أفضل ما أبدعه المتكلمون والشعراء كالفرق بين قمة إبداعهم والمتنافر » ، ولكن الباقلاني أضاف إلى هذا الذي أفاده من الرماني إضافة جليلة تصل لنا هذه الطاقة النغمية في الكلام بقدرته على توصيل المعنى وإقراره في القلب، يقول في تعريفه للتلاؤم [2]: « حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب » ، فالباقلني كما ترى لا ينتهي بقيمة التلاؤم عند سهولةالمخرج، وعذوبة السمع؛ لأن هذه الأشياء تتعلق بالصوت كعنصر بحت ، ولكن الأهم هو الذي تنتجه هذه السهولة والعذوبة في المزاج ، وهو أن تهشّ النفس لهذا المعنى الذي جاءها وهو محفوفٌ بسهولة المخرج وعذوبة المسمع ، فهو كما ترى يرجع بفضيلة التلاؤم الصوتي إلى حسن وقع المعنى في القلب ، وكأن باب القلب مرتهن بباب الأذن ، فإذا ما فتح اللفظ بابها بعذوبته وحسن جرسه ، انفتح باب القلب للمعنى الذي يحمله ، وكأن هشاشة القلب للمعنى هي من هشاشة الأذن للصوت ، فالأذن لا تهش لصوت فارغ بلا معنى ، وإنما تلك العذوبة فيه هي ملقية بظلالها وصبغتها ولا بد على عذوبة أخرى في معناه !!

وهذا يجعل من حرص المترسلين وأهل الفصاحة والبيان على الناحية الصوتية في بيانهم أمراً مبرراً ، بل وهدفاً لا بد وأن تتوافر عليه الطباع والقرائح ، فالصوت هو رسول المعنى المعتلج في القلب ، أعني هو صوت القلب ، والرنين هو رنين النفس، وهذا شيء غير الجرس البحت الفارغ الذي شدد عبد القاهر النكير على من يدخله في بلاغة البيان .

وهذه القيمة الصوتية في بلاغة الكلام ليست من كلام نقادنا المتأخرين

---

(١) أبو موسى ، محمد : الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية في تراث أهل العلم ، ص ١٤٧ .

(٢) الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب : إعجاز القرآن ، ص ٣٤٠ .

فحسب ، وإنما كانت آذان العرب الأوائل تدركها وتنبه إليها ، تأمل كلام الجاحظ معلقًا على قول خلف :

وبعض قريض القوم أبناء علــة   يكد لسان الناطق المتحفظ

[1](يقول بعد أن بين أن القريض الذي يقصده خلف ، هو ما كانت ألفاظه مستكرهة لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، وأن الكلمة فيه ليس لها موقع مرضي بجانب أختها ... : « وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا واحدًا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان ») .

ومن كلامه في هذا الباب أيضًا قوله[2] : « وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر ، تراها متفقة ملسًا ، ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » .

ويقول وهو يحكي عن أهل الطبع[3] « ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به ، ويفضلون إصابة المقادير، ويذمون الخروج من التعديل » ، وقوله « يفضلون إصابة المقادير، ويذمون الخروج من التعديل » كأنه نص في الذي نحن فيه ، وكذلك قوله «ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون بــه» إذا صرفناه إلى النثر ؛ لأن ذلك في الشعر واجب إذا هدمه الشاعر لم يكن كلامه شعرًا .

وكذلك روى الجاحظ فقال[4] « خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام ، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه ، إلا أنه فضله بحسن المخرج ، والسلامة

---

(١) أبو موسى ، محمد : الإعجازالبلاغي ، دراسة تحليلية في تراث أهل العلم ، ص ١٤٢ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) الجاحظ ، عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق : حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ٢٤٩/١ .
(٤) السابق ، ٨٢/١ .

من الصفير » . فأنت ترى بأن جودة الأداء الصوتي كانت كفيلة بأن ترجح كفة زيد رغم تساوي الرجلين في البلاغة . وما عناية الأوائل بمخارج الحروف وضبطها، وذكرهم عيوب النطق التي نص عليها الجاحظ إلا دليلٌ يؤكد لنا هذه الحقيقة ، التي نراها بارزة ماثلة في كلام أبي العلاء ، وهي أن حسن الأداء الصوتي أمر في سوس هذا البيان ، وفي طبيعة هذا اللسان الشريف .

* * *

الفصل السابع

موازنات في المذهب البياني

١- موازنات في المذهب البياني بين الجاحظ وأبي العلاء .

٢- موازنات في المذهب البياني بين ابن العميد وأبي العلاء.

إن كنت حاولت فيما مضى أن أضع يدي على سمت بيان أبي العلاء في رسائله الإخوانية ، فإني في هذا الفصل أحاول أن أستجلي هذا السمت أكثر ، بأن أضعه بإزاء غيره حتى يزداد ظهوراً وبياناً ، وذلك بإجراء موازنة بين مذهبه ومذهب الجاحظ من جانب ، وبين مذهبه ومذهب ابن العميد من جانب آخر .

وأنا مع كلا الرجلين لاأدعي توصيفًا دقيقًا لمذهبهما، فإن ذلك من شأنه أن يستغرق جهد رسالتين أخريين في بيانهما ، وإنما سأحاول تلمس طريق الرجلين ومذهبهما في نماذج من بيانهما مختارة فقط،لأن هدفي وغايتي ليس الإبانة عن مذهبهما بقدر أن يسعفاني في فهم أدقٍ واستجلاءٍ أوضح لخصوصيات أبي العلاء، وسمت بيانه ولسانه ، وبالتالي سجية طبعه وفكره .

أولاً – موازنات في المذهب البياني بين الجاحظ وأبي العلاء :

إن أول ما يلفتك في بيان الجاحظ في هذه الأجزاء المنتقاة من بيانه هو القدرة الفائقة على بسط المعنى، وتوسيعه، وإنمائه، وإربائه، ومده، ومطله حتى تنداح فكرته في مساحة أوسع وأوسع، ويصبح الصغير بقدرته البيانية كبيراً، والتافه عظيماً .

والسبب وراء ذلك هذه النزعةالتحليلية التي تسيطر عليه في تعامله مع الأفكار، فنزوع الجاحظ إلى تحليل الأفكار وتشقيقها وتفريعها عن مكنوناتها، وكشف الزوايا المضببة التي لم تدركها الأضواء من قبل – هي خلف هذا البسط والامتداد ، وهو يتكيء في كل ذلك على طبعه الحساس الذي تتغازر به المعاني وتتكاثر، ومن ثم على ثقافة واسعة، وعلم بالأخبار متسع، وبأحوال الأمموبالعقائد، والعلوم، ثم على غزارة علمه بطبائع النفوس، وطبائع الحيوان، بل طبائع الأشياء بصفة عامة ، ولكي نقف على هذا من بيانه وغيره سوف ندرس مجموعة من النصوص مختارة من رسالته (حجج النبوة) ونسترفد بالإضافة إليها بعض النصوص من رسالته (الرد على النصارى) إذا دعتنا الحاجة لذلك . وهذا أولاً نص من مقدمة رسالته (حجج النبوة)، ترى فيه كيف ينظر الجاحظ في الفكرة ويطيل المكوث لديها ليستل منها أفكاراً أخرى ، وهو في هذه المقدمة يرسم صورة مصغرة لرسالته وما سيتناوله بالقول فيها، يقول من ذلك(١) : « ولِمَ كان الإخبار على الناس أخف من الكتمان ، ولِمَ كان الصمت أثقل عليهم من الكلام ، وما الضرب الذي يقدرون على كتمانه وطيه ، والضرب الذي لا يقدرون إلا على إذاعته ونشره ، ولِمَ اجتمعت الأمم على الصدق في أمور واختلفت في غيرها، ولم حفظت أموراً ونسيت سواها ، ولِمَ كان الصدق أكثر من الكذب ، ولِمَ كان الصمت أثقل والقول أفضل » .

انظر كيف استل الفكرة من الأخرى ، وكيف نمى المعنى بذلك ، وكيف امتد كلامه بها، فأولاً كان يتحدث عن أنه سوف يحاول أن يعلل لماذا يكون إخبار الناس بالآثار ، وبما رأوه من أحداث ، وبما عايشوه أخف عليهم من كتمان ذلك ؟ ثم وكأنه شعر بأن الجملة قد تركت بقية من المعنى في نفسه فأبى إلا أن يتمه بأن ذكر المقابل لهذه الفكرة ، فإذا كان الإخبار أخف فتخف إليه النفوس فلماذا يكون الصمت ثقيلاً ؟ يقول : « ولِمَ كان الصمت أثقل عليهم من الكلام ؟ » فتراه عبر فيها

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ١٢٧ .

عن الكتمان بالصمت، وعن الإخبار بالكلام لينبهك بأنه لا يعيد معناه ويكرره عليك، وإنما يقتنص شاردة شردت من المعنى لم تمتلكها الجملة الأولى فأحب ألا تفلت من يده، فالصمت أعم في معناه من الكتمان ؛ لأن الكتمان لا يكون إلا مع الأسرار والأمر يُخفى، يقولون : (كتمته السر كتماناً وكتماً، وهو كتّامة للأسرار ، وسر وحديث مكتم، وكاتمته العداوة ساترته) . وكذلك الشأن مع الكلام فهو أعم من الإخبار، وكأنه هنا بدأ ينتقل بالمعنى من الخصوص إلى العموم، وكأنه لما تساءل لماذا الإخبار أخف من الكتمان ، رأى أن القضية أعم من ذلك، وهي أن الصمت بصفة عامة أثقل على المرء من الكلام بصفة عامة ، ثم أخذ في تشريح الفكرة وتحليلها واستنطاقها « وما الضرب الذي يقدرون على كتمانه وطيه ، والضرب الذي لا يقدرون إلا على إذاعته ونشره » فبعد أن ذكر حقيقة ثقل الصمت وخفة الإخبار، أخذ في تحليل الأخبار ذاتها، هل بها ضروب يُستطاع كتمانها، وضروب تأبى الطباع إلا أن تكشفها . وانظر وتأمل بأن الرجل هنا أخذ يغمس قلمه في طباع الناس، وهذا من أهم روافد قلمه، ومعينه الذي لا ينفد في إرباء معانيه ، ونعود لما كنا فيه فعندما صاغ معناه هنا في صورة النفي والاستثناء ليدل على هذا القصر ويؤكده، وأن هناك من الأخبار ما تأبى الطباع إلا أن تذاع، ولا تستطيع أمامها النفوس حولاً إلا أن تنشرها = كأن الضرب الأول في هذه الجملة والذي يُكتم لا يكتم إلا بعد مساناة ومعاناة ، وأن هذا الثاني لا تستطيع النفس مهما حاولت إلا الإفصاح عنه، وهذا يتفق مع ما قاله من قبل بأن الإخبار بعامة أخف من الكتمان ، ومن هنا تنكشف لك دقة الرجل في الإبانة عن معانيه، وعلو إحساسه بأدواته اللغوية، واستخدامها في حاق موضعها من بيانه، وهذا ما وجدناه أيضاً لدى أبي العلاء ولكن لكلٍ مهيعه وطريقه .

فإن كان الظاهر في بيان الجاحظ هذه السهولة والسلاسة في انسياب الكلام على لسانه، فإن هذا لا يعني بأن كلامه قد غُفِل عن تنقيحه ومعاودة النظر فيه . ثم تأمل كيف تكون الجملة التالية، وإلى أي جهة ينتقل بالمعنى« ولِمَ اجتمعت الأمم على الصدق في أمور ، واختلفت في غيرها » ، وإن كان التسلسل المنطقي لتحليله لفكرة الإخبار هو أن ينتقل من قضية الإخبار وعدمه إلى صحة هذا الخبر المنقول من عدمه، إلا أنه هنا انتقل بالمعنى من الأفراد حيث كانت قضيته إلى الأمم ، فترى

قدرة الجاحظ على إرباء معناه والانتقال به من حيز إلى حيز آخر، وفتح أبوابه المغلقة، فقد انتقل بالقضية إلى أفق أرحب دون تكرار للماضي بل هو يسير ضمن خط فكري واضح، فعندما انتقل إلى قضية الصدق وفحوى الخبر انتقل إلى الأمم لأنه رأى أن هناك أموراً اجتمعت الأمم على الصدق فيها، ورأى أن قضيته تتخذ شكلاً أعم لذا رأينا هذا النمو المضطرد فيها منذ البدء ، والجاحظ أحد الكهوف التي حفظت لنا روايات الناس، والقبائل، وأخبار الأمم، وكل هذا ينضح على بيانه . تأمل الجملة التالية « ولِمَ حفظت أموراً ونسيت سواها » وهذا هو نَفَس الجاحظ، يقول الكلمة ثم يشعر أن هناك بقية منهالم تستوف، وإن كان غيره في محله لاكتفى بما أجملته، ولكن نفسه تأبى إلا الوفاء التام؛ ذلك أنها نفس تحب أن تقر الأمور قرارها، وتعلم بأن هذه الخفايا في الأفكار هي مفتاح لأبواب من المعاني إذاما وقف عندها وعولجت بطول الصبر والتأمل ؛ لأن جملته الأولى والتي يتحدث فيها عن صدق بعض الأخبار وأن بعضها الآخر مكذوب قد توهم بأن كل ما حدث يُنقل، فإمّا أن ينقل صحيحاً أو مزوراً مزيفاً، وهذا غير صحيح فهناك أمور تحفظ وتنقل، وأمور تُنسى دون تعمل لكتمانها واجتهاد في عدم إظهارها، تجتمع مع الأول في غفلة التأريخ عنهما، ولكن الكتمان بإرادة والآخر دون وعي وإرادة ، والذي يؤكد ما قلناه من أنه شعر بأن في المعنى بقية فأردفها بمثل هذه الجملة أنه عاد في الجملة التالية إلى قضية الصدق والكذب من جديد فقال : « ولِمَ كان الصدق أكثر من الكذب »، ثم يعود بالقضية إلى العموم الذي انتقل بها إليه في بدايتها، وهو كون الصمت أثقل والقول أخف، ولكنه هنا ليس أخف وإنما أفضل وهذا شيء آخر « ولِمَ كان الصمت أثقل ، والقول أفضل » .

هكذا ينمو الكلام في بيان الجاحظ ، وكأن الجاحظ ينظر فيما يقوله هو ويولد منه خواطراً وأفكاراً فيمتد به باب الكلام وتتغازر صوره وتتكاثر معانيه، وهذا من أبرز مميزات مذهبه . والحق أن هناك تشابهاً بين أبي العلاء والجاحظ في هذا السخاء الفكري، وهذا المدد الحي الذي يمدهما بما يمطل المعنى ويربيه، وإن كان الشأن أظهر مع الجاحظ ذلك أن لغة الرجل سهلة بسيطة مسترسلة، وليس كأبي العلاء الذي ينحت من جلاميد اللغة، ويصنع صيغه الخاصة التي تحمل ميسمه، وهو رغم ذاك مربٍ لمعانيه ماطل لها .

وهذا ذاته يجعلك مع الجاحظ تجد وضوح ونصاعة الفكرة،لكنك مع أبي العلاء تجد نفسك مع كيان لغوي غير مفصح بدخيلته، وهو يشهر عليك هذا الغموض لا يستره ، ويواجهك به لا يتقيك، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن الجاحظ ليس همه أن يعطيك أنظمة لغوية ونحوتًا لغوية، بل همه أن يسكب في نفس قارئه أحوالاً وأفكارًا وتحليلات بلغة سهلة واضحة قريبة جدًا ، أما أبو العلاء فغايته أن يعبث بعقل القارىء فيضعه أمام جهله باللغة، وهذا شأنه مع الغريب، ومع غيره يضع حجبًا كثيفة دون غايته حتى لا يصل إليها إلا بعد أن تدمى أقدامه ، فهو رجل ضنين بفكره ، يُغري به ، ويشترط على من يصل إليه أن يحفظ اللغة .

فالشأن غالبًا مع أبي العلاء شأن فكر ولغة ، والشأن مع الجاحظ شأن فكر ، هذا يريد أن يصنع لك لغة أدبية جديدة ، ينهض بها موات الرسائل الأدبية في عصره ، وينعش بها بلاغة كادت تسلب جمالياتها ، ويبعث في كل ذلك الروح من جديد ، ويريك بأن العيب ليس في فنون البلاغة التي كثر اصطناعها ، وإنما فيمن اصطنعوها ، وإنما هم قوم « تزينوا بالسجع تزين المحول بالرجع ، ما رقوا في درجته ، ولا وضعوا قدمًا على محجته ، لكنهم تعاينوا فما تباينوا ، وتناضلوا فلم يتفاضلوا » ، فقد طور أبو العلاء بنية الرسائل ولغتها ، وجعل لغتها مزيجًا من فنونٍ بلاغية عجيبة جدًا ، فيها لزوم ما لا يلزم سجع ، وجناس ، وأمثال ، وتشبيه، ومجاز ، وقد ساق كل ذلك في مساقات جديدة ، فبنى لغته من هذه الفنون ، وبسَّ الغريب من الألفاظ بالقريب ، فكان خطًا بيانيًا متميزًا .

ونعود لما كنا فيه ، فهناك طريقة بارزة في بيان الجاحظ من طرق مطله لكلامه وإربائه لمعانيه لا تفتأ تظهر لك كل الظهور أينما يممت في رسائله هذه، وسوف تراها جلية في هذا النص من بدايات رسالته (حجج النبوة)، حيث أخذ على الفقهاء والمتكلمين إغفالهم جمع حجج النبوة، ثم عاد بذلك على السلف الذين جمعوا القرآن على قراءة زيد وتنبهوا لخطر ذلك ولكنهم أغفلوا حجج النبوة ، ذلك أنهم لو فعلوا وجمعوها [١] « لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهري معاند ، ولا متطرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور » .

---

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ١٢٩ .

تأمل ، كان بإمكان الجاحظ أن يقول لما استطاع أن يدفع مجيئها أحد وفي ذلك الكفاية ، لأنه يشمل كل من عددهم ، ولكن الجاحظ يأبى إلا أن يقسم الأصناف المنكرة لحجج النبوة، ويحللهاتحليلاً ينبيء عن معرفة دقيقة بهم، وقدرة على أن يضع يده في أثناء هذا التحليل على المداخل التي جعلتهم ينكرون حجج النبوة، وهذا ما أضافه هذا التحليل من قِبله، أما أثره فهذا البسط لكلامه وهذا المد يقول « زنديق جاحد » وبذا عُرف داءه الدوي في الإنكار ، وربما شملت الزنديق ما أتى بعدها ولكن الجاحظ أبى إلا أن ينص على هذا الفريق عندما قال « دهري معاند »، وهؤلاء هم أشد الناس ضراوة في رفض النبوات، لذا فهم أشد الناس إنكارًا لما يثبت صحتها ، وربما كان هذا منه حكاية حال لواقعه وبيئته، وأنهم أعلى الناس أصواتًا بهذاالشأن في ذلك الوقت، فلذا خصهم بالذكر ونبّه إليهم، ثم أردفهم بقوله«متطرف ماجن » ومع هذا الصنف خرجنا من أصحاب المعتقدات الخاصة إلى أصناف من العامة لسوءٍ أو ضعفٍ وقعوا في هذا الإنكار، وهو معبر جيد من القسمين السابقين إلى القسمين التاليين ، من العامدين المُلَبِّسين إلى المغرورين المخدوعين ، فهذا لمجونه يرفض حجج النبوة عبثًا وتطرفًا، ثم ترى القسم التالي « ضعيف مخدوع »، وهم كثر في العامة، ويقصد بهم ضعيفي العقول لقلة علمهم أو بصيرتهم من العوام، ثم يعطف عليه بقوله « حدث مغرور »، وهذا يدخل في سابقه فالحدث المغرور هو ضعيف مخدوع، ولكن الجاحظ وجد فيه ميزة تميزه فأراد أن ينص عليه ، وهذا قد يوهم باديء الأمر بأنه من قبيل التكرار لأن الحدث المغرور يدخل في معية الضعفاء المخدوعين كما أسلفنا ، ولكن الحدث قد يستفيق بعلم واطلاع وقد يُستدرك أمره فيخرج من معية الصنف السابق ، ثم إن الحدث يمثل الجيل الجديد لذا نص عليه الجاحظ للتنبيه على خطورة هذاالأمر،واتساع الشريحة التي قد تقع في هذا اللبس، وليثير حفيظة حماة هذا الدين لجمع حجج النبوة والمنافحة عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ذلك أنه قد سبق هذا بانتقاد سافر كما أشرنا للفقهاء والمتكلمين ، بأن هذا الشأن كان الأولى بهم الاهتمام به وأن يوضع نصب أعينهم . ولا تنس أن الأصناف الأولى في هذه الجملة فاعلة في الأصناف الأخيرة، فالزنادقة وأصحاب الملل الضالة يخدعون ضعفاءالعقول من أبناء المسلمين إمّا جهلاً أو سفهًا ويوقعونهم في هذا الخطأ الجسيم، ترى ذلك ماثلاً في اسمي المفعول الذي جعلهما صفة

للصنفين الأخيرين (مخدوع ، مغرور)، يقابلهما اسم الفاعل مع الأوليين (جاحد ، معاند)، وكأنه في جملته هذه يلخص القضية كلها، ولكنه يعود عليها ليفتحها من جديد ويوسعها مع إعادة بعض أركانها وهذا نهج في بيانه ، فهذا المطوي هنا في هذه الجملة سوف يسفر في كلامه القادم يقول : « ولكان مشهوراً في عوامنا كشهرته في خواصنا، ولكن استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع مطمع في غبي يستميله، وفي حدث يموه له »، فكلمة ملحد جمع بها الأصناف الأولى ثم ألح على الصنفين الأخيرين ، وهذا يدلنا على كلفه بهاتين الفئتين، وسوف يسفر الجزء التالي عن السبب وراء ذلك ؛ لأن هذه الجملة تفتح له باباً جديداً للمعنى يدلف منه فيأخذ في تحليل الفكرة من جانب آخر، فقد كان في البدء يعيب إغفال جمع حجج النبوة وأنه بسبب هذه الغفلة حدث ما حدث ، ولولا ذلك لما استطاع اليوم أن يدفعها أحد ، ولما وجد الملحد موضع مطمع في أحد، ولكن بعد هذا يقول« ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا، واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا، وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر ، وإظهار البارز ، والاحتجاج للواضح » وهذا تحليل للفكرة كما قلنا من جانب آخر في تلك الشريحة التي وجد مثل هذا التشكيك صدًى في نفوسها، فيتفتق له بذلك سبب جديد من أسباب الشبهة التي هو بصدد رصدها وجمعها في هذه الرسالة حيث يقول في مفتتحها[1] « ومفرقون بين أسباب الشبهة وأسباب الحجة » بالإضافة إلى كون إغفال جمع حجج النبوة الذي بنى كلامه عليه في هذا المقطع كان سبباً رئيساً لذلك ، وهذا هو السبب الجديد ، وهو كثرة العوام الذين لا يتحصنون بعلم جيد في الدين مما جعلهم هدفاً سهلاً لأعدائه، ويستحقون صفة الضعف هذه التي وصمهم بها ، ثم قابل كثرة الضعفاء بكثرة الدخلاء وهذا واقع المجتمع في ذلك الوقت،فهذا كلام رفيع المستوى في كشف طيات المجتمع الفكري الذي يعايشه الجاحظ، وهذه هي جرأة الجاحظ في الحديث عن قضايا الفكر الشائكة والملبسة في عصره ، وانظر أيضاً بأي لغة يُعالجها فأي امتهان لهؤلاء الدخلاء تراه في قوله : « نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا »، فأخلاهم من كل ميزة وجعلهم مستعيرين حتى أدوات إغوائهم وإفسادهم، وكأنه شعر بأنه عندما

---

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ١٢٧ .

نسب إليهم هذا القدر من التضليل والضلال بأنه سوف يأتي في نفس القاريء بأنهم يتمتعون بقوة في العقول، وفصاحة في الألسنة،وقوة في الحجج المُضَلِّلَةَ فأراد أن يسلبهم كل ذاك، وينص على أمر يؤمن به وهو الحق بأنهم نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا ، ووراء هذه الجملة ما وراءها من معرفة دقيقة بلغة هـؤلاء الموهة ، ومواردها، ومصادرها ، ومعينها الذي تغرف منه . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أننا أمام عقل ينفذ في طبقات الناس ، ويتغلغل في فهم كل ما يحيط به، ويحلله ، ويقف لديه ، ولا يدع شاردة ولا واردة تفوته، عقل جبار حوى من العلم المحض كما حوى من العلم بخفايا النفوس الكثير، وسترى هذا كله ماثلاً في بيانه وفي تعاطيه لأفكاره .

ولغته في هذا الفصل تشي بمدى غيرة وغضب الرجل على حمى الدين وحمى النبوة؛ لأنه وإن كانت طبيعة الجاحظ الفكرية الهدوء في محاربة الخصم، إلا أن وتيرة كلامه هنا تشي بهذاالقدر الذي يعتمل بداخله من الغضب على المحارم، فترى الضعفاء تحولوا في حديثه الأخير إلى « أغبيائنا وأغمارنا »، وفي إضافتهم لناء الفاعلين هنا دلالة على مدى تحسره على انتسابهم إلى المجتمع المسلم ، وأنهم شر لا بد منه ، وأنهم جزء منا شئنا أم أبينا، وأن داءنا الدوي أتى منا . ثم إن جملته هذه تدل على أن هؤلاء الملاحدة رغم استعانتهم بعقول المسلمين ولسان العربية المبين لم يكن ليكون لهم أثر إلا في الأغبياء والأغمار من هذا المجتمع المسلم ، وهذا إن دل على امتهانهم من جانب دل على قوة حجج النبوة من جانب آخر، وسلامتها، وأنها غير قابلة للتشكيك، ترى جواب الشرط في هذه الجملة الشرطية والذي تأخر يلتقط فيه الجاحظ هذا المعنى ليسفر وينكشف فيقول « لما تكلفنا كشف الظاهر ، وإظهار البارز، والاحتجاج للواضح»، إذاً فكل ما يتناوله الجاحظ هو كشف للظاهر، وحجج النبوة من الظهور بمكان بحيث يكون الاستدلال على صحتهامن قبيل كشف الظاهر، ولكن طبيعة الجاحظ اللحوح تصر على أن في المعنى بقية ينبغي أن تستدرك فقال «إظهار البارز»، فهو ليس ظاهر فحسب وإنما بارز، وفيه زيادة معنى في الظهور لأن أبرز الشيء كشف غطاءه ، وهو يزيد في معناه فيقول « الاحتجاج للواضح »، فانتقل به من العموم من كونه كشف وإظهار إلى الخصوص فأفصح عن« الاحتجاج للواضح »، فقد تركت الجملة الأولى بقية من المعنى تنبض في نفسه،

فأردفها بالثانية فالثالثة، لا ليكرر الأولى ولكن ليقتنص هذا النبض البعيد . وهذه هي الطريقة التي أشرت إليها في بداية تحليلنا لهذا النص، وهي من سمت بيانه بمكان سواء على مستوى الجمل أو على مستوى المفردات . ثم يعود الجاحظ ليبرر للسلف تقصيرهم في جمع حجج النبوة، وأن ذلك منهم كان لظهورها هذا الظهور الذي تراه في جملته الأخيرة « لما تكلفنا كشف الظاهر، وإظهار البارز ، والاحتجاج للواضح »، وبذا تكون هذه الجملة قد فتحت بابًا للمعنى، وهو ليس سببًا جديدًا من أسباب الشبهة هذه المرة، وإنما هو سبب من أسباب إغفال حجج النبوة، وكأنه عندما رأى ذلك من نفسه، وأنه يراها من الجلاء بحيث لا تحتاج إلى كشف، رأى بأن هذا الظهور منها عينه كان سببًا وراء ترك السلف لجمعها، فيضع هذه الحقيقة أمامك فيقول « إلا أن الذي دعا سلفنا إلى ذلك الاتكال على ظهورها واستفاضت أمرها » . ثم لا يتوقف الجاحظ ويبدأ من جديد ليرتب على هذه الفكرة فكرة أخرى ، فإذا كان الشأن كذلك وهذا هو ظهورها فلما احتيج الآن إلى جمعها؟! ولما شك فيها من شك؟! فيكون الإفصاح عن هذا هو فحوى الجمل التالية فيقول « وإذا كان ذلك كذلك فلم يؤت من أتي من جهالنا، وأحداثنا، وسفهائنا، وخلعائنا إلا من قبل ضعف العناية وقلةالمبالاة..» وهذا ينبيء عن عمل عقلي منظم يجول ويتدسس في ثنايا القضية المطروحة ويدرسها من جميع نواحيها، فلايدع مجالاً لزيادة، أو نقض، أو تحبير إلا وأشبعه، ومن هنا تنمو أفكار الجاحظ ويطول نفس كلامه، فقدرته على إجالة طرفه في ثنايا الفكرة عجيبة بحيث يكشف لك عن زواياها المضببة، ولديه جرأة على خوض هذه الغمرات، والبحث عن الأسباب فيما تهاب النفس البحث عن أسبابه، أو فيما تظنه من المسلمات التي اختفت الحكمة فيها، ولكنه يبحث ثم يتكيء على ثقافته الموسوعية، ليسخر ذلك القدر من الثقافة في خدمة هذاالبحث والتحليل.

ولو تأملت معي فإن هذه الجملة الأخيرة التي ذكرتها « وإذا كان ذلك كذلك فلم يؤت من أوتي من جهالنا ... » كانت تصلح لأن تكون من باب الاستئناف البياني في اتصالها بسابقتها ، وسوف يقابلنا من أشباه هذا الموضع الكثير، حيث يحمى الكلام في مقطع وتستثار النفس وتتساءل ، أو يكون الشأن أن تتساءل، ولكن الجاحظ بدلاً من أن يقطع ويستأنف يعطف، فلا يجعل من نفسه مسئولاً، ولا من مخاطبه سائلاً، ولا يجعل كلامه الآتي بمثابة إجابة لذاك ، وهذا بخلاف أبي العلاء

الذي لا تفتأ تقع في بيانه على مواضع رائعة للاستئناف البياني، وهو يبدي كلفًا بالقطع والاستئناف ، واستثارة القاريء، والإجابة على هواتف النفس المتلقية لبيانه، وربما كان ذلك من الجاحظ لأن هذا التخلق لأفكاره يسبق بكثير لحظة الانتاج الأدبية، لطول صبره ومعاناته للفكرة، فتتسلسل على لسانه في شكل حقائق متتالية يضعها أمام عينيك، وقد افترض مسبقًا اعتراضاتك، وأجاب عليها، وهو الآن يحكيها لك ويقررها بعد أن تيقن منها . ربما كان هذا وربما كان غيره المهم أن الرجل كلف بأن يربط كلامه كله ببعضه البعض بحروف العطف ولا يقطع ويستأنف إلا في القليل النادر .

ودعنا نعود لبداية هذا المقطع من كلامه لنستحضرالبداية التي لم نقف عندها، ونتأمل بناء كلامه، وكيف ارتبطت جمله ببعضها البعض، فهذا الذي درسناه كله جملة واحدة تأمل، يبدأ هذا المقطع بقوله(١) : « إن السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقًا في الصدور » فـ(الذين) صفة لاسم (إنَّ) السلف، وما بعده جملة صلة الموصول ، ثم يعطف بصفة أخرى تتبعها جملة صلة موصول ثانية « والذين جعلوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقًا غير محظور »، ثم يعطف بصفة ثالثة تتبعها جملة صلة موصول ثالثة، وهذا كله قبل أن نصل إلى خبر (إن) تأمل « والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان »، ثم يأتي خبرها وهو جملة « لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وبرهاناته ، ودلائله، وآياته، وصنوف بدائعه، وأنوا ع عجائبه في مقامه، وظعنه، وعند دعائه، واحتجاجه في الجمع العظيم، وبحضرة العدد الكثير، الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل، والعدو الماثل » ، وهذه الجملة التي طالت بما حوته من جمل وشبه جمل ليست إلا جملة الشرط، وجملة الجواب هي «لما استطا ع اليوم أن يدفع كونها، وصحة مجيئها، لا زنديق جاحد ، ولا دهري معاند ، ولا متطرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور » ، وهذه الجملة يعطف عليها جملة أخرى هي أيضًا في معناها داخلة في حيز جواب الشرط « ولكان مشهورًا في عوامنا كشهرته في خواصنا » ، ثم يستدرك عليها بجملة « ولكن استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم » ، وتكون كل هذه الجمل بمثابة جملة الجواب الأولى التي يعطف عليها جملة جواب ثانية وهي قوله « ولما وجد

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ١٢٩ .

الملحد موضع طمع في غبي يستمليه، وفي حدث يموه له»، ثم يعطف على هذا كله بجملة شرطية ثانية، ولا تنسى أن كل ما مضى في منزلة خبر (إن) التي في رأس المقطع يقول « ولـولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا، واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا، وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر ، وإظهار البارز، والاحتجاج للواضح»، وبهذا نصل إلى نهاية خبر (إن) التي في قوله « إن السلف »؛ لأن كل هذا ارتبط بعضه ببعض، وكانت أدوات الشرط التي ابتدأت بقوله « لو كانوا جمعوا » هي الوعاء اللغوي المتسع الذي استوعب صفحة كاملة، ورتب بعضها على بعض، وخاط هذه الجمل الكثيرة. وهذا أبرز سمات الجاحظ ويرجع -كما قلت-إلى تدفق المعاني وانبثاقها من ينبوع عجيب ليس له نظير في أدبنا. والألفاظ كما ترى سهلة وسلسة، ثم إن تدفق المعاني وارتباط بعضها ببعض يقارنه ويجري معه تدفق اللغة،التي تلتحم كلماتها التحام جملها ، وأعني بالتحام الكلمات هذه المفردات التي تتوالى كلها من باب واحد، وكأنها عائلة واحدة أولاد أب وأم ، تأمل قوله « جمعوا علامات النبي صلى اللّه عليه وسلم، وبرهاناته، ودلائله، وآياته، وصنوف بدائعه ، وأنواع عجائبه » واضح أن غير الجاحظ قد يكتفي بعلامات النبوة كما اكتفى البخاري في الجامع الصحيح، أو حجج النبوة كما اكتفى الجاحظ نفسه في عنوان الكتاب ، وقد يضيف إلى علاماته صلى اللّه عليه وسلم وبرهاناته، أما هذا التتابع الذي يحيط بمعنى الحجة من جميع جهاته فهي علامة، وهي برهان، وهي دليل، وهي آية ... الخ

فهذا التدفق لم نعرف له ينبوعًا في أدبنا كينبوع الجاحظ ، وقد ذكرت ذلك في المفردات لأن التدفق في الجمل ظاهر ظهورًا لا يخفى، ونحن غالبًا ما نقف عند الجمل ونهمل المفردات، والواقع أن الجاحظ اقترن عنده تتابع الجمل التي تلح على معناه بتتابع المفردات التي تلح هي الأخرى مع الجمل من داخل تكوين الجمل على معناه .

ولو رجعنا إلى أبي العلاء ونحن في معمعة مذهب الجاحظ سنجد شيئًا آخر ، نجد إغرابًا متعمدًا يذكر ولد البقرة باسم (الفرقد) ليقرنه بـ(الفرقد) الكوكب المعروف في مثل قوله[1] « والراقد عند الفرقد أن يضحي مجاور الفرقد »، وتجد

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٢ .

الناقة يختار لها اسم (الورقاء) ليلائم بينها وبين (الخرقاء) الأرض الواسعة ، وتجد النبات يختار له اسم (الكوكب) حتى يوهمك ظاهره أنه كوكب السماء فيقول[1] « ومن للورقاء بكوكب الخرقاء » ، وهذا شيء والجاحظ شيء آخر ، ولست بصدد المفاضلة، وإنما أتابع، وأرصد، وأصف، وكل واحد من الكاتبين سخّر لغته للإبانة عن مقصوده وأفلح وبلغ الغاية .

ونعود لما كنا فيه ، حيث ترى القسم التالي من كلام الجاحظ بمثابة استدراك على جملة الشرط الماضية بكل متعلقاتها وبامتداد الكلام فيها يقول « إلا أن الذي دعا سلفنا إلى ذلك الاتكال على ظهورها واستفاضة أمرها ... »، وهذا قسم جديد من كلامه يمتد ويطول، وهو كله بمثابة استدراك على الماضي من كلامه كله . وهكذا فأنت ترى بأن ترابط كلامه ليس على مستوى الجمل فحسب، أو القسم من كلامه فحسب، بل يتجاوز ذلك في بيان الجاحظ حتى تصبح رسالته كلها نبضة واحدة ، همسة واحدة ، فكرة واحدة ، فهو يعطف الفصل من كلامه على الآخر ويرتبه عليه، مما يذكرنا بذاك الذي وجدناه لدى أبي العلاء من ترابط يجعل المقطع كالجملة الواحدة لا يحسن السكوت عليها إلا بتمامها، ويتصل بغيره حتى تكون رسالته كلها نفساً واحداً .

وإن كنت بذا أسجل ملحظاً يغاير بين الطريقين، فالجمل تتداخل وتطول عند أبي العلاء حتى تستوفي الفكرة من غيرأن يكون هذا الطول داخلاً في جملة واحدة، وإنما الترابط كان ترابط معنى، والذي عند الجاحظ ترابط معنى وترابط إعراب، فلو أعربت الصفحة التي قال منها « إن السلف الذين جمعوا القرآن ... »، فلا بد أن أقول أن خبر (إن) يستغرق إلى قوله « ولما وجد الملحد موضع مطمع في غبي يستمليه، وفي حدث يموه له » لأن هذه اللام التي في قوله « لما وجد » هي اللام الداخلة في جواب (لو) التي هي خبر (إن) ، وكثيراً ما نجد هذا في كلام الجاحظ وقليلاً مانجده في كلام أبي العلاء، لأن جمل أبي العلاء يكثر أن تستقل في إعرابها ثم تترابط في معانيها ، وقد أحسن أبو العلاء، وذلك لأنك وأنت تقرأ أباالعلاء في حاجة إلى قواميس اللغة كلها، لأنه يحفر في قعرها البعيد عن الألفاظ الغائبة ويحضرها، فلو تشابكت الجمل هذا التشابك مع هذا الغريب، ومع هذا الغموض، ومع هذا البديع ، ومع هذه الأمثال لزاد الغموض وزادت الحيرة .

---

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٢ .

وقد يخلو كلام الجاحظ من تداخل الجمل ووقوعها حشواً بين طرفي الجملة الأساسية – كما رأينا – في أساليب كثيرة من بيانه تكون أدوات الشرط هي الشبكة التي يجتمع بداخلها هذا النمط من الجمل ، وقد يكون أيضاً خالياً من امتداد أطراف الجمل أو الكلمات التي هي أصول بناء العبارة وذلك – كما رأينا أيضاً – في ترادف الجمل التي تعطف فيها جملة من الجمل على جملة ثم تعطف على أخرى .

وهذا النموذج الذي معنا الآن جمله أقرب إلى أن تكون جملاً مستقلة مرسلة، ورابطها هو الرابط المألوف في الكلام كله وهو حرف العطف . قال الجاحظ وهو يعلل عداوة المسلمين لليهود وقرب المسلمين من النصارى في رسالته « الرد على النصارى »[1] : « فأنا مبتديء في ذكر الأسباب التي صارت لها النصارى أحب إلى العوام من المجوس، وأسلم صدوراً عندهم من اليهود، وأقرب مودة، وأقل غائلة، وأصغر كفراً، وأهون عذاباً .

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر، ويجهلها من لم ينظر. أول ذلك أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار مشاركة في الدار، حسدتهم اليهود على النعمة في الدين، والاجتماع بعد الافتراق، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفة ، ومالؤوا الأعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن وإدخال الشبهة إلى المناجزة والمنابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم وإخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد » .

---

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ٢٥٨ .

وهذا النص لم يتخلف عنه ميسم الجاحظ الأساسي الذي هواستقصاء المعاني وتحليلها تأمل قوله « أقرب مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفراً ، وأهون عذاباً » ، وكيف كانت كل كلمة مؤكدة لمعنى ما قبلها ومفصحة عن معنىً زائد ، ثم كيف كانت الكلمات متتابعة قصيرة مختارة .

وتأمل ذلك منه على مستوى الجمل « وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفة ومالؤوا الأعداء والحسدة »، وقوله أيضاً « وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد » .

ثم تأمل كيف تبرز في هذا النص الذي تغاير جمله كثيراً النصوص التي ذكرناها نزعة التحليل والاستقصاء والمتابعة، يذكر أن اليهود كانوا جيران المسلمين وهذا يدعو إلى عكس القضية التي يطرحها، ولكن الجاحظ يتبع هذا بقوله « وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب » ، وهذا أبعد في الغرابة لأن الجوار والرحم يوحيان بالمحبة لا العداوة ، ولكن الجاحظ يحلل هذا الأمر الغريب ، ويُقنع به ، ويأتي بأربع جمل حذيت على حذو واحد داخلة في حيز (إنما) المشيرة إلى أن ما دخلت عليه مما يؤلف ويعرف ولا ينكر ، وتتتابع الجمل من غير تداخل فيقول « إنما يعادي الإنسان من يعرف » ، ويؤكد هذا المعنى بقوله « ويميل على من يرى » ، ثم يزيد الأمر توكيداً وإيضاحاً بجملة ثالثة « ويناقض من يشاكل » ، وهكذا يضيف « ويبدو له عيوب من يخالط » .

ومعاني الجمل التي أقنع بها واستدل بها هي أيضاً غريبة ، وفيها تهمة للإنسان ، وكأن عداوته وميله ومناقضته كل ذلك مذخور عنده لمن يعرف ويقارب ويجاور !! وهذا وإن كان غريباً إلا أنه هو الحق ؛ لأن الإنسان لا يعادي ولا يميل ولا يناقض من لا يعرف ، وكأن الجاحظ يكشف الأقنعة ، أقنعة الزور عن هذه النفس الإنسانية التي يكون ودها لجارها وذوي الأرحام منها محفوفاً بعوامل العداوة والبغضاء . سمت الجاحظ هنا وإن كان يظهر في ترادف الجمل وتعاونها على تقصي المعنى وكشف جوانبه ، هوأيضاً ظاهر في تدسسه في طيات المعاني، وبحثه في أغوارها ، وكشف أقنعة الزور التي نتستَّر بها جميعاً ، وهذا أصل من أصول بيان الجاحظ ، ورسائله في النساء ، والقيان ، وغير ذلك عامرة بهذا المنزع الذي يلامس فيه دقائق أحوال النفس ، ويكشف المستور ، وما يعمل الإنسان بجد

واجتهاد على إخفائه من أحوال وغرائز الكل يعانيها ، والكل يكذب على نفسه وعلى الناس في كبحها وسترها وإخفائها ، ثم تفاجأ بالجاحظ يطيِّر عنها كل ساتر يسترها ، ولا أعرف في العربية من يساوي الجاحظ في هذا الباب .

وقد يتفق بيان الجاحظ وأبي العلاء في هذه الخصوصية، وهي الإغراب ، ولكن سبيل كل منهما إليه غير الآخر، فبينما يكون خيال أبي العلاء ولغته وسيلته للإغراب فيتحول المعنى المألوف بين يديه إلى معنىً غير مألوف-كما رأينا في تحليلنا لرسالته إلى أبي نصر الفلاحي في فصل نمو المعاني وتكوينات الجمل وفي أغلب نماذج بيانه- أقول بينما يكون هذا هو سبيل أبي العلاء تجد الجاحظ يغرب في تحليله لقضية ما في اقتناص أسبابها، والبحث في كل أفق عن عللها، فيفاجئك بمعانٍ مطروحة بين يديك يجعلها أسباباً لقضايا لم تكن تظن أن لها بها علقه .

فبينما يرحل عقل أبي العلاء رحلة مبعدة في أثناء اللغة فيبس لك غريبها وحوشيها، ويأتي لك بأمثالها، ويكشف لك عن مستورها ، يرحل عقل الجاحظ رحلة مبعدة حتى يقتنص الحقائق الغائبة، والعلل التي لم يلتفت إليها أحد قبله، ويندس خلال النفس الإنسانية، ويحلل طبائعها، ويفاجئك بخباياها، ويحتج ويعلل حتى لا يدع لك مفراً من الاقتناع وكشف القناع .

* * *

وبعد هذه المحاولة التي اجتهدت فيها قاصدة إلى بيان شيء من مذهب أبي عثمان، ووسعت الكلام في مذهب أبي العلاء ، أضع نصين أحدهما لأبي العلاء والآخر للجاحظ ، وأترك القارىء يردد بصره وذوقه وفكره فيهما ، وحسبي أن أرصد الملامح العامة للفروق بين المذهبين من خلال النصين ؛ لأني أعلم علم اليقين أن الذي يكشف لنا الفروق بين المذاهب البيانية هو معاناتنا نحن مع هذه المذاهب البيانية ، ومحاولة استكشافنا بعقولنا وخبرتنا للفروق بين كلامٍ وكلام .

يقول أبوالعلاء في رسالته إلى رجل قائم بأمرالديوان والتي يبدؤها بالثناء على الرجل وما فعله وما أسداه للدواوين حتى أنه لو قُدِّرَ لها لنطقت داعيـة له(١) : « لو نطقت الدواوين لأثنت على الشّيخ ، لا زالتْ أموالُ الممالكِ محفوظةً بِشَبَاةِ قلمِه(٢) ،

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩ - ٢٥ .

(٢) شباة كل شيء : حد طرفه أو طرفه .

وأيدي الأيّامِ مكفوفةً أنْ تَعَرَّضَ بألمه ، ثَنَاءَ وِلْدةٍ صالحين، على أبٍ نَفَى الطّالحين ، وأَخَذَهم بآدابِ الأخلاقِ ، فشكروه حتّى التّلاق ، كانت تقولُ لو يُسِّرَ لها المقال[1] : بيدكَ أُنْشِطَ العِقالُ[2]» ثم يتوصل من قولها هذا إلى استحضار ديوان امرئ القيس، وما عساه يقول لو نطق؟! ومن خلال ذلك يدخل في عملية نقدية ممتعة، حيث يجعل كل قصيدة ناطقة تعيب على امرئ القيس ما وقع فيها من هفوات عروضية، بل ويتعرض أيضًا على لسانها لمعانيها ومضمونها ، يقول معقبًا على ما أنطق به دواوين صاحبه « فقولُها فيه خلافُ ما يقولُ ديوانُ امرئ القيس ، لأنه لو أُذِنَ له في الكلامِ ، لَعَقَدَ به كلَّ مَلام[3] ، فقالتْ « قفا نبكِ » وهي أُمُّ ما نَظَمَ من القريضِ ، والرّاتعةُ في الأنيقِ الأريضِ[4] : إن الكنديَّ أقرَّ في أبياتي بعهارٍ ، من سرٍّ يُكْتَمُ ومن جهار ، وسمّى « فاطمة » ولعله كاذب ، وفي حبالِ السَّفَهِ جاذب ، وزعم أنه عَقَرَ مطيَّة[5] ، وقطع بسواها الطيَّة[6] ، وقبضني خمسَ عَشْرَةَ مرةً قبضًا بيِّنًا [7]، ليسَ عندَ المُستمع هيِّنًا ، فأمَّا قَبْضٌ ليس يَبين ، فالقصائدُ به تستهين » ، هذا قول « قفا نبك » ، ثم يعقب عليه بثناء على الشيخ بحيث يجعل سياق كلامه سياق من يقارن بينه وفعله في دواوينه ، وبين امرئ القيس وديوانه تأمل : « ولكنَّ الشيخ أراه اللّه في نفسه وولده ، ما يُخَلِّدُ سُرورًا في خَلَده ، يُثْني عليه ما جَمَعَ من الحيازيم[8] ، ثناء السّاغبةِ على الرُّدُح لا الوَزيم[9] ، لكنَّ « قفا نبكِ » الغابرة ،

---

(١) أي الدواوين التي تثني على الشيخ لو كانت مما ينطق .

(٢) أنشط العقال : مدَّ أنشوطته فانحل . والمعنى بيدك تم التنفيس من خناق، وحدث الروح والانفراج .

(٣) أي لكان ديوان امرئ القيس عصب بصاحبه كل لوم ، وأخذت قصائده تتبارى في الشكاية منه وقذفه بالتهم .

(٤) الأريض : الواسع الكثير الخير ، وأرض أريضة : أي زكية كريمة .

(٥) يشير إلى قوله في المعلقة :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجبًا من رحلها المتحمل

(٦) الطية : المسافة التي يطويها المسافر ، والطية أيضًا الحاجة والوطر ، بسواها : أي بسوى الناقة التي عقرها لأنه ركب بعيرًا آخر :

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا   عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

(٧) القبض في العروض إسقاط الخامس الساكن .

(٨) الحيازيم : ضلوع الفؤاد .

(٩) الردح : الجفان الواسعة ، الوزيم : لحم ييبس ويدق .

تطعنُ على ابن حُجْر، وتزعم أنه آلفَ بُجْر ، لأنه سلك بها حُزُومًا ، وجعل بعضَها مَخْزُومًا[١] ... ولو تكلمت الرائية التي أولها :

لا وأبيكِ ابنـــةَ العامـــريِّ لا يدَّعي القـــومُ أني أَفِـــر

لشكَتْ ما صنع واشتكت ، وإنْ أَمكنهَا أن تبكي بكت ، تقول: خَفَّفَ مُشَدَّدات الحروفِ [٢]، وما حفل بتفاوتِ الصروفِ ، ولم يأتِ ما أتاه الشيخ ... هذَّبَ ديوان المملكة من التَّعْذير[٣] ، وما اعتمد على المعاذير ، ونزَّه ما حَسَبَ [٤] عن الوهم ، وخصَّه من الشَّرْح الواضح بأَوْفَى سَهْم . فأمَّا الكلمة التي أولها :

ألا انْعِمْ صباحًا أيُّها الطَّلَلُ البالي ....

فتتذكر ما ذكرت الكلمةُ الأولى ، وغيرُ يدِها بما قال الطُّولى ... » ، ويسترسل حتى يذكر سبع من قصائد امرىء القيس ثم يقول « والديوانُ الذي ينظرُ الشيخُ فيه ... لو كانَ إنْسياً لكان بهيَّ الصورة سنيَّ اللباس ، ليس بالقاطبِ ولا العَبَّاسِ ، بل يبسمُ كابتسامِ الكريمِ ، ويَقْتَضِيهِ شرفَ الشِّيَمِ كاقتضاء الغريم ... » وفي هذا الكفايـة .

وتأمل الآن هذا النص للجاحظ ، وهو يتحدث عن حاجة الناس للإخبار من رسالته (حجج النبوة) يقول[٥] : « ثم رجع الكلام إلى حاجة الناس إلى استماع الأخبار ، والتفقه في تصحيح الآثار فأقول : إن الناس قد استغنوا عن التكرير وكفوا مؤونة البحث والتنقير لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه قل فضله ، ومن قل فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العز، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن . وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمد ، وكيف يقصد من لا يعلم ، وما عسى أن يبلغ قدر سرور من لا يحس من السرور إلا بما سرت به حواسه ومسه جلده ، وكيف يأتي أربح

(١) البجر : الشر والأمر العظيم ، الحزوم : جمع حزم وهو الغليظ من الأرض ، الخزم : زيادة حرف أو حرفين أو حروف في أول الجزء .

(٢) أي أن بعض القوافي مثل « أفرّ » و« قرّ » و« سرّ » في الأصل مشددة فخففها لمناسبة القافية .

(٣) التعذير : التقصير .

(٤) ما حسب : أي ديوان الحساب (ديوان الخراج) .

(٥) الجاحظ ، عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ ، الرسائل الكلامية ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

الأفعال وأبعد الشريعة من ركب شراسة السباع ، وغباوة البهائم ، ثم لم يعط الآلة التي بها يستطيع التفرقة بين ما عليه وله ، والعلم بمصالحه ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعه ، ومخالفة شهواته ، وبها يعرف عواقب الأمور ، وما تأتي به الدهور ، وفضل لذة القلب على لذة البدن ، وأن سرور الجاهل لا يحسن في جنب سرور العالم ، وأن لذة البهائم لا تعادل لذة الحكيم العالم ، وأي سرور كسرور العز والرياسة ، واتساع المعرفة ، وكثرة صواب الرأي ، والنجح الذي لا سبب له إلا حسن النظر ، والتقدم في التدبير ... وهذا كله لا ينال إلا بغريزة العقل ، على أن الغريزة لا تنال ذلك بنفسها بما باشرته حواسها دون النظر والتفكر والبحث والتصفح ... ولو أن الناس تركوا وقدر قوى غرائزهم ، ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم ، والتفكر في معاشهم ، وعواقب أمورهم ، وألجئوا إلى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم ، دون أن يسمعهم اللّه خواطر الأولين، وأدب السلف المتقدمين، وكتب رب العالمين، لما أدركوا من العلم إلاّ اليسير، ولما ميزوا من الأمور إلا القليل ... فلما علم اللّه تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولايشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم، دون أن يرد عليهم آداب المرسلين، وكتب الأولين ، والإخبار عن القرون والجبابرة الماضين، طبع كل قرن من الناس على إخبار من يليه ، ووضع القرن الثاني دليلاً يعلم به صدق خبر الأول » .

تأمل طريقةالجاحظ في إشباع المعنى وتقصيه،والإفصاح عن المعاني المتضمنة في الجمل السابقة، والإلحاح على كشف جوانب المعاني وتأكيدها ، كما ترى في كلامه عمن ترك الاعتبار،وأنه لايحمد على خير أتاه، ولا يذم على شر جناه، وقد كان يكفي أن يصل بمن لا يعتبر إلى هذه الدرجة التي تجعله يفعل الخير وهو لا يدري فلا يحمد عليه، ويفعل الشر وهو لا يدري فلا يلام عليه ، وحسب المرء من الهوان أن يكون كذلك، ولا تجد في نفوسنا شيئًا بعد هذا المعنى الذي وصل بمن لا يعتبر في المهانة إلى قرارها الأخير ، ولكن الجاحظ يفتح أبوابًا للمعاني على طريقته، فيضيف أن من كان كذلك يفتقد القدرة على تذوق الخلال الإنسانية، ويفتح الكلام في هذا فيقول « ولم يجد طعم العز ، ولا سرور الظفر ، ولا روح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن». ثم يعيد بعد ذلك الجاحظ المعنى الأول الذي جلب على صاحبه هذا الذم وهو أنه لا يدري فيقول « وكيف يشكر من لا يقصد ، ويلام من لا يتعمد...».

وتراه أيضًا في قوله « ولو أن الناس تركوا وقدر قوى غرائزهم »، وكان هذا كافيًا لأنه يجمع كل ما جاء في الشرط بعده، ولكن الجاحظ أردف ذلك بقوله « ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم»، فاستخرج معنىً جديداً هو من أس مايدعو الإنسان إلى التفكير؛ لأن هيج النفوس لا يتم بشيء كما يتم بالبحث عن المصلحة ، ثم أردف « والتفكر في معاشهم وعواقب أمورهم»، وهذا داخل في الهيج من أصل البحث عن المصلحة، وفائدة ذكره هو النص على البحث والتفكير في المعاش، ثم يعيد الجاحظ رأس المعنى الأول الذي في قوله « ولو أن الناس تركوا وقدر قوى غرائزهم»، وأعاد هذا في قوله « وألجئوا إلى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم »، أي تركوا من غير إثارة، وإنما أعاده تعظيمًا لما بعده، وهذا نهجٌ ظاهر في بيانه .

وقول الجاحظ « فلما علم اللّه ... » جرى كلامه فيه على حذو كلامه السابق، وعلى حذو الظاهرة الأسلوبية التي لا نزعم أنها خاصة بالجاحظ، وإنما نؤكد أنها مما يكثر في كلام الجاحظ كثرة تدل عليه، فأنت تجد قوله « ولا يشعرون بعواقب أمورهم » رديفًا أسلوبيًا لقوله « لا يدركون مصالحهم بأنفسهم »، وهو مما يدخل على حد الصور التي بينت ، ومثله قوله« وكتب الأولين » بعد قوله « آداب المرسلين»، وكتب الأولين هي الجزء الأعظم من آداب المرسلين ، ومثله الإخبار عن القرون والجبابرة « والإخبار عن القرون والجبابرة » وهو الجزء الأعظم من «كتب الأولين» .

وهذا التدقيق ، وهذا الاستقصاء ، وهذه المتابعة ، التي تجدها في كلام الناس ولكنها عند الجاحظ أغزر وأظهر وأبهر ، وهي التي تجعل الكلام عنده يتشابك ويتداخل وتطول جمله ، حتى إنك لترى الجملة تداخلها جملة من الجمل يبنى بعضها على بعض ، ويرتب لاحقها على سابقها ، وهكذا حتى تشمل جزءًا كبيرًا من الصفحة كما ترى في النص السابق ، حيث لم تنته جملة « ولو أن الناس تركوا وقدر قوى ... » إلا عند قوله « ... إلا القليل » ، وكذلك جملة « فلما علم اللّه تبارك وتعالى ... » لم تنته إلا بنهاية النص .

ولا شك أن فروق مذاهب البيان فروق دقيقة جدًا لأن الناس جميعًا يشتركون في الوسائل وإنما يتغايرون في درجة استعمال هذه الوسائل ، ولا شك أن أبا العلاء كان يدقق ويستقصي ولكن الجاحظ نراه يفوق كل كتّاب العربية في هذا الشأن .

وهكذا راجع هذه الرسالة تجد أن هذا المهيع الذي وصفنا شائع فيها بل وشائع في كلام الجاحظ كله ، ولا نراه هو وحده مذهب الجاحظ ، وإنما نراه من أبرز مذهبه .

وعد إلى كلام أبي العلاء الآنف وتأمله جيداً ، وأول ما تلاحظه من فرق بين كلامه وكلام الجاحظ هو هذه المبالغات التي يُخرج فيها أبو العلاء الأشياء عن طبائعها ، ولا يخدعنك كلمة (لو) التي يحرص عليها فإن هذه المبالغات عنصرٌ من عناصر بيانه الشائعة ، وقوة خيال أبي العلاء هي التي تتصور الأشياء على غير صورتها ، فالدواوين تنطق بالثناء ، وشباة قلمه حفظت أموال الممالك ، وكفّت أيدي الأيام ، وكل هذا خيال، وتجسيم، وصور غريبة. والمبالغة تأتيك مرة ثانية في شكر الأولاد الصالحين شكرًا موصولاً ليوم التلاق ، ثم يستدعي هذا التجسيم للدواوين وتأنيسها، أعني صيرورتها في صورة أناس عاقلة تنطق وتشكر=استدعى هذا مثله في ديوان امريء القيس . ويقدم لنا أبو العلاء هنا خصوصية أخرى من خصائصه، وهي استدعاء كلمة (الديوان) الذي هو نظام اقتصادي وإداري في الدولة ، كلمة (الديوان) الذي هو ديوان الشعر، والجامع بينهما جامع لفظي بحت ، ثم تستدعي المقارنةاختيار ديوان من أقدم دواوين العربية، وأذكرها، وأشهرها، وأعلاها، ويجعل مع هذا الديوان المذكور والمشهور ذماً، ولوماً، وتهجيناً، واستمراراً لنزعة الخلق وإخراج الأشياء من صورها، فيُنطق أبوالعلاءالقصائد قصيدة قصيدة، وكل قصيدة تذكر إساءات امريء القيس فيها، وليس هناك قصيدة واحدة تذكر محمدة لهذا الشاعرالعظيم، فـ«قفا نبك»ترتع في الأنيق الأريض،وهذه محمدة ولكنها تسكت عنها وتحدث بعهار امريء القيس، وكذب امريء القيس، وسفهه، وأخطائه العروضية.

ثم يستحيل ديوان الشيخ رجلاً « سني اللباس، ليس بالقاطب ولا العباس » وهكذا.. ، ولم نجد شيئًا من هذا البتة في كلام الجاحظ ، وإنما هو كما رأينا لغة سهلة عذبة قريبة ، ولكنها تندس في قلب الأشياء ، وتستخرج أغوارها وأسرارها .

وقد رأيت في نص أبي العلاء احتفاله بألفاظه ولغته ، وهذا الجرس العجيب لها ، وإنك لا تجد مثل هذا لدى الجاحظ ، فلم نقع فيما سبق ولا في الرسالة كلها على غريب من الألفاظ إلا في النادر ، ولا تجد حفاوة مبالغ فيها بالسجع ، والجناس ، والجرس ، والتوقيع إلا ما أتى عفواً وعلى غير اضطراد . أضف إلى

ذلك أن الخيال الذي كان مطية أبي العلاء الذلول، بل كان أجنحته التي يمخر بها في فضاء الفكر، ويحلق ما حسن له التحليق ، تجده مغيبًا لدى الجاحظ، فلا يظهر إلا نادراً، وإذا ظهر كان بسيطًا لا ابتكار فيه في حدود ما يخدم فكرته ومعناه، فلا تشبيهات ولا مجازات ممتدة ، بينما لا يخلو المقطع في كلام أبي العلاء من مجازٍ أو تشبيه، وتجد نفسك معه مع مخيلة تعشق أن تبعث في كل شيء الحياة، وأن تنطق الأخرس، وأن تخرج الأشياء عن طبائعها .

فاللغة التي يستخدمها الرجلان مختلفة تمامًا كما رأينا ، والحق أنا نقف أمام عقليتين مختلفتين كل الاختلاف، فإن اتفقا في طول النفس، وغزارة الحس، والإغراب، وإن اتفقت أساليبهما في مطل الفكرة أحيانًا ، إلا أن هذا البون الذي رأيت بين لغة الرجلين يخفي وراءه بونًا بين عقليهما وطبعيهما ، يظهر ذلك جليًا في طريقة تعاطيهما مع الفكرة التي يتناولانها ، فالجاحظ لا يفرق بين المادة التي بين يديه، فكل فكرة قابلة لإعمال العقل فيها، والبحث عن عللها وأسبابها وتشقيقها عن مكنوناتها، لذلك كان لا يتورع أن يخوض فيما لم يخض فيه غيره من الكتّاب ، فالمعنى عندما يتناوله عقل الجاحظ يتحول إلى قضية فكرية صرفة يحللها ويفتتها ما شاء . أما لو تناوله أبو العلاء فلا تستطيع أن تتنبأ بما يمكن أن تتفتق عنه عقليته ومخيلته المولدة، ولكن لنا أن نتنبأ بعالم مسحور من اللغة العذبة، والخيال المغرب. فلو افترضنا مثلاً أن الرجلين أرادا الاعتذار، فربما تجد الجاحظ يبحث غالبًا في قضية الاعتذار، وجذورها في اللغة، وأحوال المعتذرين، ومتى يكون المعتذر صادقًا؟ وما الذي يدعوه إلى الكذب؟! وما الأغلب في الاعتذار من الأقوال؟ وكيف تختلف طبائع الشعوب وطقوسهم فيه؟ وهل الاعتذار غاية؟ وما الحاجة الداعية إليه ؟ ! نقول ربما ، وربما في المقابل تجد أباالعلاء يقدم بين يدي اعتذاره بما قاله لخاله في رسالته السابعة مطلعه من بغداد[1] « وَرُبَّ سَامعٍ خَبَري لم يسْمَع عُذْري[2]، والمَعَاذِرُ مَكَاذِبُ ، غَيْرَ أَنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أهلَه[3] ، فإن قالَ أدامَ اللّهُ عزَّه يَأْبَى

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٨٠ – ١٨٢ .

(٢) هذا مثل ومعناه: لا أستطيع أن أعلنه لأن في الإعلان أمرًا أكرهه ولا أستطيع أن أوسع الناس عذرًا.

(٣) مثل يضرب للنصيح غير المتهم لمن تنصح له .

الحَقِينُ العِذْرَةَ [١]، وإذا سمعت بِسُرى القَيْنِ فاعلم أنه مُصْبِح[٢] ، وفي النَّوى يَكْذِبُكَ الصَّادِقُ [٣]، فوالذي أَخْرَجَ الجِذْعَ من الجَرِيمَةَ ، والنَّارَ من الوَثِيمَةَ [٤]» ما فعلت كذا وكذا إلا لكذا !!

وربما أضاف إلى ذلك بأن يجعلك أمام جبال تنطق لتعتذر عنه ، أو قصة مفتعلة من مخيلته يجعل فيها أحد الحيوانات معادلاً له معتذرًا ، ثم يسخر من خلالها ما شاء من المعتذر ومن المعتذر له ، وقد يستغني عن هذا كله ليُجري الكلمة على مرادفاتها في اللغة ، أو معانيها المختلفة ، ويتلاعب بك وبعقلك ، ويضمنها ما شاء من أفكاره وآرائه كما فعل في رسالة الأخرسين[٥] مثلاً .

* * *

(١) يضرب مثلاً للرجل يعتذر ولا عذر له .

(٢) مثل يضرب للرجل يعرفه الناس بالكذب فلا يقبل قوله .

(٣) مثل يضرب للصدوق يحتاج أن يكذب كذبة .

(٤) الجذع : ساق النخلة ، والجريمة : النواة ، الوثيمة : الحجارة .

(٥) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/٤٩ – ٦٩ .

ثانياً - موازنات في المذهب البياني بين ابن العميد وأبي العلاء :

وقد تخيرنا في هذا الفصل رسالة لابن العميد يعاتب فيها بعض إخوانه كأنموذج لبيانه في رسائله الإخوانية ، نريد بها التمييز ما بين سمته من جانب وسمت أبي العلاء والجاحظ من جانب آخر ، وسوف نسترفد بشذرات من رسائل أخرى إذا دعتنا الحاجة لذلك .

ونحن إذ نكتب عن مذهب ابن العميد لا نكتب كلمة واحدة تدل على أنه الذي اخترع هذا المذهب وابتدعه ، وإنما نتحدث عن المذهب الذي أقام بيانه عليه ، وهذا لا يعني أبداً أنه صاحبه الذي ابتدعه ؛ لأن معرفة نشأة المذهب عمل آخر لا بد فيه من الرجوع إلى التراث الأدبي ودراسته من وجه آخر غير الذي نحن فيه .

وغرضنا من هذه الدراسة أن نزداد قرباً وفهماً لخصوصيات وسمت بيان أبي العلاء بالدرجة الأولى .

وبيان ابن العميد إذا وضع بين بيان الجاحظ وأبي العلاء كان بياناً ملبساً في تمييز سمته عن سمتهما في آن واحد ؛ ذلك أن الرجل قد يشترك مع الجاحظ في الميل إلى تشقيق المعاني والإحساس بأن الجملة الأولى بقي بها بقية تحتاج إلى ذكر فيستقصيها، إلا أن طريق الرجلين مختلفة، فهي مع ابن العميد أقرب إلى الترادف، وهو يزيد على الجاحظ بأنه يلتزم فيها غالباً أن تكون بنفس الحذو فيتصاقب فيها البناء والمعنى ، وهو في هذا الأخير يقترب من أبي العلاء ، فكما ترى فإن بيان ابن العميد وكأنه حالة وسط بين بيان الرجلين - كما جاء في الزمن الوسط بينهما - فبينما يشترك مع الجاحظ في تشقيق الأفكار على طريقته ، يشترك مع أبي العلاء في الاعتناء باللغة وتنميقها ، فهو يشترك مع أحدهما في شيء ما تلبث وترى له فيه سمتاً قد يقرب به من الآخر ، ثم تجد في هذا القرب ذاته خصوصية تجعله يختلف عنه أيضاً ، فهو يتميز عن الجاحظ بنزوعه البارز إلى المجاز مما يجعله يقترب من أبي العلاء ، ثم ما يلبث ويبرز الاختلاف بين طبيعة مخيلة الرجلين ، فبينما تسيطر على أبي العلاء نزعة الغلو والإغراب وخلق أساطير تصدم وتثير ، يغلب على ابن العميد خيال شاعر قريب المأخذ .

ولكي نقف على كل ما قلت دعنا نتأمل بيانه من الرسالة التي أشرت إليها[1] :

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٨١٩/٢ .

« وصل كتابك فصادفني قريبَ عهدٍ بانطلاق ، من عنَتِ الفراق ، وأوقفني مستريحَ الأعضاء والجوانح من حَـرِّ الاشتياق ؛ فإنّ الدهرَ جرى على حكمِه المألوف في تحويل الأحوال ، ومضى على رَسْمه المعروف في تبديل الأبدال ، وأعتقني من مخالّتك عتقًا لا تستحقُّ به ولاء ، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجبُ معها دركًا ولا استثناء ، ونزع من عُنقي رِبْقَة الذّل في إخائك بيدي جفائك ، ورشّ على ما كان يحتدم في ضميري من نيرانِ الشوق ماء السلو ، وشنَّ على ما كان يلتهبُ في صَدْري من الوَجْد ماءَ اليأس ، ومسح أعشار قلبي فلأمَ فُطورَها بجميل الصبر ، وشعبَ أفلاذَ كبدي ، فلاحم صدوعَها بحُسْن العزاءِ ، وتَغلْغَل في مسالك أنفاسي فعوّض نفسي من النزاع إليك نزوعًا منك ، ومن الذهاب فيك رجوعًا دونك ، وكشفَ عن عيني ضبابات ما ألقاهُ الهوَى على بصري، ورفع عنها غيابات ما سَدَلَه الشك دون نظري، حتى حدر النقاب عن صفحات شيَمك ، وسفرَ عن وجوه خليقتك ، فلم أَجِدْ إلا منكرًا ، ولم ألق إلا مستكبرًا ، فوليتُ منها فرارًا ، ومُلِئتُ رعبًا ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت إليك ذميما عهدك » .

ونكتفي بهذا القدر منها .

وقد قلنا بأن ابن العميد يشترك مع أبي العلاء والجاحظ في مطل كلامه وطول نفسه إلى حد ما وتشقيقه للأفكار،إلا أن طريقه في ذلك غير طريقيهما، فبينما يأسر الجاحظ الغوص في أعماق الفكرة ، والبحث عن أسبابها ، وعللها ، وعلائقها بغيرها ، وطبائع الناس في التعاطي معها ، وبينما تجد أبا العلاء محللاً لفكرته ليصل بها الغاية ، ويبالغ بمعناه ما شاء ويغرب فيه ، فيفاجئك بلغته التي عبر عنه بها ، وبما متحه من خيال جامح = ترى ابن العميد وإن كان يشترك مع أبي العلاء في استرفاد مخيلته في هذا الشأن إلا أن سبيله ليس سبيلهما وطريقه ليس طريقهما ، إنما هو يتناول الفكرة ويمطل الكلام فيها لا عن طريق تنميتها وأخذها إلى جهات دون جهات ، وإنما عن طريق تقليب معناها على أكثر من وجه ، وأكثر من صورة ، وأكثر من صياغة ، وأكثر من مجاز ، وكلما اختلفت الصياغة تغيرت هيئة معناه وإن كان أصله باقٍ على ما هو عليه ؛ لذاك قد تظن في بداية النظر أن الرجل يكرر معناه بألفاظ جديدة فحسب ، وإنما هو كأنه في رحلة مع قوالب اللغة ينتقي له أفضل قالب ، فيعبر تارة بهذه الصياغة معتمداً على هذه الكناية ، ثم

يدعهما ليتناول غيرهما ولكن يده لا تبعد في الأخذ ، بل تأتي بأخرى من مكان قريب ، فلا يكاد المعنى ينعتق من بين يديه إلا وقد كُرر على الأقل مرة أخرى في صورة أخرى .

ولو تأملت معي فإن معنى الرجل هنا هو أنه يريد أن يقول لصاحبه بأنه قد اطرح هواه ، فانظر كيف يقلّب المعنى على وجوهه حيث يبدأ بقوله : « وصل كتابك فصادفني قريب عهد بانطلاق من عنت الفراق، وأوقفني مستريح الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق » ، ولا تغفل عينك هذا الحذو الواحد في البناء ، وإنه ليكاد يكون سمت بيانه الأبرز . وتأمل حفاظه على السجع الذي قد يتطور ليكون لزوم ما لا يلزم بزيادة عدد الحروف المتفقة في السجعتين ، وربما تحول إلى جناس ، ولكن هذا التحول يكون في القليل النادر ، وليس كأبي العلاء فإنه يكون أمراً أقرب إلى الاضطراد . وليعلل لما قاله من قبل يقول : « فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال » وهذا هو شأن الدهر ، وهو يريد أن يقول بأن ما حدث لي من تحولي من الشوق إليك إلى الضد من ذاك ، وتغير حالي من الرغبة فيك إلى عدمها (وهذا هو معنى الجملتين الأوليين في مفتتح الرسالة) فإن هذا من سنن الدهر المعروفة بأنه لا يُبقي أحداً على حال ، ثم يعطف على هذه الجملة بأخت لها معنىً ولفظًا وحذواً « ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأبدال » فـ (جرى) أخت (مضى) ، و (رسمه) أخت (حكمه) ، و (المعروف) أخت (المألوف) ، و(تبديل الأبدال) أخت (تحويل الأحوال) ، فمراعاة النظير أمر بارز في بيان ابن العميد ؛ لأنه بحاجة إليه في تقليبه لمعناه على أكثر من صيغة . وكأن الرجل هنا لم يزد على أن أعاد معناه بلفظ جديد ، ولكن ما بين الصياغتين من دقيق فرق يجعل هيئة المعنى تختلف شيئًا في الثانية عن الأولى ؛ لأن في (الرسم) وهو « الأثر أو بقيته » شيء غير ما تراه في (الحكم) من الغلبة والسلطة ، أضف إلى ذلك أن (التحويل) وإن كان من باب (التبديل) إلا أن في التحويل فقط تغييراً للوجهة، ولكن في التبديل اطراح صريح للشيء واستبداله بآخر ، لأن بَدَّل الشيء غيّره ، وحوّل الشيء من حال الشخص يحول أي تحرك ، فالجملة الثانية أوضح ، وأسلس ، وأقرب في الدلالة على معناه .

ثم يعطف على هذا بقوله« وأعتقني من مخالّتك عتقًا لاتستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركًا ولا استثناء » ، وهذا الذي يقول هو مطوي

في قوله (تحويل الأحوال)، و(تبديل الأبدال)، وهنا يبدأ ابن العميد في تقليب هذه الفكرة وهي تخليص الزمن له من محبة صديقه، فانظر كم من الجمل يسوقها وكلها تسبح في هذا المعنى، فالجملتان السابقتان الأولى منهما فيها صورة، وهي أنه كان لهذه المحبة (المخوّل : المعظم، فتكون مخالّتك أي تعظيمك) بمثابة العبد المملوك، فأتت يد الزمان لتعتقه منها عتقًا لا يبقي لها عليه ولاءً أو عهدًا بعد ، ثم تراه مع الثانية وقد برأه الدهر من عهد الصداقة براءة لم يعد فيها مراجعة لذلك الصديق «وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركًا ولا استثناء » ، وهذا في حاق معناه نفس المعنى السابق، له ثم تراه يقول « ونزع من عنقي ربقة الذل في إخائك بيدي جفائك »، ويكاد معناه هنا يكون نفس معنى الجملة الأولى في هذا « وأعتقني من مخالتك ...»، وترى أن (إخائك ، عهدك ، مخالتك) كلها وإن كانت بينها فروق في معانيها الوضعية إلا أن ما تدل عليه هنا في سياق الرجل وكلامه هو ذاته تقريبًا ، العهد والصداقة والمحبة السالفة انفصمت وانتهت، وقد تخلص منها تخلصًا وكأنها قيدٌ يثقله وعبودية تذله وتلزمه، فنجا منها نجاة تستحق الغبطة والسرور، وأنت تلاحظ بأنه يعطف على غير عادته على جملتين بنفس الحذو بثالثة هي بنفس المعنى تقريبًا ولكنها حذوٌ جديدٌ ، وتبقى حذوًا مفردًا لأنه لا يعطف عليها بأخرى لها نفس الحذو .

وهذا يعني أن الحذو له نظام في كلام ابن العميد ، وأنه حذو ازدواج فقط، وكأنه أصل في النغم الذي يبني كلامه عليه ، لذلك تركه رغم كون الجملة الثالثة بنفس المعنى ، وتركها بناءً منفردًا وعطف عليها جملتين أخريين لها حذوٌ جديد .

وتأمل ثوب فكرته الجديد « ورشَّ على ما كان يحتدم في ضميري من نيران الشوق ماء السلو، وشنَّ على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس »، فأنت تراه كسابقه في التزام الحذو الواحد ومراعاة النظير في الألفاظ المكونة لكل منهما، فأنت بإزاء مجاز يصور الفكرة، فبعد أن أدار المعنى على صياغات مختلفة بدأ في تكاثف المجازات له، حيث جعل للسلو ماءً يرش به نار الشوق فيطفئها ، وللشوق نارًا، ففي (شنَّ ، ورشَّ) استعارة تصريحية تبعية في الفعل بمعنى سكّن وهدّأ ، وفي (ماء السلو ، ونيران الشوق) استعارة مكنية ، ثم جعل لليأس ماءً أيضًا ورشَّ به نيران الوجد والمحبة فأطفأها، فلا يكاد المعنيان يختلفان، إنما هما يتناغيان كل التناغي لفظًا وجرسًا،وأنت تلاحظ هنا أن مجاز ابن العميد مجاز

مألوف متداول فـ (نيران الشوق ، والوجد) من المجازات المبتذلة ، وكذلك (ماء السلو واليأس) ، ثم يعقب على ذلك بجملتين أخريين لهما نفس الحذو حيث يقول «ومسح أعشار قلبي فلأم فطورها بجميل الصبر ، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء»، وهي في الحقيقة أربع جمل ، جملتان فعليتان ترتب الثانية « فلأم فطورها ...» منهما على الأولى « ومسح أعشار ...»، ثم عطف عليهما جملتين ترتبت الثانية « فلاحم صدوعها...» منهما على الأولى« وشعب أفلاذ ...». ولاحظ أنه رغم كونه قد ترك السجع مع هذه الجمل إلا أنه مازال محتفظًابنفس الحذو.

وجملة معناه ومحصوله هنا أنه قد لم شعث نفسه وقلبه في كلا الجملتين ، فقوله « ومسح أعشار قلبي فلأم فطورها » أخت « وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها » ، ويكاد يكون التشابه والتصاقب في البناء دليلاً على قوة التصاقب في المعنى فـ (لاحم) أخت (لأم)، و (الفطور) أخت (الصدوع)، و (الصبر) أخو (حسن العزاء) ، وفي معاني الشوق والمحبة والحنين الكناية بالكبد والقلب تكاد تكون واحدة . وهذا من تقليبه لمعناه على أكثر من مجاز وصورة ، وهو لو تأملت تكرار لفكرته الأم وإلحاح عليها ، وإن كان تعبيره عنها في كل مرة بصورة جديدة من شأنه أن يضيف شيئًا ما للمعنى ؛ لأن هيئة المعنى قد تغيرت ولا بد بتغير هيئة المبنى ، إلا أن هذه الزيادة في المعنى ليست هي مطلب ابن العميد الأول هنا ، وإنما مطلبه ترسيخ نغمه في النص ، ذلك أنه مما لا شك فيه أن مجيء الجملة الثانية متوافقة في بناء النغم مع الجملة الأولى يحي نغم الجملة الأولى ، ويثبته، ويكرره ، وكأنه يغرسه في النص ، فما بالك والمعنى يتكرر لديك في ثنائيات نغمية -إن جاز لنا التعبير- وكأنها مقطوعة لابن العميد يعزفها على أوتار اللغة التي يمتحها من هذا المعنى .

وهو هنا وإن كان نفسه في الفكرة الواحدة وتقليبها طال فهو أحيانًا يتوقف بها عند تقليبها على صياغتين على الأقل ، ولكن معناه نفسه يطول بتفريع وتحليل ربما لا ننكر هذا ، ولكن هذا الذي رأيت من تصرفه هو شيء في سمت الفكرة عندما تظهر على لسانه ، لا يفتأ يلوح إما في حيز بسيط أو في حيز يمتد ، فيتكرر مع كل جملتين ذات نسق واحدٍ معنىً وحذوًا ، أو تراه يستمر مع مجموعة من الجمل مختلفة الحذو . وسمت الفكرة هو سمت البيان بالدرجة الأولى.

وقد سبق وأشرنا بأن هاتين الجملتين أو الكلمتين من بيانه ذات الحذو الواحد

والتي يستل ابن العميد إحداها من الأخرى في المعنى=أن الشأن فيها بين أن يكون هناك فرق بسيط في المعنى وبين أن يكون الترادف ذاته ، وقد كان ذلك ظاهراً فيما حللناه من كلامه وإن كان تركيزنا فيه على تقليبه لمعناه ، ولكي تقف على ذلك بوضوح أكبر تأمل هذا الشاهد القصير الذي يحضر لك الأسلوبين معًا من رسالته لأبي عبدالله الطبري ، وقد عقد فيها مقارنة بين الرجل والدهر يقول من ذلك(١) «وأشكوه إليك فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لبان ، وفي استيطاء مركب العقوق شريكي عنان ، فإنه قاصر عنك في دقائق مخترعة أنت فيها نسيج وحدك ، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة أنت فيها وحيد عصرك » .

فجملتي الشرط بينهما دقيق فرق في كونه في الأولى كان المعنى خاصاً بالصداقة وهي محور الحديث هنا ، وفي الثانية كان في المعنى شيء من العموم حيث جعله عقوقًا على الجملة دون تخصيص بكونه عقوق صديق فحسب ، والذي اختلف بينهما الصورة وما ينشأ عنها من اختلافٍ في هيئة المعنى ، فهما في الأولى إخوة في الرضاع ، وكأن القطيعة كانت أمًا مرضعة لهذين الشريكين (الصاحب ، والدهر)، فأرضعتهما لبانها فخالط منهما الدماء ، ثم تراه في الأخرى وقد أصبح العقوق مركبًا وطيئًا يشتركان في إرخاء عنانه ويوجهانه الوجهة التي يريدان .

وهذا الذي رأيت عندما تختلف صورة المعنى بالمجاز فتزيد مساحة الاختلاف بين هيئة المعنى في كلٍ ، وكلما كان الفرق فرقًا فقط في الصياغة قربت المسافة بين المعنى في كلٍ منهما. ثم تكون الجملتان التاليتان وهما جملتا الجواب « فإنه قاصر عنك في دقائق مخترعة أنت فيها نسيج وحدك ، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة أنت فيها وحيد عصرك » والمعنى فيهما أقرب ما يكون إلى الترادف ، فـ(قاعد عن) أخت (قاصر عن) ، و (نسيج وحدك) أخت (فريد عصرك) ، و(اللطائف المبتدعة) أخت (الدقائق المخترعة) .

وهنا يفترق ابن العميد عن الجاحظ كون الأخير غالبًا ما يكون الفرق لديه ظاهرًا بارزًا ، فجملة الجاحظ الثانية فيها معنى زائد عن الأولى زيادة ملحوظة، وكأنها وهي تؤكد معنى ما قبلها وتستقصيه تؤسس معنىً جديدًا .

وجملة ابن العميد الثانية ليس فيها من الزيادة على الجملة الأولى إلا القليل، وابن العميد يعلم ذلك ولهذا جعل ثراء النغم بها عوضًا عن ثراء المعنى . ولم يهتم

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ، ٢/٨٢٠ - ٨٢١ .

الجاحظ في المقابل بسجع، ولا حذو واحد ، لأن حمولة جملة الجاحظ من المعنى والخواطر والأفكار تجعلها مقبولة وقارّة في مكانها ، فجملة ابن العميد الثانية تأكيد نغم ، وتأكيد تثقيف ، وتأكيد صقل ، وهذا ما صنعه ابن العميد في الكتابة ، ابن العميد استخرج من العربية نغمها العالي ورنينها العذب الأخّاذ .

ولترى هذا بجلاء تأمل هذا المقطع من رسالة يعاتب فيها صديق على جفوته ويجعل من شكوى الدهر مقدمة لهذا العتاب يقول(١) : « أنا أشكو إليك – جعلني الله فداك – دهراً خؤوناً غدوراً ، وزماناً خدوعاً غروراً ، لا يمنحُ ما يمنح إلا ريْثَ ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا رَيْث ما يَرْتَجع ، يبدو خَيْرُه لمعًا ثم ينقطع ، ويَحْلُو ماؤه جُرعًا ثم يَمْتَنِع . وكانت منه شيمَةٌ مألوفة، وسجيَّةٌ معروفة، أن يُشفع ما يُبْرِمُه بقُرْبِ انتقاض ، ويُهْدي لما يبسطه وَشْكَ انقباض ، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط ، وإن خان وقَسَط ، ونَرْضَى على الرغم بحكمه، ونَسْتَتِمُّ بقَصْده وظلمه، ونعتدّ من أسباب الميسرة ألاّ يجيء محذورُه مصمتًا بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهُه صرفًا بلا مِزاج ، ونتعلّل بما نختله من غَفَلاته ، ونسترقُهُ من ساعاته . وقد استحدث غير ما عرفناه سُنَّةً مبتدعة ، وشريعةً متَّبَعة ، وأعدّ لكل صالحةٍ من الفساد حالاً ، وقَرَن بكل خَلَّة من المكروه خلالا ، وبيان ذلك – جعلني الله فداك – أنه كان يَقْنَع من معارضته الإلفين ، بتفريق ذات البَيْن ، فقد انثنى مَمْنواً(٢) فيك بجميع ما أوْغَرَه ، وما أطويه من البَلْوَى منك أَكْثَرُ مما أنشرُه » .

فأول ما يصف به الدهر قوله « دهرًا خؤونًا غدورًا ، وزمانًا خدوعًا غرورًا »، وقد وصف المفعول به هنا بوصفين ، ثم عطف عليه آخر ووصفه بدوره بوصفين ، ثم كان كل ذلك على وزن واحد ، وكانت الكلمتان الأخيرتان (غدوراً ، غروراً) متجانستين جناسًا لاحقًا .

ثم يبدأ بعد ذلك في تشقيق أوصاف للدهر في أربع جمل متتالية تصاقبت كل اثنتين منها حذواً ومعنىً تأمله يقول : « لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعًا ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعًا ثم

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٦١ – ٥٦٢ .

(٢) مناه يمنوه : أي ابتلاه .

يمتنع»، فما تراه في الجملة الأولى هو ذات المعنى في الجملة الثانية «ولا يبقى ...»، فابن العميد كأنه يحجل في مساحة ضيقة لا يبرحها، تتسع ألفاظه وتضيق معانيه، يقف عند المعنى الواحد ويصوغه مرتين أو ثلاثة، واللغة أقرب إلى الترادف، والفروق في الألفاظ والمعاني محدودة جدًا، ما أشبه قوله (يمنح) بقوله (يهب)، وقوله (ينتزع) بقوله (يرتجع)! وكرر الجملتين تجد نفسك وكأنك تخطو مكانك ولم تتقدم خطوة، وطريقة الصياغة الواحدة وكأنه يستريح بها، فالجملتان متفقتان في عدد الكلمات، وأحوالها، وتراكيبها، وهذا ضرب من التقطيع النغمي للغة، وصناعة موسيقية للنثر لا تغفل.

إلا أنك تلاحظ أن الجملة الثانية كانت أكثر صقلاً، وأرضى نغمًا، وأطرب إيقاعًا، وأحلى مذاقًا، فالانتزاع أشد من الارتجاع وإن كانا من حقل واحد في المعنى، وكأن الرجل عندما جعل عطايا الدهر هبات (في الثانية) رقّ معناه معها فقال (يرتجع) ولم يقل (ينتزع).

وتأمل قوله التالي « يبدو خيره لمعًا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعًا ثم يمتنع »، فالجملتان بنفس المعنى تقريبًا إلا فرقًا بسيطًا يحدثه اختلاف المجاز في كلٍ، فالزمان في الأولى له ضوء يضيء ثم ينقطع وهذا متداول قريب، وفي الثانية له ماء يحلو ويعذب ثم يمتنع وهذا أيضًا قريب، إلا أنه أرق وأعذب من الأول، وهذا ما وجدناه مع الجملتين السالفتين.

فالجملة الثانية والتي تأتي على حذو الأولى في بيان ابن العميد غالبًا ما تكون أقرب إلى الدلالة، وأوضح في العبارة، وأسلس في سياسة البيان. تأمل قوله التالي: « وكانت منه شيمة معروفة، وسجية مألوفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض »، ففي الجملة الأولى يجعل ابن العميد منائح الدهر وخيره حبلاً يُبرم ويوثق ثم لا يوشك أن ينتقض (ذلك أن أصل معنى أبرم من أبرم الحبل جعله طاقتين ثم فتله، واستخدامه في إبرام الأمور ونحوها استخدام مجازي)، وفي الجملة التالية جعله وكأنه بساط يبسط أو أمر يبسط فترجو منه هذه البسطة ثم لا يوشك وأن يضم ضمًا فيحرمك من ذلك البسط، وتأمل أي الجملتين أوفى وأقرب للدلالة ؟ وأيهما أعذب وأرق (يشفع) أم (يهدي)؟ ! وشيء يبرم فينتقض، أم شيء يبسط فيقبض ؟ !

ونقول أن الثانية أقرب في الدلالة لأن المجاز فيها أضاف معنى التهكم بنعم الدهر ، فاستخدام كلمة يهدي جعلت الدهر ساخراً بالناس ، فهداياه لطالبيه هي الـرزايا !!

ثم عد وتأمل فما هذا الذي ينشر ثم يضم ، وهذا الذي يبرم ثم ينتقض ، إلا خيره الذي يلمع ثم ينقطع ، وماؤه الذي يجرع ثم يمتنع ، وهو أيضًا منائحه التي تمنح ثم تنتزع ، وهباته التي توهب ثم ترتجع !!

وكأن ابن العميد يبحث لمعناه عن اللفظ الأعذب والأرق والأوفى ، فيجريه مرة على هذا اللفظ ومرة على ذاك ، ثم يعود عليه من جديد باحثًا عن لفظ أفضل وبناء أعذب ، وكأننا أمام محاولات لترقيق نغم النثر واقترابه من الشعر ، فقد كان يكرر ليؤكد نغمًا لا ليتصيد معنىً جديداً كما أسلفنا ، هكذا في بعض الأحيان وليس في كل الأحوال، فله رسائل كان يسترسل فيها مع معانيه .

ثم أنت مع كل ما سبق تلاحظ هذا الحذو الواحد :

دهرًا خؤونًا غدورًا .

زمانًا خدوعًا غرورًا.

لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتــــزع .

ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع .

يبدو خيره لمعًا ثـــم ينقطع .

ويحلو ماؤه جرعًا ثم يمتنع .

وتأمل السجع الذي حافظ عليه في كل فاصلة مما سبق (غدوراً ، وغروراً)، وأيضًا (ينتزع ، ويرتجع) ، و (ينقطع ، ويمتنع) ، وليس هذا من مذهب الجاحظ وإنما هو من مذهب أبي العلاء مع إضافات جعلت سجعه متميزاً؛ ذلك أنك تجد هنا أربع فواصل تكرر معها نفس حرف الروي وهذا ما لا نجده لدى أبي العلاء، حيث يحرص أبو العلاء على ألا يكرر سجعته في أكثر من فاصلتين إلا في القليل النادر. وهذا الذي رأيت من ابن العميد في التزام الحذو الواحد مع السجع يدل على فرط عنايته بلغته وتثقيفها، وهذا سمت غالب على بيانه .

والأمر الذي لا يغفل هو هذه المراوحة التي تلاحظها في طول فواصله ، وتأمل التالي واجعل سابقه منك على ذكر : « وكانت منه :

شيمة معروفة .

وسجية مألوفة .

أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض .

ويهدي لما يبسطه وشك انقباض .

فالفاصلتان الأخيرتان أطول من الأوليين ، وكأن هناك امتداد واستراحة ، تأمل أيضًا : « وكنا :

نلبسه على ما شرط .

وإن خـــان وقسط .

ونرضـــى على الرغم بحكمه .

ونســـتئم بقصـده وظلـمه .

ألا يجيء محذوره مصمتًا بلا انفراج .

ولا يأتي مكروهه صرفًا بلا مـــزاج .

فالفاصلتان الأخيرتان طويلتان بالنسبة إلى ما قبلهما ، وهذا هو صقل ابن العميد وتنغيمه ، وكأنك أمام مقطوعات شعرية لا نثرية ، وهذا النظام الذي أريتك إياه يستمر تأمل : « وقد استحدث غير ما عرفناه :

سنة مبتـــدعة .

وشريعة متبعة .

وأعد لكل صالحة من الفساد حالاً .

وقرن بكل خلة من المكروه خـــلالاً .

وهذا غـالبٌ وليس بلازم ، لأنـه ليس شعـرًا إنمـا هـو نثـر كـالشـعـر ، وكـأن عمل ابن العميد وأثره في النثر إنما هو في زيادة صقله وتثقيفه للنص من جهة موسيقاه، وكأنه يخلق ضروبًا من الرنين وضروبًا من التوقيع فيه، وقد نجح في ذلك. ولا نغفل أن ابن العميد كان كاتبًا يقول الشعر ، وهذا يذكرنا بأبي العلاء الكاتب الشـاعـر ، وقـد لاحظنا أن أبا العـلاء ينقل الشـعـر إلى النثـر ، بمعنى أنه يذكـر موضـوعات شعرية في نثره ، وصـور شعرية فيـه ، أما ابن العميد فإنه كأنه ينقل

النثر إلى الشعر في هذا التقطيع النغمي الذي رأيناه محسوبًا بدقة .

وهذا الحذو الواحد الذي رأيته في كلامه لا نستطيع أن نعده من ملامحه الأسلوبية إلا إذا اعتبرنا ما سبق بيانه من طريقة خاصة في بناء هذا الحذو ، حيث تجد جملة ثانية أسلس وأرق وأبين من التي قبلها ، ثم تأتي جملة أطول تتولد منها نظيرتها على إيقاع آخر وهكذا .

وهذا الحذو الذي يحافظ عليه ابن العميد بين الجملتين هو ما يميز طريقته في تشقيق المعاني عن طريقة الجاحظ بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من قبل من شأن فرق المعنى بين الجملتين ، وهذا الحذو ذاته وهذا التثقيف -كما أسلفنا- هو ما يقرب سمت ابن العميد من سمت أبي العلاء .

تأمل قول أبي العلاء من رسالته المنيح يصف السلام المبعوث إليه من الوزير وأثره[١] « وبلغ وليَّهُ السلامُ الذي لو مرَّ بِسَلِمَةٍ وارية لأغدَقَتْ ، أو سَلَمةٍ عارية لأوْرَقَتْ [٢]، فحمل فؤادي من الطَّرب على رَوْقِ اليعفورِ[٣] ، بل فَوْقَ جناحِ العُصفُور ، فكأنما رَفَعني الفَلَكُ ، أو ناجاني المَلَك ، جذلاً بما لو جاز تبدُّلُ الغريزة ، وتحوُّلُ النحيزةِ ، لنقلني من آلي العامَّة ، إلى عالي السامَّة[٤] ، نَقْلَ الكيمياء ما خالط من المزأبق الجايز ، إلى جُمْلَةِ النُّضارِ المايز[٥] » فانظر فالحذو الواحد يطالعك منذ الجملة الأولى في هذا المقطع « وبلغ وليه السلام الذي لو مر بسلمة وارية لأغدقت ، أو سلمة عارية لأورقت » ، ولكن الفرق بينه وبين ما يصنعه ابن العميد ، هو فرط عناية أبي العلاء بلغته ، واعتماده على الغريب في ذلك ، فبينما تجد ألفاظًا سهلة

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/ ١٥٦ .

(٢) السلمِه : هي واحدة السلام وهي الحجارة الصلبة ، الوارية : التي توري أي تخرج شررًا بالقدح ، أغدقت : تدفق ماؤها ، والسلمة : هي الشجرة من السلم وهو نوع من العضاة ، العارية : الجرداء أي أن سلامه لو مر بصخرة صلدة لتفجر منها الماء ، أو شجرة جرداء لبعثت فيها الحياة واكتست نضرة وورقًا .

(٣) الروق : القرن ، اليعفور : الظبي .

(٤) النحيزة : الطبيعة ، آلي : أهلي ، السامة : الخاصة . أي لو جاز تغير الطبائع لنقلني هذا السلام من طبقة العامة إلى الخاصة .

(٥) الجايز : الدرهم الذي يقبل على ما فيه من خفي الداخلة أو قليلها، النضار : الذهب ، المايز : المختلف المتميز بخلوصه .

قريبة المأخذ في الأغلب لدى ابن العميد ، تجد ألفاظًا أنت بحاجة لأن تنقر عنها في كتب اللغة لدى أبي العلاء ، فـ(السِّلِمة) الأولى هذه من الغريب ، وكان بإمكانه أن يقول «بصخرة وارية»، ولكن رغبته في اجتلاب الغريب وفي الجناس - لأنه يجانس بينها وبين(السلمة)الشجرة المعروفة جناسًا محرفًا- دعته إلى ذلك. وهذا هو ميسمه في الجناس الذي تحدثنا عنه في فصل سابق . وأنت تلاحظ بأن كل مفردة في الجملة الأولى تجانس مقابلتها في الثانية أو تقاربها بشيء شبيه بالجناس ، فبين (السلِمة ، والسلَمة) جناس محرف كما أسلفنا ، وبين (وارية ، وعارية) جناس لاحق ، أما (أورقت ، وأغدقت) فلا جناس بينهما وإن اتفقتا في أغلب الحروف وفي الوزن أيضًا، وهو شبيه بالجناس وإلم يكن هو، وهما في نفس الوقت السجعتان في هاتين الفاصلتين من كلامه . فهذا التجانس بين مفردات الجملتين يقابله لدى ابن العميد ترادف في الألفاظ أو شبه ترادف، فأنت معه أمام مراعاة النظير ، وسبب مراعاة النظير في كلامه أن الجملة الثانية تعيد صياغة المعنى الأول، فالمعنى واحد والألفاظ بنات هذا المعنى الواحد ، كما أقول ما أحسنك إذا فهمت ! وما أروعك إذا حصَّلت ! فالفهم أخو التحصيل ، والحسن أخو الروعة وهكذا .

بينما تجد هنا في هذا النص تجانسًا ظاهرًا يخفي اختلافًا باطنًا على سنن أبي العلاء في الجناس، فـ(السلمة) الصخرة تقابل (السلمة) الشجرة، وبينهما ما بينهما من فرق ، و(الوارية) التي تقدح فتخرج الشرر تقابل (العارية) الجرداء من كسوة الورق، ثم إنك تجد بين (وارية ، وأغدقت) بمعنى تدفق ماؤها شيئًا أشبه بالتضاد ، وكذلك بين (عارية ، وأورقت) تضادًا على الحقيقة ، ولا تغفل أن هذا الإلباس وهذا الإغراب من معناه ، ومن مقصده ، ومن مذهبه بمكان . وأنت ترى بعد ذلك ما بين « على روق اليعفور ، بل فوق جناح العصفور » من حذوٍ واحد، وجناس بين (روق ، وفوق) جناس لاحق ، وشبيه بالجناس بين (اليعفور ، والعصفور) ، كما أن (روق ، ويعفور) من الغريب ، ثم تجد الحذو بين « رفعني الفلك ، أو ناجاني الملك » ، ولكنه يكتفي هنا بأن يجانس بين السجعتين فقط جناسًا مضارعًا بين (الفلك ، والملك) ، ثم في قوله « تبدل الغريزة ، وتحول النحيزة »، وهنا يدع الجناس جانبًا ويكتفي باتفاقهما في الوزن ، ثم قوله « آلي العامة ، إلى عالي السامة » وبينهما جناس أبي العلاء الثنائي الذي أشرنا إليه في فصل الجناس ، فكل كلمة تجانس مقابلتها ، والجناس الأول جناس مضارع والثاني

لاحق. ولا أكاد أعد هذين الأخيرين من الحذو الواحد . فأنت ترى بذا أن أبا العلاء لم يقم على أن يأتي بنفس الحذو في أنساق لغوية تتراوح فيما بينها في الطول، وتكون عبارة عن ثنائيات متتالية تتصاقب وزنًا وبناءً كشأن ابن العميد ، وإنما تجده بعد هذا ينزع عن كلامه رداء الحذو الواحد، وينطلق من قيده، ويتحول كلامه إلى مجرد الاتفاق في الفواصل في مساحة نصية تمتد . فأنت ترى أمامك لغة مزج فيها أبو العلاء المجاز بالغريب، بالجناس، بالسجع، بالتشبيه، بغرابة المعنى، وطرافة الخيال ، كل ذلك ببراعة تامة، وهذا شيء وتحبير ابن العميد الذي رأيناه من قبل شيءٌ آخر . فنحن لا ننكر أنه يغلب على ابن العميد الاهتمام باللغة، حيث يصنع لغة وكلامًا أكثر تثقيفًا وتنميقًا، وأكثر صقلاً وأقرب إلى الحس اللغوي من الغور العقلي كما لاحظت إذا ما قورن بالجاحظ الذي يغلب عليه العفوية في اللغة والاهتمام بالفكر أكثر ، ومما يقربه في نفس الوقت من أبي العلاء =إلا أن البون بين تثقيف الرجلين وتحبيرهما بعيد كما رأيت !!

ولأزيدك بيانًا سأضعك أمام نصٍ لأبي العلاء واستحضر بإزائه كلام ابن العميد السابق الذي درسناه وتأمل الفرق ، وهذا النص من رسالته المنيح أيضًا يقول[1] : « وإنْ قيل : فلانٌ أديب ، وفلانٌ أريب ، فإن وفاقَ الأسماء ، لا يَمْنَعُ الفراقَ عند الرِّماء ، العَرَادَةُ سَمِيَّة الجرادة ، والذبابُ سَمِيُّ طَرَفِ القِرْضَابِ ، وقد تُدْعَى الثُّمَامَةُ جليلة ، وبعضُ الهامة قبيلة ، وليس كلُّ مُثَوِّبٍ مُبَشِّرًا ، ولا كلُّ مُتَثَائِبٍ مُؤَشِّرًا ، أعْرَضَ شَأْوٌ لا يُتَعَلَّقُ بِنَصَبِهِ ، وعَنَّ أَمَدٌ لا يُتْعَبُ في طَلَبِهِ ، وإنَّما نحكمُ بِثَمرِ الجبَّار ، لمن أصلَحَه في وَقْتِ الإبار ، وَيَصيدُ ظليمَ المقَّاء ، مَنْ زَهِدَ في ظليم السِّقاء ، نامَ واللّهِ اللاغبُ ، وأَدْلَجَ الرَّاغب :

تسـألني أمُّ وُهَيْبٍ جملاً   يَمْشِي رُوَيْدًا ويكونُ الأوَّلا

* * *

فأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ   مع الصُّبْحِ في أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ

وليس حُسْنُ الظاهرِ للمُتَظاهِرِ ، ولا البَهَارُ بالباهرِ ، ومن الزُّورِ ادِّعاءُ المشاءِ للنُّزُور ، وإنْ جُنَّتِ الرياضِ في الأنواض ، واعتمَّ العقيقُ بالشَّقيقِ ، فإن الأبارقَ لم تُبْسَطْ بالنَّمارِقِ ، والقَرِيُّ لم يُفْرَشْ بالعَبْقَرِيِّ » .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٦٥ – ١٦٦ .

أرأيت السجع ، والجناس ، والغريب ، والأمثال ، وسوق كلامه مساقها ، والمجاز ، والشعر ، والحذو الواحد ، كله في قالب واحد ، في نسق واحد ، هذا هو نحت أبي العلاء !! فأنت وإن منحتك معاني الغريب الوارد في هذا النص لن تصل إلى معناه إلا بعد معاناة ومساناة ، لأن أغلب الجمل هنا مسوقة مساق المثل ، وأنت تعلم بأن دلالة الأمثال بعيدة الغور خاصة إذا جهلناها كونها في الأغلب ليست من الأمثال المعروفة الموروثة ، وإنما هي صناعة علائية كما أرجح .

فأنت ترى إذًا أن ابن العميد يثقف وينحت وأن أبا العلاء يثقف وينحت ، ولكن ابن العميد المادة اللغوية والفكرية التي يثقفها مادة أكثر ليونة ، بينما المادة التي يثقفها أبو العلاء أكثر توحشًا وخشونة وغرابة ، فغرائب عقلية أبي العلاء أخرجت غرائب اللغة على لسانه !!

وكأن أبا العلاء عندما وجد فنون البديع قد شاعت في زمانه ، وشاعت معها الألفاظ القريبة الواضحة الجارية على ألسنة الناس ، ومن شأن البديع أن يسهل مع هذه اللغة السهلة = صاغ بديعًا من جلاميد اللغة ، بديعًا يعجز عنه الناس ، بديعًا يظل رهين هذا الغريب محبوسًا فيه كما كان أبو العلاء رهين محبسه ، أبو العلاء حبس المعاني في سجن الغريب ، وحبس أدبه عن الناس ، ولهذا لم يكتب لمذهبه البياني أن يتبناه أحد ، أو يكون له تيار في أدب العربية ، وتكون له مدرسة كما كان للجاحظ ولابن العميد لأنهم يسروا الثقافة واللغة والبديع ومذاهب البيان !!

ونعود لابن العميد فمن أهم مميزات مذهبه تنامي وامتداد مساحات المجاز في نصه ، وهذا لا تجده لدى الجاحظ وإنما تجده لدى أبي العلاء ولكن بشكل آخر ، ذلك أن الصورة لدى ابن العميد قد تمتد نعم ولكنها على الأغلب لا تنمو ، بينما تجد أبا العلاء ينميها وينقلك معها من حدث إلى آخر ، ومن مستوى في التخيل إلى آخر أبعد منه ، فمثلاً هنا في هذه الرسالة التي درسناها لابن العميد ظل الدهر ذاتًا إنسانية خلع عليها ابن العميد صفات الصديق الغادر الخؤون ، ولم يزد عندما امتد المجاز على أن عدد تلك الصفات منه فنقلك من واحدة إلى الأخرى ، ولكنك لم تر الدهر مثلاً بعد ذاك ناطقًا معاتبًا ، أو متحولاً إلى شيء آخر أو ما شابه ، فضلاً عن أن هذه الصورة ذاتها مبتذلة متداولة .

أما أبو العلاء فهناك حركة دائمة في صوره وأخيلته إذا ما امتدت ، فلو عدت

لتتأمل فضحة الفتاة مثلاً التي حللناها في مبحث تكوينات الجمل حيث يقول[1] : « يا فَضْحَةَ فَتَاةٍ قيلَ إنهَا بَيْضَاءُ ... » ثم يسترسل في وصف أو ذكر ما قيل فيها، ثم يبني على ذلك حدثًا ينقلك معه إلى جانب آخر من الصورة حيث يقول « فَلَمَّا كانَ الهِدَاءُ » ، ثم يرتب عليه حدثًا آخرًا « وُجِدَتْ على خِلافِ ذَلِك » ، ثم يعقب على ذلك بقوله « فإذا بياضُها سَوَادٌ رَائعٌ ... » ، وهنا بإذا الفجائية يجسد ويحضر لك لحظة المفاجأة ، ويعطف باقي الجمل عليها ، حيث يجعل ما قيل فيها بإزاء ما وجدت عليه ليكرر عليك لحظة المفاجأة ، وكأنك تنتقل معه من مفاجأة إلى أخرى . ثم هذه الصفات التي تفتق عنها خياله وهذه اللغة التي ضمنها إياها[2]، فقد خلق لك مسخًا مشوهًا خَلْقًا وخلْقة يقول : « فإذا بياضُها سَوَادٌ رائعٌ ، والنِّعْمَةُ جفاءٌ في الجسد شَائعٌ ، والحَوَرُ زَرَقٌ مُتَبَاينٌ، والغَيَدُ وَقَصٌ شَائِنٌ، وإذا هي سَفِيهَةٌ رَوَاد، لا يَشْعَفُ بوُدِّهَا الفُؤادُ »، فهناك نمو في الصورة وتجسيد عجيب للفضيحة كما ترى ، وأظهر منه ما كان من قصة الحمامة التي أشبعناها درسًا في نفس الفصل[3] ، والتي عادل بها شوقه ، وأنت ترى الأحداث تترى فيها ، يصف عالمها ، ويصف نعمتها ، ثم خروجها من وكرها ، ثم ضربة القدر لها ، ووقوعها في قبضة الوليد ، وإيداعه إياها في سجن ، ثم صورتها في ذلك السجن ، وتأملهاالصواحبها ساعة البكور ، ثم حديثها لأخيها ، وسؤالها عن فرخيها ، وإجابته عليها !!

ثم إنك مع هذا النمو لا تجد نفسك أمام أمور مألوفة ، تأمل وصفه لشوقه من رسالة الإغريض للوزير المغربي أبي القاسم [4]: « لأنَا آسَفُ على قُرْبِك من الغُرابِ الحجازيِّ ، على حُسْنِ الزِّي، لما أَقْفَرَ[5]، ورَكِبَ السَّفَر ، فَقَدِمَ جبالَ الرُّوم في نَوٍّ[6]، أَنْزَلَ البِرْسَ من الجوِّ[7] ، فالتفتَ إلى عِطْفِهِ وقد شَمِطَ فَأسي[8] ، وتركَ النَّعيبَ أو

(١) خليفة ، عبد الكريم : رسائل أبي العلاء المعري ، ٢/٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) راجع فصل (نمو المعاني وتكوينات الجمل وعلاقاتها) من هذه الرسالة ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٣) راجع نفس الفصل السابق ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٤) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٩٢ .

(٥) أقفر : أي صار في قفر من الأرض .

(٦) النو : ناء النجم إذا سقط ، وكانت العرب تنسب الأمطار إلى سقوط النجوم فيقولون : مطرنا بنوء السماك مثلاً .

(٧) البرس : القطن ، والمراد به هنا الثلج لأنه يشبهه .

(٨) عطفه : العطف جانبه من لدن رأسه إلى وركه ، شمط : الشمط بياض شعر الرأس يخالط سواده ، أسي : حزن .

نَسي، وهبطَ الأرضَ فَمَشَى في قيد ، وتمثَّل ببيتِ دُرَيْد :

صَبَا ما صَبَا حتى علا الشَّيْبُ رأسَهُ

فلما عــــلاهُ قـــال للباطـــــلِ ابْعَــدِ

وأراد الإيابَ في ذلك الجلباب ، فكره الشَّماتَ ، فَكَمِدَ حتى مات[1] » .

انظر ما تفتقت عنه مخيلة أبي العلاء هنا ، إنها قصة مشوقة يمتزج فيها الشجي بالسخرية ، فهذا غراب يرحل تاركًا وطنه إلى بلاد الروم ، فيصادف أجواءً لم يعتدها في بلاده تنزل عليه الثلوج من السماء ، ويحدث المستحيل فيشيب عطف الغراب بسبب « البرس الذي نزل من الجو » ، فيخرس من هول ما مُنِي به ، ويهبط الأرض ، ويودع التحليق ، ويمشي في قيد (يريد بذلك مشية الغراب) ، ثم يتحول غراب أبي العلاء إلى حكيم شاعر يتمثل ببيت دريد ابن الصمة !!

هذا هو النمو والانتقال من مستوى تخيلي إلى آخر ، فبعد أن كان غريبًا مسافرًا ثم حدث له ما لم يكن في الحسبان ، يظهر وكأنه إنسان تذهله الصدمة فيخرس لسانه ، ويدع الكلام ، ثم يدع الطيران أيضًا ، ثم يتمثل ببيت دريد ، فبدلاً من النعيب ينشد غراب أبي العلاء الشعر ، ويا للغراب كم متحت منه مخيلة أبي العلاء من صور تأسر وتستحق وقفة تأمل لنفهم الطبيعة التي يرمز لها هذا الطير في مخيلة أبي العلاء !!

ثم بعد ذلك يعزف غراب أبي العلاء عن العودة إلى دياره وقد شاب – كراهية الشماتة – فيموت غيظًا وكمدًا . وقد بلغ أبو العلاء بالشجي في هذه الصورة أقصاه وقتل به غرابه ، وكونه غراب أشيب ، يتمثل بأبيات من الشعر ، ويكره الشماتة فيموت كمدًا – فيه قدر غير يسير من السخرية المتكتمة ، أو لنقل الطرافة على الأقل ، ولكن ليس بخافٍ أن مبالغات أبي العلاء في خياله تتخام من بعيد حدود السخرية ، وهذا من أبرز خصوصيات لسانه .

إذًا فهذا الإغراب والنمو في الصورة هو ما يميز مخيلة أبي العلاء عن مخيلة ابن العميد ، فتشبيه الدهر بالإنسان أمر مألوف لم نرَ ابن العميد يطور في هذه الصورة شيئًا ما، فالفرق إذًا في المادة العقلية والنفسية التي يمتح منها أبو العلاء، فمخيلة الرجلين ذاتها تختلف ، فأنت غالبًا مع أبي العلاء لا تجد نفسك أمام صور مألوفة ، وإن كانت مألوفة فإن لسانه وعقله قادران على أن يخلقا من باطن الإلف

---

(١) الإياب : الرجوع ، الجلباب : الملحفة ، كمد : الكمد الحزن المكتوم .

والعادة الخارج عليهما ، كما فعل مع تصويره لسجع الحمائم في الرسالة السابعة التي بعث بها إلى خاله مطلعه من بغداد ، ففضّل حنين البشر على حنين الحمائم وتحدى بذلك المألوف ، واستخرج لك معانٍ لم تكن تراها في مثل هذا المقام ، من ذلك جعله طوق الحمامة – في صورة أخرى – ضرباً من حداد الحزينة بدلاً من أن يكون زينة لها ، وهذا أيضاً غير المألوف فيها ، إلى غير ذلك مما تعرضنا له في فصل مواقع إنما السابق[1] ، وكما رأينا في فصل المبالغة[2] في رسالة الهناء الماء يُفَرَقُ لغير الكليم ، والحيتان تجري في السهول والوديان كأسراب الربرب، والأرض والطرق تبتهل وتدعو !!

وكما تحولت على لسانه في رسالته المنيح قصائد الوزير المغربي إلى عصا موسى، وأذهان وقرائح أهل المعرة إلى معادل لتلك الحبال التي ألقاها السحرة[3] « ولما وردت مع عَبْدِهِ موسى تلك الغرائبُ المُؤْنِسَةُ ، والقلائدُ المُنْفِسةُ[4] ، كانت بمنزلة الآيات التسع التي ألقاها الرحمانُ على ابن عمران ، أَبْطَلَتْ كَيْدَ السُحَّار ، وعَصَفَتْ بهشيم الأشعار[5] ، وورد في ألواحه عَصَوان : الميميَّةُ والرائيّة[6] ، فوجد في وطنه أشباحَ أوزانٍ تَتَخَيَّل ، وأنقاءَ أذهانٍ تَتَهيَّل[7] ، (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) » .

فهذا الجموح والابتكار هو ما يميز مخيلة أبي العلاء ، وهو من سمت بيانه بمكان ، وهو ما تفتقده في صور ومخيلة ابن العميد ، هذه الجسارة على أن يركب صوراً غير الصور ، وأموراً غير الأمور ، وفي مواضع لم يُؤلف أن مثلها يأتي في مقامها ، كإسناد البشرى للغربان مثلاً ، إلى غير ذلك مما تراه ماثلاً في بيانه من رسائله الإخوانية موضع الدرس .

---

(١) انظر فصل (مواقع إنما في رسائل أبي العلاء) من هذه الرسالة ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر فصل (المبالغة في بيان أبي العلاء) من هذه الرسالة ، ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١٦١/١ .

(٤) المؤنسة : الباعثة للطمأنينة ، المنفسة : أي ذات قدر وخطر .

(٥) الهشيم : اليبيس من النبت والشجر .

(٦) يشير إلى قصيدتين أرسل بهما مع الرسالة الموجهة إلى أهل المعرة .

(٧) أنقاء : جمع نقا وهو كثيب الرمل ، تتهيل : تهيل من هنا ومن هنا ، وهو هنا يشبه انتاج أهل المعرة وعقولهم بالشيء الذي يتوسع ولا حقيقة له محددة كما كان شأن ما ألقاه سحرة فرعون .

وهذه الصور التي جاءت في تضاعيف رسائله لو تأملناها وجدناها من معدن صور الغفران . كله نزوع إلى الإغراب وخلق أحداث ، وخلق كوائن ، وصناعة قصص مع كل هذه الأحداث وكل هذه الكوائن ، وهذا نفسه ما تجده في حوار الصاهل والشاحج ، والحقيقة أن نثر أبي العلاء يجري فيه خيال واحد ، ويطبعه طابع واحد ، وتحركه هواجس متشابهة ، ومنازع لها طابع واحد ، هو الطابع العلائي الذي يجري في ذلك كله .

وأنا لا أدعي أن بيان أبي العلاء يخلو من مجازات بسيطة تشابه ما تراه في بيان ابن العميد ، وهذا ما يجعلك تجد بينهما تشابهًا أحيانًا، حيث تجد لأبي العلاء مجازات لا تتجاوز حدود الجملة الواحدة، وينتقل مع الجملة الأخرى إلى مجاز جديد كطريقة ابن العميد، من ذلك مثلاً قوله من رسالته المنيح واصفًا أثر بلاغة الوزير أبي القاسم في أهل المعرة فيقول[1] « وذلك أنَّهم بأَسَدِ البلاغةِ افْتُرِسُوا ، وبأسبابها عُقِدَتْ ألسنتهم عن الجواب فَخَرِسوا ، وكأنما قيل لهم (هذا يوم لا يَنْطِقُونَ ، ولا يُؤْذَنُ لهم فَيَعْتَذِرُونَ)، وإنما غرقوا في لجِّ التَبَانَةِ فصمتوا، وسمعوا صواعق الإبَانَةِ فخفَتُوا [2]، فَقَلَمُ كاتبهم عُودُ الناكت[3] ، وجوابُ بليغهم حَيْرَةُ السَّاكت » فكونه جعل للبلاغة أسدًا هو الوزير لا جديد فيه ، وأن يعقد البيان البليغ الألسنة عن الجواب فيصيبها الخرس أيضًا من المتداول القريب ، ولكن تشبيهه التالي ينبئك بأنك مع أبي العلاء حيث لا تفتأ مخيلته تمتح من نعيم الجنة، وعذاب النار، وصور المشهد، وقصص الأنبياء صورًا هي في رسائله موضع الدرس بمثابة بذور لذلك الذي تضخم في رسالته الغفران ، ثم يعود فيجعلهم غارقين في لج فطنته فيجعل لها لجة وهذا قريب ، ثم يهديه ذكر البحر واللجة إلى إكمال الصورة وإلم تكن ترتبط بها ، ولكن في الانتقال منها إلى ما هو منها بسبيل جمال وفطنة ودقة نظر ، حيث يجعل للإبانة صواعق تخفي أصواتهم وتخيفهم فيخفتون .

فأنت حتى على مستوى المجاز المفرد ذاته وليس المتنامي تجد أن معاني أبي العلاء أكثر ابتكارًا وتحررًا كما رأيت .

---

(١) عباس ، إحسان : رسائل أبي العلاء المعري ، ١/١٥٧ .

(٢) التبانة : الفطنة ، الإبانة : الفصاحة .

(٣) الناكت : الذي ينجث في الأرض بعود أو قلم وإنما يفعل ذلك لحياء أو شغل قلب .

الخاتمـــة

إذا كان سدمي منذ البدء إبراز أهم الخصوصيات البلاغية التي تحدد الأطر العامة لمذهب أبي العلاء في رسائله الإخوانية ، وإذا كان كل فصل من هذه الرسالة قد قام على دراسة خصوصية من هذه الخصائص - عدا الأخير الذي كان في الموازنة بين مذهبه من جانب ومذهب ابن العميد والجاحظ من جانب آخر - فإنني أستطيع أن أقول بأن هناك ست خصوصيات بلاغية هي الأبرز في بيان أبي العلاء في هذه الرسائل وهي التي تحدد طابعه وميسمه .

* فمن خلال الفصل الأول وجدنا أن من أهم خصوصياته البلاغية تعاطيه للمثل ، فهو أولاً يكثر من استخدام الأمثال كثرة لافتة لم أجد لها مثيلاً لدى من سبقه من المترسلين ، أضف إلى ذلك أنه قد يبني كلامه كله في معنىً بعينه على المثل والمثل فقط ، فيقابلك السياق الكامل ولم تتخلله جملة من الكلام المباشر ، وإنما هو أمثال متوالية متلاحقة يتكشف أبو العلاء في جمعه إياها عن قدرة فائقة في تأليف المختلف معنىً وبناءً ، فترى المثل يستقل في بيانه بمهام جديدة يقوم بها على أكمل وجه ، فقد استخدمه للقص ، وللوصف ، بل وأقام لغة من الحوار قوامها المثل فقط ، حوار مع الآخر وحوار مع الذات .

وقد رأينا كيف يتهيأ كلام أبي العلاء لفيض الأمثال هذا ، فلا يأتي إلا وقد عطَّش بيانه وأظمأه له ، فيتشربه ولا يغص به باختلاف طرقه لتحقيق ذلك .

وقد بلغت قدرة أبي العلاء على ترويض المثل كوسيلة بيانية حتى أصبح هو صانع أمثاله ، أمثال لا تكاد تميزها عن غيرها من الأمثال العربية .

* وقد رأيناه في الفصل الثاني ، يستخدم الجناس وله في استخدامه مهيع خاص ، ذلك أن جناسه جناس من ورائه طباق أو مفارقة ما ، فأبو العلاء عندما يجانس يبحث في أعماق اللغة عن لفظة تجانس لفظته وتفارقها في المعنى ، فيبسُّ الغريب بالقريب ، ويجمع الكلمتين المتشابهتين جداً في اللفظ ، المتباعدتين جداً في المعنى ، فتتآزر بذلك في صنعته الخاصة للجناس محاولة الطباق ، واستحضار الغريب بالإضافة للتجنيس .

وأبو العلاء في كثير من الأحيان لا يرضى بجناس المفردة الواحدة دون أن

يلحق بها أختها مجانسة ما يقابلها أو بها شيء من الجناس على الأقل ، وهذا ما أسميته في بيانه بالجناس الثنائي ، فتُجانِسُ كلمتان متتاليتان كلمتين أخريين على التوالي .

أضف إلى ذلك أن الجناس يتكاثر في بعض رسائله حتى يغدو تكاثره ظاهرة في حد ذاته لم نر لها مثيلاً في رسائل سابقيه حتى أولئك الذين لهم كلف بالجناس، فترى وتيرة الجناس ترتفع وترتفع حتى يصبح المقطع الكامل ولا تخلو جملة من جمله من جناسٍ ما ، ويحتشد بجوار الجناس الصريح شيء شبيه بالجناس وإن لم يكن هو ، وكأنه الجذور المكونة لهذا الجناس .

ونرى بيانه يتهيأ لفيض الجناس هذا كما كان يتهيأ لفيض الأمثال، فترى صنعته في الجناس تبدو وتختفي، ثم تظهر سافرة، ويسبقها جناس بسيط، يسبقه سجع أبي العلاء الذي هو بمثابة جذور الجناس وأصول النغم في كلامه، وشيئًا فشيئًا يتكاثر الجناس في الرسالة .

* ومن خلال الفصل الثالث رأينا أن أهم خصوصيات مذهب أبي العلاء هي المبالغة ، حتى أننا لا نتجاوز الحقيقة إذا ما قلنا بأنها الخصوصية الأم ، والجذر الذي تولدت منه أكثرخصائص أبي العلاء ، فأغلب خصائص أسلوبه جاءت في سياق خدمة المبالغة ، فكثير من الأمثال التي تزاحمت إنما كانت من ورائها المبالغة، وكذلك كثير من صور الجناس .

وقد اتضح لنا أن للمبالغة في بيانه صوراً متعددة ومختلفة أهمها :

أولاً : المبالغات التي تتغير معها حقائق الأشياء ، وقد رأينا كيف تسيطر فكرة التحول وإحداث التغيير في الأشياء على مخيلة أبي العلاء وبيانه ، وكيف جاوز بذلك الحد في مواضع كثيرة ، وقد وجدنا أن هذا التحول على الأغلب بين أمرين ، إما أن ترى فيه الأشياء وقد تحولت إلى أشياء جديدة مختلفة عنها تماماً ، فتتحول عين الماء في الصحراء إلى بازٍ طائر في السماء ، ويصير العنبر الرجل عنبراً من الطيب تهتضمه النار ، وتتحول الصخور الصلدة إلى طين خصب نابت !! وإما أن ترى فيه الأشياء قد سُلبت بعض صفاتها الملازمة لها ، أو منحت أخرى ليست في طبائعها ، فترى الوحوش وقد سلبت وحشيتها ، وما أودعته غرائزها من فتك وضراوة ، تجتمع بالظباء والآجال دون أن تؤذيها في مكان واحد ، وترى بئر الماء

يُظْهِر الحليب ، والنوق تُحْلَب العسل، والغراب يصير رسول بشرى !! هذا باختلاف المعنى الذي تخدمه فكرة التحول هذه .

ثانيًا : المبالغة في تحليل المشاعر والأفكار ، وقد وجدنا أن نفس أبي العلاء يمتد امتدادًا ملفتًا في معالجته لبعض المواضيع - على اختلافها وتنوعها - وهذا الوصف في حد ذاته لا يخلو من مبالغة، فيجتمع في هذا ونحوه نوعان من المبالغة ، المبالغة بامتداد نفس أبي العلاء في التحليل، والمبالغة في المعاني ذاتها التي يدرجها أثناء تحليله .

وقد كانت هذه المبالغات التي يمتد بها نفس أبي العلاء منفذًا لتفريعاته ولعرض آرائه النقدية والسياسية والاجتماعية - بطريقة خفية على الأغلب - فلكل مبالغة في بيانه سرٌّ دفين لا بد وأن ينقر عنه .

ثالثًا : المبالغة بالتعبير عن التأبيد، وقد أبدى أبو العلاء كلفًا شديدًا بالتعبير عن الدوام الذي لاينقطع، سواءً في تكراره للمعنى في كثير من رسائله، أو في محاولة ابتكاره لقوالب بيانية جديدة للتعبير عنه ، وأبو العلاء يستقي قوالبه للتعبير عن التأبيد من فنون شتى منها العلوم ، ومنها قوانين الطبيعة ، ومنها الممارسات الاجتماعية .

* وقد تبين لنا من خلال الفصل الرابع أن أباالعلاء أجرى هذه الكلمة الدقيقة في الاستعمال على الوجه الذي كان يجريها عليه أصحاب اللغة الأوائل وأصحاب الطبع الصحيح .

* وقد تبين لنا من الفصل الخامس ، كيف تتشابك جمل أبي العلاء ، وكيف ينادي بعضها البعض داخل القسم الواحد ، وكيف ينادي القسم الآخر ويرتبط به، وكأنه يصنع غابة من اللغة ليسكن أفكاره في سراديبها ومتعرجاتها ، هذا من حيث علاقات جمله ، أما من حيث معانيه فأولاً : المعنى عندما يتناوله أبو العلاء يتحول من معنىً مألوف إلى معنىً غير مألوف ، فالغرابة وإحداثها هي من سمت بيان الرجل ، وسبيله إليها الغريب من اللفظ، والغريب من الصياغة، والغريب من الخيال.

ثانيًا : أن حركة أبي العلاء بين معانيه في الرسالة الواحدة على الأغلب حركة غير نمطية فهناك دومًا قفزات علائية ، كما أنك تراه بين معانيه وكأنه يخطو الخطوة ليعود عنها، وكأن معانيه حلقات اتصلت بحلقات يُدخل بعضها في بعض حتى يُلبس علينا بأيها ابتدأ ؟ !

ثالثًا : أن مثل هذه القفزات بين معانيه بالإضافة إلى الأخيلة العلائية المجاورة

للواقع ، واللغة التي تحتشد بها فنون البديع والغريب والأمثال – كل ذلك من شأنه أن يربك قارىء أبي العلاء ، فيستسلم للجزئيات ، وينقاد لهذه الأفخاخ التي نصبها له أبو العلاء ، فيشغل عن مراده ، وربما أضلَّ هذا المراد ما لم يكن قارئًا تمرّس على لغة الرجل ، وألف خياله ، وعَرَف نَفسَه .

رابعًا: تَكَشَّف أبوالعلاء عن قدرة عجيبة على مطل معانيه وانباتها واستنباتها، وهذا يعود إلى أنه كلما هم معناه بالانتهاء نفث فيه أبو العلاء من روحه وطبعه فبعث فيه ما يمده ويمطله، وهو في هذا بين ثلاثة أمور على الأغلب : إما تراه محللاً مستقصيًا لشوارد فكرته وجوانبها ، أو ملحًا عليها إلحاحًا يريد به أن يرسخ لها ويبلغ بها الغاية ، أو تراه قد عَبَر بها معبرًا إلى آخر ليس منها، وإن كان عقله قد استطاع أن يجعله من لحمتها، فتجد من خياله مسوغًا ومبررًا لهذا الانتقال .

* وقد وجدنا من خلال الفصل السادس ، أن رسائل أبي العلاء لا تأخذ في ترتيب معانيها سمتًا واحدًا، وأن كل رسالة وكأنها سمت بنفسه وطريق برأسه ، ما عدا ما درج عليه في مفتتح بعض الرسائل من البدء بالدعاء أو صفة الشوق ، أو الصلاة والحمد ، على اختلاف بينها في الترتيب قلما يتكرر في أكثر من رسالتين .

وقد لاحظنا أنه كثيرًا ما يأخذ كلامه حذوًا واحدًا في بناء الجمل – بعكس بنائه لمعانيه – فهو يميل غالبًا إلى أن يجعل في بيانه أنماطًا متشابهة في الأسلوب، حتى ترى الجملتين المتتاليتين وقد بنيتا على طريقة واحدة في اختيار الكلمات ، بل وربما في أوزانها، وحركات إعرابها أيضًا .

وهذا التشابه في حذو الكلام يبعث في البيان توقيعات نغمية متقاربة ، وذبذبات صوتية كأنها في النثر معادلة للوزن في الشعر ، وليس بهذا فحسب يُحدث أبو العلاء هذا النغم والتوقيع، بل أيضًا بتقارب الزمن الصوتي لجمله وأجزاء جمله، مع ما يتخلل ذلك من الجناس وجذوره في لغته ، بالإضافة للسجع وتكرار بعض العناصر الصوتية مما يزيد النغم ويقوي الرنين .

* وقد اتضح لنا من خلال الفصل السابع (موازنات في المذهب البياني) أن مذهب أبي العلاء في رسائله مذهب متفرد متميز لايلتبس بمذاهب غيره ، وإن اشترك معها في بعض الأصول العامة إلا أنه يظل لأبي العلاء بصمته التي تميزه .

فإذا كان الجاحظ وأبو العلاء يشتركان في قدرتهما على إرباء الفكرة حتى تنداح في بيانهما في مساحات نصية طويلة ، فإن إرباء أبي العلاء لمعانيه ليس كإرباء الجاحظ ، فالأول إرباءه يحفه الغموض ، وتؤطره المبالغة ، وتأسره لغة صعبة متأبية ، والآخر يبرزه الوضوح ، وتبسطه لغة سهلة عذبة .

* أما ترابط جمل الجاحظ ومقاطع كلامه فهو ليس كترابط جمل أبي العلاء ومقاطع كلامه ، فالجمل تتداخل وتطول عند أبي العلاء حتى تستوفي الفكرة من غير أن يكون هذا الطول داخلاً في جملة واحدة، وإنما الترابط لديه ترابط معنى ، والذي عند الجاحظ ترابط معنىً وترابط إعراب .

* وإن اتفق الرجلان في الإغراب فإن إغراب أبي العلاء له شأن غير إغراب الجاحظ ، فبينما يكون إغراب الجاحظ في تحليله لقضية ما باقتناص أسبابها ، والبحث في كل أفق عن عللها ، فيفاجئك بمعان مطروحة بين يديك يجعلها أسباباً لقضايا لم تكن تظن أن لها بها علقة = تجد أن لغة أبي العلاء وخياله هما وسيلتاه للإغراب، فيتحول المعنى المألوف بين يديه إلى معنىً غير مألوف ، بالإضافة إلى أن هذا الخيال المجنح المغرب، وهذا التثقيف المبالغ فيه للغة يخلو منهما بيان الجاحظ بصفة عامة .

* وإن كان ابن العميد يثقف لغته ويصقلها كما يثقف أبو العلاء لغته ويصقلها ، إلا أن البون بين تثقيف الرجلين بعيد ، فالمادة اللغوية والفكرية التي يثقفها ابن العميد مادة أكثر ليونة ، بينما المادة التي يثقفها أبو العلاء أكثر توحشاً وخشونة وغرابة .

* وإن كان ابن العميد يشترك مع أبي العلاء في استرفاد مخيلته إلا أن صور ابن العميد صور مألوفة ، بينما صور أبي العلاء نامية متحركة وغير مألوفة .

* وابن العميد يتناول الفكرة ويمطل الكلام فيها لا عن طريق تنميتها وأخذها إلى جهات دون جهات كما هو شأن أبي العلاء ، وإنما عن طريق تقليب معناه على أكثر من وجه ، وأكثر من صياغة ، وأكثر من مجاز ، وكأنه يراوح مكانه ولا يتحرك.

* وإذا كان أبو العلاء وابن العميد يشتركان في وجود الحذو الواحد في بناء كليهما ، فإن أبا العلاء لا يقيم في كلامه على أن يأتي بنفس الحذو في أنساق لغوية

تتراوح فيما بينها في الطول ، وتكون عبارة عن ثنائيات متتالية تتصاقب وزناً وبناءً كشأن ابن العميد ، بل ينزع عن كلامه رداء الحذو الواحد وينطلق متحرراً منه ، ثم يعود إليه ، ثم يتحرر منه وهكذا ، صابغاً كل ذلك بصبغته الخاصة في الجناس الذي من ورائه طباق ، وتعمدٍ للغريب ، والذي يقابله وضوح المفردات ، ومراعاة النظير لدى ابن العميد .

هذا والله أعلم ،

والله من وراء القصد .

* * *

المراجع والمصادر

- ابن الأثير ، ضياء الدين بن محمد (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٥م .

- الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) ، تحقيق : السيد أحمد صقر، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٢م .

- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب (إعجاز القرآن) ، قدم له وشرحه وعلق عليه : الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠م .

- (تعريف القدماء بأبي العلاء) ، جمع وتحقيق الأساتذة : مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود ، عبد السلام هارون ، إبراهيم الإبياري ، حامد عبد المجيد ، بإشراف أ. د. طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م .

- تيمور ، أحمد (أبو العلاء المعري ، نسبه وأخباره ، شعره ، معتقده) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م .

- الجاحظ ، عمرو بن بحر :

- (البيان والتبيين) ، تحقيق : حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة .

- (رسائل الجاحظ) ، تحقيق : علي أبو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٥م .

- الجرجاني ، عبد القاهر :

- (أسرار البلاغة) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م

- (دلائل الإعجاز) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م .

- الجرجاني ، علي بن عبد العزيز (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، تحقيق : محمد أبو الفضل وعلي البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٦هـ .

- الجندي ، محمد سليم (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره) ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م .

- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (الخصائص) ، تحقيق : الشيخ محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين بن علي (المدهش) ، تحقيق : د. مروان قباني، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م .

- الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (زهر الآداب وثمر الألباب)، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية .

- الحطيئة ، جرول بن أوس : (ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت) ، تحقيق : النعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

- الحمصي ، محمد طاهر (أبو العلاء المعري، ملامح حياته وأدبه)، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .

- الخفاجي ، عبدالله بن سنان (سر الفصاحة) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م .

- الخوارزمي ، أبو بكر (رسائل أبي بكر الخوارزمي)، دار مكتبة الحياة ، بيروت، ١٩٧٠م .

- الدينوري ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة (كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ، الهند ،

الطبعة الأولى ، ١٩٤٩م .

- الذبياني ، زياد بن معاوية (ديوان النابغة الذبياني) ، تحقيق : محمد الظاهر عاشور ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦م .

- الرفاعي ، عبد العزيز (من عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب والموظفين) ، المكتبة الصغيرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م .

- الزمخشري ، جار اللّه محمود بن عمر (أساس البلاغة) ، حققه : د. مزيد نعيم، د. شوقي المعري ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .

- شاكر ، محمود محمد :

- (أباطيل وأسمار) ، مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م .

- (المتنبي – رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ، دار المدني ، جدة ، ١٩٨٧م.

- (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام) ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

- (نمط صعب ونمط مخيف) ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.

- أبو شاويش ، حماد حسن (النقد الأدبي الحديث حول شعر أبي العلاء المعري)، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م .

- (شروح سقط الزند) ، تحقيق : مصطفى السقا ، عبدالرحيم محمود ، عبد السلام هارون ، إبراهيم الإبياري ، بإشراف د. طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م .

- الصعيدي ، عبد المتعال (بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية ، بيروت .

- الطيب ، عبداللّه (المرشد إلى فهم أشعار العرب) ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة

الأولى ، ١٩٧٠م .

- عبادة ، السعيد السيد (أبو العلاء الناقد الأدبي) ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

- عبد الرحمن ، عائشة (مع أبي العلاء في رحلة حياته) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م .

- العبد ، عبد الحكيم عبد السلام (أبو العلاء المعري ونظرة جديدة إليه)، تمحيص نقدي حضاري وفني: دار المطبوعات الجديدة ، الاسكندرية، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله :

  - (جمهرة الأمثال) ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية .

  - (ديوان المعاني) ، عالم الكتب .

- العلايلي ، عبدالله (المعري ذلك المجهول ، رحلة في فكره وعالمه النفسي) ، دار الجديد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٥م .

- العلي ، عدنان عبيد (المعري في فكره وسخريته) ، دار أسامة، عمان – الأردن، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .

- عيسى ، فوزي (الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي) ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٨م .

- أبي الفرج ، قدامة بن جعفر(نقد الشعر)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (القاموس المحيط) ، تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي ، مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٣م .

- القرطاجني ، أبو الحسن حازم (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجه ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦م .

- القيرواني ، الحسن بن رشيق (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت .

- المصري ، ابن أبي الإصبع (تحريرالتحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) ، تحقيق : د. حفني محمد شرف ، الجمهورية العربية المتحدة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .

- المعري ، أبو العلاء أحمد بن عبدالله :

  - (ديوان لزوم ما لا يلزم « اللزوميات ») ، تحقيق : د . وحيد كبابه ، د. حسن حمد ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.

  - (رسائل أبي العلاء المعري مع شروحها) ، عالم الكتب ، بيروت .

  - (رسالة الإغريض وتفسيرها) ، تحقيق : د. السعيد السيد عبادة ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

  - (رسالة الصاهل والشاحج) ، تحقيق : د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م .

  - (رسالة الغفران) ، تحقيق : د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة العاشرة .

  - (رسالة الملائكة) ، تحقيق : لجنة من العلماء ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م .

  - (رسائل أبي العلاء المعري)، تحقيق : د. عبد الكريم خليفة ، اللجنة الأردنية للتعريب والنشر، عمان ، ١٩٧٦م .

  - (رسائل أبي العلاء المعري) ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م .

- (رسالة الهناء للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري)، شرح وتحقيق : كامل الكيلاني ، ذخائر التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م .

- (رسائل أبي العلاء المعري مع شروحها) ، عالم الكتب ، بيروت .

- (زجر النابح « مقتطفات ») ، جمع وتحقيق : د. أمجد الطرابلسي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .

- (عبث الوليد : في الكلام على شعر أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري) ، تحقيق : ناديا علي الدولة ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٧٦م .

- (الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ) ، تحقيق : محمود حسن زناتي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

- (معجز أحمد) المنسوب لأبي العلاء ، تحقيق : عبد المجيد دياب ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م .

- ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم (لسان العرب) ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤م .

- المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م .

- أبو موسى ، محمد محمد :

- (الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

- (التصوير البياني ، دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٣م .

- (دراسة في البلاغة والشعر) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .

ـ (دلالات التراكيب – دراسة بلاغية) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م .

ـ (شرح أحاديث من صحيح البخاري – دراسة في سمت الكلام الأول)، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م

ـ (قراءة في الأدب القديم) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م .

ـ (مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .

– الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد (مجمع الأمثال) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٩٢م .

– الميمني ، عبد العزيز (أبو العلاء وما إليه) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م .

الفهرس التفصيلي للموضوعات

In the name of Allah, the Compassionate the Merciful

Dissertation Title: *Specific rhetoric attributes in Abi-Al-A'alaa brethren epistolary writings*
Researcher' s Name: **Neda Thabet Al-Araabi Al-Harthi**
Desired degree: **(M.A) Master Degree**

An Abstract

Praise be to Allah, the Lord of the worlds and peace and blessings of Allah be upon the noblest of the Prophets and Messengers, our Prophet Mohamed.

This research was developed out of a lengthy material obtained from various sources and entitled " *Specific rhetoric attributes in Abi-Al-A'alaa* brethren *epistolary writings*" **This thesis is intended to explore** ***Abi-Al-A'alaa's*** **definite method in epistolary writing with the aim of pinpointing the key stylistic qualities that set his writing approach distinct from his contemporaries. Undoubtedly, his specific technique is an essential part of his psyche. Varied types of writing would certainly emerge from different human minds. However; it is a bit difficult for us as researchers or readers to identify these idiosyncratic features of a writers' specific method of writing except when we avail ourselves critically to the images, syntactic and semantic structures as seen in texts composed by these writers. This is largely because much of the writer's production is deeply rooted in his intellectual and psychological state of mind.**

The researcher investigated thoroughly the key factors distinguishing this scholar from the writers of his time. This study falls in seven chapters. Each chapter sheds light on a specific trait or stylistic feature.

Chapter One: This chapter deals with the adages or maxims that express general truth as associated with people's life and as experienced by the writer. Chapter Two: This is a fairly linguistic part which seeks to highlight specific linguistic concepts such as puns or assonance. Chapter Three: Linguistic exaggeration seen as a desired skill for good writing is explored in this chapter. Chapter Four: This part explores the different uses of the Arabic coherent and contrastive devise " however" throughout his epistolary writing. Chapter Five: This chapter investigates how semantic structures develop throughout the texts and loom to convey a clear coherent description. Chapter Six: The method of stylistic and semantic structures followed in establishing a logically connected text is probed in this chapter. Chapter Seven: Intended to strike a sense of balance between the different styles of writings particularly between Al-Jahidh and ***Abi-Al-A'alaa.*** **It is a contrastive approach.**

The seven axes shown above have been used to form the framework for this study and to outline the general principles for the discussion of the most important and specific features of ***Abi-Al-A'alaa's*** **method of writing. This great man of letter is best seen through his distinct style in phrasing wise sayings. He usually starts by establishing the maxim and then goes on to develop it through the use of the known writing techniques which were not then accessible to any writer. Such techniques include: dialogue, description, narration and so on.**

Hence, he is considered by many to be an inventor of a multitude of proverbs. Different types of linguistic features such as puns , rhetoric, circumlocution and assonance were easily detected in his writing style. Therefore; he was known to be fond of using unusual linguistic contents that are intended in their own rights.

His exaggerated style is strongly prominent and felt throughout of his writing. Embellished images are arrived at by a vivid description and employment of an indomitable imagination.

To fathom the depth of his writing is not an easy affair or readily accessible to anyone. ***Abi-Al-A'alaa*** **starts by making an unclear hint and moves swiftly away leaving the reader busy in joining the shattered images to form a sensible whole.** ***Abi-Al-A'alaa*** **was inclined to creating similar linguistic patterns in terms of rhyme and structures. However; what distinguishes his style of writing is his weird and wonderful ambiguous technique. He makes his reader wander in an extremely unusual worlds. This situation is arrived at by the application of a more poetic diction to a greatly prose-like context, in away that is only accessible to very few experienced persons and veteran type of writers.**

Researcher' s Name: **Neda Thabet Al-Araabi Al-Harthi**

Supervisor: **Prof. Mohammad Mohammad Abo Mousa**